

الشعر العراقي

في القرن السادس الهجري

مؤلفه عبد السوادي

الشعر العراقي في القرن السادس الهجري

ادبيات

عرب

—

٥

٢٢

الجمهورية العراقية

وزارة الثقافة والإعلام

دار الرشيد للنشر

١٩٨٠

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والإعلان

دار الطليعة للطباعة والنشر
ببيروت

العر: ٤٥٠ فلسًا

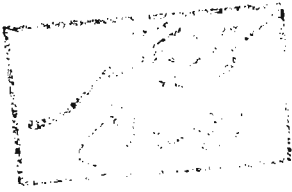
دار
الرشيد للنشر

منشورات وزارة الثقافة والاعلام - الجمهورية العراقية

سلسلة دراسات

١٩٨٠

(٢١٥)



الشعر العراقي في القرن السادس الهجري

منهجه عبد السوفلاني

المقدمة

على الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت الادب العباسي، فإن الباحث يجد ان الاكثريّة المطلقة من الباحثين انصرفوا الى الفترات المتقدمة من العصر العباسي كالقرن الثاني والثالث والرابع، حتى اذا وصلنا الى اواخر القرن الخامس وما بعده فسوف تشح الابحاث وتندر، وهذا القليل النادر منها لا يتناول سوى بعض اعلام النحاة كابن الشجري وابن الخشاب.

ان صعوبة الوصول الى بعض مصادر الفترة الاخيرة من الدولة العباسية، وكذلك المستوى المتواضع الذي يغلب على شعرها، لا يبرران هذا الاهمال الذي لقيته من جمهور الدارسين والباحثين.

لقد حاولت في رسالتي هذه ان اصل ما انقطع من دراسات عباسية، فبذلت ما استطيع كي اعرف الناس على حال الشعر العربي العراقي قبل سقوط دولة بني العباس سنة ٦٥٦ هـ.

ان حدود العراق في القرن السادس تختلف عن حدوده في العصر الحديث وخاصة من ناحيتي الشمال والجنوب، فياقوت الحموي (المتوفى ٦٢٦ هـ) يحدد العراق في ايامه قائلا: «... اول العراق في شرقي دجلة العلت^(١)... وفي غربي دجلة حربي^(٢)» ثم تمتد الى آخر اعمال البصرة من جزيرة عبادان... ومن العذيب بالقادسية^(٣) الى حلوان^(٤)... «^(٥)، وابن الاثير (المتوفى ٦٣٠ هـ) يشير الى أن العراق هو المسافة الممتدة بين البصرة وتكريت^(٦)، وهذا التحديد للعراق من الناحية الجغرافية يفهم ايضا من

(١) موقعها بين عُكْبَرَا وسامراء. معجم البلدان ٦/٢٠٩.

(٢) موقعها بين بغداد وتكريت.

(٣) أي قادية الكوفة لا قادية سامرا. معجم البلدان ٧/٦.

(٤) موقعها في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد.

(٥) معجم البلدان ٥/١٥٩.

(٦) الكامل في التاريخ ٨/٣٠٥ (ط. الاستقامة)، وانظر ايضا حول هذا الموضوع: نصرة الفترة ٢٦١،

الفخري ص ٣١٢ (ط. دار صادر).

تقسيمات العماد الكاتب (المتوفى ٥٩٧ هـ) في الخريدة، لأن القسم العراقي منها لا يحتوي على شعراء الموصل ونواحيها.

وبعد تحديد العراق لا بد من تحديد المراد بالشعر العراقي .

ان اعدادا غفيرة من الناس في الفترة التي ادرسها قضت فترات طويلا تطلب العلم في العراق، واستقر بعضها فيه بعد انتهاء مرحلة الدراسة، كذلك هجرت العراق، لاسباب كثيرة، طوائف من العلماء والادباء الى الاقطار المجاورة واستقرت فيها، فكيف نعرف الشاعر العراقي؟

لقد اخترت في هذا الموضوع المبدأ الذي التزم به العماد الاصفهاني في خريدته، وهو ان العراقي كل من ولد في العراق، وان ترك العراق بعد ذلك ومات في بلاد اخرى.

ان القرن السادس الهجري يبدأ من الناحية التاريخية سنة ٥٠٠ هـ، وينتهي سنة ٥٩٩ هـ. أما من الناحية الادبية فان الامر يختلف والآراء تتباين، على الرغم من الاجماع على ان الظواهر الادبية لا يمكن اخضاعها لاحداث التاريخ وسنواته. وقد اخترت مذهباً وسطاً فبدأت سنة ٥١٦ هـ حتى اواخر سنة ٦١٦ هـ، ولم أتجاوز هذين التاريخين الا نادراً حين اجد ان التاريخ يكاد يحنق الفن.

اما منهج الدراسة فقد ساهمت في اختياره عدة اعتبارات منها طبيعة المادة الشعرية وتنوعها، ومنها ان الرسالة كتبت عن فترة تكاد تكون مجهولة المعالم غير واضحة السمات، ولذلك حاولت ان اجمع بين دراسة شخصيات الشعراء المختلفة والتيارات أو الاتجاهات الشعرية البارزة.

ومن اصول البحث العلمي ان تدرس الناحية التاريخية التي احاطت بنتاج الادباء. وقد يختصر بعضهم هذه المقدمة التاريخية اختصاراً، وربما مال بعضهم الى اسقاطها وحذفها اذا كان العصر واضحاً بينما قد كثرت الدراسات التي تناولته، وهو امر لا ينطبق بأية حال من الاحوال على القرن السادس.

فالفصل الأول - وهو ثلاثة اقسام - دراسة تاريخية للفترة ومحاولة لفهم الاحداث والظروف التي كانت سائدة يومذاك.

لقد درست في الناحية السياسية كيف استقل العراق عن السلطة السلجوقية بعد سنة ٥٤٧ هـ، بفضل جهود الخليفة المقتفي لامر الله (المتوفى ٥٥٥ هـ) ومساعدة وزيره عون الدين يحيى بن هبيرة (المتوفى ٥٦٠ هـ).

وفي الناحية الاجتماعية درست اثر السياسة السلجوقية في افقار العراق، ومدى الدور الذي لعبه العيارون في نشر الفوضى بين صفوف الناس، وصلة القبائل العراقية بالخراب والدمار الذي اصاب المدن العراقية في تلك الفترة.

وفي ختام هذا القسم اشرت الى ما عرف به بعض القادة العباسيين من ظلم وجبروت كان له اثره في قصائد الشعراء ونفوس الناس.

وفي القسم الثقافي من الناحية التاريخية هذه درست اهم الظواهر الثقافية في القرن السادس، فدرست التعصب المذهبي والعلمي، وأوضحت التطور الكبير الذي اصاب حركة التأليف، ثم عرجت على انشاء المساجد والمدارس والدور الكبير الذي كان لها في الجانِب الثقافي، على الرغم من التعصب المذهبي الذي رافق ذلك. وختم الفصل الاول بالاشارة الى الربط ومكانتها في الناحية الثقافية.

اما الفصل الثاني فهو استعراض عام لاشهر شعراء القرن السادس مع بيان الاتجاه العام لكل منهم.

ففي القسم الاول منه درست اشهر المحافظين من شعراء القرن السادس وهو الحيص بيص (المتوفى ٥٧٤ هـ) الذي يمثل رافدا شعريا فريدا في تلك الفترة.

وفي القسم الثاني درست شعراء «المحافظة الجديدة» كالابله البغدادي (المتوفى ٥٧٩ هـ) وابن المعلم الواسطي (المتوفى ٥٩٢ هـ).

وفي القسم الثالث من هذا الفصل حاولت الالام باشهر من نظم الشعر من رجال الطبقة العليا العباسية كالحلفاء والوزراء وامراء بني مزيد وآل ابي الجبر.

اما القسم الرابع والاخير من الفصل الثاني فقد درست فيه شعر العلماء كالنحاة المؤرخين والاطباء وعلماء الفلك، وقد وقفت عند المبالغات التي ردها المؤرخون عن شعر بعض العلماء من ناحيتي الجودة والكثرة.

ولا يخفى ان كبار القادة وكذلك العلماء ليسوا من الشعراء المحترفين ولكن اسقاطهم من بين شعراء الفترة يخل بالصورة العامة التي احاول ان ارسمها للحركة الشعرية في القرن السادس وفنونها المتباينة المختلفة.

وفي الفصل الثالث درست اشهر اغراض الشعر المحافظ وهي المدح والهجاء والغزل والرثاء.

ففي المدح وقفت عند العوامل التي أثرت في هذا الفن، ثم درست تطور هذا النوع

من الشعر في القرن السادس من ناحيتي الشكل والمضمون، وبينت اهم عيوب المدح في هذه المرحلة.

وحين درست الهجاء، نظرت في اقسام المهجوين وضروبهم اعتمادا على النصوص المتوفرة، ودرست اساليب الهجاء ومعانيه.

وفي دراسة الغزل وجدته على ضريين: الاول الغزل الذي اعتاد الشعراء ان يبدأوا به قصائد المدح، والثاني هو الغزل الذي ينظم ليغنى به. ومن خصائص الغزل التي وقفت عندها غلبة التقليد عليه وندرة التجديد.

وقد ختم هذا الفصل بدراسة الرثاء وهو فن قصر شعراء القرن السادس فيه عن اسلافهم تقصيرا بينا.

وفي الفصلين الرابع والخامس درست اهم تيارين في الشعر المحافظ وهما التيار الديني والتيار المضاد له اعني شعر الخمر والمجون.

اما الاتجاه الديني فقد درسته من ثلاث نقاط هي السياسة، والفكر، والدين المجرد، وهذا القسم الاخير يشمل مدح الرسول ﷺ والتصوف.

وعندما درست شعر الخمر في الفصل الخامس اشرت الى دور التقليد والمحاكاة في احتلال بنت الحان لرقعة واسعة من ادب الفترة، ثم درست الخمر وكذلك الغزل بالمدح من ناحيتين اثنتين هما مقدمات قصائد المدح، وتلك المقطوعات المستقلة عن المدح.

وفي خاتمة الفصل الخامس درست المجون واشرت الى ان المؤرخين ربما وصفوا بعض الشعراء بالمجون او السخف وغيرهم احق منهم بهذه الصفة، ثم لاحظت ان كثرة الشعراء الماجنين تقابلها شحة في النصوص المتوفرة.

اما الفصل السادس والآخر من الرسالة فهو الدراسة الفنية.

ولا بد من الاشارة الى انني افردت هذا الفصل الاخير للجوانب الفنية العامة التي لا تخص فنا او شعرا بذاته، وبعبارة اخرى ان الجوانب الفنية للفنون الشعرية مثل المدح والهجاء والغزل ذكرت عند دراسة هذه الفنون فلا موجب لتكرارها في نهاية الرسالة. وفي اعتقادي ان تأجيل الدراسة الفنية كلها الى نهاية الرسالة يساعد على تفكيك الموضوعات المتصلة ويجعل الموضوع الواحد اشلاء مبعثرة.

الفصل الأول
دِرَاسَةُ الْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ
فِي الْعِرَاقِ فِي الْقَرْنِ السِّكَاذِسْ

(الحياة السياسية)

قبل دراسة الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في العراق طوال القرن السادس الهجري، لا بد من الاشارة الى ان هذه الدراسة ستكون موجزة، سريعة، لا تستهدف التفاصيل، ولا تنشئد الاحاطة والشمول، فلست من رجال التاريخ، وانما سأحاول الوقوف عند النواحي التاريخية التي كان لها اثر مباشر أو غير مباشر على الجوانب الأدبية، اذ لا يمكن ان نفهم الأدب بعيدا عن الحياة المحيطة به.

يمكن أن نلاحظ فترتين مختلفتين في التاريخ السياسي العباسي في المائة السادسة، هما الفترتان اللتان تفصل بينهما وفاة السلطان السلجوقي مسعود سنة ٥٤٧ هـ، لقد كان خليفة بغداد قبل هذه السنة لا حول له ولا قوة، وانما كل شيء بيد السلطان السلجوقي. وقد حكم خلال فترة الضعف والتبعية هذه: المستظهر بالله «٤٨٧-٥١٢ هـ»، وابنه المسترشد بالله «٥١٢-٥٢٩»، والراشد بالله «٥٢٩-٥٣٢»، ابن المسترشد بالله، ثم المقتفي لامر الله «٥٣٢-٥٥٥». الذي نهض العباسيون في اواخر عهده، واستطاعوا التخلص من السيطرة السلجوقية. اما فترة القوة والاستقلال، فقد تولى الخلافة فيها- باستثناء المقتفي لامر الله- ابنه المستنجد بالله «٥٥٥-٥٦٦»، والمستضيء بأمر الله «٥٦٦-٥٧٥»، ابن المستنجد بالله، ثم الناصر لدين الله «٥٧٥-٦٢٢»، ابن المستضيء وقد بلغت السلطة العباسية غاية قوتها ايام الناصر، وبه ختم خلفاء بني العباس العظام.

وسأبدأ بدراسة الفترة الاولى «٤٨٧ - ٥٤٧»:

كان العراق طوال هذه الفترة اقلية تابعا للامبراطورية السلجوقية، وكان الخليفة العباسي موظفا يتلقى الأوامر من رئيسه الاعلى سلطان السلاجقة في إيران، وكان في بغداد سلطتان: سلطة الخليفة، وهي ضعيفة واهية، وسلطة نائب السلطان، وهي القوة الحقيقية المؤثرة.

اما العلاقة بين الخليفة والسلطان، فيمكن تصورها من قول العماد الإصفهاني: «وكان اهون ما عندهم - سلاطين السلاجقة - خلاف الخليفة وعناده، وتغردهم عليه بأن

يحصل مرادهم لمراده . . . ولهم مطالب من الديوان العزيز، لا يفي بها خواصه، ومغارم تلحقها منهم، يتعسر منها خلاصه، والحرم من جنائياتهم خائف . . والرعية مروعة، والسعاية مسموعة، فلا الدين يزعمهم، ولا العقل يردعهم، ولا الحياء يمنعهم، ولا القليل يقنعهم، ولا الكثير يشبعهم^(١) .

وكان الخليفة لا يتخرج من الخطبة ببغداد لسلطانين سلجوقيين في وقت واحد^(٢)، وعلى وزير الخليفة أن ينال رضى السلطان والاعزل، كما حدث لظهير الدين، ابي شجاع، محمد بن الحسين الهمداني، وزير المقتدي. فقد طلب السلطان من الخليفة عزله، فخرج توقيع الخليفة بذلك، وانصرف الى داره، وهو ينشد:

تولاهما، وليس له عدو وفارقها، وليس له صديق^(٣)

وكما يعزل السلطان وزراء الخليفة متى شاء، كذلك له ان يأمر الخليفة باسناد وزارته الى من يحب، كما حدث في استيزار احمد^(٤) بن نظام الملك^(٥).

ونتيجة لهذا كله، صار اصحاب السلطان هم المتنفذون، وليس لأحد أن يقف في وجوههم، وصارت اوامر الخلفاء حبرا على ورق، حتى قال أحد الحجاب:

خليفة الله، قد وقعت لي كرما بذلك الرسم^(٦)، لكن من يسلمه؟
وكل من جئته بالصك، ينبذه نبذ الحصاة، كأن الصك يشتمه
فأه، ان كان هذا قد علمت به وآه، ان كان هذا لست تعلمه^(٧)

ولكن رغم هذا كله، ظلت سلطة الخليفة المعنوية كبيرة، وخاصة على اولئك البعيدين عن بغداد، الذين لا زالوا ينظرون الى الخليفة باعتباره الرئيس الديني الاعلى^(٨).

واذا تركنا بغداد الى منطقة الحلة، وجدنا اميرها صدقة بن منصور المزيدي المعروف

(١) نصرة الفترة: ٢٥٩

(٢) المنتظم ٢١٦/٩، شذرات الذهب ٨٧/٤

(٣) الفخري ص ٢٩٨ (ط. دار صادر).

(٤) وزير للمسترشد، فشكرت سيرته، ولم تطل ايامه فتوفي سنة ٥٤٤ هـ.

ابن الاثير: ٦٠/١١، الفخري ص ٢٧٣ (ط. الموسوعات).

(٥) المنتظم ٢٣٤/٩ - ٢٣٥

(٦) يشبه المرتب، ولكنه يدفع في كل سنة عادة.

(٧) الحريدة/ نسخة ايران ١٨٤

(٨) المصدر السابق، وانظر الفخري ص ٣٢ (ط. دار صادر).

بسیف الدولة، قد عظم شأنه وعلا قدره، واستجار به كل خائف من خليفة او سلطان، وكان كثير العناية بأمور السلطان محمد والتقوية ليدہ ضد اخیه برکیارق، حتی انه جاهر هذا الاخير بالعداوة، فزاده السلطان محمد اقطاعا من جملته مدينة واسط، واذن له في أخذ البصرة. ولكن هذه العلاقة المتينة بين السلطان والامير ما لبثت ان تكدرت، فقامت الحرب بينهما بسبب ايواء صدقة لسرخاب الديلمي صاحب ساوه^(١) وأبه، الذي استجار بالامير المزيدي، وقد قتل في تلك الحرب اكثر من ثلاثة آلاف، منهم الامير صدقة نفسه^(٢). وكان من اثر هذه الحرب ان وزعت بلاد بني مزید على الاكراد والأتراك، حتی اقطعوا اكثر مما يستحقونه، فقال خال^(٣) مهذب الدولة ساخرا:

فقد كثر الاقطاع، حتی اظنه سيقطع كلب بالجزيرة أو هر
سلام على مال العراق، فانه مضى حيث لا نفع لذلك ولا خسر
فشطر لا تراك، ومن دونها النهر وشطر لاكراد، ومن شانها الغدر
وشطر لكتاب، وما فيهم صدر وشطر لحجاب، وما بهم فخر
وشطر لصبيان اليتامى، ونسوة أيامی^(٤)، وما في بر اكثرهم أجر^(٥)

وقد عفا السلطان محمد عن دبیس بن صدقة، بعد ان وعده بالمحافظة على الهدوء وعدم الفساد. ولكن الامير المزيدي ما لبث ان هدد الخليفة المسترشد بالله انه سيخرب بغداد. فسار الخليفة لقتاله، ودارت الدائرة سنة ٥١٧هـ. على دبیس، ففر، بعد ان وقع عدد كبير من جنوده في الاسر^(٦). ولم تطل فرحة الخليفة بانتصاره على دبیس، اذ وجد نفسه يتجهز لقتال السلطان مسعود. بعد ان قطع الخطبة له على منابر بغداد. لان هذا السلطان قد آوى دبيسا، عدو الخليفة اللدود، فالتقى الجيشان سنة ٥٢٩هـ في معركة خسر فيها الخليفة، فحمل أسیرامع السلطان الى مراغة^(٧)، حيث قتل، واشاع السلطان ان دبيسا هو

(١) قال ياقوت في معجم البلدان ٢١/٥: «ساوه مدينة حسنة بين الري وهمدان. . . وبقرها مدينة يقال لها آوه، فساهو سنية

شاعية وآوه اهلها شيعة امامية، وبينها نحو فرسخين. . . ومن نص ياقوت هذا لعل «أبه» مصحفة عن «آوه».

(٢) المنتظم ١٥٦/٩ - ١٥٧

(٣) هو الصارم مرجى بن بناء البطاحي، قال العماد يصفه: من فحول الشعراء، واعيان الفضلاء، غير انه كان هجاء. . .

الخريدة ٥٣٢/٤. اما مهذب الدولة فهو احمد بن محمد بن ابي الجبر، ملك البطيحة - وتقع بين واسط والبصرة - ترجم

له العماد بايجاز شديد، ولم يذكر سنة وفاته. الخريدة ٥٢٥/٤ - ٥٢٨.

(٤) أيامي: لا أزواج لمن.

(٥) نصرة الفترة ١٠١ - ١٠٢، وانظر الخريدة ٥٣٤/٤ - ٥٣٥

(٦) المنتظم ٢٤٢/٩ - ٢٤٣، الكامل: ٢٣١/١٠

(٧) مراغة (وقد تعرف بال): اعظم بلاد اذربيجان وأشهرها. . . (معجم البلدان. . . مراغة).

الذي قتله، ولكي يؤكد السلطان التهمة على ديبس، امر بقتله (١).

ولم يكتف السلطان مسعود بقتل الخليفة، بل «... بعث فأخذ جميع ما كان في دار الخلافة من خيل وبغال واثاث وذهب وفضة... ولم يترك في اصطبل (٢) الخاص سوى أربعة رؤس من الخيل، وثلاثة من البغال برسم الماء (٣)».

وبعد مقتل المسترشد، بويع ابنه الراشد بالله سنة ٥٢٩ هـ، فحاول الأخذ بثأر أبيه، وجهاز جيشا لمحاربة السلطان مسعود، فتوجه هذا الأخير الى بغداد - حين علم بنية الخليفة - فدخلها دون مقاومة، لان الخليفة تركها متوجها الى الموصل، فاحضر السلطان الفقهاء والقضاة وخوفهم وهددهم ان لم يخلعوا الراشد بالله، وكتب محضرا فيه: ان ابا جعفر بن المسترشد بدا من افعاله وقبح سيرته وسفكه الدماء المعصومة وفعل ما لا يجوز ان يكون معه اماما، فبويع المقتفي لامر الله سنة ٥٣٠ هـ (٤).

وهكذا وجد خليفان في آن واحد: احدهما الراشد بالله في الموصل، والآخر المقتفي لامر الله في بغداد. ولكن الاول ما لبث ان قتل في اصفهان سنة ٥٣٢ هـ، باشارة من السلطان مسعود، فخلا الجو للمقتفي لامر الله (٥).

وحين توفي السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ، بدأت المرحلة الجديدة في تاريخ الفترة التي ادرسها، وهي مرحلة الاستقلال عن السلطة السلجوقية. لقد نجح المقتفي لامر الله، بتأييد ومساندة من وزيره عون الدين يحيى بن هبيرة، ان يتمرد على سلطان السلاجقة، فحكم العراق - لأول مرة - من اقصى الكوفة الى حلوان (٦)، ومن حد تكريت الى عبادان (٧).

وفي اواخر سنة ٥٤٩ هـ، انتصر جيش الخليفة - لأول مرة - على جيش السلاجقة في موقعة «باجمزي»، على مرحلتين من بغداد، فاكشف العراقيون ان الجيش السلجوقي يحس أن يدحر (٨)، ولم تمض ايام حتى اجبر سليمان شاه السلجوقي على تقبيل عتبة «باب

(١) نصرة الفترة ٢٠٤ - ٢٠٥، وانظر الخريدة ٢٩/١ - ٣٠، المنتظم ٤٥/١٠.

(٢) كذا بالاصل، ولعل الصواب (الاصطبل الخاص).

(٣) المنتظم ٦٧/١٠.

(٤) المنتظم ٦٠/١٠، ابن الاثير: ١٧/١١.

(٥) وفيات الاعيان ٢٨٨/٤.

(٦) موقعها في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد. (معجم البلدان... حلون).

(٧) نصرة الفترة ٢٦١، الفخري ص ٣١٢ (ط. دار صادر).

(٨) نصرة الفترة ٢٦٥ - ٢٦٧، ابن الاثير: ٧٩/١١.

النوبي»^(١) بدار الخلافة، فكان بذلك اول سلطان سلجوقي يفعل ذلك^(٢).

وفي سنة ٥٥٢ هـ زحفت جيوش السلطان محمد على بغداد، تؤيدها جيوش امير الموصل، في محاولة لارجاع العراق الى السلطة السلجوقية، واستمر الحصار مدة طويلة، حتى أن صلاة الجمعة لم تقم في جوامع بغداد - باستثناء جامع القصر - لمدة سبع جمع، وكان للوزير عون الدين بن هبيرة يد طويلة في دفع المحاصرين عن بغداد، وتشجيع اهلها على القتال والصمود، حتى تفرقت الجموع وعاد السلطان خائبا^(٣).

وبعد وفاة المقتضي لأمر الله سنة ٥٥٥ هـ، بويع ابنه المستنجد بالله.

وكان الخليفة الجديد من احسن الخلفاء سيرة مع الرعية، عادلا فيهم، كثير الرفق بهم، ازال كثيرا من المكوس ولم يترك بالعراق منها شيئا، وكان شديدا على اهل العتب والفساد^(٤).

وقد التفت المستنجد الى خطر قريب من بغداد طالما اقلق السلطة العباسية، وهم المزيديون اصحاب الحلة، الذين كانوا يستفيدون من ضعف الخليفة العباسي واعتماده على السلاجقة في الحصول على بعض المكاسب، فسار الجيش العباسي الى الحلة سنة ٥٥٨ هـ، واستطاع القضاء على المزيدين واجلاءهم، بعد ان قتل منهم نحو من أربعة آلاف رجل، فما قامت لهم بعدها قائمة^(٥).

وفي سنة ٥٦٦ هـ قتل الخليفة المستنجد بالله، بسبب الصراع على السلطة بين المتنفذين في بلاط الخليفة، فبويع المستضيء بأمر الله^(٦).

ولم يختلف المستضيء عن والده في حسن السيرة والحلم وقلة المعاقبة على الذنوب والصفح عن المذنبين^(٧).

ولعل الخطبة للعباسيين وانتهاء خلافة الفاطميين في مصر سنة ٥٦٧ هـ هي ابرز الاحداث السياسية ايام المستضيء. فقد قطع صلاح الدين الايوبي الخطبة للعاضد^(٨)

(١) نسبة الى الحاجب سعيد النوبي المتوفى سنة ٣١٤ هـ. المنتظم ٢٠٣/٦

(٢) نصرة الفترة ٢٦٩

(٣) المصدر المتقدم ٣٠٨، المنتظم ١٠ / ١٦٨ - ١٧٥

(٤) ابن الاثير: ١١ / ١٤٦، الفخري ص ٣١٦ (ط . دار صادر).

(٥) ابن الاثير: ١١ / ١١٩ - ١٢٠، شذرات الذهب ٤ / ١٨١

(٦) ابن الاثير: ١١ / ١٤٥، الفخري ص ٣١٨ (ط . دار صادر).

(٧) ابن الاثير: ١١ / ١٨٧

(٨) هو آخر الخلفاء الفاطميين بمصر، والعاضد لقبه، واسمه عبد الله، توفي سنة ٥٦٧. وفيات الاعيان ٢ / ٢٩٤

قائمة، وبدأ ظلهم ينحسر عن الشرق تدريجياً^(١)، وكان الخطيب الايوبي يدعو للخليفة الناصر لدين الله، ثم يتلوّه باسم السلطان صلاح الدين، كلما اقيمت الصلاة في المناطق التي تم تحريرها^(٢).

وقد اختلف المؤرخون في الحكم على الناصر لدين الله، وهو اختلاف ساهمت فيه مذاهب هؤلاء المؤرخين الدينية، فالمؤرخون من السنة قالوا عنه: «كان يتشيع ويميل الى مذهب الامامية بخلاف آبائه^(٣)»، وقال مؤرخ سني آخر: «كان قبيح السيرة في رعيته ظالماً، فخرّب في ايامه العراق، وتفرق اهله في البلاد، وأخذ املاكهم واموالهم، كان يفعل الشيء وضده^(٤)».

على حين نجد صاحب الفخري، وهو شيعي، يقول عن الناصر: «... كان من افاضل الخلفاء واعيانهم، بصيراً بالامور، مجرباً، سائساً، مهيباً، مقداماً... متوقفاً الذكاء والفتنة، بليغاً، غير مدافع عن فضيلة علم، ولا نادرة فهم^(٥)».

وهكذا، بعد هذا العرض الموجز للحياة السياسية، يمكن أن يقال بأن عدم الاستقرار هو الطابع لتلك الحياة، فالمعارك لا تكاد تهدأ بين العباسيين والسلاجقة من جانب، حتى تستأنف بين العباسيين والمزيديين من جانب آخر، او بين المتنفذين من السلاجقة انفسهم، كذلك لم يتوقف الصراع من اجل السلطة بين رجال البلاط العباسي بعد أن رحل السلاجقة عن بغداد

(١) نفسه: ٢١٧/١١، وفيات الاعيان ١٧٤/٦

(٢) انظر: عند تحرير بيت المقدس، وفيات الاعيان ٣٧٠/٣

(٣) شذرات الذهب ٩٨/٥

(٤) كامل ابن الاثير: ١٨١/١٢

(٥) الفخري ص ٣٢٢ (ط. دار صادر).

(الحياة الاجتماعية)

ان الجانب الاجتماعي من حياة الناس شديد الصلة والتأثر بما يدور حولهم من احداث سياسية، ولذلك سنجد ان دراسة الحياة الاجتماعية ليست سوى انعكاسات السياسة ورجاها على حياة الناس اليومية. والجوانب التي تستحق الدراسة في هذا الموضوع هي:

١ - اثر السلاجقة:

ادرك السلاجقة ان الخليفة يتحيز الفرص لاستعادة سلطانه والانتقام لكرامته، كما عرفوا ان العراقيين يبغضونهم بغضهم لكل محتل مستبد، يعتمد في تسلطه وجبروته على القوة العسكرية. ومن هذا الاساس عمل السلاجقة على نهب خيرات العراق، لتجويد الناس وبث الرعب في نفوسهم وحملهم على الاستسلام والخضوع، فوزير السلطان محمود، ابو طالب السميرمي^(١)، اعاد المكوس بعد عشر سنين من ازالتها، وكان يقول: لقد سننت على اهل بغداد السنن الجائرة، وقد فرشت حصيرا في جهنم^(٢). وفي سنة ٥٣١ هـ، وبعد مقتل المسترشد واستيلاء السلاجقة على جميع ما معه من مال، ورد وزير السلطان مسعود يطلب مائة الف دينار، على الخليفة والناس جمعها بالتعاون فيما بينهم، فغضب الخليفة وكتب للسلطان: من اي وجه نقيم لك هذا المال؟ وما بقي الا ان نخرج من دار الخلافة ونسلمها لك..^(٣).

وامعانا في الظلم واستهانة بكل حق، اخذ السلاجقة يبنون قصورهم عن طريق تخريب بيوت الناس وتشريد الابرياء من السكان، ولم يفرقوا في ذلك بين كبير وصغير ولا بين غني وفقير، فمن لم تهدم داره عليه ان يحمل انقراض دور ابناء جلدته كي يستعاب بها على بناء دور اصحاب السلطان، وهكذا يشترك الناس جميعا في المصيبة.

فحين بنى ابو طالب السميرمي، الوزير السالف الذكر، دارا ببغداد، أخرج المحلة المعروفة بالتوتة^(٤)، ونقل آلاتها الى عمارة داره، فاستغاث اليه اهل التوتة، فحبسهم ولم

(١) هو الكمال نظام الدين ابو طالب، علي بن أحمد، منسوب الى سميرم، بلدة بين اصبهان وشيراز، قتل ببغداد سنة

٥١٦. المنتظم ٢٣٩/٩، وفيات الأعيان ٤٤٢/١.

(٢) المنتظم ٢٣٩/٩ - ٢٤١

(٣) نفسه ٦٦/١٠

(٤) كانت تقع في غربي بغداد. قال ياقوت انها: عامرة الى الآن، لكنها مفردة شبيهة بالقرية. (معجم البلدان... توتة).

يخرجهم الا بغرم^(١). وكان السلاطين عندما يزورون بغداد، يسكنون دارا انشئت لهذا الغرض في محلة المخرم^(٢) تدعى «دار السلطنة»، بناها بهروز^(٣) من انقاض بيوت الناس، واستعمل في عمارتها اهل بغداد حتى القضاة والاشراف والاعيان^(٤). اما جنود السلاجقة فليس لهم دور، ولذلك كانوا ينزلون في دور الناس كلما دخل السلطان بغداد^(٥).

وعلى الرغم من كثرة خيرات العراق، فقد كانت الطبقات الفقيرة تشكو من غلاء اسعار المواد الغذائية وصعوبة الحصول عليها. واسباب ذلك عديدة: منها الفيضانات المتكررة التي اغرقت المحاصيل الشتوية والصيفية، دون ان يستطيع السلاجقة التحكم في مياه دجلة والفرات ووضع نظام للري دقيق، حتى غرقت بغداد فتعرض الناس للمجاعة، وخربت البيوت والمحال سبع مرات في القرن السادس^(٦).

ومن اسباب شحة المواد الغذائية وارتفاع اسعارها، الحروب الكثيرة بين السلاجقة انفسهم او بينهم وبين الخليفة، فتزحف الجيوش وتحاصر بغداد وتمنع عنها الغذاء، وكلما امتد اجل الحصار ازداد امل الغزاة بالنصر وازداد جشع التجار في الحصول على ما يريدون، وتعالص صيحات الناس مطالبة بالقوت. فاذا علمنا ان بغداد حوصرت اربع مرات في النصف الاول من القرن السادس، وان الحصار الاخير سنة «٥٥١ هـ» استمر حوالي شهرين، ادركنا الحالة السيئة التي كان عليها الناس^(٧).

وكان لمركز بغداد الخاص ووجود الخليفة فيها أثره في حرص السلطان وأقاربه على الاحتفال بافراحهم ومسراتهم فيها، فكانت الاسواق تغلق ويجبر الناس على الانشغال باظهار معالم الفرح والزينة، ويكثر في هذه المناسبات العزف والقصف والزمير وشرب الخمر، مما يضايق الناس وخاصة المحافظين منهم. ففي سنة ٥٣٢ هـ نفذ السلطان مسعود الى البقش^(٨) كأسا ليشربها، فامتنع خمسة اشهر ثم عزم على شربها، فتقدم الى الولاية بالمحال

(١) المنتظم ٢٣٩/٩

(٢) من محلات بغداد الشرقية. قال ياقوت: وفيها كانت الدار التي يسكنها السلاطين البويهية والسلجوقية. (معجم البلدان. . مخرم).

(٣) هو بهروز بن عبد الله، ابو الحسن الخادم الابيض الغياثي، كان يلقب بمجاهد الدين، ولي العراق نيفا وثلاثين سنة. . توفي سنة ٥٤٠. المنتظم ١١٧/١٠، ابن الاثير: ٤٣/١١، المختصر المحتاج اليه ٢٦٥/١

(٤) مرآة الزمان ٩٧/٨

(٥) المنتظم ٢٥٩/٩، ١٠٥/١٠

(٦) تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٤١٠ - ٤١١

(٧) نفسه ص ٤٢١

(٨) لعله والباقش كون خرم المتوفى في رمضان سنة ٥٤٩ هـ، وكان من بين الذين حاربوا الخليفة المقتفي في موقعة باجزي.

المنتظم ١٠٩/١٠، وابن الاثير: ٨٠ - ٧٩/١١

والاسواق ان يشعلوا الشموع والقناديل والسرّج في جميع المحال ليلا ونهارا ثلاثة أيام، وظهرت القينات والمعازف والنساء عليهن الثياب الملونات والمخانيث، الى ان شرب الكأس^(١).

وفي التاسع من ربيع الآخر سنة ٥٣٥ هـ نفذ السلطان مسعود كأسا لبهروز ليشربه، فشربه، وغلقت بغداد وعمل سماعا عظيما في دار البرسقي^(٢) وحضر عنده جميع القيان واطهر الناس الطبول والزمور والفساد والخمور^(٣). وحين كان السلطان يتزوج أو يرزق بولد، فلا بد ان تغلق اسواق بغداد ويكلف العراقيون باظهار فرحهم، وربما استغلت امثال هذه المناسبات من قبل انصار السلطان فيبالغون في اظهار فرحهم فيفلت زمام الامور وتعم الفوضى^(٤).

٢ - العيارون:

من نتائج ضعف الادارة السلجوقية وعدم قدرتها على حفظ الامن، تزايد نشاط العيارين بصورة ملحوظة خلال النصف الاول من القرن السادس الهجري، حتى ان الباحث لا يكاد يجد لهم ذكرا حين اصبح زمام الامور بيد الخلفاء بعد سنة ٥٤٧ هـ.

ولم يكتف السلاجقة بالتسليم انهم غير قادرين على كبح جماح العيارين وتخليص الناس من عبثهم بالامن واستهانتهم بالارواح، وانما كبار رجالات الحكم يحمون العيارين في بيوتهم حين يشتد عليهم الطلب، او يشفعون لهم اذا ارادت السلطة معاقبتهم. قال ابن الجوزي عن العيارين: «وكانوا يجتمعون في دور الذين يحمونهم، في دار وزير السلطان ودار يرناقش^(٥)». وزادت الحالة سوءا، ولم يستطع رجال الامن ان يفعلوا شيئا، حين اكتشفوا ان ابن الوزير واخا زوجة السلطان يحتل مرتبة سامية بين صفوف العيارين^(٦).

ولعل اشتراك كبار الشخصيات مع العيارين هو الذي جعل السلطان يصم اذنيه ولا

(١) المنتظم ٧٢/١٠

(٢) لعله ابو سعيد آق سنقر البرسقي، نسبة الى برسق من مماليك السلطان طغرلبيك، ولاه السلطان محمد شحنة بغداد سنة ٤٩٨ هـ، قتل في الموصل سنة ٥٢٠ هـ. ابن الاثير: ٢٠١/١٠، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤١، وفيات الاعيان ١/٢١٨

(٣) المنتظم ٨٩/١٠

(٤) نفسه ٧٢/١٠، ٨٤/١٠، ٨٥، ١٠٣

(٥) يغلب على الظن أنه «يرناقش الزكوي» والمتوفي سنة ٥٤٠ هـ. قال ابن الاثير ١١/٤٣ - ٤٤: «صاحب اصفهان، وكان ايضا شحنة بالعراق، وهو خادم ارمني لبعض التجاره. وانظر: اخبار الدولة السلجوقية، فهرست الاعلام.

(٦) المنتظم ١٠٦/١٠

(٧) ابن الاثير: ١١/٣٩

يعباً باستغاثة الناس من شرور العيارين، ففي سنة ٥٣٨ هـ ضرب العيارون رجلاً بالسيف واخذوا دابة كان قد اشتراها بخمسة وعشرين ديناراً، وعلى اثر ذلك نفر الناس وغلقوا دكاكينهم وغلقوا باب الجامع، وتلقوا السلطان في الميدان فاستغاثوا اليه فلم يجبه، فعادوا مراراً وهو لا يلتفت^(١).

وكان المفروض ان يرتدع العيارون، او تقل كبساتهم على الاقل، حين يكون السلطان في بغداد، ولكن النصوص التاريخية تؤكد العكس، ففي سنة ٥٣١ هـ جاء العيارون ليلاً الى سفينة قد ملئت رجلاً واموالاً كثيرة لتنحدر الى واسط، فحلوا رباطها من تحت التاج^(٢) واحدروها واخذوا ما فيها، وكان السلطان في بغداد^(٣).

ويبدو ان البغض المتبادل وسوء الظن بين العراقيين وحكامهم من السلاجقة قد لعب دوراً في تعقيد مشكلة العيارين وجعلها تدور في حلقة مفرغة، فحين يطلب شحنة^(٤) بغداد العيارين لمعاقبتهم، يرفض السكان التعاون معه لانه لا يأخذ العيارين وانما يأخذ المستورين بحجة العيارين^(٥). وربما نهب اصحاب الشحنة اموال الناس، وهم يبحثون عن العيارين^(٦).

ولست اشاع الذين يذهبون الى ان العيارين انما يمثلون ثورة الفقراء على الاغنياء، بدعوى ان كبساتهم وهجماتهم كانت موجهة ضد الطبقة العليا وحدها لانها استأثرت بكل شيء^(٧). فلم يكن العيارون يفرقون بين غني وفقير ولا بين نبيل وعامي، وشملت كبساتهم سكان المدينة وأهل الارياف. ففي سنة ٥٣٠ هـ دخل العيارون الى دكاكين البزازين يطالبونهم بالذهب ويتهددونهم بالقتل^(٨). وفي السنة ذاتها صلب اثنان من العيارين في درب^(٩) الدواب لانها جيبا الدرب^(١٠)! وفي سنة ٥٣٦ هـ أخذ العيارون يكبسون الدور

(١) المنتظم ١٠/١٠٦

(٢) اسم لدار مشهورة، جليلة المقدار، واسعة الاقطار ببغداد من دور الخلافة.. (معجم البلدان.. التاج).

(٣) المنتظم ١٠/٦٨

(٤) الشحنة: وظيفة جديدة في العهد السلجوقي، ويشرف صاحبها على ولاية بغداد، فهو يشبه المحافظ. تاريخ العراق في

العصر السلجوقي ص ٧٠

(٥) ابن الاثير: ١١/٢٥

(٦) نفسه: ١١/١٩

(٧) العامة في بغداد ص ٣٠٩

(٨) المنتظم ١٠/٥٨

(٩) لم يذكره ياقوت في «مادة درب» من معجم البلدان، على الرغم من ذكره لبعض دروب بغداد كدرب الزعفران.

(١٠) المنتظم ١٠/٥٨

بالشموع ويدخلون الحمامات وقت السحر فيأخذون الاثواب، وكان ابن الدجاجي^(١) الواعظ جالسا ليلته بالحربية^(٢)، فكبسوها وأخذوا عمامته، ودخلوا الى خان بسوق^(٣) الثلاثاء بالنهار وقالوا: ان لم تعطونا احرقنا الخان، ولبس الناس السلاح لما زاد النهب.. وصاروا لا يظهرون من المغرب^(٤).

٣ - القبائل العراقية :

تكون القبائل العربية والكردية الغالبية العظمى من سكان العراق، وهذه القبائل لم تتعود على الحكم المركزي ولم تعرف الخضوع ل خليفة أو سلطان، وكان قسم منهم يمتحن الزراعة حيناً، فاذا شح المطر ونزر المحصول وضعفت سيطرة الحكومة، عادت تلك القبائل الى السلب والنهب وقطع الطرق واغارت على اطراف المدن، وخاصة تلك المدن الواقعة على اطراف الصحاري والبعيدة عن مراكز قوة الحكومة كالكوفة والانبار والبصرة وواسط. وكان في مقدمة الاسباب التي تشجع رجال القبائل على اشاعة الاضطراب وبث الفوضى والرعب عاملان اساسيان :

الاول: انشغال السلطان عنهم بالحروب الكثيرة المتصلة بين السلاجقة والخلفاء او بين السلاجقة انفسهم، وقد مرت الاشارة الى هذا العامل عند دراسة الحياة السياسية.

الثاني: وجود الصحراء المترامية الاطراف، وهي ملجأ الهاربين من الخليفة والسلطان معا.

اما اهم القبائل التي كان لها دور في الناحية الاجتماعية فهي :

أ - المزيديون :

وهم في مقدمة القبائل العربية ذات الاثر الكبير في حياة العراق الاجتماعية. والمزيديون من بني أسد، وكانت مناطق سكنهم تمتد بين بغداد والبصرة ونجد^(٥). وكانت لبني مزيد اماره شغلت البويهيين والسلاجقة وخلفاء بني العباس، ولعبت دورا كبيرا في حياة

(١) هو سعد الله بن نصر.. ابو الحسن الواعظ.. توفي في شعبان سنة ٥٦٤ هـ. المختصر المحتاج اليه ٧٧/٢، وانظر

هامش المحقق رقم ١٥٤

(٢) محلة كبيرة مشهورة ببغداد.. تنسب الى حرب بن عبد الله، احد قواد المنصور. (معجم البلدان.. الحربية).

(٣) من اسواق بغداد، وسمي بذلك لانه كان يقوم عليه سوق.. كل شهر مرة يوم الثلاثاء. (معجم البلدان.. سوق

الثلاثاء)، وانظر: دليل خارطة بغداد ص ٣٤

(٤) المنتظم ٩٥/١٠

(٥) تاريخ ابن خلدون ٥٩٠/٤، معجم قبائل العرب ١٠٨٢/٣

الناس الاجتماعية في النصف الاول من القرن السادس .

ان الامير ابا الاغر ديبس بن صدقة المزيدي من زعماء القرن السادس الذين يشير المؤرخون الى دورهم الكبير في اشاعة الفوضى ونشر الخراب والدمار في ارجاء واسعة من العراق . لقد اشرت في دراسة^(١) الحياة السياسية الى مقتل صدقة المزيدي ، والد الامير ديبس ، سنة ٥٠١ هـ في معركة مع السلطان السلجوقي ومنذ ذلك الحين كثرت غارات ديبس وهجماته على المدن والقرى .

ففي سنة ٥١٤ هـ ورد أهل نهر عيسى^(٢) ونهر الملك^(٣) مجفلين الى بغداد بأهاليهم ومواشيهم فرعا من ديبس لأنه بدأ بالنهب في أطرافهم^(٤) . وفي سنة ٥١٧ هـ اتفق ديبس مع قبائل المنتفق^(٥) على قصد البصرة وأخذها ، فصار اليها ، وكبس مشهد طلحة والزبير ، وعزم على قطع النخل ، فصانعه اصحابها عن كل رأس شيئا معلوماً^(٦) . .

ان الصورة التي يخرج بها الباحث من النصوص المتقدمة تختلف اختلافا كبيرا عن صورة الامير المزيدي ديبس كما رسمتها اقلام مؤرخين آخرين منهم ابن خلكان الذي قال عن ديبس : « . . كان جوادا كريما . . وهو الذي عناه الحريري صاحب المقامات في المقامة التاسعة والثلاثين بقوله : « او الاسدي ديبس » لانه كان معاصره فرام التقرب اليه بذكره في مقاماته ، ولجلالة قدره ايضا »^(٧) .

فأي الصورتين نصدق؟

وللإجابة عن هذا السؤال ، لا بد من الاشارة الى أن الصورة القبيحة للامير المزيدي انما نقلها وصورها ابن الجوزي ، صاحب المنتظم ، كما يتضح من مراجعة مصدرها في هوامش هذه الرسالة . وابن الجوزي ليس محايدا أبدا في الصراع بين العباسيين والمزيديين ، بل هو عباسي الهوى دون شك . فاذا عرفنا ان ابن الجوزي كان حنبلي^(٨) المذهب ، وان

(١) انظر : الحياة السياسية .

(٢) هو عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس ، ونهر عيسى كورة وقرى كثيرة وعمل واسع في غربي بغداد . . (معجم

البلدان . . نهر عيسى) .

(٣) كورة واسعة ببغداد بعد نهر عيسى ، يقال انه يشتمل على ٣٦٠ قرية على عدد ايام السنة . . (معجم البلدان . . نهر

الملك) .

(٤) المنتظم ٢١٧/٩

(٥) من القبائل العراقية ، وسترده بعد المزيديين .

(٦) المنتظم : ٢٤٥/٩

(٧) وفيات الاعيان ٣١ / ٢ - ٣٢

(٨) وفيات الاعيان ٣٢١ / ٢

المزيديين كانوا يعتقدون المذهب الشيعي^(١)، ادركنا الى اي حد سيكون صاحب المنتظم منصفا في روايته لاختبار الامارة المزيدية.

ان اختلاف المزيديين عن العباسيين في المذهب الديني كان من بين العوامل المهمة التي استغلها كل من العباسيين والسلاجقة في حربهم ضد بني مزيد، فقد أخذ المسؤول السلجوقي ببغداد «فتاوى فيما يجب على من سب الصحابة، وكتب المحاضر فيما يجري في بلد ابن مزيد من ترك الصلوات، وانهم لا يعرفون الجمعة والجماعات، ويتظاهرون^(٢) بالمحرمات. فاجاب الفقهاء بانه: لا يجوز الاعضاء عنهم، وان من قاتلهم فله اجر عظيم^(٣)». وحين رجع الخليفة الى بغداد سنة ٥١٧ هـ، بعد انتصاره على دبيس، ارادت العامة الانتقام من الشيعة البغداديين، فنهبوا مشهد «باب التبن»^(٤) وقلعوا ابوابه فأنكر الخليفة ذلك، وأمر نظرا^(٥) امير الحاج بالركوب الى المشهد وتأديب من فعل ذلك وأخذ ما نهب، ففعل، واعاد البعض، وخفي الباقي عليه^(٦). وليس من المستبعد ان يكون السلاجقة الاثراك هم السبب الاول في اشاعة الفتن الطائفية بين سكان بغداد انفسهم او بين البغداديين وسكان الحلة، كي يضعفوا العرب من الجانبين، ويشغلوهم عن التفكير في الرابطة القومية، وهي قوة يحسب لها الدخلاء الف حساب.

ب - المتفق:

وهذه القبائل كانت تسكن بين البصرة والكوفة^(٧)، وقد مر بنا انها ساعدت دبيسا على غزو البصرة سنة ٥١٧ هـ، وكانت هي نفسها التي ساعدت الجيش العباسي سنة ٥٥٨ هـ في القضاء على المزيديين وابادتهم تحت قيادة زعيمهم ابن معروف، ولذلك سلمت بطائعهم^(٨) وبلادهم اليه^(٩)، وفي سنة ٥٨٨ هـ هاجم بنو عامر البصرة ونهبوا الخانات

(١) المنتظم ١٥٩/٩

(٢) يتظاهرون بالمحرمات: يظهرونها.

(٥) المنتظم ٢٣٦/٩ - ٢٣٧

(٤) باب التبن: اسم محلة كبيرة كانت ببغداد. وهي الان خراب. . ويلصق هذا الموضع في مقابر قریش التي فيها قبر موسى

الكاظم. . ويعرف قبره بمشهد باب التبن. . وهو الان محلة عامرة ذات سور مفردة (معجم البلدان. . باب التبن).

(٥) هو نظير بن عبد الله الجيوشي، ابو الحسن، الخادم، له معروف كثير، وصدقات وافرة. توفي سنة ٥٤٤ هـ. المنتظم ١٠/

١٤١، ابن الاثير: ٦٠/١١.

(٦) ابن الاثير: ١٠ ٢٣٢

(٧) معجم قبائل العرب ٣/١١٤٤

(٨) البطائح: مفردا بطيحة، ومنها بطائح واسط، وهي أرض واسعة بين واسط والبصرة، ولعلها المرادة هنا. انظر: معجم

البلدان. . البطيحة.

(٩) ابن الاثير: ١١/١١٩ - ١٢٠

بالشاطيء وبعض محال البصرة، ولكن المهاجرين فارقوا البلد بسرعة حين بلغهم ان قبائل خفاجة والمنتفق قد قاربوهم، فسار بنو عامر لقتال هاتين القبيلتين واستطاعوا الانتصار عليهما وغنموا اموال خفاجة والمنتفق، ثم عادوا ثانية الى البصرة فنهوها ولم يستطع اهلها ومن اجتمع معهم من اهل السواد^(١) - الدفاع عن المدينة^(٢).

وفي سنة ٦١٦ هـ كثر فساد عشائر المنتفق هذه واذا هم لما يقاربهم من القرى، وقطعوا الطريق وعاثوا في النواحي المقاربة لبطيحة الغراف^(٣)، فشكا اهل تلك البلاد الى الديوان منهم، فأمر الخليفة الناصر لدين الله الشريف معداً، متولي بلاد واسط، ان يسير اليهم، فتجهز وجمع معه من الرجال من تكريت وهيت والحديثة والانبار والحالة والكوفة وواسط والبصرة وغيرها خلقاً كثيراً، وسار اليهم، فكثرت فيهم القتل والأسر والغرق وأخذت اموالهم، وحملت رؤوس كثيرة من القتل الى بغداد في ذي الحجة^(٤).

ج - خفاجة :

وقد كان لهذه القبيلة دور بارز في تهديد ارواح الناس وبث الرعب ونشر الفوضى بسبب النزاع بينهم وبين المزيديين في بعض الاحيان^(٥)، وفي احيان اخرى نجد الصراع بين بطون القبيلة نفسها على السلطة والزعامة يؤدي الى اراقة الدماء والاغارة على اهل السواد^(٦) وتشريدهم، كما حدث سنة ٥٦٨ هـ حين اغار بنو حزن، من خفاجة، على سواد العراق لان الحماية كانت لهم عليه، ولكن صاحب الحلة اخذها منهم وجعلها لبني كعب، وهم من خفاجة ايضا^(٧).

وقد يختلف المؤرخون في ذكر الاسباب التي تحمل خفاجة على السلب والنهب وقطع الطرق، فابن الجوزي يقول: ان خفاجة امتنعت سنة ٥٥٦ هـ عن دفع الاعشار ولذلك ارسل العسكر اليهم فنهب اموالهم^(٨). على حين يقول ابن الاثير: ان خفاجة طالبوا برسومهم من الطعام والتمر فمنعهم مقطع^(٩) الكوفة ووافقه الامير قيصر شحنة الحلة،

(١) اراد سواد البصرة، وهو القرى والارياف المحيطة بالمدينة.

(٢) ابن الاثير ١٢ / ٣٤

(٣) نهر كبير تحت واسط بينها وبين البصرة.. وعلى هذا النهر كورة فيها قرى كثيرة. (معجم البلدان.. الغراف).

(٤) ابن الاثير ١٢ / ١٤٧

(٥) معجم قبائل العرب ١ / ٣٥١ - ٣٥٢

(٦) السواد: يراد به رستاق العراق وضياعها.. سمي بذلك لسواده بالزرع والنخيل والاشجار.. (معجم البلدان).

(السواد)

(٧) ابن الاثير ١١ / ١٥٩

(٨) المنتظم ١٠ / ٢٠٠

(٩) اي أن الكوفة من اقطاعه، وقد مر في هامش ص ١٦ - ١٧ شرح معنى الشحنة.

وعندئذ افسدت خفاجة ونهبت سواد الكوفة والحلة، فاسرعت اليها العساكر من هاتين المدينتين، ولم ينفع القبيلة اعتذارها وطلبها الصلح، فدارت معركة ضارية ربحتها خفاجة، فقتل الامير قيصر وجرح صاحبه، مقطع الكوفة، واسرت جماعة اخرى، ومن نجاة مات عطشا في البرية، وكثر النوح والبكاء على القتلى ببغداد، وتجهز الوزير عون الدين بن هبيرة في طلب خفاجة، فدخلوا البرية، ثم ارسلوا يعتذرون ويسألون العفو عنهم، فأجيبوا الى ذلك^(١).

ولعل الابله البغدادي اراد هذه الحادثة، حين قال يمدح الوزير عون الدين، من قصيدة مطلعها:

بَعُودِكَ عَادَتْ دَوْلَةُ الْكَرَمِ الْغَمْرُ^(٢) واصبح طيُّ الجود يؤذن بالنَّشْرِ
قال فيها:

واقسم لو باكرت حي خفاجة لما صبحوا الابراغية^(٣) البكر
ولكن حمتهم عن رماحك والظبي^(٤) وان يهلكوا، ارجاء مهلكة فقر
مضوا، فطليق القوم منك كآته يسير أسيراً للمخافة والذعر^(٥)

أما في السنوات التي تكاد تنعدم فيها سلطة الحكومة المركزية، فكانت خفاجة تأخذ القوافل في اطراف بغداد، وفي محلة الحرية مثلاً، ولذلك لانعجب اذا سمعنا الابله البغدادي يطلب من احد ممدوحيه سيفاً يحمي نفسه به، لان خفاجة في طريقه، قال من قصيدة:

وفي طرقى خفاجة وهو بطن فقلدني - مع الاحسان - غضبا^(٦) حلال عندها أكل الحرام
يُجْلِي^(٧) صبحه ليل القتام^(٨) كما اضطربت مياه في غدير
وها أنا اعزل، لولا لسان كعزمك، غير مفلول كهام^(٩)
... الخ^(١٠)

وربما كان ابن جبير على حق، حين اشار الى أن من اسباب استيلاء الخراب

(١) الكامل ١١٢/١١

(٢) الكرم الغمر: الكثير.

(٣) الراغية: الابل. البكر: الفتي. أراد: الفضوض والاصوات الكثيرة لان الفتي من الابل يكون كثير الرغاء.

(٤) الظبي: السيوف.

(٥) ديوان الابله ٥٠ - ٥١

(٦) غضبا: سيفاً قاطعاً.

(٧) يجلي: بالأصل تجلي.

(٨) القتام: غبار الحرب.

(٩) كهام: كليل، ضعيف.

(١٠) ديوان الابله ٤٦

على اكثر الكوفة اواخر القرن السادس، قبيلة خفاجة المجاورة لها^(١).

٤ - فساد الجهاز الاداري:

كان الناس يتوقعون ان تزول متاعبهم وآلامهم بزوال السيطرة السلجوقية، لان هؤلاء اجانب تحكموا في رقاب الناس بقوة السلاح. ولم يكن العراقيون يتوقعون ان تزداد الامور سوءا حين استعاد الخلفاء سيطرتهم، فقد ضج الناس بالشكوى وفقدوا الامن على ارواحهم واموالهم، ولعبت الوساطات والرشى دورا كبيرا في افساد الذمم وشراء الضمائر، حتى صار الفرد لا يدري متى تنهب داره، او تصادر امواله، او يلقي به في غياهب السجون، يستوي في ذلك الوزراء وعامة الناس.

لقد عرف بالظلم والتجبر من الوزراء ابو جعفر بن البلدي، وزير المستنجد بالله، فقتل سنة ٥٦٦ هـ، ثم القى في دجلة، بعد ان قطع^(٢). وفي هذا الوزير قال ابن التعاويذي:

يا قاصدا بغداد، جز^(٣) عن بلدة للجور فيها زخرة^(٤) وعباب^(٥)
ليست - وما بعد الزمان - كعهدنا ايام يعمر ربعها الطلاب
الى ان يقول:
والناس قد قامت قيامتهم، فلا انساب بينهم ولا اسباب
والمرء يُسلمه أبوه وعريسه^(٦) ويخونه القرباء والأحباب
لا شافعاً تغني شفاعته، ولا جان له مما جناه متاب
شهدوا معادهم، فعاد مُصدّقاً من كان قبل بيعته يرتاب
... الخ^(٧)

كذلك عرف بالظلم وزير الناصر لدين الله، ناصر بن مهدي، حتى اضطر مظفر الدين سنقر، وهو من اكابر ممالك الخليفة، الى الهرب منه الى الشام سنة ٦٠٣، فلما قبض على الوزير سنة ٦٠٤ هـ، عاد الى بغداد^(٨).

ومن هؤلاء قطب الدين قايمار، قائد جيش المستضيء، حتى اضطر الخليفة أن يستنجد بالعامّة عليه قائلا: «مال قطب الدين لكم ودمه لي»^(٩).

(٢) ابن الاثير ١١/ ١٤٦

(٤) زخرة: امتلاء.

(٦) عريسه: زوجه.

(٩) ابن الاثير: ١١/ ١٧٣

(١) رحلة ابن جبير ص ١٨٧ (ط. دار صادر).

(٣) لعلها «حده» كما في وفيات الاعيان ٩٣/ ٤

(٥) العباب: ارتفاع السيل.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٧ - ٤٨ (٨) ابن الاثير ١٢/ ١١٥ - ١١٦

فاذا تركنا الوزراء ومن في منزلتهم الى الطبقة التي تلي هؤلاء، وجدنا الامر لا يختلف. فالقاضي يحيى بن سعيد بن المُرخم البغدادي، كان شديد البطش، ظالما، حتى عد ابن الاثير من حسنات المستنجد بالله، القبض على هذا القاضي واسترداد اموال الناس منه^(١).

وفي ابن المُرخم هذا، قال هبة الله بن الفضل:

يا ابن المُرخم، صِرْتَ فينا قاضياً خَرِفَ الزمان تراه أم جُنَّ الفلَكُ؟
ان كنت تحكم بالنجوم، فربما اما بشرع محمد، من اين لك^(٢)؟

وفي سنة ٥٩٦ هـ مات في حبس الناصر لدين الله نائب الشرطة بباب النوبى^(٣)، ويعرف بابن المرأة، لانه كان ظالما جبارا، وقد تولى التحقيق معه من خلفه في نيابة الشرطة بباب النوبى. وهذا الاخير كان مثل سابقه سيء الطريقة عاتيا، محبا للظلم، مؤثرا للأذى، وقد مات سنة ٦٠٠ هـ^(٤).

وهكذا ضاعت حقوق الرعية بين مظلوم في الحبس وظالم يتولى التحقيق. وكما عرف بعض المسؤولين الكبار بالظلم والقسوة، عرف آخرون بالسرقة وأخذ اموال الناس دون وجه حق، قال ابن الساعي عن افلح بن أفلح: «كان فيه جلادة وجراة على اخذ الاموال لنفسه، وكان يؤخذ ويحبس ثم يخرج فيعود الى ما كان عليه اذا رتب في شغل». وحين سئل ابن افلح هذا عن عشرة آلاف دينار أخذها دون حق، قال للسائل: «هذا المال لي ولك وللكتاب وللمشرف والبراطيل^(٥) ونفقة الحبس^(٦)».

ولعل عيوب الطبقة المتنفة التي ذكرت نماذج منها في الفقرات المتقدمة هي التي حملت أحد شعراء القرن السادس على ان يقول حين سقط الثلج فايضت الأرض:

يُنا صدور الزمان ليس بوفر^(٧) ما رأيناه في نواحي العراق
انما عم ظلمكم سائر الأر ض، فشابت ذوائبُ الآفاق^(٨)

(١) نفسه ١١/١٤٦

(٢) وفيات الاعيان ٢/٣٠٩

(٣) من ابواب دار الخلافة، وقد مرت الاشارة الى صاحب هذه النسبة ص ٧

(٤) الجامع المختصر ٩/٤٠، ١٣٢

(٥) واحدها برطيل، وهو الرشوة (فارسية). الالفاظ الفارسية ص ٢٠

(٦) الجامع المختصر ٩/١٦

(٧) الوفر: الثلج المتساقط شتاء.

(٨) المنتظم ٩/٢٢٦ - ٢٢٧، معجم الادباء ٧/٢٤٢ ط. ماركيبوت الاولى.

(الحياة الثقافية)

على الرغم من سوء الاحوال الاجتماعية والاضطراب السياسي ، فقد كان العراق في القرن السادس يموج بحركة ثقافية لا حدود لها شغلت الجميع على اختلاف مذاهبهم واجناسهم واعمارهم ودياناتهم . لقد كانت المدارس والجوامع والمكتبات البغدادية تغص بطلاب العلم وعشاق المعرفة من الاقطار المجاورة والبعيدة على السواء ، حتى ليندر ان نجد عالما اشتهر وذاع صيته في العالم الاسلامي يومذاك دون ان تكون بغداد صاحبة فضل عليه . ويكفي العراقيين فخرا أن المدرسة النظامية ببغداد كانت المعهد الذي يطمح كل عالم ان يدرس فيه^(١) ، وحسبك ان من بين مدرسيها كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الانباري المتوفى سنة ٥٧٧هـ^(٢) ، ومن طلابها الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ^(٣) .

وكم وددت لو سلمت ثقافة القرن السادس من هنات لا تليق بهذا الطود الشامخ ، ولست ادري كيف استطاع العراقيون الجمع بين سعة المعرفة ودقتها وهذا التعصب المقيت؟

ان الحيرة لتعقد لسان الباحث ، وهو يجد خليفة كالمستنجد بالله ، ازدهرت جنان المعارف في ايامه ، ومع ذلك يأمر بازهاق نفس اديب لامع كابن حمدون^(٤) ، لانه وجد في كتاب له حكايات توهم غضاضة من الدولة^(٥) . وكاد الشيخ عبد القادر^(٦) الكيلاني يلقي مصرعه ، لولا شعبية الشيخ وخوف الخليفة من الرأي العام ، ولذلك اكتفى بلفت النظر^(٧) . ان هاتين الحادثتين تدلان على ان جبروت بعض خلفاء القرن السادس قد اسكت اصواتا لو سمعناها لتغيرت صورة القرن كله .

وكان التعصب المذهبي هو الآخر مما يعكر على الباحث متعته ، وهو يطوف بين

(١) تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٢٢٨

(٢) وفيات الاعيان ٢ / ٣٢٠

(٣) معجم الادباء ٥ / ١٤٠ ط . ماركليوت الثانية .

(٤) هو ابو المعالي محمد بن ابي سعد الحسن . . بن حمدون ، الكاتب البغدادي كان فاضلا ذا معرفة تامة بالادب والكتابة ، والف كتاب التذكرة . توفي محبوسا سنة ٥٦٢ هـ . المنتظم ١٠ / ٢٢١ ، الخريدة ١ / ١٨٤ ، وفيات الاعيان ٤ / ١٥

(٥) الخريدة ١ / ١٨٤

(٦) هو مؤسس الطريقة القادرية ومن كبار الزهاد . توفي ببغداد سنة ٥٦١ هـ . المنتظم ١٠ / ٢١٩ ، فوات الوفيات ٢ / ٤ ،

النجوم الزاهرة ٥ / ٣٧١

(٧) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ٢٩٢

حقول المعرفة. ان رجلا خطير المكانة كعبد الرحمن بن الجوزي يكتفي بالاشارة العابرة حين يترجم لغير الحنابلة في المنتظم^(١)، ولكنه يقف «وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه» حين يذكر الحنابلة. ومع ذلك يتهم ابن الجوزي معاصره عبد الكريم بن السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢ هـ بالتعصب، ويستعيد بالله منه^(٢).

وفي سنة ٥٤٦ هـ سأل ابن^(٣) العبادي ان يجلس في جامع المنصور، فقيل له: لا تفعل، فان اهل الجانب الغربي لا يمكنون الا الحنابلة، فلم يقبل.. فلما شرع في الكلام اخذته الصيحات من الجوانب، ونفر الناس وضربوا بالأجر، ففرق الناس منهزمين كل قوم يطلبون جهة، واخذت عمائم الناس.. وتكلم ساعة ونزل، وارباب الدولة يحفظونه حتى انحدر، وقد طار لبه^(٤).

ومن المآخذ على التيار الثقافي ايضا أن المنطق والفلسفة - او ما سمي بعلوم الاوائل - كانت من العلوم المحرمة التي اذا اتهم احد بالاطلاع عليها أو اقتناء كتبها، فلا بد أن يرمى بركة الدين ويؤدب ويضرب على يديه بشدة. فقد قيل: أن صدقة بن الحَدَّاد، الناسخ الحنبلي المتوفى سنة ٥٧٣ هـ، حفظ القرآن وتفقه وافتي وناظر، لكنه قرأ الشفاء لابن سينا وكتب الفلاسفة، فغير اعتقاده، وكان يبدد من فلتات لسانه ما يدل على سوء عقيدته^(٥).

وفي سنة ٦٠٣ هـ كبست دار عبد السلام^(٦) بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر، وأخرج منها كتب منها الشفاء لابن سينا والنجاة ورسائل اخوان^(٧) الصفا وكتب الفلاسفة والمنطق، فاحرق امام الناس ولعن عبد السلام وتعدى اللعن الى الشيخ عبد القادر واحمد بن حنبل^(٨)، وحين قبض على ابن المرخم القاضي.. اخذت كتبه، فاحرق منها

(١) انظر - مثلا - عند ذكره ابن عساكر في وفيات سنة ٥٧١

(٢) المنتظم ١٠/١٦٣

(٣) هو المظفر بن اردشير، ابو منصور العبادي، كانت له فصاحة وحسن عبارة، وكان يرسل بين السلطان والخليفة، توفي بعسكر مكرم سنة ٥٤٧ هـ، ثم حل الى بغداد. المنتظم ١٠/١٥٠، المختصر المحتاج اليه ١٥٨/١، والمستدرك عليه ص ٩ - ١٠

(٤) المنتظم ١٠/١٤٥

(٥) ذيل الروضتين ص ١٢، النجوم الزاهرة ٨١/٦

(٦) فقيه حنبلي من علماء بغداد، ولي عدة ولايات. توفي ببغداد سنة ٦١١ هـ الكامل ١٢/١٢٦، مراة الزمان ٨/٥٧١، فوات الوفيات ١/٥٧١.

(٧) جماعة تألفت في القرن الرابع الهجري، ولم يعرف من اشخاصها سوى خمسة يتغشاهم الغموض والشك، انظر مقدمة

(رسائل اخوان الصفا) ١/٥ - ٢٠

(٨) ذيل الروضتين ص ٥٦

ما كان من علوم الفلاسفة، فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب^(١) اخوان الصفا وما يشاكلهما^(٢).

ولعل من المضحك ان يتهم اديب ضرير يدعى كامل بن الفتح توفي سنة ٥٩٦ هـ بأنه كان يدخل على الخليفة الناصر لدين الله ويخلمو معه، وانه علمه علم الاوائل وهون عليه علم الشرائع، وقد ادرك ياقوت الحموي سذاجة هذه الحكاية فرواها بتحفظ^(٣)، وكذلك رواها ابن شاکر^(٤).

وعندي ان منع جمهور المثقفين من الاطلاع على المنطق والفلسفة، قد أضر بالعقلية العربية الاسلامية، وجعل اولئك الذين لا يريدون ان تظل عقولهم تدور في فلك الدراسات الدينية وما يتصل بها من علوم اللغة العربية، يبالغون في هجومهم على رجال الدين قائلين: انهم جهال لا يعرفون العلوم العقلية ولا معاني الحديث الحقيقية بل هم مع اللفظ الظاهر^(٥)، وذهب فريق آخر الى القول: بان قسما من علوم الاوائل هذه - والتي يفضيها رجال الدين - تساعد على الايمان وتخدم الدين^(٦).

حركة التأليف:

من ابرز مظاهر الحركة الثقافية الكبرى في القرن السادس الاقبال على التأليف والتصنيف، وهذا الغرام بالكتب والتسابق لاقتنائها، وبذل الاموال الطائلة في سبيل ذلك. فأبو محمد عبد الله بن احمد، المعروف بابن الخشاب والمتوفى سنة ٥٦٧ هـ، كان مولعا بالكتب حتى انه لم يمت احد من اهل العلم وأصحاب الحديث الا وكان يشتري كتبه كلها، بل انه باع داره ليشتري بثمانها كتابا حين وجد ان ما معه من نقود لا يكفي^(٧). وحين غرقت كتب ابي محمد سعيد بن المبارك، المعروف بابن الدهان المتوفى سنة ٥٦٩ هـ، اشاروا عليه ان يبيخها ويصلح ما يمكن منها، فبيخها باكثر من ثلاثين رطلا، فطلع الى رأسه وعينيه، فأحدث له العمى وكف بصره^(٨). اما الطبيب النصراني مسيحي بن ابي البقاء المتوفى سنة ٦٠٨ هـ، فبلغ به حبه للكتب انه كان اذا وقعت في يده نسخة من كتاب، وخشى المزايدة

(١) كذا بالاصل، ولعل المراد: وكتب

(٢) ابن الاثير ١١ / ١٠٤

(٣) معجم الادباء ٦ / ٢٠٨ ط. ماركليوت الثانية.

(٤) فوات الوفيات ٢ / ٢٨٢

(٥) شذرات الذهب ٥ / ٤١

(٦) تاريخ الحكماء ص ١٥٤

(٧) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ٣١٩

(٨) وفيات الاعيان ٢ / ١٢٥

فيه، يجرمه لينقص قيمته ويبتاعه، واشتهر هذا عنه، ورموه بقله الدين لاجل ذلك، وبهذه الطريقة استطاع ان يجمع كتباً ليس الى حصرها من سبيل^(١).

وكان بيع الكتب وشراؤها ونسخها وتجليدها، يشغل حيزاً كبيراً من حياة الناس الاقتصادية والمعاشية، فقد كان للكتب سوق تباع فيه كما تباع بقية البضائع، ويقع سوق الكتب هذا بباب بدر^(٢) ببغداد الشرقية^(٣). وعرف ابو المعالي سعد بن علي الحطيري^(٤) المتوفى سنة ٥٦٨ هـ بانه دلال الكتب في بغداد^(٥)، وكان معاشه من الكتب^(٦).

وقد اشتهر جماعة بجودة الخط والنسخ، وكان قسم من هؤلاء ممن يحرص الناس ان يحصلوا على كتب بخطوطهم لما عرفت به من الدقة والجمال، فقد عرف ابو الحسن علي بن عبد الرحيم المعروف بابن القصّار اللغوي المتوفى سنة ٥٧٦ هـ بأنه: كتب بخطه الكثير من كتب الادب وشعر العرب... والناس يتنافسون في خطه ويغالوا به^(٧)... وكذلك اشتهر مؤهوب بن أحمد المعروف بابن الجواليقي المتوفى سنة ٥٤٠ هـ بانه: مليح الخط كثير الضبط، صنف التصانيف وانتشرت عنه وشاع ذكره، ونقل بخطه الكثير^(٨). وكان صدقة ابن الحسين المتوفى سنة ٥٧٣ هـ، يعرف بالناسخ، لانه كان يعيش من نسخ الكتب، وقد نسخ بخطه كثيراً للناس من سائر الفنون^(٩). ومن هؤلاء محدث بغداد عبد الوهاب بن المبارك الانطاقي المتوفى سنة ٥٣٨ هـ، قال عنه ابن السمعاني: «... لعله ما بقى جزء مروي الا وقد قرأه وحصل نسخته، ونسخ الكتب الكبار مثل الطبقات لابن سعد وتاريخ الخطيب^(١٠)...»

ولست ارى فائدة في المزيد من الشواهد لانها كثيرة جداً، عرض الاستاذ الفاضل كوركيس عواد في كتابه «خزائن الكتب القديمة في العراق» جملة صالحة منها، فليرجع اليه من شاء.

(١) تاريخ الحكماء ص ٢١٨

(٢) ويسمى ايضاً باب البدرية، نسبة الى بدر مملوك الخليفة المعتضد ٢٧٩ - ٢٨٩، انظر: دليل خارطة بغداد ص ١٥٨

(٣) الخريدة ٢ / ٣٤٤، الوافي بالوفيات ٢ / ١١٩، وانظر: دليل خارطة بغداد ص ٨٦

(٤) نسبة الى الحظيرة، وهي قرية كبيرة كانت من اعمال بغداد، من جهة تكريت، من ناحية دُجبل... (معجم البلدان...)

الحظيرة).

(٥) المنتظم ١٠ / ٢٤١، وفيات الاعيان ٢ / ١٠٩

(٦) المختصر المحتاج اليه ٢ / ٨١

(٧) وفيات الاعيان ٣ / ٢٥

(٨) ذيل طبقات اخبانة ١ / ٢٠٥

(٩) نفسه ١ / ٣٣٩، ٣٤٠

(١٠) نفسه ١ / ٢٠٢

ويبدو ان مفكري القرن السادس ومثقفيه من مؤرخين ونحاة ولغويين وشعراء كانوا معجبين اشد الاعجاب باسلافهم من مفكري الفترات العباسية السابقة، وخاصة رجال القرنين الرابع والخامس، ولذلك نجدهم يكتون على آثارهم، يذبلون عليها ويشرّحونها، وربما نقدوها وبينوا عيوبها وآخذها، كما يفعل الطالب الذكي حين يشعر ان بإمكانه الوقوف على قدميه، فيبدأ بمناقشة استاذة مناقشة فيها غرور الشباب واندفاعه وحكمة الشيوخ وخبرتهم. فقد دخل رجل على ابن الخشاب، وهو مريض، وعلى صدره كتاب ينظر فيه، فسأله عن الكتاب، فقال ابن الخشاب: ذكر ابن^(١) جني مسألة في النحو، واجتهد إن يستشهد عليها ببيت من الشعر فلم يحضره، واني لاعرف على هذه المسألة سبعين بيتا من الشعر كل بيت من قصيدة تصلح ان يستشهد به عليها^(٢). وابن الخشاب هذا الف كتابا سماه «اغلاط الحريري في مقاماته»^(٣).

وكما يحدث دائما، نجد بعض الشباب يستبد بهم الغرور، فلا يكتفون بنقد آراء الشيوخ ولا يحاولون ايجاد الاعذار لهم بل ينكرون جهود اسلافهم، مدعين انهم وحدهم العباقره العلماء. ومن هذا الصنف في القرن السادس علي بن الحسن المعروف بشميم الحلي المتوفى سنة ٦٠١ هـ، قال: ان الاوائل جمعوا اقوال غيرهم واشعارهم وبوبوها، أما أنا فكل ما عندي من نتائج افكاري، وكنت كلما رأيت الناس مجمعين على استحسان كتاب في نوع من الاداب استعملت فكري وانشأت من جنسه ما ادحض به المتقدم^(٤).

ويعتبر كتاب «اللمع» لابن جني من اشهر الكتب التي اهتم بشرحها نحاة القرن السادس. فقد شرحه ابن الدهان، سعيد بن المبارك، في كتاب سماه «الغرة»، قال عنه ابن خلكان انه: «لم ير مثله مع كثرة شروح هذا الكتاب»^(٥)، شرحه ايضا ابو البقاء العكبري^(٦) المتوفى سنة ٦١٦ هـ^(٧)، وابو محمد بن الخشاب^(٨)، وشميم الحلي^(٩)، وهبة الله بن الشجري المتوفى سنة ٥٤٢ هـ^(١٠)، ومحمد بن علي المعروف بابن حميدة النحوي المتوفى سنة ٥٥٠ هـ^(١١).

(١) العالم اللغوي المشهور المتوفى سنة ٣٩٢ هـ.

(٢) ذيل طبقات الخنابلة ٣١٧/١

(٣) نفسه ٣١٨/١

(٤) معجم الادباء ١٣٠/٥ ط. ماركليوث الثانية.

(٥) وفيات الاعيان ١٢٤/٢

(٦) نسبة الى عكبرا، قال ياقوت انها: بليدة من نواحي دجيل.. بينها وبين بغداد عشرة فراسخ.. (معجم البلدان..

عكبرا).

(٧) وفيات الاعيان ٢٨٦/٢

(٨) معجم الادباء ١٣٨/٥ ط. ماركليوث الثانية.

(٩) نفسه ٢٨٨/٢

(١٠) معجم الادباء ٤٠/٧ ط. ماركليوث الاولى

(١١) وفيات الاعيان ٩٦/٥

وشرح ابن الجواليقي «ادب الكاتب» لابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ^(١)،
وشرح ابو البقاء العكبري كتاب «الايضاح» لأبي علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ^(٢)،
وشرح ابن الخشاب كتاب «الجمال» لعبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ^(٣).

اما التذييل على مؤلفات السابقين فمنه : ذيل «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي من
تأليف هبة الله بن المبارك، المحدث الرحال المتوفى سنة ٥٠٩ هـ^(٤)، وذيل «دمية القصر»
للباخرزي^(٥) من تأليف سعد بن علي الخطيري، المسمى «زينة الدهر»^(٦).

أما مؤلفات رجال القرن السادس - غير ما تقدم - فكثيرة جدا شملت جميع فروع
المعرفة، حتى لا يدري الباحث كيف يختار امثلة قليلة من هذا الحشد الهائل؟ وماذا كان
يفعل هؤلاء الاسلاف لو قدر لهم ان يعيشوا في غير الظروف السيئة التي احاطت بهم؟

يعتبر ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ، من اكثر الناس تأليفا
في القرن السادس، حتى قال ابن خلكان عنه : ان كتبه اكثر من ان تعد^(٧). ومعظم كتب
ابن الجوزي في القرآن الكريم والحديث الشريف والتاريخ. ولأبي البقاء عبد الله بن الحسين
العكبري : «اعراب القرآن» و«اعراب الحديث» و«اعراب شعر الحماسة» وغيرها^(٨). ولهبة
الله بن الشجري : «شرح التصريف الملوكي» وكتاب «ما اتفق لفظه واختلف معناه»^(٩).

وفي البلاغة كتب سعد الخطيري «لمح الملح»، قال عنه صلاح الدين الصفدي انه :
قد هذبه ونقحه وسماه «حرم المدح في تهذيب لمح الملح»^(١٠). ولشميم الحلبي «انس المجلس
في التجنيس» وكتاب «انواع الرقاع في الاسجاع»^(١١).

اما في الادب فقد ألف ابن الشجري «الامالي» و«الحماسة»، وهذا الكتاب الثاني
ضاهى به حماسة ابي تمام الطائي^(١٢)، ولابن الدهان «الرسالة السعيدية»^(١٣) في المآخذ
الكندية^(١٤)، وهو يشتمل على سرقات المتنبي^(١٥)، ولابي البركات عبد الرحمن بن محمد

(٢) وفيات الاعيان ٢/ ٢٨٦

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٠٥

(٤) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ١١٤

(٣) نفسه ٢/ ٢٨٨

(٥) هو ابو الحسن علي بن الحسن، ينسب الى باخرز، احدى نواحي نيسابور، عرف بالفقه والحديث يكنى الادب غلب

عليه. قتل سنة ٤٦٧ هـ. معجم الادباء ١٣/ ٣٣ (ط). دار المأمون، وفيات الاعيان ٣/ ٦٦، شذرات الذهب ٣/ ٣٢٧

(٦) وفيات الاعيان ٢/ ١٠٩

(٨) نفسه ٢/ ٢٨٦

(٧) وفيات الاعيان ٢/ ٣٢١

(٩) نفسه ٥/ ٩٦

(١٠) الوافي بالوفيات ٨/ ١٢٤ مصور.

(١١) معجم الادباء ٥/ ١٣٨ ط. ماركليوت الثانية. (١٢) وفيات الاعيان ٥/ ٩٦

(١٣) نسبة الى سعيد بن المبارك، وهو ابن الدهان. (١٤) نسبة الى كندة، حلة في الكوفة، منها ابو الطيب المتنبي.

(١٥) وفيات الاعيان ٢/ ١٢٤

الانباري كتاب في «طبقات الادباء» جمع فيه المتقدمين والمتأخرين مع صغر حجمه^(١). ولعل هذا الكتاب هو المطبوع باسم «نزهة الالباء».

المدارس :

ان كثرة المدارس والانفاق عليها بسخاء وميل الناس - وخاصة الاثرياء - الى بناء مدارس جديدة او وقف دورهم وقصورهم لتكون مدارس ، كل هذا يدل على نهضة ثقافية ووعي علمي لا شك فيها.

ولا بد من الاشارة هنا الى ان معلوماتنا عن المدارس العراقية خارج بغداد قليلة بسبب عدم الاشارة اليها في المصادر القديمة الا نادرا . فنحن - على سبيل المثال - لا نعرف من مدارس البصرة التي كانت قائمة في القرن السادس سوى مدرستين هما : مدرسة باتكين للحنابلة^(٢) ، والمدرسة النظامية^(٣) . ولا نعرف من مدارس واسط سوى اربع مدارس هي : مدرسة ابي الفضل الغزنوي ، محمود بن احمد المتوفى سنة ٥٦٣ هـ^(٤) ، ومدرسة ابن الكيال ، نصر الله بن علي الواسطي المتوفى سنة ٥٨٦ هـ^(٥) ، ومدرسة خطلبرس^(٦) ، ومدرسة شرف الدولة ، محمد بن يوام^(٧) . ولكن معلوماتنا عن المدارس البغدادية كافية لاعطاء فكرة عن الجانب المدرسي من الحياة الثقافية ، وهو ما سأحاوله في الصفحات الآتية .

يمكن أن نجد نوعين من المدارس - من حيث القدم - في القرن السادس وهما :

١ - المدارس التي اسست قبل هذا القرن واستمرت تؤدي رسالتها الى القرن السادس ، بل واستمرت بعده فترة طويلة ، واشهر هذه المدارس اثنتان هما : المدرسة النظامية المشهورة التي اسسها الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي ، وافتتحت رسميا سنة ٤٥٩ هـ^(٨) ، والمدرسة الثانية هي مدرسة الامام ابي حنيفة ، وقد افتتحت هي الاخرى سنة ٤٥٩ هـ^(٩) .

(١) نفسه ٢ / ٣٢٠

(٢) نشأة المدارس المستقلة ص ١١ ، ناجي معروف .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٦ / ١٧٥

(٤) الجواهر المضية ٢ / ١٥٤

(٥) نفسه ٢ / ١٩٨

(٦) مدارس واسط ص ١٦ ، وفي ابن الاثير ١١ / ١٣٠ : يشير الى مقتل خطلبرس مقطع واسط سنة ٥٦١ هـ . فلعله هو

مؤسس المدرسة .

(٧) مدارس واسط ص ١٩

(٨) وفيات الاعيان ١ / ٣٩٦

(٩) ابن الاثير ١٠ / ٢٠ ، وانظر : اخبار الدولة السلجوقية ص ٦٩

٢ - المدارس التي اسست في القرن السادس ومن اشهرها المدرسة الثقتية التي بناها ثقة الدولة، علي^(١) بن محمد الانباري، وافتتحت للدراسة سنة ٥٤٠ هـ^(٢)، وكانت للشافعية. ومن الذين درسوا فيها الكاتب المؤرخ عماد الدين الاصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ^(٣). ومدرسة الوزير عون الدين، يحيى بن محمد بن هبيرة المتوفى سنة ٥٦٠ هـ للحنابلة، وكانت بباب البصرة في الجانب الغربي من بغداد^(٤). ويبدو ان هذه المدرسة قد زالت من الوجود قبل سنة ٥٨٠ هـ، حين زار الرحالة ابن جبير بغداد^(٥).

ويظهر الصراع المذهبي واضحا في تأسيس المدارس وفي الدراسة والتدريس بها. فلكل مذهب مدارس التي يحاول عن طريقها نشر تعاليمه وتشجيع كبار العلماء على اعتناقها ليستطيعوا التدريس في مدارس المذهب الخاصة. فقد كانت المدارس النظامية - ومنها نظامية بغداد - من اسباب انتشار المذهب الشافعي، لان كل طالب لا يقبل فيها الا اذا كان شافعيًا، وكذلك المدرس^(٦). قال ابو البقاء العكبري - وكان حنبلي المذهب -: جاء الي جماعة من الشافعية، فقالوا: انتقل الى مذهبنا ونعطيك تدريس النحو واللغة بالنظامية، فأقسمت وقلت: لو اقمتموني وصيبتم علي الذهب حتى اتواؤى، ما رجعت عن مذهبي^(٧).

ولكن العلماء ليسوا كلهم في صلابة ابي البقاء، فقد انتقل ابو بكر المبارك بن المبارك الملقب بالوجيه النحوي المتوفى سنة ٦١٢ هـ. من مذهب ابي حنيفة الى المذهب الشافعي ليتولى تدريس النحو بالمدرسة النظامية، فقال فيه المؤيد بن زيد التكريتي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ:

ومن مبلغ عني الوجية رسالةً وان كان لا تجدي اليه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل وذلك لما أعوزتلك المآكل
اخترت قول الشافعي تدينا ولكنها تهوى الذي منه حاصل
وعما قليل انت - لا شك - صائر الى مالك^(٨)، فافطن لما انا قائل^(٩)
وكذلك انتقل عماد الدين ابو بكر محمد بن يحيى السلامي، المعروف بابن الحخير،

(١) هو المعروف بابن الدبري، زوج فخر النساء الكاتبة العالمة شهيدة بنت الابري، توفي ثقة الدولة سنة ٥٤٩ هـ. المنتظم

١٠/ ١٦٠، الخريدة ١/ ١٤٤، وفيات الاعيان ٢/ ١٧٣

(٣) الخريدة ١/ ١٤٤ - ١٤٥

(٢) المنتظم ١٠/ ١١٥ - ١١٦

(٥) رحلة ابن جبير ص ٢٠٥ (ط. دار صادر).

(٤) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٣٦٦

(٦) تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٢٢٣ - ٢٢٤، ٢٢٧

(٧) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ١١١

(٨) اراد مالكا خازن النار، لا الامام مالكا، وهو من التورية.

(٩) وفيات الاعيان ٣/ ٢٩٩

وكان من اعيان الفقهاء علما ودينا وصلاحا وعدالة وورعا، انتقل عن مذهب احمد الى مذهب الشافعي، وسلمت اليه المدرسة الاساباذية^(١) بين الدريين تدرسا ونظرا^(٢).

ان الاختلاف المذهبي بين اهل بغداد، هو الذي جعل مدارسها على ثلاثة أقسام:

١ - المدارس الشافعية: ومنها مدرستان سبقت الاشارة اليهما وهما: المدرسة النظامية ببغداد، والمدرسة الثقتية.

٢ - المدارس الحنبلية: ومنها مدرسة ابن هبيرة، وقد اشرفنا عليها. ومن مدارس الحنابلة ايضا: مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني بباب الأرزج في بغداد الشرقية، وقد بناها القاضي ابو سعد المخرمي، قاضي باب الازج المتوفى سنة ٥١٣ هـ، ولكن الشيخ عبد القادر وسعها وسكن بها، فعرفت به^(٣).

ومن مدارس الحنابلة ايضا مدرسة ابن بكروس، وهو احمد بن محمد بن المبارك الدينوري المتوفى سنة ٥٧٣ هـ، وكانت بدرب^(٤) القيار ببغداد الشرقية^(٥).

٣ - مدارس الحنفية: وأشهرها مدرسة ابي حنيفة بباب الطاق من بغداد الشرقية، وقد سبقت الاشارة اليها. ومن مدارس الحنفية الاخرى: المدرسة التاجية^(٦) التي انشأها تاج الملك ابو الغنائم وزير السلطان ملكشاه سنة ٤٨٢ هـ^(٧).

وحين زار ابن جبير بغداد سنة ٥٨٠ هـ، قال: «... والمدارس بها نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة الا وهي يقصر القصر البديع عنها. ولهذه المدارس اوقاف عظيمة وعقارات محبة تتصير الى الفقهاء والمدرسين فيها، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم، ولهذا البلاد في امر هذه المدارس، والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلص^(٨)». المساجد والجوامع:

المسجد مدرسة المسلمين الاولى، وقد بقي كذلك في العصور العباسية المتعاقبة ومنها المائة السادسة، على الرغم من كثرة المدارس المستقلة عن المساجد.

(١) كانت في الجانب الشرقي من بغداد. دليل خارطة بغداد ص ٢٤٧

(٢) الجامع المختصر ٢١٩/٩ (٣) ذيل طبقات الحنابلة ١/١٦٦ - ١٦٧

(٤) من محلات بغداد التي لم تكن موجودة قبل العهد السلجوقي. تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٤٠٨

(٥) ذيل طبقات الحنابلة ١/٣٣٨

(٦) كانت في الجانب الشرقي من بغداد. دليل خارطة بغداد ص ٢٤٧

(٧) الجواهر المضية ١/٣٤١، وانظر تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٣٨١

(٨) رحلة ابن جبير ص ٢٠٥ (ط. دار صادر).

وكان الاثرياء يتنافسون لانشاء المساجد ووقفها على الناس طلبا للثواب في اليوم الآخر، ولم تدخر الدولة في تشييد المساجد ومنافسة الافراد في هذا المجال.

ولعل اهتمام الدولة الشديد بالجوامع يبدو واضحا في بناء جامع^(١) السلطان، فقد بدأ به السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ تحت اشراف قاضي القضاة، وجلبت اخشابها من سامراء، ولكن بناءه لم يتم الا سنة ٥٢٤ هـ على يدي بهروز الخادم^(٢)

اما الافراد الذين عرفوا بتشيد الجوامع فمنهم السيدة زمرد أم الخليفة الناصر المتوفاة سنة ٥٩٩ هـ، وقد شيدت مسجدا في الحظائر ببغداد الشرقية^(٣). وكذلك شيدت بنت السيدة بنفشة مولاة المستضيء بأمر الله المتوفاة سنة ٥٩٨ هـ مسجدا كبيرا بسوق الخبازين في الجانب الشرقي من بغداد^(٤). واشترى ابو الحسن علي بن احمد العلوي الزيدي المتوفى سنة ٥٧٥ هـ دارا بدر^(٥) دينار ببغداد الشرقية وبنائها مسجدا، واشترى كتبا كثيرة اوقفها في المسجد ليتنفع بها الناس^(٦). وفي مسجد الزيدي هذا اوقف ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ كتبه. وعندي ان حرمة المساجد وقديستها تتيح للدارسين وتوفير لهم جوا خاصا منعزلا عن صخب الحياة وضجيجها، ولذلك امتاز نتاج المسجدين بالكثرة والدقة وأتسمت حياتهم بالخشونة والبساطة. ومن اشهر رجال القرن السادس الذين قامت شهرتهم على ملازمة المساجد والعكوف فيها اثنان:

الأول: عبد الله بن علي، المعروف بسبط الخياط المتوفى سنة ٥٤١ هـ، شيخ العراق ورأس اصحاب الامام احمد، كان طول عمره منفردا في مسجد^(٨) أبي عبد الله بن جرده بنهر^(٩) معلى ببغاد الشرقية، وكان أكابر العلماء وأهل بلده يقصدونه^(١٠).

والثاني: صدقة بن الحسين الذي انقطع بمسجده بالبدرية^(١١) شرقي بغداد، يؤم

(١) كان في محلة المخرم قرب دار السلطنة السلجوقية. دليل خارطة بغداد ص ١٠١ هـ ٣

(٢) المنتظم ٦٠ / ٩

(٣) دليل خارطة بغداد ص ١٨٣ (٤) نساء الخلفاء ص ١١٣

(٥) نسبة الى دينار بن عبد الله، من موالي الرشيد وكان من أجل القواد في زمن المأمون. دليل خارطة بغداد ص ١١٩

(٦) مرآة الزمان ٣٥٦ / ٨، وانظر دليل خارطة بغداد ص ١٧٤ - ١٧٥

(٧) شذرات الذهب ١٢٢ / ٥

(٨) لم يذكر هذا الجامع بين جوامع بغداد التي ذكرها مؤلفا دليل خارطة بغداد، بل ذكر «خربة ابن جردة» ص ١٦٤، فلعل الجامع كان فيها.

(٩) محلة ببغداد وفيها دار الخلافة. تنسب الى المعلى بن طريف مولى المهدي وكان من كبار قواد الرشيد. (معجم البلدان. غير المعلى).

(١٠) ذيل طبقات الحنابلة ٢٠٩ / ١

(١١) تسمى ايضا «باب بدر»، كما سبق أن اشرت في الهامش ص ٣٣.

الناس فيه وينسخ ويفتي ويتردد اليه الطلبة يقرأون عليه فنون العلم، وبقي على ذلك نحواً من سبعين سنة حتى توفي سنة ٥٧٣ هـ^(١).

أما أشهر جوامع بغداد في أواخر القرن السادس فهي:

١ - في بغداد الغربية: جامع المنصور، وقد وصفه ابن جبير حين زار بغداد سنة ٥٨٠ هـ، بانه: «جامع كبير عتيق البنيان»^(٢).

ومن الذين كانت لهم حلقة بجامع المنصور علي بن عبيد الله المعروف بابن الزاغوني^(٣) البغدادي المتوفى سنة ٥٢٧ هـ، اذ كان يناظر فيها يوم الجمعة قبل الصلاة، ثم يعظ بعد الصلاة، ويجلس يوم السبت ايضاً^(٤). وبعد وفاة ابن الزاغوني اخذ حلقة ابو علي الحسن بن محمد الفقيه الواعظ المتوفى سنة ٥٤٦ هـ، وطلبها ابن الجوزي فلم يعطها لصغر سنه^(٥). ومن النحاة الغلماء الذين كانوا يجلسون في جامع المنصور هبة الله بن علي بن الشجري، وكان يجلس يوم الجمعة مكان ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ^(٦).

٢ - في بغداد الشرقية: جامع القصر ويسمى ايضاً جامع الخليفة، وهو الجامع الرسمي للدولة العباسية فيه تقرأ عهود القضاة ويصلى على جوائز الاعيان والعلماء^(٧). ومن مدرسي الحديث في هذا الجامع محمد بن عبد الباقي. ابو بكر ويعرف بقاضي المارستان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ، قال عنه تلميذه ابن الجوزي: كان ثقة فهماً ثباتاً حجة متفناً في علوم كثيرة، منفرداً في علم الفرائض^(٨). ومن ائمة اللغة الذين درسوا في هذا الجامع ابو منصور موهوب بن احمد. الجواليقي البغدادي، صاحب «المعرب»^(٩) وبعده كان ابنه اسماعيل المتوفى سنة ٥٧٥ هـ يدرس الأدب كل جمعة بجامع القصر نفسه^(١٠).

الربط:

كان للربط دور بارز في حياة القرن السادس الثقافية، ففيها كان يلتقي العلماء والمفكرون للدراسة والبحث والمناظرة، وفي مكتباتها يجد عشاق الكتب وهواة المطالعة نفائس الآثار وروائع المصنفات، وفي الربط كان يقيم طلبة العلم المغتربون الذين كانوا يقصدون بغداد للدراسة، وكذلك كان ينزل في الربط كثير من العلماء عند مرورهم ببغداد

(٢) الرحلة ص ٢٠١ (ط. دار صادر).

(٣) نسبة الى زاغوني، قال ياقوت: ما اظنها الا من قرى بغداد. (معجم البلدان. زاغوني).

(٥) نفسه ١/ ٢٢٠

(٧) دليل خارطة بغداد ص ١٢٤ - ١٢٥

(٩) وفیات الاعيان ٤/ ٤٢٥

(١) ذيل طبقات الخنابلة ١/ ٣٣٩

(٣) نسبة الى زاغوني، قال ياقوت: ما اظنها الا من قرى بغداد. (معجم البلدان. زاغوني).

(٤) ذيل طبقات الخنابلة ١/ ١٨٠ - ١٨١

(٦) المنتظم ١٠/ ١٣٠

(٨) المنتظم ١٠/ ٩٤، ذيل طبقات الخنابلة ١/ ١٩٤

(١٠) ذيل طبقات الخنابلة ١/ ٣٤٧

وحين عودهم من الحج، فيلقون من شيوخها كل ترحاب وكرم وضيافة.

وقد وجد ببغداد في انفترة التي ادرسها نوعان من الربط:

١- ربط خاصة بالنساء ومنها: رباط^(١) فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن فضلوويه الرازي، وقد سمع منها ابن الجوزي كتاب «ذم الغيبة» لابراهيم^(٢) الحربي، وقال انها: كانت متعبدة واعظة توفيت سنة ٥٢١ هـ. ويرى الدكتور مصطفى جواد ان رباط فاطمة هذا هو اول رباط انشيء للنساء المسلمات^(٣) ومن ربط النساء ايضا رباط دار الفلك بناء الخليفة الناصر لدين الله سنة ٥٨٦ هـ وخصصه بالنساء المتصوفات، وكان قريبا من دجلة^(٤). ومنها رباط السيدة بنفشة، وقد افتتح اول رجب سنة ٥٧٣ هـ، وكان قد افرد لاخت ابي بكر الصوفي شيخ رباط^(٥) الزوزني^(٦).

٢ - ربط خاصة بالرجال وهي كثيرة تزيد على الاربعين رباطا^(٨)، ومن اسماء مؤسسي هذا الربط نعلم ان بعض المتنفذين الموسرين شيّدوا أكثر من رباط، كما فعل بهروز^(٩) وابن^(١٠) رئيس الرؤساء^(١١).

ومن أشهر هذا النوع من الربط رباط ناصر الدين محمود بن عثمان بن مكارم النعال البغدادي الازجي^(١٢) المتوفى سنة ٦٠٩ هـ، فقد كان هذا الرباط مجمعا للفقراء وأهل الدين والفقهاء. . وكان الاشتغال فيه بالعلم أكثر من الاشتغال في سائر المدارس^(١٣). ولا يكاد رباط من الربط البغدادية يخلو من مكتبة حافلة بنفائس المؤلفات.

(١) كان في الجانب الشرقي من بغداد. دليل خارطة بغداد ص ٢٥٢

(٢) هو ابراهيم بن اسحاق الحربي، محدث، فقيه، اديب، لغوي، اصله من مرو ومات ببغداد سنة ٢٨٥ هـ. تاريخ بغداد المنتظم ٢٧/٦، فوات الوفيات ٣/٦، ٥/١.

(٣) المنتظم ٧/١٠ - ٨.

(٤) مجلة سومر ١٩٥٤/٩٠، مقال بعنوان «الربط البغدادية».

(٥) المصدر السابق، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٣٨٩

(٦) نسبة الى ابي الحسن علي بن محمود الصوفي المتوفى سنة ٤٥١ هـ. وكان هذا الرباط مقابلا لجامع المنصور في الجانب الغربي من بغداد. المنتظم ١٢٤/٨، المختصر المحتاج اليه ٣٧/١

(٧) المنتظم ٢٧١/١٠

(٨) دليل خارطة بغداد ص ٢٥٠ - ٢٥٣

(٩) نفسه ص ٢٥٠

(١٠) هو غصن الدين ابو الفرج محمد بن عبد الله، كان استاذ الدار ايام المستنجد واستوزر في خلافة المستضي. قتل سنة

٥٧٣ هـ. المنتظم ٢٨٠/١٠، ابن الاثير ١٤٥/١١

(١١) دليل خارطة بغداد ص ٢٥١

(١٢) نسبة الى باب الأزج، من محلات الجانب الشرقي من بغداد. (معجم البلدان. باب الأزج).

(١٣) شذرات الذهب ٣٨/٥

ففي سنة ٥٨٩ هـ فرغ من عمارة الرباط الذي امر بانشائه الخليفة الناصر بالحریم^(١) الطاهري غربي بغداد على دجلة، وهو من أحسن الربط ونقل اليه كتب كثيرة من احسن الكتب^(٢). . . وحين توفي ابن الخشاب- وقد سبقت الاشارة الى غرامه بالكتب- تفرقت مكتبته وبيع اكثرها ولم يبق الا عشرها، فتركت في رباط^(٣) المأمونية وقفا^(٤). وكان ابو الحسن علي بن احمد المؤدب المقرئ يتولى خزانة كتب رباط الزوزني^(٥). . .

(١) كان اشي به بقصر ملكي، وينسب لطاهر بن الحسين بن مصعب، احد قواد المأمون المتوفى سنة ٢٥٧ هـ. دليل خارطة

بغداد ص ٩٤

(٢) ابن الاثير ٤٣/ ١٢

(٣) هو رباط السيدة زمرد خاتون والدة الخليفة الناصر، وكان في الجانب الشرقي من بغداد. دليل خارطة بغداد ص ٢٥٢

(٤) ذيل طبقات الحنابلة ٢١٩/ ١٠

(٥) مجلة سومر ١٩٥٤/ ٩٠

الفصل الثاني
شعراء محافظوُن

الاتجاه المحافظ

وقد يسمى ايضا بـ «الشعر التقليدي» او «الشعر القديم» أو «الشعر الكلاسيكي» .

ان كون هذا الشعر محافظا لا يعني بداهة انه تقليد للشعر الجاهلي او للشعر الاسلامي او الاموي، وانى يكون كذلك وبين العصرين اكثر من خمسة قرون قلبت كل شيء رأسا على عقب، فتغيرت الدنيا وتبدل المجتمع .

ان المحافظين في القرن السادس، وان ظلوا داخل الاطار العام للمحافظة من ناحية الشكل والاسلوب والخصائص العامة، استطاعوا أن يجددوا هنا وهناك بما لا يلحقهم بتيار التجديد كلية ولا يبعدهم عن التيار المحافظ بمعناه العام .

ان الاتجاه المحافظ يشمل شعراء كثيرين تفاوتت حظوظهم من الجودة كما اختلفت ثقافتهم ومكانتهم الاجتماعية، فمنهم الاعيان كالوزراء وابنائهم واخوانهم، ومنهم الزعماء والقادة ورؤساء الطوائف الدينية وعلماء النحو واللغة والاطباء والفقهاء بالاضافة الى الشعراء المحترفين .

والاتجاه المحافظ في شعر العراق في القرن السادس من اكبر الاتجاهات الشعرية التي سادت تلك الحقبة، بل هو اكبرها على الاطلاق اذا اخذنا بكمية الشعر التي وصلتنا عن طريق خريدة القصر لعمد الدين الاصبهاني ودواوين اشهر الشعراء كالحيص بيص المتوفي ٥٧٤ هـ، وسبط بن التعاويذي المتوفي ٥٨٣ هـ، ومحمد المولد المعروف بالابله البغدادي المتوفي ٥٧٩ هـ ومحمد بن علي المعروف بابن المعلم الواسطي المتوفي ٥٩٢ هـ .

ان معظم الشعر المحافظ الذي وصلنا، وكذلك معظم الشعر العراقي عامة كان لشعراء بغداديين او ممن اتصل بأهل بغداد بسبب من الاسباب . أما شعراء المناطق البعيدة عن العاصمة في جنوب العراق او شرقه وغربه، فان معرفتنا بهم تقف عند خريدة القصر وما استطاع صاحبها ان يدونه خلال عمله الرسمي في خدمة الدولة العباسية، وهو امر يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار عند دراسة شعر الفترة وتقييمه .

ولعل ندرة شعر المرأة العراقية الذي وصلنا، وخاصة المرأة البعيدة عن بغداد، من الاسباب التي ترجح ان معلوماتنا عن هذه الفترة ليست دقيقة، وان مصادرها اهتمت بشعر الرجال واهملت الشعر النسوي فلم تصلنا سوى قلة من اسماء^(١) الشواعر من اشهرهن الشاعرة الفقيهة ام علي الرشيدة، وقد كانت حية ترزق ايام اقامة العماد الكاتب في البصرة سنة ٥٥٦ هـ. ومن شعرها مقطوعات اوردها صاحب الخريدة نقلا عن ولدها السيد علي العبدى مثل قولها:

دع سالف الاموات لا تبكهم وابكِ على نفسك يا جاهلُ
ما انت بالخالد من بعدهم انت على اثارهم راحلُ^(٢)

وقولها ترثي:

اقول - ولم ابلغ نهاية فضلها - : بكاك ويبكي الوالد المتندمُ
تشير، فلا يعيا الصواب برأيا يعزّ علينا كيف تنسى وتعدمُ
وانْ تَكُ قد ماتت لنا اسوة بمن مضى قبلها فيما يظنُ ويعلمُ
وفاطمة الزهراء بنت محمد - عليها سلام الله - ماتت ومريم^(٣)

١ - شعراء محافظون:

اشرت قبل قليل الى كبر واتساع تيار الشعر المحافظ سواء من حيث عدد الشعراء ام كمية الشعر التي وصلتنا وكذلك الأغراض الشعرية التي طرقت، ولا سبيل الى دراسة هذا الركام الشعري الهائل الا عن طريق تجزئته، فكان ان صارت الأغراض الشعرية في جزء مستقل، وخصصت هذا الجزء لدراسة الشعراء المحافظين بعد ان وجدت ان هؤلاء يمكن ان يدرسوا على شكل مجموعات صغيرة تربط بينها صفة مشتركة، تتضح بين وحدات كل مجموعة، وبذلك اصبح الشعراء المحافظون اربع مجموعات كما يلي:

(١) في كتاب «نزهة الجلساء في اشعار النساء» للسيوطي، وردت اسماء ثلاث من شاعرات القرن السادس وشيء من شعرهن وهن:

أ - سلمى البغدادية ص ٥٨

ب - بدر التمام بنت الحسين بن عبد الوهاب البار ص ٢٨

ج - شهدة بنت الابري ص ٦١

(٢) خريدة القصر ٤ / ٦٨٩

(٣) المصدر نفسه ٤ / ٦٩٠

أ - شيوخ المحافظين :

وأشهر هؤلاء اربعة شعراء هم : سعد بن محمد المعروف بالحيص ببص المتوفى سنة ٥٧٤ هـ، وطلحة بن محمد (وقيل احمد) النعماني^(١) المتوفى سنة ٥٢٠ هـ، وابو فراس علي^(٢) بن محمد بن غالب العامري المتوفى سنة ٥٧٣ هـ، ومفلح^(٣) بن علي الانباري المتوفى سنة ٥٦١ هـ.

يمثل هؤلاء الشعراء رافدا فريدا من روافد الشعر المحافظ، لانهم لم يلتزموا بالمحافظة في شعرهم وحده، بل ان بعضهم^(٤) كان محافظا في سلوكه وطريقة تصرفه بين الناس كذلك، فهم محافظون فطرة وسليقة، وحياة. فلا غرابة ان جاء شعرهم صورة صادقة لذواتهم، فكان يمثل اقصى ما بلغته المحافظة في القرن السادس، بحيث يخيل لك - وانت تطالع شعر الحيص ببص مثلا - انك تقرأ في ديوان احد شعراء الفترات المتقدمة كثيرا عن القرن السادس كالعصر الاموي او صدر الاسلام^(٥).

ان الموازنة بين الحيص ببص وزملائه من الذين تطرفوا في المحافظة بين شعراء القرن السادس، تقنع الباحث ان هذا الشاعر خير من يدل على الشخصية الادبية المثالية في تعلقها بالقديم وتعمدها - ربما بدون قصد - الايغال في البعد عن عصرها وأهله حتى ليشعر الدارس ان الحيص ببص غريب بين شعراء القرن السادس وهي غربة حملت احد فضلاء الباحثين المحدثين على اتهام الشاعر بتهمة لم اجد في شعر الرجل واخباره ما يرجحها^(٦).

وعلى الرغم من كوننا لا نملك شعر الحيص ببص كله، فان ما وصلنا من هذا الشعر، وكذلك كثرة الذين ترجموا له ونقلوا اخباره وقسما من شعره، كل ذلك - اذا قورن بما نعرف عن زملائه - يجعل الباحث يخطو على أرض صلبة ويصدر أحكامه وآراءه بعيداً عن الحدس والافتراض حين يتخذ الحيص ببص مثالا لشيوخ المحافظين.

وافضل طريقة يمكن بها تبيان مذهب الحيص ببص في الشعر هي ان نوازن بينه وبين

(١) منسوب الى «النعمانية» وهي بلدة بين بغداد وواسط. انظر ترجمته في: نزهة الالباء ص ٣٨٤، الخريدة ٣/٢ - ٥١، معجم الادباء ٢٦/ ١٢، ابنه الرواة ٩٣/ ٢، فوات الرويات ٤١٦/ ١، بغية الرعاة ص ٢٧٣

(٢) انظر ترجمته في: الخريدة ١٤١/ ٢ - ١٧١، المستفاد ٥٩، فوات الرويات ١٦٢/ ٢

(٣) انظر ترجمته في الخريدة ٣٠١/ ٤ - ٣١١

(٤) جاء في وفيات الاعيان ١٠٦/ ٢ - ١٠٧: «ان الحيص ببص كان لا يخاطب أحدا الا بالكلام العربي... وكان بليسي في العرب ويتقلد سيفا. وفي الخريدة ٣٠٢/ ٤: «ان مفلحا الانباري كان يتبادى في انشاده وايراده، ويسلك اسلوب العرب».

(٥) تكملة اكمال الاكمال ص ٣٧١ - ١، الغري: السنة ٦ عدد ١٤

(٦) الشعر العربي في العراق ٢/ ٦٤

احد كبار الشعراء من معاصريه وهو سبط بن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٣ هـ، وبذلك نقف على الفرق الشاسع بين شعر القرن السادس كله وشعر الحيفس بيص ومن تبعه في طريقته واسلويه.

١ - ان الغالبية المطلقة من مدائح ابن التعاويذي تبدأ عادة بمقدمة غزلية يغلب عليها الطول حتى تزيد على الثلاثين بيتا، وهذه الصفة تكاد تشمل جميع مدائح القرن السادس^(١)، اما الحيفس بيص فعلى خلاف معاصريه يندر ان يبدأ مدائحه بالغزل الا اذا اصر الممدوح وتوسل الى الشاعر^(٢)، ومن هذا النادر من مديحه الذي افتتح بالغزل قصيدته التي مطلعها:

عفا ضارج من آل ليلي فعائلُ وخفت باعباء القطين الرواحلُ
وهي التي بدأت بالغزل بناء على الخاح الممدوح.

ويبدو لي ان اسقاط الشاعر للمقدمة الغزلية قد اثار دهشة معاصريه، ولذلك احتاج الى تبرير هذه البدعة، فراح يزعم تارة ان ضيقة بمعاصريه وشكواه منهم، قد شغلت شعره وصرفته عن الغزل:

ضقت ذرعا ببني اللؤم، فما تَرَكت شكواي للشعر غزلُ
وغدا ترتيل دمي لهم شاغل القول عن الثغر الرتل^(٣)
وطورا يزعم انه لا يتغزل الا بالمجد والحرب والغارات وهذا هو الغزل الحقيقي في رأيه:

يقولون: جانبت النسب، وانما نسيبي ذكرى غارةٍ وتقَحَمِ
وفي غزل العلياء - لو تعلمونه - شفاء غرام وادكار متبهم
وكم مغرم بالمجد عز سلوه فاعرض لا يصغي الى قول لوم^(٤)
وقال في مطلع قصيدة ثالثة:

خَلَّ التغزل للمشوق المغرم فالمجد بين مثقفٍ ومطهم

(١) انظر دراسة الغزل والمدح من هذه الرسالة.

(٢) الديوان المطبوع ١/ ٣٦٦

(٣) الخريدة ١/ ٢٩٩، الثغر الرتل: المفلح الاسنان.

(٤) الديوان المطبوع ١/ ١٠٧ - ١٠٨

رغبت بك العلياء عن خدع الهوى فارغب بنفسك عن مقام مُتَمِّم^(١)

ولو عدنا الى سبط بن التعاويذي لرأيناه هو الآخر قد اسقط المقدمة الغزلية ولكن من قصائده الذاتية التي لم تنظم من اجل المدح، فهنا نجد الشاعر يرسل نفسه على سجيته ويطرح عن كاهله التقاليد الموروثة معبرا عما يحس ويعاني مرسلًا سهام نقده اللاذعات الى اولئك الذين وقفوا بينه وبين ما يريد^(٢)، وهكذا نجد عند هذا الشاعر ضربين من الشعر: شعرا نظم للمدح فلا بد فيه من مراعاة التقاليد ومنها المقدمة الغزلية، وشعرا ذاتيا محضا يفهم منه ان شاعرية الأديب وفنه لا بد ان تصور مطامح الفرد وآماله وتشير الى عيوب المجتمع بهدف الاصلاح والتقويم.

اما الحيص ببص فقد اختلط شعر المدح عنده بشعره الذاتي. فهو يعبر عن مطامحه وآماله ويشير الى ما في مجتمعه من عيوب ونقائص من خلال قصائده المدح. اذ يندر جدا ان تقف في ديوانه على قصيدة ذاتية تحس من خلالها ان الشاعر قد خلا الى نفسه وأوقف بعض شعره عليها. وهنا يناقض الشاعر نفسه، فقد مر انه ترك الغزل لانشغاله بالمجد وطلبه، وفي الوقت نفسه اوقف معظم ديوانه على المال والجري وراء الممدوحين.

ان ما وصلنا من غزل الحيص ببص - وهو قليل - كقوله:

يا حرة الابوين ان صَبَّابِي عَظُمْتُ، ومالي في وِصَالِك طَائِلُ
سَدُّ العَفَافِ عَلَيَّ كُلِّ ثَنِيَةٍ فَالْهَجْرُ عِنْدِي لِلْوَصَالِ مُمَائِلُ^(٣)

وقال في اول قصيدة مدح:

عفا الله عنها، هل يلم خيالها؟ فيقضي على رغم الرقيب وصالها
وما ملتقى الطيف الملم بناقع غليلاً، ولكن منية وضالها
تذكرتها، والحي للحي جيرة، يهون تلاقىها ويدنو منالها
وقومي وقوم العامرية عصبه كذات البنان ما يُرام انفصالها
رفاق ندئ لا يستقل نوالها واحلاف روع لا يفل نزالها
وفي ألسن الواشين صمت عن الخنا اذا ارشقت بالقول طاشت نبالها

(١) نفسه ١ / ٣٦٠

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٣٣ ق ١٤٧، ص ١٣٩، ٢٩٥، ٣٠٢

(٣) الخريدة ١ / ٢٩٥

فبت كأني شارب قَرْقَفِيهِ^(١) من الراح لم يفلل شباهها زلاها
أبى حبها إلا غرامي، وأصبحت تقطع إلا من فراقي حبالها
... الخ^(٢).

ان هذه النماذج من غزل الرجل، اذا اضفنا اليها ما يقوله المؤرخون من أنه كان «فقيها شافعي المذهب... وتكلم في الخلاف^(٣)». ^(٤) وانه كان «عالما لغويا خبيراً باشعار العرب^(٥)». وانه سمع شيئاً من الحديث^(٦)، اصف الى ذلك ما يشيع في ثنايا شعره وبين ابیات قصائده من ميل واضح الى الجدة والصرامة والخشونة والصراع^(٧)، كل ذلك يرجع ان الحيف بيبص لم يكن من ذوي الطباع التي تحسن الغزل وتجيّد في حديث العواطف والصبابات، وقد عرف الرجل من نفسه هذه الخصلة - على ما ارجح - كذلك ادرك انه يجيد ويحسن اذا افتخر او وصف الحرب، ولذلك اضرب عن الغزل صفحاً ومال الى الجانب الذي خلق له.

٢ - قصيدة المدح عند ابن التعاويذي وكذلك عند معاصريه عبارة عن وسيلة يستدر بها الشاعر كف المدح، ولذلك يحشد الشعراء لها كل ما يعرفون من اساليب، بحيث تميزت المدائح عن سواها من الشعر بخصائص منها: ان الشاعر لا يكف عن اطراء المدح والاشادة بكرمه وشجاعته وما عرف به من حميد الخصال، وقد يبالغ في ذلك ويخرج الى نعت ممدوحه بصفات تدل على فساد الذوق ورقة الدين^(٨). كذلك من صفات المدائح عموماً: ان ذات الشاعر وشخصيته لا وجود لها فالقصيدة وقف على المدح ومآثره وكل بيت منها له ثمن. وكلما اوغل الشاعر وظل يدور حول صفات المدح ويحاول استقصاءها كلما تضاعفت مكافأته.

ويلاحظ ان شاعر المدح وهو يطنب في وصف ممدوحه وما هو عليه من غنى وجاه وسلطة، لا ينسى ان يذكر حاجته وفقره وكثرة عياله وتكالب الزمن عليه، وان يذ المدح هي التي انقذته من قبضة الفقر وانتزعت من مخالب الأقدار. وحين اراد شعراء المدح في القرن السادس - وفي مقدمتهم ابن التعاويذي - المبالغة في وصف كرم ممدوحهم وشدة

(١) القرقف: الخمر التي يردد شاربها. الشبا: مفردا شباة: طرف الشيء وحده.

(٢) الديوان المطبوع ٨٤/١

(٣) الخلاف: الموازنة بين المذاهب الفقهية.

(٤) وفيات الاعيان ١٠٦/٢

(٥) المحتصر المحتاج اليه ٨٣/٢

(٦) المنتظم ٢٨٨/١٠

(٧) انظر الخريدة ١/٢٣٦، ٢٣٤، ٣٠٨، ٢٤٦، ٢٤٠ - ٢٤١، ٢٥٧، ٢١١ وغيرها.

(٨) انظر دراسة المدح من هذه الرسالة.

حيبتك حُبِّي شَهْيَ الحياةِ صَفَّتْ وتباعدَ ادراها
واسخطتُ فيك نفوسَ الملوكِ وما راع قلبي غضبانها
وفارقت اوطاني المونساتِ وعيش البريةِ أوطانها
انا المرء - إن كنت لي منصفاً - دليل المعالي وبرهانها^(١)

بل نجد الحيص بيص يسمي مديحه لأحد الوزراء بانه «سخاء» من الشاعر قال:

سخوت له بالمدح حبا وقربة فلا بالندی بلوى، ولا انا أكذبُ

تهنّ بوذي، انه لك عدة اعزّ من السيفِ الحسامِ وارهّب^(٢)

وقال لامير الغراف^(٣) المظفر^(٤) بن حماد بن أبي الجير:

يا ناصرَ الدين ادخرتُ من العلى كنزاً، ومثل مودّي لم تذخِرِ
أغنيك حمداً اذ أقولُ، وموسر لم اغنه حمداً، فليس بموسرِ
ولئن تعدّاني الحمامُ، فربّما كنتُ الذخيرةَ للجليلِ الأخطرِ^(٥)

ويمكن تصور منزلة الممدوح وقومه (آل أبي الجبر) من قول صاحب الخريدة عنه «فكل من يخشى من الخليفة والسلطان يجد عنده المن والمنى والامان فلا يقدر عليه ولا يساء اليه»^(٦).

ولا شك ان شاعرية الحيص بيص، وترفعه، واباءه هي الصفات التي جعلته ذا مكانة خاصة متميزة بين شعراء عصره فقال:

لا يحفظنك^(٧) حساد زعائفة صبرٌ على الضيمِ ورّاد على الكدرِ
مدفّعون عن الأبواب تقذفهم ايدي المراسم^(٨) قدّف السهمِ بالوترِ

(١) الديوان المطبوع ١/ ١٩٤

(٢) نفسه ١/ ١٩٧

(٣) انظر الفصل الاول ص ٢٢ هامش ٣

(٤) كان يلقب بـ «ناصر الدولة»، قال العماد عنه: . . . ملك البطيحة في زماننا . . . قتل سنة ٥٥١ هـ. الخريدة ٤/ ٥٢٩.

اخبار الدولة السلجوقية ص ١٣٧

(٥) الديوان المطبوع ١/ ٢٢١

(٦) الخريدة ٤/ ٥٢٩

(٧) لا يحفظنك: من الحفيظة وهي الغضب.

(٨) المراسم: اراد بهم الحجاب والحرس.

لهم الى النائل المنزور حقهقة^(١) وفي طلاب المعالي هجمة الحمر
ان شاركوني في قول، فلا عجب ما حال ابليس في التخليد كالخير
انازع الملك الطاغي وسادته ويجبون عن التسليم والنظر
كانني باذل ما جئت اطلبه عند الملوك، لفرط العز والخطر^(٢)

ولذلك صار ممدوحوه يشعرون بالزهو والخيلاء حتى ان بعضهم كان يدفع له الجائزة مقدما، ويوسط الوسطاء من اجل قصيدة مدح^(٣)، والبعض الآخر كان يوافق على جميع شروط الشاعر ومنها: ان يجلس وقت الانشاد على كرسي من ذهب^(٤)، واذا اخطأ الحاجب فلم يسمح للشاعر بالدخول وجب على سيده ان يعتذر^(٥).

وهكذا عرف الحيص بيص بـ «ملك الشعراء»^(٦)، وقد وصف نفسه بالملك، اكثر من مرة كقوله:

فلو لحظوا- عن أعين الحق- همتي رأوا ملك الآمال في زي شاعر^(٧)
وقوله:

ملك ثوى بالجاهلية رمة فبعثته منى ببركة زلزل^(٨)
وقوله:

إنني ملك، وانتم سوقة فات وقت النيب تجليح الرئال^(٩)

٣- ان دراسة ديوان الحيص بيص تقنع الباحث بأن من خصائص شعره التي ابعده عن معاصريه والحقته بالقدماء- غير ما تقدم- خصلتان هما اسلوبه الشعري اي طريقته، ولغته.

(١) الحققة: السير الشديد.

(٢) الديوان المطبوع ١٣٢/١ - ١٣٣

(٣) نفسه ١٣٢/١

(٤) نفسه ١٣٥/١

(٥) نفسه ١٣٧/١

(٦) تعليقه ابن جماعة ١١٦

(٧) الديوان المطبوع ١٠٢/١

(٨) نفسه ٩٨/١، بركة زلزل: مكان ببغداد منسوب الى منصور زلزل الضارب المشهور (معجم البلدان ١٥٢/٢)

(٩) نفسه ١٤٨/١، النيب: النوق المسنة. التجليح: الاقدام والتصميم. الرئال: صغار النعام.

أ - أما أسلوبه فيتضح حين نجد الشاعر في قصائد المدح يخرج عن الفرض الأصلي للقصيدة الى الوصف ثم يعود ثانية الى المدح بعد أن تكلف جملة أبيات وصف بها ليلة باردة ريحها شديدة ليقول ان ممدوحه - وهو وزير - يطعم الناس في اشباه تلك الليلة قال - بعد ان ترك المدح -

وإذا تَغَبَّرَ الفِجَاجُ، وأعصفت
وتَصَادمت مِرْقَ البيوتِ كأنها
وتشابه الوحش العزيبُ، ومن هم
فمَجَاسِدَ الفَتَيَاتِ (٦) أهب كَوَانِسَ (٧)
حيث المواقد كالموارد قرة
من غير ما مطر ولكن لزبة (١٠)
آويت ثم قرئت غير مسوف
وَكَفَفَتْ من هم المِسْفِ المُرْمَلِ (١٣)

وفي قصيدة ثانية نجد الشاعر ينتقل من المدح الى وصف السيل، ليقول بعد ذلك ان ممدوحه - وهو من الوزراء - اغزر كرما من هذا السيل:

وما مقبل من قنة (١٤) الطودِ زاحِرُ
لَهُ صَحْبَاتُ الاسدِ عَنْ مَصَالِهَا (١٥)
تَظَلُّ لَهُ عصم (١٦) اليَفَاعِ غَرِيقَةٌ
ويتبعها ضُبُ الفِلا وَغَزَالُهَا
إذا مرَّ بالسوءاءِ (١٧)، وهو مُزَجِرُ،
تدهى له كُثبانُها ورمالُها
تسرى شجر (١٨) الغلانِ فيه كانها
سفائن يم اسلمتها رجالها
... الخ (١٩) ثم يقول ان ممدوحه اكرم من هذا السيل - الذي مر وصفه - غاما كما فعل في القصيدة السابقة.

وعلى الرغم من وجود هذا الاسلوب الشعري عند بعض معاصري الحِصيص بيص كالابله البغدادي مثلا (٢٠) فان هذا الاخير موجز جدا في هذه الطريقة يعرج عليها مسرعا

- (١) الموج: الرياح العاصفة.
(٢) تراجم: تقاذف.
(٣) القروم البزل: فحول الابل التي بلغت التاسعة.
(٤) شغاع: متغرق.
(٥) القرة والافكل: الرعدة من البرد.
(٦) اهب: جنود.
(٧) كوانس: ظباء.
(٨) المغزون: التي لها غزال.
(٩) العائم الرعيد: السابح في الفلاة المرتحف من البرد.
(١٠) لزبة: قحط.
(١١) امهى عوارقها: زادها حدة.
(١٢) عصفوف: عاصف، شديد.
(١٣) الديوان المطبوع ١/ ٢٧٨ - ٢٧٩. السيف المرمل: الفقير الجائع.
(١٤) قنة الطود: اعلى الجبل.
(١٥) المصال: الصيال، المراكب والصراع.
(١٦) عصم اليفاع: الوعول التي تسكن المرتفعات.
(١٧) الوعاء: رليبة من رمل.
(١٨) الغلان: منابت السلم والطلح.
(٢٠) ديوان الابله و٥٠، و١٧٥ وغيرهما.

ثم يعود الى الغرض الاصلي من القصيدة دون اطالة ولا عناية بالتفاصيل، على عكس الحخيص بيص اذ يتفنن في عرض الصور ويختار الفاظها المناسبة المعبرة ولا يعود الى المدح الا بعد ان يتأكد انه وفى الموضوع حقه وزيادة، حتى ليخطر على البال ان الشاعر يعتمد الايغال في الوصف ورصد اجزاء الموصوف بهدف اظهار البراعة في نعت ما لم يره الشاعر.

ان البحث عن شبيه لطريقة الحخيص بيص هذه في العصر العباسي كله لن يسفر عن شيء - بحسب علمي - ولكنها موجودة في العصر الجاهلي حيث نجد الشعراء ينتقلون من المدح الى الوصف ثم يعودون ثانية الى المدح - مثل الحخيص بيص في القرن السادس - كقول النابغة الذبياني في قصيدته: «يا دار مية بالعلياء فالسند»:

فما الفرات اذا جاشت غواربه ^(١) ترمي أوأذيه ^(٢) العبرين ^(٣) بالزبد
يمده كل وادٍ مزبدٍ لجب فيه حطام من الينبوت ^(٤) والحضد ^(٥)
يظل من خوفه الملاح معتصماً بالخيزرانة ^(٦)، بعد الأين والنجد ^(٧)
يوماً باجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد ^(٨)

كذلك نجد الانتقال من الوصف الى الغزل عند أعشى قيس في قصيدته:

ودع هريرة، ان الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً ايها الرجل ^(٩)؟
وما دام شاعرنا الحخيص بيص قد رضي لنفسه ان يتابع الشعراء الجاهليين في اساليبهم، لذلك عمد الى عادة عربية عرفت ايام الجاهلية وهي ايقاد النيران على المرتفعات كي يهتدي بها المسافرون الى حيث يوجد القرى وكرم الضيافة فراح يصف نيران ممدوحيه من وزراء القرن السادس وقادته، قال يمدح امير البطائح ^(١٠):

واذا خبت نار اليفاع، فناره تهدي ركاب الخابط المتنور
نار تكاد من المكارم والندى تحبو، فلولا الباس لم تتسعر
رفعت لابلج من كنانة، دابه ضرب الجماجم تحت ظل العثير ^(١١)

وقال في مدح ملك العرب ديبس:

طليق الوجه، اغلب، مزيدي مضىء النار، مرفوع العماذ ^(١٢)

(١) الاواذي: الامواج.

(٢) الينبوت: صرب من النبات.

(٣) الخيزرانة: المردي.

(٤) شرح القصائد العشر ص ٤٠٨ - ٩.

(٥) انظر الفصل الاول ص ٢١ هامش ٥.

(٦) نفسه ١ / ٢٤٠.

(١) الغوارب: ما علامه.

(٢) العبران: الشيطان.

(٣) الحضد: مائى وكسر من النبات.

(٤) النجد: العرق من الكرب.

(٥) شرح القصائد العشر ص ٣٧٣ - ٧٤.

(٦) الخريدة ١ / ٢٤٨ - ٤٩. العثير: الغبار.

وقال من قصيدة في مدح سلطان السلاجقة طغرل بن محمد مفتخرا بقومه :

إذا اخذ النيرانَ قد^(١) مراوحُ باهداب^(٢) رجافِ العشيّةِ مرعدٍ
ولم يطق العجلان في قبسِ ضَرمةٍ حفاظًا لما يعرفه من رعشةِ اليَدِ
ولادّت بفريث^(٣) الموديات مع الدُّجى من القر رعيان، العزيب المبدّد
رأيت ضيوف الدارميين هَجَعاً لدى خير مثوى من رجالٍ وموقِد^(٤)
ولست ادرى كيف يدرك رجل تركي هذه الصور وهذه اللغة ليجيز الشاعر عليهما؟

ولعل من الأمور التي تثير الفضول وتدعو الى الحيرة أن يحدثنا التاريخ أن الفيلسوف الكندي^(٥) احتج على أبي تمام لقوله بمدح احمد بن المعتصم :

اقدام عمرو^(٦) في سَمَاحة حاتم^(٧) في جِلَم احنفا^(٨) في ذكاء إياس^(٩) (١٠)
فلم يرض الفيلسوف لشاعر القرن الثالث ان يمدح ابن الخليفة بصفات لم تعد تناسب العصر. ولم أقف على أية اشارة تدل على ان معاصري الحيص بيص قالوا له. ولو تلميحاً. بان شعره من حقه ان ينظم قبل اكثر من خمسة قرون.

ب- من اهم خصائص لغة الشعر في القرن السادس اثنان : الوضوح الشديد والاكثار من المحسنات البديعية وخاصة الجناس^(١١).

وفي سبيل الخاصية الاولى قل ان تجد في شعر الفترة بصورة عامة كلمة تحتاج ان تراجع من

(١) القر : برد الشتاء.

(٢) اراد بالعجز كله : السحاب المتدلي المثقل بالماء.

(٣) الفريث : فضلات الحيوان.

(٤) الخريدة ٢٣٢/١

(٥) هو ابو يوسف يعقوب بن اسحاق، واحد دهره في معرفة العلوم القديمة بأسرها، ويعرف به فيلسوف العرب، توفي سنة ٢٥٥ هـ. الفهرست ص ٣٧١ (ط. مصر)، تاريخ الحكماء ص ٣٦٦ (ط. اوربا).

(٦) هو عمرو بن معد يكرب الزبيدي، الشاعر الفارسي المشهور، توفي سنة ٢١ هـ. الشعر والشعراء ٣٧٢/١ (تحقيق احمد مجيد شاكر)، الاغاني ٢٥/١٤ - ٤١ (ط. بولاق)، الاصابة : الترجمة رقم ٥٩٦٥، مقدمة ديوانه.

(٧) هو حاتم بن عبد الله الطائي، الفارس الشاعر الجواد المشهور، يضرب بجوده المثل. توفي سنة ٤٦ ق. هـ. الشعر والشعراء ٢٤١/١ (تحقيق احمد محمد شاكر)، مجمع الامثال ١٢٣/١، الاعلام ١٥٧/٢

(٨) هو الاحنف بن قيس، سيد تميم، وأحد العظماء الدهاء الفصحاء. توفي سنة ٧٢ هـ. طبقات ابن سعد ٩٣/٧، وفيات

الاعيان ٢٢٣/١، ميزان الاعتدال ١٣١/١، الاعلام ٣٧٦/١

(٩) هو إياس بن معاوية المزني، قاضي البصرة، وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء، توفي بواسطة سنة ١٢٢٠ هـ.

وفيات الأعيان ٢٢٣/١، ميزان الاعتدال ١٣١/١، الاعلام ٣٧٦/١.

(١٠) ديوان أبي تمام شرح الخطيب التبريزي ٢/٢٥٠، وانظر وفيات الاعيان ٣٣٧/١

(١١) انظر الدراسة الفنية من هذه الرسالة.

اجلها معجما: فقد ابتعد القوم من لغة المعجمات بسبب هبوط المستوى اللغوي للجمهور عامة، حتى صارت الألفاظ والتعابير العامة والدخيلة تحتل حيزا لا بأس به من لغة العصر. وعندي ان شعر ابن التعاويذي يجسد الخصائص اللغوية لشعر الفترة، اقرأ له قوله مادحا:

- ١ - حان اسفار الصباح ودعا داعي الفلاح
 - ٢ - وَسَرَتْ تَحْمِلُ نَشْرَ الـ روض انفاسُ الرِّيحِ
 - ٣ - وَتَغْنَتْ هَاتِفَاتُ الـ ورق^(١)، والعجم الفصاح
 - ٤ - فَاشْفِ بالكاسِ غَلِيلِي وَأَطْفِ بِالرَّاحِ التِّياحِي
 - ٥ - مِنْ كَمِيَّتِ^(٢) وَرْدَةٍ ذَاتِ شَبَابٍ وَجَمَاحِ
 - ٦ - اوْطَأْتُ فَارِسَهَا صَهْ وَةَ لَهْوٍ وَمُزَاحِ
 - ٧ - مِنْ يَدَيْ مَهْضُومَةٍ^(٣) الْكَشِّ حِينَ بِيضَاءِ رَدَاحِ^(٤)
 - ٨ - غَادَةً تَمَزَجَ لِي مِنْ رِيْقِهَا الرَّاحِ بِرَاحِ
 - ٩ - فَتَرْتُ - إِذْ فَتَرْتُ الْحَاظُهَا - سَوْقُ الْمِلَاحِ
 - ١٠ - اَنَا شَاكٍ فِي هَوَى مَنْ طَرَفَهُ شَاكِي السِّلَاحِ
 - ١١ - ظَالِمٌ يَبْلُغُ اقْصَى الـ جَدِ مِنْي بِالْمَزَاحِ
 - ١٢ - اسْتُرُّ الْوَجْدَ وَيَأْبَى حَسَنَهُ اِلَا افْتِضَاحِي
 - ١٣ - مَا عَلَى الْعَاذِلِ فِيهِ مِنْ فَسَادِي وَصِّلَاحِي
- ... الخ^(٥).

ان الأبيات واضحة جدا لا تحتاج الى تأمل، وربما كانت قريبة من لغة التخاطب اليومية، وفيها لين وهلهة نسج يبعدها عما الفناه عند شعراء القرون السابقة من متانة وجزالة. وواضح ان البديع قد غزا العديد من ابياتها: كما في البيت الرابع (اشف واطف) والعجم والفصاح في البيت الثالث، وفي الثامن الراح (الخمر) والراح (راحة اليد)، وفي العاشر (شاك من الهوى والطرف الشاكي السلاح)، وفي الحادي عشر (الجد والمزاح). . الخ. وتلاحظ العامة مع الجناس في البيت التاسع، فقد جانس الشاعر بيت فتور الالحاظ

(١) الورق: الحمام.

(٢) الكميّة: من اسماء الخمر لما فيها من سواد وحمرة.

(٣) مهضومة الكشحين: خصاء البطن.

(٤) رداح: ضخمة العجز.

(٥) الديوان ص ٨٢ - ٨٣

وفتور السوق (كسادها)، وهذا التعبير الاخير من تعابير العامة الباقية حتى اليوم في بغداد. ويمكن القول - اجمالاً - ان الابيات تعكس مثالا للشعر السائد في القرن السادس.

أما شعر الحيفس بيص فيمكن التمثيل له بقوله ادحا:

- ١ - لَمِنَ الْخَيْلِ كَامَثَالِ السَّعَالِي^(١) عَادِيَاتٍ تَتَمَطَّى بِالرُّجَالِ
 - ٢ - مَاعِجَاتٍ^(٢) بَغَطَارِيفٍ^(٣) وَغَى جَلَبُوا الْمَوْتَ بِاطْرَافِ الْعَوَالِي
 - ٣ - حَظَرَ الْغِمْرُ^(٤) عَلَيْهِمْ دَعَةً فَأَبَاحُوا غَارَةَ الْحَيِّ الْحَلَالِ^(٥)
 - ٤ - لِغُلَامٍ هَتَفَ الْمَجْدُ بِهِ فَهَفَا يَفْرَعُ غَايَاتِ الْقِلَالِ^(٦)
 - ٥ - حَالَفَ الدَّهْرَ بِأَيْمَانِ الْعُلَى لَيْلَفَنَ رِعَالاً^(٧) بِرِعَالِ
 - ٦ - وَيُعِيدُ الصُّبْحَ لَيْلًا بِمَثَارٍ مِنْ عَجَاجٍ، وَنَجُومٍ مِنْ نِصَالِ
 - ٧ - فَاتَّقُوا وَثْبَةً لَيْثٍ خَادِرٍ أَكَلَهُ الْمَوْتُ، إِذَا يُدْعَى نِزَالِ
 - ٨ - فَفُؤَادِي مِنْ أَذَى مُضْرَكُمُ شَارَةَ أَوْدَى بِهَا كُرُ النَّبَالِ
 - ٩ - كُلَّمَا أَوْسَعْتَ حِلْمِي جَاهِلًا أَوْسَعَ الْجَهْلُ لَهُ فَحْشَ الْمَقَالِ
 - ١٠ - كُلَّ يَوْمٍ حَسَنٍ صَفْحٍ مَطْمَعٍ يَشْمَتُ الْفَتَكُ بِلَيْنِ الْإِحْتِمَالِ
 - ١١ - يَا بَنِي الْأَشْعَارِ كَفُّوا سَفْهًا وَاقْصِرُوا، إِنَّ بَنَا مَجْدِي عَالِ
 - ١٢ - فَالْقُوا فِي لَكُمْ مُسْتَرْزَقٌ وَمَطَايَا نَحْوِ الْمَعَالِي
 - ١٣ - لَكُمْ الْبُلْغَةُ مِنْ مَكْسِبِهَا وَلِي الْحَالَانِ مِنْ مَجْدٍ وَمَالِ
- ... الخ^(٨).

ان الموازنة بين هذا الشعر وشعر ابن التعاويذي في الصفحة السابقة تقنع الباحث اننا ازاء اسلويين ولغتين بينهما بون ليس بالقليل: ففي هذا الشعر من التماسك وشدة الاسر والمثانة ما ليس في شعر ابن التعاويذي، وهو يدل على أن الأسلوب الرفيع في النظم والنفس

(١) السعالى: مفردها سعالاة. وهي انثى الغول او الغول.

(٢) مسرعات.

(٣) الغطاريف: السادة.

(٤) الغمر: (بكسر الغين) الحقد.

(٥) الحلال: (بكسر الحاء) النزول.

(٦) القلال: (بكسر القاف) رؤوس الجبال.

(٧) الرعال: واحدها رعيلى: القطعة المتقدمة من خيل ورجال.

(٨) الديوان المطبوع ١٤٧/١ - ١٤٨

القوى البعيد عن الركة والضعف لما يزل موجودا، برغم موجة العامية والاسفاف التي بدأت تغزو ميادين الأدب الفصيح. لقد استطاع الحيص بيص - بما يملك من علم بلغة العرب - ان يخلق فوق عصره ويعيد للفصحى سيادتها، فهو يختار الألفاظ الفصيحة المعبرة دون ان يجهد نفسه في البحث عن البديع أو بمحاولة النزول الى مستوى الناس - لانهم بعدوا عن الفصاحة - ولذلك راح يعتمد حتى إلى الألفاظ التي لا يعرفها الا خاصة العلماء مثل ها هوابه ^(١) والباع ^(٢) والخشاشة ^(٣) والخشفات ^(٤) والشاحية ^(٥) وغيرها برغم احتجاج ابن قتيبة - منذ القرن الثالث - على ان هذه الألفاظ قد مضى زمنها ^(٦).

ان الباحث المحايد - وان اختلف مع الحيص بيص حول مجمل طريقته في الشعر - لا بد ان يعترف بان هذا الشاعر وأنصاره يمثلون امتدادا لمذهب الشريف الرضي والمتنبي في القرنين الخامس والرابع وكذلك مذهب البحرى في القرن الثالث، وهؤلاء جميعاً يرون - كما يدل شعرهم - على ان خير الشعر ما كان شبيهاً بشعر الاوائل: متانة في الأسلوب وجزالة في اللفظ والبعد عن البديع الا ما جاء عفواً. وهو مذهب على النقيض من مذهب الصنعة أو البديع أو مذهب ابي تمام.

ان اتباع الحيص بيص - برغم قلتهم في القرن السادس - استطاعوا ان يقفوا بوجه التدهور والانحطاط الذي بدأ يسيطر على لغة الشعر: فكان لهم الفضل في تعويق المد البدعي وطوفان الزخارف اللفظية الذي بدأ على يد الحريري المتوفى سنة ٥١٥ هـ، ثم استشرى على يد القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ هـ، وتلاميذه وانتهى عند أصحاب البديعيات.

ب - محافظون مجددون:

وأشهر هؤلاء ثلاثة هم: سبط بن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٣ هـ ومحمد بن بختيار المعروف بالابله البغدادي المتوفى سنة ٥٧٩ هـ ومحمد بن علي ويعرف بابن المعلم الواسطي المتوفى سنة ٥٩٢ هـ.

ان الشعر المحافظ عند هؤلاء يبرز ويتضح - وخاصة عند ابن التعاويذي - في المدح

(١) معناها: صاحباه. الديوان المطبوع ١/ ١٤٩

(٢) معناها: ثقل السحاب من المطر. الديوان المطبوع ١/ ٢٨٥

(٣) معناها: الغضب. الديوان المطبوع ١/ ٢٧١

(٤) معناها: السيوف. الديوان المطبوع ١/ ٢٧١

(٥) معناها: الفاتحة فاما. الديوان المطبوع ١/ ١٤٩

(٦) الشعر والشعراء ص ٤٥ (ط. دار الثقافة الثانية).

عامّة، وفي مدح الخلفاء على وجه الخصوص. ولكن الباحث لا يستطيع - حتى في مدح الخلفاء - ان يزعم ان مدح ابن التعاويذي هذا يشبه مدح الحيص بيص وجماعته على الرغم من الطريقة المحافظة التقليدية التي تجمع بينهما: ان ابن التعاويذي محافظ - في مدح الخلفاء - ولكنه يعيش في القرن السادس، وهو ليس عالما مترمنا من علماء اللغة العربية - كالحيص بيص - ولذلك راح هذا الشاعر يتصرف ضمن اطار المحافظة الواسع فبعد عن الخيال البدوي واللغة الموغلة في القدم، وتجنب الأساليب التي لم تعد تلائم متحضري القرن السادس، وبذلك استطاع ابن التعاويذي ان ينظم مدحا محافظا تلوح عليه سيماء العصور العباسية المتأخرة.

أ - اتصاهم بكبار رجال العصر وقادته الذين شغلت اخبارهم صفحات بارزة من كتب التاريخ بنوعيه العام وكذلك تاريخ الأدب . فقد نص صاحب مرآة^(١) الزمان على أن الابله البغدادي : « كان يصحب حاجب الباب ابن الدوامي ويمدحه » . ويقول ابن التعاويذي - في مقدمة^(٢) ديوانه - انه افرد مدائحه في بني المظفر بن رئيس الرؤساء لكثرتها ولأنه نشأ فيهم واتصل بهم وصحبهم هو ووجهه لأمه . . وبنيو المظفر هؤلاء كان منهم الوزير محمد^(٣) ابن رئيس الرؤساء الذي استوزر سنة ٥٦٦ هـ ، وكان استاذ^(٤) الدار في أيام الخليفة المستنجد بالله^(٥).

(١) مرآة الزمان ٨ / ٣٧٩

العصور. ان أثر بغداد في القاء الأضواء على حياة الأدباء يتضح حين نعلم ان شاعرا من كبار شعراء العراق في القرن السادس وهو مجد العرب العامري المتوفى سنة ٥٧٣ هـ قد اغفلت ذكره امهات كتب التراجم ومنها وفيات الأعيان. وحين حاول صاحب الفوات الاستدراك على ابن خلكان جعل شاعرنا من رجال القرن الثامن، وقال انه مات سنة ٧٥٣ هـ^(١). وفي الوقت نفسه نجد صاحب الخريدة يترجم لأحد الأشخاص من عامة بغداد^(٢)، ولآخر من عقلاء المجانين^(٣) بها، راويا للأول بيتين من الشعر وللثاني اربعة.

ويبدو ان وجود ابن التعاويذي وزميليه في بغداد متجاورين متعاصرين قد أوجد بينهم نوعا من التنافس^(٤) والتحاسد - ربما ساهم معاصروهم في اذكاء ناره - وقد كانت هذه المنافسة خيرا على الشعر لأنها حملت هؤلاء الشعراء على تجويد شعرهم خوفا من المعجبين بشعر خصومهم. ففي ديوان^(٥) ابن التعاويذي ان بعض الاكابر كان يقدم محمدا المولد المعروف بالابله ويفضله على غيره ويمجيزه ويحرم سماع شعر غيره، ولذلك قال ابن التعاويذي يهجو:

قل لابي النقص والمخازي	يا حَرَجَ الصَّدْرِ والفناء
بأي رأي؟ وأي فهم؟	يا مُدْعِي الفَهْمِ والذِّكَاءِ
قَدِمْتَ مستائِرا علينا	أحقر قدراً من الهباءِ
ابله قد ما يرى ويرى	عليه في قلّة الحياءِ
له فم كالكنيف يلقي	وجهك منه بيت ماءٍ
وحاشى لله ان مدحاً	يأتيك الا من الخلاءِ
له على زعمه مديحُ	اقبح عندي من الهجاءِ
... الخ ^(٦) .	

وابن المعلم هو الآخر لم يسلم من لسان ابن التعاويذي اذ قال يهجو:

يا ابن المعلم ما لدا	ثك في الحماقية من معالج
يا حائكاً ادمى انا	مل كفه كف الصَّهَارِجِ ^(٧)

(١) فوات الوفيات ١٦٢/٢

(٣) نفسه ٣٢٤/٢

(٥) ص ١٥

(٧) الصهارج والصحاريج: هي الخياض يجتمع فيها الماء.

(٢) الخريدة ٣٢٣/٢

(٤) وفيات الاعيان ٩٨/٤

(٦) نفسه.

إن لم تكن بزر اليهو د، فانت من نسل الخوارج
فأصخ لسفع في هجا ثك قد ملأت به المذارج^(١)
يرميك شيطان القوا في من لوافحه بمارج^(٢)
يحلو هجاؤك لي وأن ت أمر من حب الايارج^(٣)

ولا شك ان الشاعرين قد اجابا عن التعاويذي وكالا له الصاع صاعين وخاصة الابله فقد كان معروفا بالهجاء ذا شهرة فيه^(٤). ولكن رد الشاعرين لم يصلنا لحسن حظ ابن التعاويذي.

ومما يدل على المنافسة بين الشعراء الثلاثة - غير ما تقدم - قول ابن خلكان: انهم وقفوا على قصيدة صرد^(٥) التي اولها:

اكذا يحازي ود كل قرين ام هذه شيم الطباء العين^(٦)؟

فقرروا أن يعارضوها، ثم يورد نموذجين من هذه المعارضات، ويضيف: ان قصيدة ابن التعاويذي احسن الجميع^(٧).

يمثل ابن التعاويذي وصاحبه رافدا آخر من روافد الشعر المحافظ، وهو رافد يختلف عن ذلك الذي ينتمي اليه الحيص بيص وجماعته: ان هؤلاء يمثلون شعر القرن السادس اصدق تمثيل وهو شعر اختلط فيه القديم بالجديد فبدت المعاني القديمة في لباس لغوي محدث.

ان ابن التعاويذي وصحبه حاولوا التوفيق بين ميلهم الفطري الى الجديد المبتكر وبين رغبات الممدوحين - وجلهم من علية القوم - الذين يثيرهم القديم فيهتزون له ويطربون، وبمقدار هذا الاهتزاز والطرب تكون الجائزة التي من اجلها - دون سواها - نظم الشاعر ما نظم وقال ما قال.

ان ميل هؤلاء الى الجديد المعاصر لهم، جعل المحافظة عندهم يغلب عليها التكلف

(١) المذارج: الطرق. (٢) المارج: نار لا دخان لها.

(٣) الديوان ص ٧٥. الايارج: دواء، معرب.

(٤) الخريدة ١٦٠ نسخة ايران.

(٥) علي بن الحسن احد شعراء القرن الخامس المتوفى سنة ٤٦٥ هـ. قال ابن خلكان: له ديوان شعر صغير. الوفيات ٣/

٦٥، شذرات الذهب ٣/ ٣٢٢، ٣٢٣، معجم المؤلفين ٧/ ٦٦

(٦) العين: الواحدة عيناء وهي الحسنة العين.

(٧) وفيات الاعيان ٤/ ٩٩، ٢٢٥/ ٤

والافتعال، ويبدو الشاعر برما متضابقا من هذه القيود التي فرضت عليه فرضا. ولذلك ما ان يجد فرصة سانحة حتى يهرب منها: كما يلاحظ عند مدح غير الخلفاء ممن يعرف الشاعر اذواقهم وحقيقة موقفهم من هذه التركة الثقيلة. فمثلا نجد ابن التعاويذي يفتح احدى مدائحه في محمد بن رئيس الرؤساء قائلا:

وممِيلَ العِطْفَيْنِ اغِيدُ^(١) غَضَّ الصَّبِي بَضَّ المَجْرَدُ
كَالحِقْفِ^(٢) اهِلَّ وَالْقَضِي بَ مُهْفَهْفَأً وَالظِّي اجِيدُ^(٣)
نَادِمُهُ، وَالبَدْرَ مَحْدَ تَجِبَ وَطَرَفَ النَّجْمِ اَرْمُدُ
بِمُدَامَةٍ صِرْفِ كَأَنَّ بَكَاسَهَا نَارًا تَوَقَّدُ
... الخ^(٤).

ففي هذا الشعر وأمثاله^(٥) لا نجد ذكرا لأعلام بلاد العرب مثل حزوي وشراف واللولي والجزع، ولا للنسوة اللائي اعتاد الشعراء التغزل بهن كليلي وسعاد ونوار وبشينة، كذلك ليس في هذا الشعر ذكر للهودج ورحلة الصحراء ووقوف الشاعر على ديار احبابه بعد ان رحلوا عنها. كل ذلك هجره الشاعر واعرض عنه لسببين: الأول معرفته بالمدوح، والثاني: ان هذا القديم ليس مما يميل اليه الشاعر ولذلك فر منه الى الغلاميات ومجالس الخمر وسواهما مما شاع في عصره. ان موقف هؤلاء الشعراء من القديم والجديد قد يتضح اذا عرفنا الأسباب والدوافع والروافد التي كونت شخصياتهم الأدبية والفنية.

ان ابن التعاويذي رجل من الموالي فابوه يدعى «نشتكين»^(٦) واسم والد الابله «بختيار» ليس عربيا هو الآخر على الأرجح، ولذلك لا نجد عند الشاعرين اي حماس للأنساب والافتخار والمباهاة بها، على عكس الحيص بيص^(٧) لأن هذا الأخير تميمي النسب^(٨). والحيص بيص - كما سبق - كان من العلماء بلغة العرب وكذلك زميله طلحة ابن محمد النعماني^(٩)، ولذلك يعذر الرجلان لغرامهما بالقديم ولعهما به وصدما عن

(١) اغيد: من الغيد (بفتحين) وهو طول العنق في لين.

(٢) الحقف: المعوج من الرمل.

(٣) اجيد: جميل الجيد وهو العنق.

(٤) الديوان ص ١٢٣ - ٢٤

(٥) انظر: ديوان ابن التعاويذي ص ٨٦، ٨٢، ٧١، ٢٧، ديوان الابله و٧٨، ٧٣، ٦٢، ٦١ وغيرها.

(٦) وفيات الأعيان ٩٠ / ٤

(٧) ديوانه ص ٨٥، ٨٨، ٩٢، ٩٥، ١٠٨ وغيرها.

(٨) وفيات الأعيان ١٠٦ / ٢

(٩) نزهة الألباء ص ٣٨٤، معجم الأدباء ٢٦ / ١٢، انباء الرواة ٩٣ / ٢

الجديد واعراضهما عنه، على الضد من ابن التعاويذي وصاحبيه: فهم ليسوا من علماء اللغة، فقد كان ابن التعاويذي كاتباً بديوان المقاطعات^(١)، وكان زميلاه من الشعراء المحترفين كما يقول ابن خلكان^(٢).

ان احتراف ابن التعاويذي وزميليه لنظم الشعر وارتفاقهم مما تجود به اكف الممدوحين يجعلهم اقل مرتبة من الناحية الاجتماعية من جماعة الحيص بيص: فقد مر ان اثنين منهم كانا من العلماء وينص العماد الكاتب على ان العامري كان من الامراء^(٣)، وكان مفلح بن علي الانباري عامل منتر^(٤) الوزير ابن هبيرة^(٥)، اي انه كان مديراً عاماً بلغة اليوم.

ان جميع العوامل والاسباب والمؤثرات التي ذكرتها فرضت على ابن التعاويذي وزميليه: ان يميلوا الى الجديد المعاصر لهم وان يعرجوا على القديم كلما شعروا ان الجائزة توشك ان تفلت من ايديهم.

ان الشعراء الثلاثة: ابن التعاويذي والابله وابن المعلم على الرغم من انتمائهم الى ما يمكن ان يسمى بـ «المحافظة الجديدة»، كذلك فان دراسة دواوينهم تثبت ان معظم شعرهم هو المدح، اضيف الى ذلك ان الموازنة بينهم ترجح كفة ابن التعاويذي على زميليه وهو الرأي الذي قال به ابن خلكان قديماً^(٦)، ولكن هذا لا يسوغ للباحث ان يدرس ابن التعاويذي ويهمل صاحبيه، لان هذين الشاعرين استطاعا ان يبرزوا ويشتهرا بنوعين من الشعر لم يستطع ابن التعاويذي ان يجاريهما فيهما، على الرغم من طاقته الشعرية الكبرى وموهبته الفذة.

اما الابله فان دراسة ديوانه تثبت خبرته وطول باعه في موسيقى الالفاظ. فقد وهب - على ما يبدو - اذنا مرهفة وذوقاً فنياً بالغ الدقة، فراح يحشد لقصائده اكبر قدر مستطاع من الحروف والكلمات، ويلجأ الى جميع ما عرفه الشعر العربي من مؤثرات لفظية وصوتية حتى استطاع ان يحيل طائفة من قصائده - وهي التي شاعت وذاعت - الى الحان خالصة يطرب لها السامع والقارئ. فاذا زالت نشوة الموسيقى، وحاولت ان تبحث في زوايا الأبيات وبين الكلمات عن شاعرية صاحبها وفنه لم تجد شيئاً سوى الفاظ وخروف اجيد اختيارها، ثم رتبت ووزعت بحيث تحدث - عند الانشاد - اكبر ما فيها من اصوات وانغام تطرب السامع وتهزه.

(٢) نفسه ٨٧ / ٤، ٩٨

(٤) المنتر: مخزن الحبوب.

(٦) وفيات الاعيان ٩٠ / ٤

(١) وفيات الاعيان ٩٠ / ٤

(٣) الخريدة ١٤١ / ٢

(٥) الخريدة ٣٠٢ / ٤

ان الابله يجيد - اولاً - انتقاء الحروف التي تبنى عليها القوافي، ثم يعتمد الى التصريح في مطالع القصائد، وقد يضيف اليه الجناس بحيث ينسجم مع حروف المطالع المصرع من ناحية وحرف القافية من ناحية اخرى، فاذا تم له كل ذلك راح يكرر بعض الحروف ويوزعها بين شطري المطالع، فاذا عجز ان يجمع بين التصريح والجناس والتكرار في بيت واحد - وهو مركز ويؤكد عادة على مطلع القصيدة - فانه يعتمد الى طرق التأثير الاخرى مثل الطباق والتصوير واستعمال الجمل الاعترافية والقوافي الداخلية للابيات، وهكذا حتى تصبح القصيدة اشبه بالقطعة الموسيقية.

ان الوزير ابن هبيرة يحتل مكانة بارزة بين ممدوحى شاعرنا الابله، ويقول صاحب وفيات الاعيان^(١): ان القصيدة الآتية هي خير ما قاله الشاعر في الوزير الكبير:

- ١ - وَلَعَّ النَّسِيمَ وَبَانَةُ الْجُرْعَا^(٢) وَصَفَاكَ إِلَّا الْحَلِيَّ وَالرَّدْعَا^(٣)
- ٢ - يَا دُمِيَّةً ضَاقتَ خَلَاخِلُهَا عنها، وَضِقتَ بِحبِّها ذُرْعَا
- ٣ - قد كُنْتُ ذَا دَمْعٍ وَذَا جَلْدٍ فَبَقِيتَ لَا جَلْدًا وَلَا دَمْعَا
- ٤ - صَيَّرْتَ جِسْمِي لِلضُّغْنَى سَكْنًا وَسَكَنْتَ (بعد)^(٤) تَبَالَةَ الْجَزْعَا^(٥)
- ٥ - يَا مَنْ رَأَى ادماءَ سَانِحَةً قَلْبِي لَهَا لَا الْمُنْحَى مَرْعَا؟
- ٦ - لَأَنْتَ بِمَثَلِ الدِّغْصِ^(٦) مَثَرَهَا وَجَلَّتْ بِعُودِ اِرَاكِ طُلْعَا
- ٧ - وَإِذَا تُرَاجِعَكَ الْكَلَامَ فَلَا تَعْدَمِ لَيَّامَ الصُّبَى رَجْعَا
- ٨ - وَلَقَدْ سَعَتْ بِالرَّاحِ تُصْبِحُنِي سَكْرَى اللُّوَاحِظِ وَعَثَ^(٧) الْمَسْمَى
- ٩ - فِي مُسْتَنِيرِ الزَّهْرِ مَا صَنَعْتُ اِيرَادَهُ^(٨) عَذْنٌ، وَلَا صَنَعَا
- ١٠ - بَاكَرْتُ مُفْتَرَعًا ثَرَاه، وَمَا رَكِبَ الْحَمَامُ لِبَانَةَ فَرْعَا
- ١١ - سَلَّتْ عَلَيْهِ الْبَارِقَاتُ ظُبِي لَبَسَ الْغَدِيرَ لَخُوفَهَا ذُرْعَا
- ١٢ - يَا عَاذِلِي إِنْ شِئْتَ تَسْمَعُنِي عَذْلًا فَشَقُّ لَصْخَرَةٍ سَمْعَا
- ١٣ - طَبْعًا جَبَلْتُ عَلَى الْغَرَامِ كَمَا جَبَلَ الْوَزِيرُ عَلَى النَّدَى طَبْعَا
- ١٤ - مَلِكُ رَزِينُ الْحَلَمِ مُنْتَقِمٌ غَيْرَ أَنْ طَبِيعَ مَجْتَنِي الْمَرْعَى

(١) وفيات الاعيان ٥ / ٢٨٠.

(٢) الجرعا: اراد الجرعا وهي ارض مرتفعة فيها رمل.

(٣) الردع: (يسكون الدال) اثر الطيب.

(٤) زيادة من الوفيات يقتضيها الوزن.

(٥) الجزع: منقطع الوادي.

(٦) الدغص: كتيب الرمل.

(٧) وعث المسعى: ربما اراد انها تجد صعوبة في المشي لكبر اعضائها.

(٨) اليراد: واحدها البرد: كساء اسود مربع فيه صغر.

- ١٥ - لِطَرِيرِهِ^(١) وَنَزِيلِهِ قَسَمَتْ
 ١٦ - سَامِي النَّدَى يَلْقَى الْعِدَى أَبْدَأُ
 ١٧ - هَام تَذُرُّ عَلَيْهِ أَنْعَمَهُ
 ١٨ - لَمَّا صَنَعْتُ لَهُ الْمَدِيحَ رَأَى
 ١٩ - مَا زِلْتُ تَحْتَ الْخَفْضِ مُسْتَرَأً
 ٢٠ - قَسَمًا بَيْنَ حَجِّ الْحَجِيجِ لَهُ
 ٢١ - تَسْعَى بِهِ فِتْلَاءً^(٦) تَحْسِبُهَا
 ٢٢ - مَا زَالِ سِيرَ الْخَمْسِ يَنْحَلُّهَا
 ٢٣ - إِنَّ الْوَزِيرَ، فَتَى هَيِيرَةٍ لَمْ
 ٢٤ - الْوَاصِلَ الْمَعْرُوفَ حِينَ رَأَى
 ٢٥ - لَوْ قِيلَ: زِدْ وَسْعًا عَلَى كَرَمٍ
 ٢٦ - تَغْنِيهِ يَوْمَ الرُّوعِ سَطْوَتُهُ
 ٢٧ - وَبِكْفِهِ قَلَمٌ يَصُولُ بِهِ
 ٢٨ - فِيهِ حَيَاةٌ لِلْوَلِيِّ وَلِلْغَمِّ^(١٠)
 ٢٩ - فَفِدَاءَ عَوْنِ الدِّينِ كُلِّ فَتَى
 ٣٠ - مِنْ مَعْشَرٍ لَيْسُوا - إِذَا نُسَبُوا -
 ٣١ - بِيضُ الْوَجْهِ فَإِنْ هُمْ سَثَلُوا
 ٣٢ - وَافِيَتْ يَا تَاجَ الْمُلُوكِ عَلَى
 ٣٣ - لَمَّا رَأَيْتَ الْبُخْلَ شَرَعَهُمْ
 ٣٤ - يَا ابْنَ الْأَوَّلَى وَطَاوَا عَلَى عَنَفٍ
- خَلَقَاهُ ذَا ضَرًّا وَذَا نَفْعًا
 وَتَرَا^(٢) وَيَلْقَى جَوْدَهُ شَفْعًا^(٣)
 عَفَوًا وَلَمْ يَبْسُ^(٤) لَهَا ضِرْعًا
 حَسَنًا، فَاحْسَنَ عِنْدَهُ الصُّنْعَا
 حَتَّى رَأَيْتُ بِمَذْحِهِ الرِّفْعَا
 وَالْمَازَمِينَ^(٥) وَمَنْ أَقَى جَمْعَا
 فِي نَسْعِهَا مِنْ دِقَّةِ نِسْعَا^(٧)
 حَتَّى أَطْفَنَ بِمَكَّةِ سَبْعَا
 يَرِثُ السَّمَاحَةَ وَالنَّدَى بِدْعَا
 لِسَوَاهُ فِي إِشَارِهِ قَطْعَا
 تَأْتِيهِ طَبْعًا، لَمْ يَجِدْ وَسْعَا
 عَنْ أَنْ يَخْوُضَ لِمَازِقِ نَقْعَا
 يَغْنَى الْفَقِيرُ وَيَشْعَبُ^(٨) الصَّدْعَا^(٩)
 رَ الْأُمْعَادَى حَيَّةً تَسْعَى
 يَقْلَى^(١١) السُّمَاحَ وَيَعْشُقُ الْمُنْعَا
 فِي الْجُودِ لَا غَرِبًا^(١٢) وَلَا نَبْعَا
 رَفْدًا رَأَيْتُ وَجُوهَهُمْ سَفْعَا^(١٣)
 وَضَعُ يَخَالِفُ ذَلِكَ الْوَضْعَا
 أَرْسَلَتْ تَنْسَخُ ذَلِكَ الشَّرْعَا
 مِنْ حَاسِدِهِمْ أَنْفَا جَدْعَا^(١٤)

(١) الطرير: السنان المحدد.

(٢) الوتر: الفرد.

(٣) الغفع: الزوج من العدد.

(٤) يبس: من الابساس وهو المسح والتسكين بالاصل، واستعملت هنا مجازاً.

(٥) المازمان: موضع بمكة بين المشعر الحرام وبين عرفة (معجم البلدان ٣٦٢/٧).

(٦) فتلاء: ناقة قوية كأنها قتلت فتلاً.

(٧) النسع: الجلد.

(٨) يشعب: يصلح.

(٩) الصدع: الشق.

(١٠) الغمر: الحقود.

(١١) يقلى: ييغض.

(١٢) الغرب: شجر ضعيف. النبع: شجر صلب: أي إن هؤلاء ليس لهم من الجود شيء.

(١٣) سفع: سود.

(١٤) جدع: مقطوعة.

- ٣٥ - غرما مبح ذوو لسن
 ٣٦ - بك يدفع التكبات نازلة
 ٣٧ - فلکم سَدَدَتْ لاملٍ خللاً
 ٣٨ - لو كُنْتُ في زمن الكليم^(٣) لما
 ٣٩ - اعدَدْتُ للحَدَثَانِ^(٤) كلَّ فتى
 ٤٠ - ومهنداً ما اهتز يومٌ وغى
 ٤١ - ومشرفاً نهداً مراكله^(٥)
 ٤٢ - يجري على الغايات فارسه
 ٤٣ - احييت يا بحى الرجاء كما
 ٤٤ - انا ناظم الدر الثمين اذا
 ٤٥ - فتَهَنُّ شهرَ الله، وابقَ على
 ٤٦ - ما نواحِ الدوحِ النسيم، وما
- مشحودة لا تعرف القذعا^(١)
 من ساورته فلم يطق دَفعا
 وَلَكُمْ مَدَدَتْ لِخَامِلٍ ضَبعا^(٢)
 دخل المرا آياته التسعا
 لى الكريمة قبل ان يدعى
 الا رأيت لبارق لَمعا
 جَدعا^(٦) تحال بليته^(٧) جذعا
 خبيأ فتحسب طرفه سمعا
 احيا ولي الديمة الزرعا
 وافاك غيري ناظماً جَزعا^(٨)
 مر الشهور مهتاً جمعا
 طرب الحماُم فرَجَعَ السجعا^(٩)

لقد تعمد الشاعر ان يختار العين المفتوحة للقافية والكلمات الثلاثية المفتوحة الاولى غالباً: للتوفيق بينها وبين عين القافية المفتوحة ثم بدأ يؤكد على موسيقى الألفاظ ويحشد اكبر قدر مستطاع من الكلمات التي فيها حرف العين، لان القافية عينيه، ففي المطلع: ولعا، الجرعا، والردعا، وفي البيت الثاني: عنها الذرعا، وفي الثالث كرر الدمع من اجل العين، كذلك عمد الى التكرار اللفظي في البيت ١٣ والبيت ٢١، ٢٥، ٣٢، ٣٣، ٤١، والشاعر اذا اعوزه التكرار من اجل الحرف المطلوب عمد الى المفعول المطلق المشتق من لفظ الفعل: كما فعل في البيت ١٨ (صنع الصنع) والبيت ٣٦ يدفع دفعاً . .

وبذلك استطاع ان يحشد ٩٠ كلمة يدخل في نطقها وصوتها حرف العين اي ان كل بيت فيه كلمتان من هذا الصوت.

(١) القذع: الافحاش في القول، وهي بالاصل بالبدال (القدع).

(٢) مددت لخامل ضبعا: اي نوهت باسمه فصار معروفاً.

(٣) الكليم: النبي موسى عليه السلام، وآياته التسع ذكرت مرتين في القرآن الكريم، في الآية ١٠١ (سورة الاسراء)، وكذلك في الآية ١٢ (سورة النمل)، قال تعالى في سورة الاسراء: ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون اني لاظنك يا موسى مسحوراً. وفي شرح الآيتين الكريميتين ننظر تفاسير القرآن الكريم مثل الكشف للزمخشري ١/ ٤٦٤، وروح المعاني للألوسي ٦/ ٢٦١ - ٢٦٢.

(٤) الحدَثان: احداث الزمان.

(٥) نهد المراكل: اي عال مرتفع.

(٦) جذع: حدث السن، فتى.

(٧) اللبت: صفحة العنق.

(٨) الجزع: الحزن اليماني الذي فيه بياض وسواد.

(٩) الديوان ٣٥ - ٣٦.

ثم راح الشاعر يوفر لقصيدته مؤثرات صوتية وموسيقية أخرى: فهناك التصريع في المطلع، ومعه جناس ناقص بين الجرعا والردعا: لان الخلاف بين الكلمتين في الجيم والبدال فقط، كذلك بينهما توافق في الحركات فكلاهما مفتوحة الاول ساكنة الوسط، وفي المطلع هذا - كما في كثير من أبيات هذه القصيدة - يعمد الشاعر الى ربط الكلمات المتجاورة برباط موسيقي دقيق: عن طريق تكرار بعض الحروف المشتركة بين الكلمتين المتجاورتين: ففي صدر المطلع نجد هاتين الكلمتين المتجاورتين: النسيم وبانه وقد تكرر حرف النون فيهما، وفي البيت السادس تكررت الاء: لاثت بمثل، وفي التاسع الراء: مستير والزهر وفي العاشر تكررت الراء ايضا: باكرت ومفترعا، وفي الثالث عشر الباء: طبعاً وجبلت، وفي الخامس عشر الباء: طريه ونزيله، وفي التاسع عشر الاء: ما زلت وتحت، وفي العشرين الجيم: حج الحجيج، وفي السادس والعشرين القاف - في العجز -: مازق ونقع، وفي السابع والعشرين العين: في العجز ايضا: يشعب والصدع، والراء في عجز البيت ٣١: رفدا ورأيت، وهكذا في بقية الفاظ وحروف الأبيات الأخرى: وافيت يا تاج، ارسلت تنسج، اعددت للحدثان...

ويلاحظ ان الشاعر يكرر بعض الحروف بكثرة في طائفة من الأبيات كي يحدث التأثير الموسيقي المطلوب: ففي البيت الثالث تكررت الدال اربع مرات، وتكررت السين ثلاث مرات في الرابع، وكذلك تكررت الجيم ثلاث مرات في السابع، وفي التاسع تكررت النون اربع مرات، وفي العاشر تكررت الراء خمس مرات، وفي الرابع عشر تكرر الميم ست مرات.. وهكذا.

وفي القصيدة اكثر من طباق: الضر والنفع في البيت ١٥، والوتر والشفع في السادس عشر، والرفع والخفض في التاسع عشر، والوصل والقطع في الرابع والعشرين، وفي التاسع والعشرين: يقلي ويعشق، والسماح والمنع والغرب والنبع في الثلاثين. وفي القصيدة طباق دقيق بين المعاني المتضادة على طرفي طائفة من الأبيات، وهو اصعب وأعمق من الطباق اللفظي الساذج: ففي البيت الثالث عشر - وقد أحسن الانتقال من الغزل الى المدح - نجد تناقضا طريفا: فالشاعر محبوب مطبوع على الغرام، على حين جبل الوزير وطبع على الندى، وشتان بينهما، وفي البيت الثامن والعشرين نجد قلم الوزير ذا اثرين متضادين متباينين: ففيه حياة للولي والصديق، ولكنه حية تسعى للعدو، وفي الأبيات: ٢٩، ٣٠، ٣١ يوازن الشاعر بين الوزير ومعاصريه من الزعماء فاذا هما على طرفي نقيض. وآخر ما عمد اليه الابله لتحسين الموسيقى اللفظية في قصيدته هو الازدواج او الموازنة كما يسميه ابن

الاثني^(١): ففي البيت الخامس عشر نجد الطير والنزير على وزن واحد، وفي السادس عشر: الندى والعدى - وهو جناس في الوقت نفسه - وفي الخامس والعشرين: وسعا وطبعا، وفي السابع والعشرين يغني ويشعب، والغرب والنبع في البيت الثلاثين - وهو طباق في الوقت نفسه - وفي السابع والثلاثين نجد: سددت ومددت وحامل وامل - وفيها جناس ايضا - وفي الحادي والأربعين نجد: نهذا وجذعا . . . وهكذا استطاع الابله ان يوفر كثيرا من القيم الصوتية في هذه القصيدة مما يذكرنا بسينية البحري^(٢).

ولم يعرف القدماء هذه الميزة في شعر الابله، ولكن العماد الاصفهاني يخبرنا ان المغنين: «يتهافتون على نظم الابله المطرب تهافت الطير الحوم على عذب المشرب^(٣)». وهذا التهافت على غناء وتلحين شعر الابله سببه ايغال الشاعر في الموسيقى اللفظية مما جعل طائفة من شعره تتميز بصلاحيته للغناء^(٤).

واما ابن المعلم الواسطي فقد اشتهر وذاع صيته في الغزل، على الرغم من كون غزله - مثل غزل زميله ابن التعاويذي والابله هو مقدمات لقصائده في المدح. ان اهتمام القدماء وتأكيدهم على غزل ابن المعلم يكاد يحمل الباحث على اخراج هذا الشاعر وابعاده عن دائرة شعراء المدح واضافته الى شعراء الغزل المعروفين كجميل بثينة والعباس بن الأحنف، لولا النصوص الكثيرة المتواترة على ان ابن المعلم شاعر مداح: قال ابن الديبشي: - وقد سمع منه اكثر شعره - هو أحد من سار شعره وانتشر ذكره ونبه بالشعر قدره وحسن به حاله وأمره . . . اكثر القول في الغزل والمدح وفنون المقاصد^(٥). وقال سبط ابن الجوزي عنه: «مدح الامراء والرؤساء والاعيان^(٦)».

ومن المشهور المعروف: ان الغزل - في قصائد المدح - ليس سوى مقدمة وتمهيد ينتقل بعده الشاعر الى المدح، غرض القصيدة الاصيلي، ولكن هذه الحقيقة انعكست عند ابن المعلم: فصار الغزل هو الاصل والمهم، وبات المدح ثانويا تابعا للغزل، حتى ان العماد الكاتب - وكان صديقا لابن المعلم - اورد له في خريدته^(٧) خمس قصائد: اربع منها مقدمات غزلية، وواحدة فقط ذكر منها المدح الى جانب الغزل. بل ان ديوان ابن المعلم المخطوط في مكتبة الامام الحكيم في النجف - ومنه نسخة مصورة في المكتبة المركزية لجامعة بغداد - لم

(١) المثل السائر ١ / ٣٧٩ (ط. نهضة مصر).

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٨٦

(٣) الخريدة: نسخة ايران ١٦٠

(٥) تاريخ ابن الديبشي ١ / ٩٩ (المصور).

(٤) دلالة الالفاظ ص ١٩٩

(٦) مرآة الزمان: ٨ / ٤٥١، وانظر ذيل الروضتين ص ١١ (٧) الخريدة ٤ / ٤٣٠ - ٤٤٩.

يثبت فيه ناسخه - وهو الشيخ محمد السماوي - سوى الغزل وبعض الابيات التي تدل على نهاية الغزل وبداية المدح^(١)، وكذلك الأمر في قطعة من ديوان ابن المعلم مخطوطة في مكتبة الدراسات الاسلامية العليا ببغداد^(٢).

اعجب القدماء اعجابا شديدا بغزل ابن المعلم، وكالوا للشاعر النعوت والالقاب والصفات التي تدل على ذلك: فقد فضله صاحب الخريدة - وهو الأديب الكاتب الشاعر المشهور - على مهيار الديلمي^(٣)، وكذلك على ابن هاني الاندلسي^(٤). وقال الصلاح الصفدي عنه: انتهت اليه رئاسة الشعر في زمانه^(٥). وقال صاحب الوفيات ان شعر ابن المعلم «لا يسمعه من عنده ادنى هوى الا افتتن وهاج غرامه»^(٦).

ان شهرة ابن المعلم الواسطي يمكن ارجاعها الى ثلاثة عوامل: متصلة متشابكة لا يمكن الفصل بينها الا لغرض الدراسة وهي: عوامل تتصل بالشاعر اولا، وبشعره ثانيا، وبعصره وبنيته ثالثا.

أما الشاعر: فان طول عمره ساهم في اشاعة ذكره وتداول شعره، فقد ولد سنة ٥٠١ هـ، وتوفي سنة ٥٩٢ هـ أي انه عاش اكثر من تسعين سنة^(٧). وأما غزل ابن المعلم فأهم ميزاته: العفة التامة في اللفظ والمعنى، وكذلك الوضوح الشديد: حتى أن عامة الناس لا تجد صعوبة في فهمه، وبذلك انتشر بين اوسع طبقات المجتمع «ولطف مكانه عند اكثر الناس، ومالوا اليه وتحفظوه، وتداولوه بينهم، واستشهد به الوعاظ، واستحللاه السامعون»^(٨). قال:

يا منزلاً بدواعي البين منتهياً^(٩) وما البلية الا من دواعيه
وقفت اشكو اشتياقي والسحاب به فانهل دمعى، وما انهل غواليه
والنار من زفاتي، لا بوارق والماء من عبراتي، لا غواديه^(١٠)

(٢) رقمها ٢٩٢

(١) انظر ٦٣، ٦٤، ٥٩.

(٣) هو مهيار بن مرزويه، الكاتب الشاعر، كان مجوسيا فاسلم على يد الشريف الرضى، وعليه تخرج في نظم الشعر، وهو

شيخه توفي سنة ٤٢٨ هـ. المنتظم ٩٤/٨، ٩٥، وفيات الاعيان ٤٤١/٤، النجوم الزاهرة ٢٦/٥، ٢٧. (٤) هو محمد بن هاني، الأزدي، الاندلسي. قال ابن خلكان: هو اشعر المغاربة. توفي سنة ٣٦٢ هـ. معجم الادباء ١٩/

٩٢، وفيات الاعيان ٤٩/٤، النجوم الزاهرة ٦٧/٤، ٦٨

(٦) وفيات الاعيان ٩٨/٤

(٥) الوافي بالوفيات ١٦٥/٤

(٧) ابن الديبني ٩٩/١ (المصور)، وفيات الاعيان ٩٨/٤، الوافي بالوفيات ١٦٥/٤، البداية والنهاية ١٣/١٣

(٨) ابن الديبني ٩٨/١ (المصور).

(٩) بالاصل بالرفع (منتهب)، ولعله سهر من الناسخ.

(١٠) الغواضي: مفردا غداية، وهي السحابة تنشأ - غدوة.

ومودع القلب - إذ ودعته - لهبا
 يوهي قوى جلدي من لا ابوح به
 لم ادر حين بدا، والكأس في يده
 وما المدامة الا من ثنيته
 لو لم يطل عصره فخراً، وتاه به
 حكّت جواهره ايامه، فصفت
 ... الخ^(١).

حاشاه حاشاه من قلبي وما فيه
 ويستبيح دمي من لا اسميه
 من كاسه السكر، ام عينيه، ام فيه
 ولا الظلامه الا من ثنيته
 عجباً، لما اهتز عطفاه من التيه
 وحدّث عن لآليه لياليه

في هذه الأبيات وصف للشوق والصبابة، وفيها عتاب رقيق، وشكوى وألم دفين عرف الشاعر كيف يلمح دون ان يصرح به، وفيها موسيقى حزينة ساهمت في بثها الفاظ خاصة عرف الشاعر كيف ينشرها بين الأبيات مثل: الزفرات والدمع والعبرات ويوهي ويستبيح والذل والقتل... كذلك ساعدت هذه القافية المكسورة المسبوقة بالياء في الجو الحزين، اضافة الى البحر البسيط الذي اختاره فجاءت عواطفه هادئة ولكنها محسوسة بينه وأفكاره ومعانيه واضحة لا غموض فيها ولا مجون ولا كلمة مما يخدش الحياء أو يسيء الى الذوق السليم، والأبيات لا تحتاج الى شرح او ايضاح: فليس فيها فلسفة ولا تعقيد. انها حديث في الحب يفهمه ويرتاح له كل الناس.

ان الحزن والألم أو النوح - كما يقول ابن خلكان^(٢) - هو العاطفة التي تشيع وتنشر في غزل ابن المعلم كله، ولذلك تجده كثير التردد والتكرار للألفاظ والمعاني التي تشع وتشيع هذه العاطفة مثل: البكاء والنحول والفراق والبعد والنوى والسقام ونفاد الصبر والبلوى والمصيبة وسواها، حتى قال الصلاح الصفدي: ان شعره ينفع الوعاظ^(٣).

ويغلب على الظن ان المعاني والألفاظ البدوية وخاصة الحجازية منها - التي يكثر ابن المعلم من ذكرها وايرادها في شعره - قد ساعدت على اشاعة الجو الحزين الذي يغلف قصائده^(٤)، ومنحتها مسحة خاصة حببتها الى المتصوفة، فراحوا يتواجدون على انغامها^(٥):

قد كنت خلي فاطرح تَكَ واتخذت النجمَ خلا
 وعزيرُ دمع العينِ يو مَ دعا الخَلِيطَ البينُ دَلَا

(٢) وفيات الاعيان ٩٨ / ٤
 (٤) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٣٧١

(١) الديوان ٢٠٠ (نسخة النجف).

(٣) الواقي بالوقيات ١٦٦ / ٤

(٥) وفيات الاعيان ٩٨ / ٤

وكذاك جيشُ الصبرِ مذ حملَ الفراقُ عليه ولَّى
قِفْ بي على الوادي الذي اقوى رُبى، وعفا مَحلاً
اشكو بلايَ اليه وال مشكو من شاكيه أبلى
وعلى مَراراتِ الهوى ما اعذبَ الشكوى واحلى
هو منزلَ اللذاتِ لو لم يلقِ فيه الدهرَ رحلاً
ولقد وجدت الدار دا رأ لو وجدتُ الاهل أهلاً
وسلِ «العقيق» وحيّ مِنْ شجر «اللوى» باناً وأثلاً^(١)

أما اثر البيئة في شعر ابن المعلم فيتضح حين نعرف ان هذا الشاعر هو الوحيد بين شعراء القرن السادس الذي لم يستطع احد أن يعثر له على بيت تشم منه رائحة المجنون أو الغلمان أو الخروج على مبادئ الخلق الكريم، على الرغم من أن شهرته قائمة على الغزل، وهو فن يندر ان يستطيع الشاعر فيه التوفيق بين الجودة والمحافظة على الأخلاق.

ان ديوان ابن المعلم وثيقة تدفع اولئك الذين ينادون بضرورة «التسامح» مع الشعراء والفنانين اذا اردنا ان تزدهر الفنون، بدعوى ان الفن الرفيع والخلق الرفيع لا يتفقان.

ان بيئة الشاعر: الزمانية والمكانية، كانت السبب الأساسي في ثلاث صفات لها أثر كبير في رواج شعره وهي: خلوه من فاحشي القول وساقطه، وتلك العناية الظاهرة في حسن اختيار الألفاظ والبحور الشعرية، حتى بدا الديوان وكأنه قد صفي وغربل قبل ان يخرج للناس، وهناك - اخيراً - عاطفة الحزن والمرارة التي تنبعث من بين سطور الديوان فتقرب بينه وبين مشاعر المحرومين الخزان.

ان ابن المعلم رجل قروي الأصل: فقد ولد ومات في قرية من قرى واسط تعرف بـ «أهرث»^(٢) وأهل القرى، حتى اليوم، اعف لسانا، وأكثر ميلاً الى مكارم الأخلاق من اهل المدن، اصف الى ذلك ان غزله - كما مر - هو مقدمات لقصائد مدح، قيلت في صفوة رجال المجتمع العباسي وقادته، فليس من المعقول ان يتماجن الشاعر في تلك المجالس الحاشدة المشهودة.

عاصر ابن المعلم، من ناحية الزمان والمكان، شيخ الطريقة الرفاعية في التصوف، الشيخ احمد الرفاعي ت ٥٧٨هـ^(٣)، بل ان صاحب الوفيات قال: سمعت جماعة من مشايخ

(١) الديوان ٦٦ (نسخة النجف).

(٢) الخريدة ٤/ ٤٣١، ابن الدبيني ٩٨/ ١ (المصور).

(٣) وفيات الأعيان ١/ ١٥٤.

البطائح^(١) يقولون: ما سبب لطافة شعر ابن المعلم الا انه كان اذا نظم قصيدة، حفظها القراء المنتسبون الى الشيخ احمد بن الرفاعي، وغنوا بها وطابوا عليها، فعادت عليه بركة انفسهم، ورأيتهم يعتقدون ذلك اعتقاداً لا شك عندهم فيه^(٢). والواقع أن هذه «اللطافة» التي تشير اليها ابن خلكان، أو «الرقّة» كما سماها غيره من القدماء^(٣)، أو «الحلاوة» كما قال فريق ثالث^(٤)، من صفات شعر ابن المعلم، التي عرفها القدماء، ولكنهم لم يهتدوا الى سببها، فظلوا حيارى.

من المستحيل ان يعيش شاعر تسعين عاماً - كما عاش ابن المعلم - في وسط يضج بالتصوف والمتصوفين، ثم لا يظهر أثر ذلك في شعره.

ان الألفاظ الدالة على التصوف نادرة الوجود في شعر ابن المعلم، مثل «حلبة الذكر» في قوله:

وَعَدَ بِحَدِيثِ الرَّمْلِ قَلْباً تَبِيحُهُ اعنة نسيان الأسى حَلْبَةُ الذِّكْرِ^(٥)
و«كشف الغطاء» في قوله:

كَشَفَ الْغَطَاءَ فَكُلَّ نَاهٍ عَاذِر وبدا الخفاء فكلّ باكِ مُعَوِّلٍ^(٦)
و«الحقيقة» في بيته:

فَإِذَا اقْشَعَرَ فَإِنَّ ذَلِكَ حَقِيقَةٌ وإذا اطمأنَّ فَإِنَّ ذَلِكَ تَعَمُّلٌ^(٧)
ولست استبعد أن يكون ما في شعر ابن المعلم من حنين أو ألم أو تواجد - كما يسميه الدكتور شوقي ضيف^(٨) - سببه الوسط الصوفي الذي عاش فيه الشاعر قرابة قرن من الزمان، اذا تناسينا ان الفرد العراقي بطبعه - وخاصة ابناء الأرياف - يميل الى الحزن، ويجد لذة في الغناء الحزين، والصوت الشجي المكتوم الالم والعاطفة، المعبر عن امال ضاعت، أو حبيب ليس الى لقائه من سبيل.

اما رقة الألفاظ، وحسن اختيار البحور، فلعل الشاعر استفاد فيها من حلقات

(١) موقعها بين واسط والبصرة في جنوب العراق. (٢) وفيات الأعيان ٩٨/٤

(٣) الخريدة ٤/٤٣١، مستدرک المختصر المحتاج اليه ص ٢٧ - ٢٨

(٤) ابن الديبشي ٩٨/١ (المصور)، المختصر المحتاج اليه ٩٦/١

(٥) الديوان ١٧ (نسخة النحل)

(٦) نفسه ٣٦ وانظر الرسالة القشيرية ص ٥١.

(٧) نفسه ٣٧ وانظر الرسالة القشيرية ص ٥٦ (٨) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٣٧١

الذكر والسماع^(١) التي عرف بهما المتصوفة، اذا اغفلنا الموهبة الذاتية.

ج - شعر الطبقة الحاكمة :

ويراد هؤلاء من وصلنا شعره ممن عرف بنظم الشعر من الطبقة العليا في المجتمع العباسي وتشمل :

١ - خلفاء بني العباس :

وأشهر من نظم الشعر منهم الخليفة المستنجد بالله المتوفى سنة ٥٦٦هـ^(٢)، أما أقلهم شعرا فالخليفة الناصر لدين الله المتوفى سنة ٦٢٢هـ، اذ لم أعثر له الا على بيت واحد^(٣).

٢ - وزراء العباسيين واخوانهم وابناؤهم :

وعلى الرغم من رواية العماد الكاتب لبعض اشعار الوزراء^(٤)، فإن اشهر من يستحق الذكرها هنا ابنا الوزير ابن هبيرة: عز الدين محمد المتوفى سنة ٥٦١هـ^(٥)، وله شعر كثير - كما يقول العماد - ولكنه فقد لاسباب سائير اليها بعد قليل، والابن الثاني هو شرف الدين ظفر (وقيل المظفر) المتوفى سنة ٥٦٢هـ^(٦) وهو اكثر الجميع شعرا، اذا اعتمدنا على خريدة القصر.

٣ - المزيديون :

وقد اشرت في الفصل الاول من هذه الرسالة الى ان سلطانهم السياسي انتهى سنة ٥٥٨هـ، ففرقوا في البلاد، وقال عنهم صاحب الخريدة انهم : « كانوا يعتمدون قول الشعر الا لحادثة على سبيل الندرة^(٧) ». « وقول العماد هذا يجب ان يؤخذ بحذر كما سيتضح بعد قليل . وأشهر من عرف بقول الشعر من زعماء بني مزيد هم : ديبس بن صدقة المتوفى سنة ٥٢٩هـ^(٨)، وبدران بن صدقة المتوفى سنة ٥٣٠هـ بمصر^(٩)، ومزيد بن صفوان بن الحسن، توفي في بلدة مصياف بالشام سنة ٥٨٤هـ، وله ديوان شعر، لا يزال مخطوطا^(١٠).

(١) من الالحان الباقية الى اليوم لحن السماعي وانما هو لحن من الحان الصوفية في اثناء اقامة السماع في ربطهم. تاريخ

العراق في العصر السلجوقي ص ٢٤٢

(٢) الخريدة ١٨ / ١

(٤) الخريدة ٩٥ / ١، ٩٦

(٦) نفسه ١٠١ / ١

(٨) نفسه ١٧٠ / ٤

(١٠) الشعر العربي في العراق ٧٤ / ٢

(٣) فوات الوفيات ٦٢ / ١

(٥) نفسه ١٠٠ / ١

(٧) نفسه ١٥٦ / ٤

(٩) نفسه ١٧٧ / ٤

٤ - بنو أبي الجبر :

ملوك البطائح وأعيانها^(١)، وتقع ديارهم هذه بين واسط والبصرة، في جنوب العراق، وكانت ملاذا لكل خائف، من الخليفة أو من السلطان^(٢)، ولكن العماد يقول عنهم، بعد هذا الكلام بقليل : وملوك البطائح لم يزالوا يملكون بالقتل والفك^(٣). وقد ضرب ابن التعاويذي بهم المثل في الظلم والتجبر، قال من قصيدة يصف واليا :

غادرت الأعمال أعماله خالية كالبلد القفر
تجبراً لم يرَ أهل القرى بمثله آل أبي الجبر^(٤)

وأشهر من يستحق الوقوف عنده من آل أبي الجبر الشعراء : الأمير احمد بن أبي الفتوح المتوفى سنة ٥٤٧ هـ^(٥).

بعد هذه المقدمة السريعة، يمكن أن ندرس شعر الطبقة الحاكمة - آخذين ما يلي بنظر الاعتبار - : ان شعر هؤلاء قليل معظمه مقطوعات او تنف : بسبب طبيعة حياتهم، وصعوبة الوصول الى بعضهم لتدوين شعرهم، وقد نص العماد انه كان : « بهاب سديد^(٦) الدولة ابن الانباري، ويكبره ان يستنشد^(٧) . » فكيف بمن هو اعلى مرتبة، وأعظم شأنًا من ابن الانباري؟، ومع ذلك استطاع صاحب الخريدة أن ينقل لنا قصائد طويلة لبعضهم، كما فعل مع شرف الدين ابن الوزير يحيى بن هبيرة^(٨)، وكذلك اثبت قصائد طويلة للامير احمد بن أبي الفتوح^(٩). ولا شك ان لمكانة العماد الاجتماعية، وعلاقاته الشخصية اثرًا في حصوله على شعر، أو وقوفه على معلومات، يصعب على غيره حتى ان يسمع بها. ولا شك ان هناك عوامل أخرى، كان لها اثر غير قليل في قلة شعر طبقة الحكام هذه : ومن تلك العوامل : الصراع بين الخلفاء والمزيديين من جهة، وبين الوزراء وانصارهم وأقاربهم، بعضهم مع البعض الآخر، من جهة اخرى، فعلى سبيل المثال : ينص العماد انه حذف من احدى القصائد أبياتا كثيرة، لان الشاعر تعرض للخليفة بما لا يليق^(١٠)، فكيف يمكن الوثوق بالذي ينقله العماد من شعر المزيديين، وهم في حرب لا تكاد

(٣) نفسه ٥٣١ / ٤

(٤) الديوان ص ١٩٥

(١) الخريدة ٥٢٣ / ٤

(٢) نفسه ٥٢٩ / ٤

(٥) الخريدة ٥٤٧ / ٤

(٦) هو ابو عبد الله، محمد بن عبد الكريم الانباري، منشيء ديوان الخلافة، وشيخ الدولة المتوفى سنة ٥٥٨ هـ الخريدة ١ /

(٨) نفسه ١٠٢ / ١ - ١٢٠

(٩) الخريدة ٨٤ / ٢

(٧) الخريدة ١٤٢ / ١

(٩) نفسه ٥٤٩ / ٤ - ٥٧١

تهدا مع خلفاء بني العباس^(١). واذا كان موت الوزير - ابن هبيرة - يدفع بعض الكبراء - كما ينص العماد^(٢) - الى ان يأخذ جميع الاشعار التي قيلت فيه ويغسلها، فكيف نصدق ان كل ما نظمته الوزير وابناه - وقد قتلا بعد موته بمدة وجيزة - هو هذه الاشعار التي روتها الخريدة؟

ان الأدب صورة من النشاط الاجتماعي، فهو يعكس عقلية الفرد والجماعة، ويترجم عما تحس به وتشعر، ويصور آلام لناس وآمالهم، وينقل لنا كيف يفكر هذا الفرد أو هذه الجماعة، وما يسيطر على حياتها من خير أو شر، ومن فقر أو غنى، وكفر أو إيمان. وقد كانت حياة الطبقة العليا في المجتمع العباسي، مزيجا من متناقضات، تبعا للظروف والأحوال: ففيها الترف والغنى والفراغ، من ناحية، وفيها التشرد والنفي والسجن، من ناحية أخرى، وفيها الحقد والدسائس والدجل والخداع، من ناحية ثالثة. وقد صور الشعر كل ذلك، ورسم أولئك الناس - باقلامهم - حياتهم العجيبة الغريبة، وتجاربهم التي ربما انفردوا بها، دون أن تخطر لسواهم ببال.

١ - الفراغ:

وهو عامل مهم، وتجربة يندر ان يجربها عامة الناس ولكن الطبقة العليا مبتلاة بهذا الوحش الذي لا سبيل الى القضاء عليه، ولذلك مال قسم من الحكماء الى الشعر ينفقون في نظمه اوقاتهم ويبددون سأمهم، وضيقهم، فاولع قسم منهم بالوصف، فوصفوا مما يحيط بهم: الشمعة^(٣)، والأترج^(٤)، والفرس^(٥)، والسوط^(٦)، والتفاح^(٧)، والسكين^(٨)، والقمر^(٩) وغيرها.

على حين اولع قوم بالمعارضات الشعرية، لا شيء سوى تزجية اوقات الفراغ وقتل الوقت، كما كان يفعل شرف الدين ابن الوزير: فقد عارض قصيدتين لمهيار^(١٠) احدهما ميميه، والأخرى قافية^(١١)، وعارض ايضا قصيدة للأبيوردي^(١٢) ولم ينص العماد على الغرض الذي نظم من اجله هذا الشعر سوى المعارضة. ومال فريق ثالث من هؤلاء

(١) انظر دراسة الحياة السياسية في الفصل الأول من هذه الرسالة.

(٢) الخريدة ٩٨/١ نفسه ١٨/١، ١٥٤

(٣) نفسه ١٥٣/١

(٤) نفسه ١٥٣/١

(٥) نفسه ١٢١/١

(٦) الخريدة ١٠٩/١، ١١٧

(٧) مرت ترجمته في ص ٨٥

(٨) هو ابو المظفر محمد بن ابي العباس أحمد، الاموي، الشاعر، كان متبحرا في الأدب، خيرا يعلم النسب. توفي سنة

٥٠٧ هـ، لا سنة ٥٥٧ هـ كما زعم ابن خلكان. المنتظم ١٧٦/٩، معجم الادباء ٢٣٤/١٧، وفيات الاعيان ٧١/٤، الوافي

باليوفيات ٩١/٢

المترفين الى الأحاجي، والالغاز، والمعميات ينظمونها او يتبارون في حلها، ونال بعضهم شهرة في هذا المجال: فقد نص العماد على ان تاج الدين، شقيق الوزير عضد الدين، كان.. اكثر ميلا الى اللغز والمعنى والأحاجي^(١)، وقال صاحب الفوات: ان سعد الدين، الحسين بن شبيب الطيبي^(٢)، كان مقداما في حل الالغاز^(٣).

وعندي ان افراط هؤلاء الزعماء في ادعاء الغرام، وشكواهم من فرط الجوى، ووصفهم لما يعانون من سهاد وارق في غزلهم، لا يمكن فهمه الا على افتراض انه نظم قتلا للوقت، ودفعاً لساعات ثقال لا تريد ان تزحزح، والا فكيف نصدق شقيق الخليفة، حين يزعم انه يموت اسفا على حبيب نأى:

قد جَدَدَ الدهر في الوري مَحْنًا واودَعَ الدهر في الحشا حَزَنًا
لو كَانَ شَخْصٌ يَمُوتُ من أَسْفٍ على حَبِيبٍ نَأَى، لَكُنْتُ أَنَا^(٤)

٢ - السجن والاعتقال:

من الغريب ان ينفرد اثير الدين ابن عم الوزير عضد الدين بذكر السجن، ووصف ما كان يعانيه فيه، رغم ان السجن والاعتقال لم يكن من نصيب اثير الدين هذا وحده: فقد سجن كل من بهاء الدين بن حمدون الكاتب، صاحب ديوان الزمام، ايام المستنجد، ومات في الحبس سنة ٥٦٢ هـ^(٥)، كذلك سجن شاعر ابن هبيرة، مفلح بن علي الانباري، ومات في الحبس سنة ٥٦١ هـ^(٦)، كذلك نجد ان ولدي الوزير ابن هبيرة، قد سَجِنَا بعد موت والدهما سنة ٥٦٠ هـ، وماتا في السجن، وهؤلاء كلهم من الشعراء، وكلهم من الطبقة العليا في المجتمع فاين شعرهم في السجن؟ ارجح ان شعر اثير الدين قد وصلنا، دون سواه، لانه قد خلا من اية اشارة الى اسباب سجنه، ولم يتعرض الى أحد ممن سجنه، على حين كان موت الآخرين في السجن، من اسباب اتلاف شعرهم: لان الغضب على فرد، في ذلك الزمن، قد يؤدي الى اتلاف جميع شعره^(٧).

(١) الخريدة ١ / ١٧٧

(٢) نسبة الى الطيب، بلدة كانت تقع بين واسط وخوزستان، وابن شبيب هذا كان بمنزلة النديم للخليفة المستنجد بالله، وولاه اشراف المخزن، توفي سنة ٥٨٠ هـ. الخريدة ١ / ١٨٧، فوات الوفيات ١ / ٢٧٦

(٣) فوات الوفيات ١ / ٢٧٦

(٤) الخريدة ١ / ٣٦، وانظر ص ٩٩، ١٥٧: ابیات ابن عم الوزير: تجري دموعي...

(٥) نفسه ١ / ١٨٤

(٦) نفسه ٤ / ٣٠٢

(٧) الخريدة ٢ / ٥٤

ان شعرائير الدين في السجن، شعر دون المتوسط، من الناحية الفنية، ولكن اهميته تكمن في دلالة الاجتماعية، مثل معظم شعر الاغنياء المترفين، ومنه قول اثير الدين:

افادني السجنُ منه عَقْلاً لعقله سُمي اعتقالا
لكنه شَفَنِي بِغَمٍ غادرني بالضنى خيالاً
يُضيء للعقلِ كلَّ شيءٍ اذ صرت من دقتي هلالاً^(١)
٣ - التغرب والحنين الى الوطن:

عرف اثنان من امراء بني مزيد هما: الامير بدران بن صدقة المتوفى بمصر سنة ٥٣٠ هـ^(٢) والامير مزيد بن صفوان بن الحسن، المتوفى في الشام سنة ٥٨٤ هـ^(٣)، عرف هذان الاميران بالحنين والتشوق الى موطن الاء والاجداد في الحلة، بعد ان اضطرا الى مغادرة العراق قبيل نهاية سلطانهم السياسي سنة ٥٥٨ هـ، لاسباب اشرت اليها في مقدمة هذه الرسالة، قال بدران:

الا قُلْ لمنصور، وقُلْ لمسيبٍ وقُلْ لِدبيسٍ إِنِّي لَغَزِيبُ
هَنِيئاً لكم ماء الفرات وطيبُهُ إذا لم يكن لي في الفرات نصيبُ^(٤)
وقال ايضا:

يا راكبينَ من الشَّأ مِ الى العراقِ تحسّسا لي
إن جثتما حلل^(٥) الكرا مِ ومركزَ الأسَلِ^(٦) الطَّوالِ
قُولا لها، بعد السُّلا مِ، وقَبْلَ تصفِيفِ الرُّحالِ
مالي ارى السُّعدي عن جيشِ الفتى المضري خبالِ
والقبة البيضاء في نقصٍ، وكانت في كمالِ
يا صدق، لو صَدَقوا رجا لك مثل صدقك في القتالِ
أو يَحْمِلُونَ على اليمِ ن، كما حَمَلَتْ على الشمالِ

(١) نفسه ١/ ١٥٦

(٢) نفسه ٤/ ١٧٧

(٣) الشعر العربي في العراق ٢/ ٧٤

(٤) الخريدة ٤/ ١٧٢ - ١٧٣

(٦) الاسل: الرماح.

(٥) الحلل: المنازل.

دامت لهم بك دولة تسعى لها همم الرجال
عربية، بدوية تسمو على طول الليالي
لكنهم لما رأوا يوم الوغى وقع العوالي^(١)
فَرُّوا، وما كَرُّوا قَتَبُ يَأْ: لِلْعَبِيدِ وَلِلْمَوَالِي^(٢)
وقال مزيد:

فيا دهرُ، هل بعدَ التفرقِ رجعة؟ فَيَهْتَفُ بِي لِلْوَصْلِ يَا دَهْرُ هَاتِفُ
وتُسعدني بالقُربِ بين احبَّتي وتَجْمَعُنِي^(٣) «بِالْجَامِعِينَ» مَعَارِفُ

وبالرغم من شدة تعلق العراقيين، حتى اليوم، ببلادهم، حتى ان النازحين منهم الى الاقطار الاخرى قلة اذا قورنوا باخوانهم العرب الاخرين، ولكن مع وجود هذه الحقيقة، فان فكرة الوطن عند الاميرين المزيديين - كما تدل قطعة بدران الثانية - ارتبطت بالمجد والامال والمطامح، التي تلاشت كلها في ديار الغربة، حتى ظهر على بدران اثر الفقر - كما نص^(٤) العماد - بقدر ان كان اميرا ذا شأن.

د - شعراء العلماء:

ويمثل هؤلاء الطبقة المثقفة في المجتمع العباسي، فبينهم الطبيب، مثل هبة الله بن صاعد بن التلميذ المتوفى سنة ٥٦٠ هـ^(٥)، والنحوي المقرئ، مثل الحسين بن محمد المنعوت بالبارع المتوفى سنة ٥٢٤ هـ^(٦)، والعلامة الذي يجمع بين النحو، واللغة، وقراءة القرآن الكريم، ورواية الحديث الشريف مثل ابي اليمن زيد بن الحسن الكندي الملقب تاج الدين المتوفى سنة ٦١٣ هـ^(٧)، والمؤرخ الواعظ، المحدث، ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ^(٨)، والعالم بالطب، والرياضيات، والهيئة، والنجوم،

(١) العوالي: الرماح.

(٢) الخريدة ١٧٩/٤ - ١٨٠.

(٣) احدى مناطق مدينة الحلة مدينة الحلة الباقية حتى اليوم.

(٤) الشعر العربي في العراق ٧٤/٢.

(٥) الخريدة ١٧٧/٤.

(٦) تاريخ الحكماء ص ٢٢٢ (ط. السعادة)، عيون الانباء ٣٠٦/٢، وفيات الاعيان ١١٩/٥.

(٧) المنتظم: ١٦/١٠ - ١٩، الخريدة ٢٣٠ نسخة ايران، معجم الادباء ١٠/١٤٧، وفيات الاعيان ١/٤٣٥.

(٨) معجم الادباء ١١/١٧٢، وفيات الاعيان ٨٧/٢، غاية النهاية ١/٢٩٨.

(٩) مرآة الزمان ٨/٤٨١، ذيل الروضتين ص ٢١ - ٢٧، وفيات الاعيان ٣٢١/٢، البداية والنهاية ١٢/٢٩.

والرصد مثل هبة الله بن الحسين المعروف، بالبديع الاسطرلابي المتوفى سنة ٥٣٤ هـ^(١)، وغير هؤلاء كثيرون.

وعلى الرغم من النص على ان بعض العلماء، عرفوا بقلة الشعر او ندرته، كابى محمد عبد الله بن احمد، المعروف بابن الخشاب المتوفى سنة ٥٦٧ هـ^(٢)، وهبة الله بن علي، ابو السعادات، العلوي النحوي الشجري المتوفى سنة ٥٤٢ هـ^(٣)، اقول برغم ذلك، عرف بعض علماء هذه الحقبة بكثرة الشعر، حتى قيل ان شعر ابن الجوزي يصل الى عشر مجلدات^(٤)، وكان لطائفة منهم دواوين، ومن هؤلاء: البديع الاصطرلابي، ومحمد بن مَوَاهِب الخراساني^(٥) المتوفى سنة ٥٧٦ هـ. وتاج الدين الكندي^(٦)، والبارع^(٧). وجمع ابو الحسن، علي بن الحسن المعروف بـ (شميم الحلبي) المتوفى سنة ٦٠١ هـ، من نظمه كتابا سماه الحماسة، ضاهى به حماسة ابي تمام الطائي^(٨)، والـف الطبيب البصري يحيى بن سعيد بن ماري المتوفى سنة ٥٨٩ هـ، ستين مقامة، ضاهى بها مقامات الحريري، احسن فيها واجاد، كما يقول صاحب معجم الادباء^(٩).

ولا بد ان الباحث المؤرخ سيفرح، ويمني نفسه بالكثير، حين يطالع النصوص السابقة عن كثرة شعر العلماء ووفرته، ولكن تلك الفرحة سرعان ما تختفي، ويصدم المرء، حين يجد ان اكثرية شعر العلماء قد ضاعت، وان تلك الاكداس، والمجاميع الشعرية، لم تبق منها الا صباية لا تبلى الريق، ولا تزيد الظمان الا عطشا، ولعل مما يضاعف حسرة المرء، ويزيد في تعاسته، ان يجد المؤرخين القدماء - ساعهم الله - يعتون طائفة من العلماء بغزارة الشعر، وطول الباع في ميدان النظم، حتى اذا جئت الى الادلة والشواهد، والامثلة التي تسند تلك الاقوال، لم تجد الا سرايا، فعلى سبيل المثال، قال ابن كثير عن ابي بكر، المبارك بن سعيد الواسطي الملقب بالوجيه النحوي المتوفى سنة ٦١٢ هـ: له مدائح حسنة،

(١) معجم الادباء ٢٤١/٧ ط. ماركليوث الاولى، عيون الانباء ٣٠١/٢، وفيات الاعيان ١٠١/٥

(٢) الخريدة/ نسخة ايران ٢٢٤، وفيات الاعيان ٢٨٨/٢

(٣) المستفاد ٧٧

(٤) مرآة الزمان ٤٩٩/٨، ذيل الروضتين ص ٢٤

(٥) معجم الادباء ٢٤٢/٧ ط. ماركليوث الاولى.

(٦) ذيل الردختين ص ٩٧

(٧) وفيات الاعيان ١/٤٣٥

(٨) نفسه ٢٦/٣

(٩) معجم الادباء ٢٩٦/٧ ط. ماركليوث الاولى، وانظر: تاريخ الحكماء ص ٢٣٦ ط. السعادة، والنجوم الزاهرة ٥/

٣٦٤، وقد وهم ابن تغري بردى اذ جعله بغداديا وهو بصري، ومقاماته الستون قد اعدّها للطبع الاستاذ الشيخ محمد بهجة الاثري، كما اشار في تعليقاته على الخريدة/ قسم العراق. وفيات الاعيان ١/٤٣٥.

واشعار رائقة، ومعان فائقة، وربما عارض شعر البحرى بما يقاربه ويدانيه^(١). ثم لا يورد بعد هذا الكلام سوى خمسة أبيات لا تبل الغليل، وقال ابن الفوطى عن ابن الخراسانى، السالف الذكر: علامة الزمان، فى الادب والنحو، له خاطر كالماء الجارى، يقدر على نظم ما شاء فى ساعة واحدة، وديوانه خمس عشرة مجلدة^(٢)، ثم لا يورد، من هذه المجلدات، سوى بيتين، وهكذا الامر فى بقية من اشتهر بقول الشعر من العلماء.

ان بعض الاسباب، التى يوردها المؤرخون للتدليل على اسقاطهم لطائفة كبيرة من شعر بعض العلماء، قد تكون مقبولة، فمثلاً: لم يسلم من لسان هبة الله بن الفضل، المعروف بابن القطان المتوفى سنة ٥٥٨ هـ، احد من الكبراء، ومنهم الخليفة نفسه^(٣)، ولذلك قال العماد عنه، له شعر كثير لم يدون^(٤)، وقال ابن خلكان عن البديع الاسطرلابي: وكان كثير الخلاعة، يستعمل المجون فى اشعاره، حتى يفضى به الى الفحش، فى الالفاظ، فلماذا اقتصرت له على هذه النبذة، مع كثرة شعره^(٥). ولكن الباحث المحايد لا يلبث ان يجد طائفة من العلماء، لم ينص احد على انهم تعرضوا لذى منصب كبير، ولا انهم من الماجنين، ومع ذلك لا نجد من شعرهم الا اقل القليل، ومن هؤلاء: الوجيه النحوي، وابن الخراسانى، السالف الذكر، وكذلك ابن الجوزي، الواعظ الحنبلي المعروف.

وأرجح ان اشتهار العلماء، وانصرافهم الى علومهم التى عرفوا بها، كالطب، والفلك، والرياضيات، والنحو، واللغة، اضعف الى ذلك ما شاع وذاع من ضعف وركة، قيل ان شعر العلماء لا يكاد يخلو منها، وهى المقولة التى ردها ابن قتيبة فى القرن الثالث^(٦)، وتبعه القفطى^(٧) فى القرن السابع، كل ذلك حمل النقاد والمؤرخين على الاهتمام بكتب العلماء وآرائهم فى حقول اختصاصاتهم المختلفة، اما شعرهم وأدهم، فكانوا يمررون به مروراً سريعاً، مكتفين بالبيت او البيتين، على سبيل الطرافة والتفكه، وهكذا طويت عنا دواوين، وحجب فى زوايا الغيب ادب، ربما كان فى نشره واذاعته ما يغير كثيراً من المفاهيم، التى تتردد عن شعر العلماء.

ان الذى يهمنى من شعر العلماء، هو نفسه الذى اهمنا من شعر الطبقة العليا: لان الجماعتين ليستا من رجال الشعر المعروفين، الذين وقفوا حياتهم على تدبيج القصائد، وتحويد القول. ان شعر العلماء يصور حياة الطبقة المثقفة آنذاك، ويعبر عما كانوا يعانون

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٦٩

(٢) تلخيص معجم الالقاب: ق ٤ ج ٣ ص ٣٧٣

(٣) الخريدة ٢ / ٢٧٠

(٤) الشعر والشعراء ص ١٦ (ط. دار الثقافة الاولى).

(٥) وفيات الاعيان ٥ / ١٠٤

(٦) وفيات الاعيان ٥ / ١٠١

(٧) انباء الرواة ٣ / ٢٦٧

ويكابدون، ! وكيف كان المجتمع ينظر الى العالم، وما نوع العلاقة بين العلماء ورجال الدولة، ان علاقة بعضهم بكبار الحكام، كالخلفاء والوزراء، وترددهم المستمر على دار الخلافة، ومنازل عليا القوم، قد يكشف لنا عن صحة او بطلان الصور الزاهية للحياة يومذاك، كما وصفها الشعراء المحترفون.

١ - نقد الحكام وتعريتهم: ان من يطالع دواوين شعراء الفترة المحترفين، ومنهم ابن التعاويذي، والابله البغدادي، ويقف على قصائدهم الطنانة، وتلك الصفات، والصور التي صوروا بها مدحهم من رجال السياسة والادارة، كالخلفاء والوزراء، اقول ان من يقف على صورة رجال الحكم، كما ترسمها الاقلام المرتزة، وتقدمها للناس في مثالية عجيبة، ثم يقرأ تلك التنف، والابيات القصار، التي يسدها العلماء الى اولئك الحكام، فيصفونهم على حقيقتهم، بعيدا عن الدجل، والتلفيق، وشراء الذمم، ان من يوازن بين الصورتين، يأخذ العجب مما تفعله الدراهم، فعلى سبيل المثال: نظم الابله اكثر من خمس عشرة قصيدة في مدح ابن هبيرة الوزير، ونظم معاصروه من الشعراء اكاداسا من لشعر، كلها تكبر السيد الوزير، وتشيد بمآثره، واياديه الجسام، وما ناله الناس في ايامه من خير وبر، ولكن صورة هذا الوزير، ما تلبث ان تهتز في اذهاننا، اذا وقفنا على ابيات البديع لاصطرلابي فيه:

قَصُوى اَمَانِيكَ الرَّجُو ع الى المَسَاحِي والنَّير^(١)
مُتَرَبِّعاً وَسَطَ المَزَا بل، وَسَطَ دُورِ بَنِي أَقَر^(٢)
أَوْ قَائِدا جَمَلَ الرُّبَيِّ لَدِي^(٣) اللعِين الى سَقَر^(٤)

وهذا الذي فعله البديع لاصطرلابي، يشبه ما فعله هبة الله ابن الفضل حين قال بهجو «خلقا من الاكابر» بينهم الخليفة نفسه، في قصيدة منها هذا البيت الساخر:

تَكَرَّيْتُ تُعْجِزُنَا، وَنَحْنُ بِجَهْلُنَا نَمْضِي لِنَأْخُذَ تَرْمِداً مِنْ سَنْجَر^(٥)

(١) النَّير: واحدها: نير وهو الخشبة التي تجمع بين ثورين عند الحراثة.

(٢) في وفيات الاعيان ٢٧٤/٥.

ان الوزير يحيى بن هبيرة من قرية بني أوفر من اعمال دجيل.

(٣) لعله استاذ ابن هبيرة وهو ابو عبد الله محمد بن يحيى. الزبيدي الواعظ اذ ينص ابن خلكان انه كان يصحبه. والوفيات

٢٧٤/٥، وقال ابن خلكان: ان الشيخ الزبيدي كان كبير القدر وما انتفع الوزير الا بصحبته، وقد توفي سنة ٥٥٥. الوفيات ٥/

٢٨٦

(٥) وفيات الاعيان: ١٠٩/٥

(٤). معجم البلدان: ٩٨/٤

٢ - كثرة التعليل، وذكر الاسباب: يخضع العلماء شعرهم لنظام دقيق من ربط المقدمات بالتائج، والظواهر باسبابها، وهو صدى لتفكيرهم العلمي، وحياتهم القائمة على ان لكل شيء سببا، ولذلك نراهم، في شعرهم، يسارعون الى البرهنة على صحة ما يذهبون اليه من رأي، او فكرة، وكأنهم يتوقعون ان يناقشهم السامعون فمن ذلك قول هبة الله بن التلميذ الطيب:

إذا وجدَ الشَّيْخُ في نفسه نشاطاً، فذلك موتٌ خَفِيَ
أَلَسْتُ ترى ان ضوءَ السراجِ له لهيبٌ قبلَ أنْ يَنْطَفِئَ؟^(١)

فابن التلميذ-وهو الطبيب الخبير المجرب- يحذر الشيوخ من النشاط المفاجيء بانه ليس علامة صحة، بل بالعكس، وفي سبيل البرهنة على صحة هذه الدعوى عمد الى لب السراج قبل ان ينطفئ. وقال سعيد بن المبارك، المعروف بابن الدهان النحوي المتوفى سنة ٥٦٩ هـ:

قِيلَ لي: جاءكَ نجلٌ ولدَ شَهِمٌ وَسِيمٌ
قُلْتُ عَزَّوْهُ بِفَقْدِي وَلَدُ الشَّيْخِ يَتِيمٌ^(٢)

٣ - استعمال الالفاظ والاصطلاحات العلمية: قال صلاح الدين الصفدي: وكل من عانى النظم، وغلب عليه فن من الفنون، مال به الى ذلك الفن، وغلبت عليه قواعده، واستعملها في مقاصده الشعرية، وتخييلات معانيه، وظهر على ما يرومه اصطلاح ذلك الفن، واحكامه، الا ترى الى ابي الفتح البستي^(٣)، ومقاطيعه المشهورة في الاداب، والحكم، كيف يغلب عليها الفاظ المنجمين^(٤). وقبل الصفدي اشار القفطي^(٥) الى شيء من هذا الذي فصله صلاح الدين بعد ذلك. والمهم هنا: ان ألفاظ واصطلاحات العلوم المختلفة واصطلاحاتها، تكسب الشعر طرافة وجمالا، فيعذب ويحلو، ويخف على القلوب والاسماع، قال البديع الاصولي، وكان عالما بالفلك - كما مر -

(١) معجم الادباء ٢٤٦/٧ (ط). ماركليوث الاولى)، عيون الانباء ٢٨١/٢، وانظر أيضا ٢٨٣/٢، وفيات الاعيان ٢/

(٢) الوافي بالوفيات ١٤٣/٨ «مصور».

(٣) هو علي بن محمد، الكاتب، الشاعر، المشهور، قال ابن خلكان انه: صاحب الطريقة الانيقية، والتجنيس البديع التأسيس. توفي ببخاري سنة ٤٠٠ هـ وقبل سنة ٤٠١ هـ. يتيمة الدهر ٢٨٤/٤ (ط). الصاوي)، وفيات الاعيان ٥٨/٣، النجوم

الزاهرة ٢٢٨/٤، شذرات الذهب ١٥٩/٣

(٥) انباء الرواة ١٩١/٣

(٤) الغيث المسجم ١٨٩/١

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ، فَإِنِّي قَدْ صُغْتُ قَلْباً مِنْ حَدِيدٍ
وَقَعَدْتُ أَنْتَظِرَ الْكُسُوفَ فَ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ بَعِيدٍ^(١)
وقال:

تَقَسَّمْ قَلْبِي فِي مَحَبَّةٍ مَعْشِرٍ بِكُلِّ فَتًى مِنْهُمْ، هَوَايَ مَنُوطٌ
كَأَنَّ فُؤَادِي مَرْكَزٌ، وَهُمْ لَهُ مُحِيطٌ، وَاهْوَايَ إِلَيْهِ خُطُوطٌ^(٢)
وقال ايضاً:

وَذُو هَيْئَةٍ، يَزْهُو بِخَالٍ مِهْنَدَسٍ أَمُوتُ بِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَأُبْعَثُ
مُحِيطٌ بِأَوْصَافِ الْمَلَاخَةِ وَجْهَهُ كَأَنَّ بِهِ إِقْلِيدَسٌ يَتَحَدَّثُ
فَعَارِضُهُ خَطٌّ اسْتَوَاءٍ، وَخَالُهُ بِهِ نَقْطَةٌ، وَالْخَدُّ شَكْلٌ مِثْلُ^(٣)

ان الفاظ: الكسوف، والمركز، والمحيط، واقليدس، والنقطة، وخط الاستواء، والشكل المثلث، تظهر بوضوح مهنة البديع الاصرطرابي، فلم يستطع ان ينساها، حتى وهو يتغزل.

وقال الطبيب هبة الله بن التلميذ:

اِذَا كُنْتُ مَحْمُوداً فَأَنْتَكَ مَرِيءٌ عُيُونَ الْوَرَى، فَاعْلَمْهُمْ بِالتَّوَضُّعِ^(٤)

٤ - الغربية والحنين الى الوطن: اضطر قسم من العلماء الى ترك بلادهم، والنزوح الى الاقطار المجاورة، بسبب الاوضاع الاجتماعية، والسياسية السيئة التي اشترت اليها في مقدمة هذه الرسالة، وكان العالم العراقي - آنذاك - يمثل عملة نادرة، ولذلك كان العراقيون، يقابلون بالاكبار اينما حلوا، قال صاحب الروضتين يصف مكانة تاج الدين الكندي في دمشق: ان اولاد الملوك، كانوا من طلابه، وخدامه، وكان يحضر مجلسه للقراءة والسماع منه في داره: جميع المتصدرين بجامع دمشق من المشايخ المعبرين. كآبي الحسن السخاوي^(٥)، ويحيى^(٦) بن معطي^(٧). اما ابو المظفر، محمد بن اسعد الحنفي البغدادي

(١) عيون الاناء ٢/ ٣٠٢

(٣) نفسه ٢/ ٣٠١

(٢) نفسه.

(٤) نفسه ٢/ ٢٨٣

(٥) هو ابو الحسن علي بن محمد، المصري، المقرئ، النحوي، الملقب بعلم الدين، قال ابن خلكان: وأبنته بدمشق والناس يزدهون عليه في الجامع لاجل القراءة، ولا يصح لواحد منهم نوبة الا بعد زمان. توفي سنة ٦٤٣ هـ بدمشق. وفيات الاعيان ٣/ ٢٧، بغية الوعاة ص ٣٤٩، معجم المؤلفين ٧/ ٢٠٩.

(٦) هو ابو الحسين يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور، الملقب زين الدين: كان احد أئمة عصره في النحو واللغة. توفي بالقاهرة سنة ٦٢٨ هـ. وفيات الاعيان ٥/ ٢٤٣، بغية الوعاة ص ٤١٦، شذرات الذهب ٥/ ١٢٩، معجم المؤلفين ١٣/ ٢٠٩.

(٧) ذيل الروضتين ص ٩٥

الواعظ المتوفى سنة ٥٦٧ هـ، فقد بنى له صاحب دمشق مدرسة ليعظ بها^(١). ومن الطبيعي ان يشترك هؤلاء العلماء الى بلادهم مهما كانت الظروف المحيطة بهم، وقد صور شعرهم هذا الشوق، ورسم تعلق العراقيين ببلادهم، وحنينهم الى ايام الصبا، ومرايح الحداثة.

قال الفقيه ابو علي محمد بن عبد الله البغدادي، المتوفى ببلخ سنة ٥٤٨ هـ يشترك الى جَرَجَرَايا^(٢):

على تلك العِراضِ بِجَرَجَرَايا من الانواءِ انواع التحايا
ديار كنت آلفها، وأغشى بها هيفاء، وأضحى الشايا
فَقَعِيرَ آيها صَرَفُ اللَّيالي وَبَدَّلَ اهلها بِالْقُرْبِ نايَا
عَدَّتْ ايامُها سوداً، وكانت لَيالينا بها بيضاً وَضَايا^(٣)

وقال عبد الرحيم بن الاخوة، البغدادي، المتوفى بشيراز سنة ٥٤٨ هـ:

أخويَ بالزَّوراءِ، جادُكم الحيا هل الملتقى بعد النأي مُتَدانٍ؟
وهل بعد أن شَطَّتْ بنا غُرْبَةُ النَّوى تلاقٍ، وهل بعد الجَفاءِ تَجانٍ؟
تَرَحَّلْتَ عنكم، والشَّبابُ بمائه فَشَيَّيْنِي هِجْرانُكُمْ، وَحَنانِي
وَقَيْدَنِي عنكم أصاغُرُ صَبِيَّةٍ تَوَزَّعَ قَلْبِي شانُهُمْ وَعَنانِي
اذا هَزَنِي عَزَمِي اليُكُمُ أَهَابَ بي تعهدهم، فاعتاقني وَثْنانِي
فانشد نفسي قولَ صخر^(٤)، وانطوى على كَمَدٍ، يحكي شِباةَ^(٥) سِنانِ
«اهمُّ بامر الحزم - لو أستطيعه - وقد جيلَ بين العيرِ والتَّزْوانِ»^(٦)

٥ - الاحاجي، والالغاز، والمعارضات: كما شغفت الطبقة العليا بالاحاجي والالغاز، ومعارضة قصائد مشهورة - كما اشرت قبل صفحات - قتلا للوقت، وترفيها عن النفس، وربما ايضا اثباتا للقدرة على نظم الشعر، كذلك فتن العلماء بهذه «الالغاز» بسبب صلتهم برجال الطبقة العليا، وحرصهم على مجارة السادة الكبار فيما يحبون، ويولعون اذ يبدو ان الغرام بالاحاجي، والشعر المعنى، اصبح دليلا على ان ناظمه

(١) الوافي بالوفيات ٢/ ٢٠٣

(٢) من نواحي واسط، كما في معجم البلدان ٣/ ٨٠

(٣) الخريدة/ نسخة ايران ١٨١

(٤) صخر: لم اتوصل الى معرفته، وكذلك لم اقف على بيته الذي ضمنه ابن الاخوة.

(٥) الشباة: طُرف السنان.

(٦) الخريدة/ نسخة ايران ٢٠١، العير: الحمار. التزوان: الوثب.

يواكب كل مستطرف في عالم الشعر. وقد تكون مقامات الحريري - وقد نالت لمدة نيفت على سبعة قرون تقديرا يلي القرآن الكريم^(١) - هي السبب في تسابق الكثيرين نحو الاحاجي والالغاز، لاحتوائها على الغاز في النحو^(٢)، والغاز في الفقه^(٣)، والغاز في غير هذين الميدانين. وهكذا رويت الغاز للبارع^(٤)، ولابن الخشاب^(٥)، وللطبيب هبة الله بن التلميذ^(٦)، ولابي الفرج بن التلميذ^(٧)، اما الطبيب محفوظ بن المسيحي المتوفى سنة ٥٦٠ هـ، فقال العماد انه كان «لهجا بالالغاز، ولما يسمعه من ذلك شديد الاهتزاز...»، ثم ذكر له الغازا في العقل، والرمانة، وكيزان الفخار، والنائي^(٨).

وكان ابو نزار - المعروف بـ ملك النحاة - مولعا بالمعارضات كي يثبت انه متفوق على مشاهير القدماء، حتى روي انه قال: هل سيبويه الا من رعيقي، وحاشيتي، ولو عاش ابن جني لم يسمعه الا اهل غاشيتي^(٩). وقد وضع ابو نزار مقامات على غرار مقامات الحريري، قال عنها: «مقاماتي جد، وصدق، ومقامات الحريري هزل، وكذب»^(١٠)، وقد عارض ابو نزار ميمية مهبّار التي فيها يقول:

فابْعَثُوا اشْبَاحَكُمْ لِي فِي الْكَرَى اَنْ اَرْدُتُمْ لِحِفْوَنِي اَنْ تَنَامَا^(١١)
كما عارض حاثية ذي الرمة بقصيدة، يقول فيها:

واين من الهيفِ النّواعِمِ ما هَفَّتْ اِلَيْهِ جِهَاتٌ مِنْ فَوَادِكْ تَطْمَحُ؟
سَقَى الْجَزَعُ مَا رَوَى رُبَاهُ مُجْلَجِلٌ^(١٢) هَتَوْنَ الْغَوَادِي^(١٣) بِسَرَقِهِ يَتَوَضَّعُ^(١٤)

(٢) انظر: المقامة القطيعية والنحوية.
(٤) الاعجاز للخطيري ص ١٢٢
(٦) الاعجاز ص ٣١
(٨) الخريدة ٤/ ٤٩٨ - ٥٠١
(١٠) انباء الرواة ١/ ٣٠٩ حاشية (١).
(١٢) مجمل: اي سحاب راعد.

(١) المدخل في الادب العربي ص ١٢٠
(٣) انظر: المقامة الطيية او الحرية.
(٥) معجم الادباء ١٢/ ٥٢
(٧) نفسه ص ٤٤
(٩) بقية الوعاة ص ٢٢٠، الغاشية: غطاء السرج.
(١١) في الديوان ٣/ ٣٢٨ (وابعثوا... إن اذنتم...)
(١٣) الغواضي: واحدها الغادية: السحابة التي تنشأ صباحا.
(١٤) الخريدة / نسخة ايران ٢٤٠ - ٢٤١

الفصل الثالث
الشعر المحافظ .. أشهر أغراضه

١ - المدح :

لا يختلف القرن السادس عن القرون السابقة من ناحية كثرة شعر المدح، قياسا الى الاغراض الشعرية الأخرى، كذلك وجد في هذا القرن - كما هو الحال في الماضي - بعض الشخصيات التي عرفت بتشجيعها للشعراء، وبذاتها الاموال بسخاء من اجل الذكر الحسن، والقصائد الطنانة ولذلك استقطب هؤلاء قصائد الشعراء، وقيلت فيهم معظم قصائد المدح المشهورة.

ومن الطبيعي ان يكون الخلفاء في طليعة مشجعي الشعراء، وخاصة المستضيء وابنه الناصر لدين الله، والوزير يحيى بن هبيرة، ثم صلاح الدين الايوبي، ووزيره القاضي الفاضل، وكذلك وزير الموصل محمد بن علي المتوفى سنة ٥٥٨ هـ، وهو المعروف بالجواد - كما يقول ابن خلكان^(١).

ولعل وجود طائفة من الشعراء يسمون «شعراء الديوان»^(٢) خاصين بديوان الخلافة، مما يدل على اهتمام الخلفاء بالشعر والشعراء، اضافة الى الاخبار والروايات الكثيرة التي تدل على اكرام الخلفاء للشعراء، ومنها: ان المستضيء اعطى الخيص بيص ٣٠٠ دينار وخلعة ودارا، واقطعه ضيعة من اجل أبيات لا تزيد على خمسة مدحه بها^(٣)، واعطى هذا الخليفة نفسه للنحوي المعروف بابن الخشاب مائتي دينار من اجل بيتين من الشعر، وقال: «لو زادنا زده»^(٤)، أما الوزير ابن هبيرة فقد قال عنه العماد انه: «رزق من الشعر والشعراء ما لم يرزقه احد، وأجاز عليه، وقد جمعت القصائد التي مدح بها فزادت على مائتي الف بيت»^(٥). وقال ابن خلكان عن صلاح الدين الايوبي: «ومدحه جميع شعراء عصره،

(١) وفيات الاعيان ٢٢٨/٤.

(٢) ابن الديبشي و ٥٤، ٢٦٤، الجامع المختصر ٦٩/٩، الوافي ١٠١/٢، ١١٩/٢، نكت الحميان ١٢٤.

(٣) الخريدة ١/٣٣٠.

(٥) الخريدة ١/٩٨.

(٤) شذرات الذهب ٢٢١/٤.

وانتجعوه من البلاد^(١). « وكان ابن التعاويذي يسير قصائده اليه من بغداد، فتصل الى القاضي الفاضل، ومعها مديح للفاضل، وهو الذي يعرض قصائده على صلاح الدين^(٢).

عوامل أثرت في المدح:

يذهب الدكتور شوقي ضيف الى ان البواعث والحوادث الهامة، مما يدفع الشاعر الى التجويد والابداع، ويعطي شعره حدة أو قوة^(٣). وهذا الذي يقوله الاستاذ الكريم، هو الذي اضفى على طائفة من المدح في القرن السادس مسحة من الجدة، وبث فيه حياة وقوة، تحمل الباحث على الوقوف والتأمل والاعجاب، اذ وجد الشعراء في اشخاص بعض الممدوحين والأحداث المحيطة بهم، حوافز كبيرة المهتمهم افكارا وصورا، كان يظن ان لا سبيل اليها بعد ان شاخ شعر المدح وهرم.

١ - كانت الحروب الصليبية والصراع بين الفرنج والعرب، أو بين الاسلام والمسيحية، وموقف الخليفة من الحرب التي كان يقودها صلاح الدين، كل ذلك ترك اثره في مدح ابن التعاويذي لصلاح الدين، حين قال:

وَنَهَضْتَ لِلْإِسْلَامِ نَهْضَةً صَادِقَ الْ—
وَعَظُمْتَ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ، وَلَمْ تَزَلْ
غَادَرْتَ أَهْلَ الْبَغْيِ، بَيْنَ مُجَدِّلٍ
أَوْ هَارِبٍ ضَاقَتْ عَلَيْهِ بِرَحْبِهَا الدَّ
فَاصْبَحْ بِلَادَ الرُّومِ مِنْكَ بَغَارَةٌ
وَانكح صَوَارِمَكَ الثُّغُورَ، يَزُورُهَا
... الخ^(٤)

عزمت، ترأب^(٥) من ثأه^(٦) وتشعب^(٧)
في الله ترضى، منذ كنت، وتغضب
لقي الجمام، وخائف يترقب
أرض الفضاء، وابن منك المهرب؟
لنصر فيها رائد لا يكذب
- في كل يوم من جيوشك - مقنب^(٨)

وقد حذف منها جامع الديوان الأبيات التالية:

وارم الكنائس من شظاك بمارج^(٩)
وارفع بها للمسلمين منابراً
متأجج، نيرانه تسلط
باسم الخليفة، ثم باسمك يخطب

(٢) نفسه ١٦٢/٦.

(٤) ترأب: تصلح.

(٦) تشعب: تصلح.

(٨) الديوان ص ٢٥.

(١) وفيات الأعيان ٢١٠/٦.

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٣٧٤.

(٥) ثأه: الثأ: أراد بها الجانب أو الكف.

(٧) المقنب: الجماعة من الخيل.

(٩) المارج: الشعلة ذات اللهب الشديد المختلط بسواد النار.

واسق الجياد من الخليج، فوزده يدنو عليك - اذا عزمت - ويقرب
ملحت موارده، واقسم أنها من نيل مصر، في مذاقك، أعذب
واقرع بحى على الفلاح مسامعاً تصبو، اذا ذكر الصليب، فتطرب
لا تبق زئاراً. يشد بها على عالج، ولا ناقوس دير يضرب
واصمد لحرب المشركين، مهذباً بالسيف من بسواه لا يتهدب^(١)

ان عاطفة الشاعر الدينية، واعجابه بموقف صلاح الدين في الدفاع عن الاسلام هي التي اكسبت القصيدة قوة، وبث في ابياتها روحاً، حتى كدنا نسى ان هذا الشعر قد غبرت عليه قرون.. وقد كرر الشاعر فكرة الدفاع عن الاسلام والدود عن حماه في اكثر من قصيدة من مدائحه لصلاح الدين: فقال من قصيدة نص الديوان انه نظمها سنة ٥٧٤ هـ:

حامي ثغور الاسلام بالهندوا^(٢) نيات والضمير السراجيب^(٣)
ومنها:

رأيت شعب^(٤) الدنيا، وكان ثأى ال اسلام لولاك غير مشعوب^(٥)
وقال من قصيدة اخرى:

جهاذ من لم يبق يوماً له في نضر دين الله، مجهود
ومن تبقاه الردى منهم في الاسر مكبول ومصفود^(٦)
ويلاحظ ان جامع الديوان ومحققه، يشير هنا الى انه قد ترك خمسة أبيات «لعدم المنفعة فيها»، وكذلك فعل في مكان آخر من الديوان^(٧).

ومن حسن الحظ ان الأبيات المحذوفة في هذا المكان الثاني، قد اثبتتها صاحب «مضمار الحقائق»، وفيها يهاجم الشاعر المسيحية، ويحرض صلاح الدين على هدم الكنائس، والقضاء على اصحاب الزنار والصليب. وبذلك يتضح ان حذف تلك الأبيات، لم يكن لعدم المنفعة - كما يقول ماركليوث - وان اصول التحقيق والحياد العلمي، لا يقران هذا الصنيع.

(١) مضمار الحقائق: ص ١٩٤.

(٢) الهندوانيات: السيوف.

(٣) السراجيب: الخيول الطويلة.

(٤) الشعب: الصدع أو الشق.

(٥) الديوان ص ١٩، ٢١، غير مشعوب: لا مصلح له.

(٦) ص ٢٥.

(٧) الديوان ص ١١١.

٢ - والحدث الهام الثاني الذي ساعد على تحديد المدح وتنوعه، هو عودة الخطبة للعباسيين بمصر، بعد انقطاع ايام الفاطميين دام اكثر من مائتي سنة، وهو حدث عظيم الأهمية ايام المستضيء، واعتبر من مناقب هذا الخليفة وانجازاته، ومن اكبر ما قدمه صلاح الدين للخلافة العباسية، قال ابن خلكان: «ولما خطب للمستضيء بأمر الله بمصر، ارسل نور الدين^(١) اليه يعرفه ذلك، فحل عنده اعظم محل، وسير اليه الخلع الكاملة مع عماد الدين صندل^(٢) المقتفوي، اكراما له، لان عماد الدين كان كبير المحل في الدولة العباسية، وكذلك ايضا سير خلعا لصلاح الدين. . وسيرت الاعلام السود^(٣) لتتصب على المنابر^(٤)» وقد مر بنا ان ابن الجوزي الف في هذا الموضوع كتابا سماه «النصر على مصر»^(٥).

واكثر الشعراء من نظمهم والاشارة اليه عند مدح الخليفة المستضيء، وعلى سبيل التمثيل لا الحصر، أذكر هنا قصيدة لعماد الدين الاصفهاني^(٦) واخرى لأبي عبد الله الحسين بن شبيب^(٧)، وثالثة للأبله البغدادي^(٨) اما ابن التعاويذي، فقد ذكر الحادث في اكثر من اربع قصائد من مدائحه للمستضيء، وراح يعيده ويكرره ويدور حوله ويتناوله من زوايا متعددة وفي مناسبات مختلفة، حتى يجيل للقارئ ان عودة الخطبة للعباسيين أهم من انتصار صلاح الدين على الصليبيين، وتحرير الأرض المقدسة، ففي اولى قصائد الديوان قال:

وَأَطَاعَتْكَ أَرْضُ مِصْرَ، وَمِصْرُ حِينَ تُدْعَى، وَحَشِيَّةُ عَصْمَاءَ^(٩)
وَأَسْتَقَادَتْ - بَعْدَ الشَّمْسِ^(١٠) - وَقَدَاسَ حَمَعَهَا بِالْعِرَاقِ مِنْكَ النَّدَاءُ
وَاغْتَدَّتْ خِطَّةُ الصَّعِيدِ، تُذِيبُ الـ صَخَرَ أَنْفَاسُ أَهْلِهَا الصُّبْعَاءُ
انْكَحَتْهَا بَيْضُ الصُّوَارِمِ غَارَا تُكْ، وَهِيَ الْعَقِيلَةُ الْعَذْرَاءُ
دَخَرَتْهَا لَكَ اللَّيَالِي، وَكَمْ حَا مَتَّ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلِكَ الْخُلَفَاءُ
مَلَكَتْهَا يَدَاكَ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَشَاءُ^(١١)

وفي قصيدة ثانية قال:

-
- (١) نور الدين محمود. . بن زنكي: انظر الفصل الأول ص ٩ هامش ٢.
(٢) عماد الدين صندل المقتفوي: نسبة الى سيده الخليفة المقتفي لأمر الله، كان استاذ دار الخليفة المستضيء، توفي سنة ٥٩٣ هـ. دليل خارطة بغداد ١٩٥-١٩٦.
(٣) هي اعلام العباسيين.
(٤) وفيات الأعيان ٦/ ١٥٨.
(٥) أنظر: الفصل الأول ص ٩.
(٦) الحريدة ١/ ١٣-١٤.
(٧) نفسه ١/ ١٨٩، وقد مرت ترجمة ابن شبيب ص ٩٦ هامش ٢.
(٨) ديوان الأبله و ٧.
(٩) عصماء: يصعب الوصول اليها.
(١٠) الشمس: الصنوبر والامتناع.
(١١) الديوان ص ١-٢.

ولولا الامام المستضيء، ورأيه
به أيد الله الخلافة، بعد ما
فمن مبلغ تحت التراب ابن هاني^(١)
بأن الحقوق استرجعت في زمانه
وان الليالي الدهم^(٢) بالجور اشرفت
على إثرها بالعدل، ايامه الغر^(٣)
تداعت قوى الاسلام وانتشر الثغر
تفاقم داء البغي، واستفحل الشر
وقبر المعز^(٤)، إن اصاح^(٥) له القبر
- على رغم من ناواه - وافتحت مصر
على إثرها بالعدل، ايامه الغر^(٥)

ان من يطالع هذه المقاطع من قصائد ابن التعاويذي في الخليفة، يخيّل له ان
المستضيء قد جهز الجيوش، واعد الخطط، وخاض المعارك حتى اذعنت له مصر، بعد ان
عجز عنها من سبقه من الخفاء رغم محاولاتهم المستمرة.

والواقع ان الخليفة لم يبذل اي جهد لاسترداد مصر، ولكن صلاح الدين هو الذي
قرر الخطبة لبني العباس في مصر، بغضا منه للفاطمين، والشاعر يعرف هذا جيدا، ومع
ذلك - ارضاء للخليفة وتملقا له - راح يزعم ويردد بان صلاح الدين لم يكن سوى عامل من
عمال الخليفة او قائد من قواده كلف بمهمة فأنجزها. قال مشيرا الى خلع الخليفة التي
ارسلها الى صلاح الدين:

مِمَّا تَخَيَّرَهُ الْخَلِيفَةُ مِْنَحَةً لَكَ فَاصْطَفَاهُ، كَفَاءُ مَا تَسْتَوْجِبُ
أَلْفَاكُ خَيْرَ مَنْ ارْتَضَاهُ لِمُلْكِهِ يَقْظَانُ، تَسْهَرُ فِي رِضَاهُ، وَتَدَابُ
وَرَأَكَ اسْرَعَهُمُ إِلَى الْأَعْدَاءِ أَقْدَامًا، وَغَيْرُكَ مَحْجَمٌ، مُتَهَيِّبٌ^(٦)
وقال من قصيدة أخرى:

سَيْفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي لَوَاؤُهُ بِالنَّصْرِ مَعْقُودُ
مُلْكُهُ الدُّنْيَا، فِي كَفِّهِ - نِيَابَةٌ عَنْهُ - الْمَقَالِيدُ
نِيَابَةٌ فِي رَاحَتِهِ بِهَا عَهْدٌ مِنَ اللَّهِ وَتَقْلِيدُ^(٧)

(١) ابن هاني: مرت ترجمته في الفصل الثاني ص ٨٥ هامش ٦.

(٢) هو المعز لدين الله الفاطمي، واسمه معد. توفي في القاهرة سنة ٣٦٥ هـ. المنتظم ٨٢/٧، تاريخ ابن الاثير: ٢٣٩/٨، وفيات الاعيان ٣١٢/٤، شذرات الذهب ٥٢/٣، الاعلام ١٧٩/٨.

(٣) اصاح: اصغى.

(٤) المعز لدين الله، وافتتحت مصر.

(٥) الديوان ص ١٧٦، وانظر الوفيات ١٦٠/٦.

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٦.

(٧) نفسه ص ١١٠.

وهكذا استطاع الشاعر ان يجدد ويطور في مدح الخليفة، عن طريق استخدام ثقافته وخياله، ولم يقف عند معاني المدح القديمة المعروفة: من ان الخليفة امل العفاة، وابن عم الرسول ﷺ، والشجاع الذي يلوذ به الفرسان.

٣ - والعامل الثالث الذي كان له اثره في شعر المدح هو «تحزب الشعراء لرجال السياسة».

ان اثر هذا العامل يبدو واضحا عند دراسة دواوين شعراء المدح الكبار ومنهم ابن التعاويذي والابله البغدادي. ان ديوان الشاعر الاول، ليس فيه سوى قصيدة واحدة في مدح الوزير يحيى بن هبيرة، وقد نص^(١) فيه على انه لم ينشدها اياه، وهو امر يلفت النظر، ويدعو الى الدهشة: لان ابن هبيرة هو اشهر وزراء القرن السادس، وبقي في الوزارة اكثر من ست عشرة سنة، وقد مر بنا قول العماد عنه انه: رزق من الشعر والشعراء ما لم يرزقه أحد^(٢)، فلماذا كاد ديوان ابن التعاويذي ان يخلو من مدح الوزير الشهير، وهو الذي مدح حتى اصحاب الحمامات^(٣)؟ اما ديوان الابله فهو حافل بمدائح ابن هبيرة.

ان الباحث لا بد ان يلاحظ العداء الشديد بين ابن هبيرة، وابن رئيس الرؤساء، وقد امتد ذلك الى انصارهما من الشعراء، ويؤيد هذا الابيات التي هجا بها ابن عم الوزير عضد الدين عدوه ابن هبيرة^(٤)، كما أن ابن التعاويذي «اهين وظن الناس به الظنون»، كما ينص الديوان^(٥)، لاتصاله وعلاقته بابن رئيس الرؤساء. وقد وصف الشاعر ما أصابه بعد نكبة الوزير، فقال:

وَقَائِلَةٌ: مَا لِي رَأَيْتُكَ مُعْدِمًا؟ وَمِثْلُكَ لَا تَخْشَى الْكَسَادَ بَضَائِعُهُ
فَقُلْتُ: الَّذِي كُنَّا نَعِيشُ بِفَضْلِهِ وَنَحْنُ مَوَالِي جُودِهِ، وَصَنَائِعُهُ
رَمَتْهُ اللَّيَالِي عَنْ ذَخَائِرِ مَالِهِ يَفَادِحِ خَطْبٍ، مَسْلَمٌ مِّنْ يَقَارِعِهِ
فَلَا تَعْجَبِي مِنْ سُوءِ حَالِي، فَإِنَّهُ إِذَا غَاضَ^(٦) مَاءَ الْبَحْرِ مَاتَتْ ضَفَادِعُهُ^(٧)

ومن الطبيعي ان يمتد اثر تحزب الشعراء لرجال السياسة الى الاغراض المتصلة بالمدح كالعتاب والاعتذار. ففي سنة ٥٧٠ هـ حدث خصام بين بيت رئيس الرؤساء - وهم حماة الشاعر ابن التعاويذي ومواليه - ومتنفذ كبير في بلاط الخليفة هو قطب الدين

(٢) الخريدة ١/ ٩٨.
(٤) الخريدة ١/ ١٥٦.
(٦) غاض الماء: نقص أو نضب.

(١) ص ٣٤٤.
(٣) الديوان ص ٤٤٩.
(٥) الديوان ص ٣١٩.
(٧) الديوان ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

قايماز^(١)، فرجحت كفة هذا الأخير، واضطر جماعة الشاعر الى الهرب من بيوتهم. ولكن الشاعر لم يشارك مواليه في شدتهم كما شاركهم ايام السعادة، ولذلك كتب الى عماد الدين ابن الوزير عضد الدين يعتذر، قائلا: انه شاعر يصلح للرخاء، لا لايام الشدائد:

يا عماد الدين، يا ابا	رم من تحت السماء
يا اجل الناس قدراً	وابن خير الوزراء
إن تأخرت، فقد قد	دمت في الليل دعائي
أو ثاقلت عن السيد	ر، فقد سار ثنائي
انا لا اصلح لشد	دة، لكن للرخاء
انا لا احضر إلا	في مواقيت الهناء
حالة دلت على صع	ف قلوب الشعراء ^(٢)

وينص^(٣) الديوان أنه في سنة ٥٧١ هـ مدح الشاعر بعض الاكابر ممن بينه وبين الوزير مباينة، فوجد عليه وانقبض عنه فاعتذر اليه في هذه القصيدة:

ابثكم اني مشوق بكم صب	وان فوادي للاسى بعدكم نهب
تناسيتم عهدي كاني مذبذب	وما كان لي لولا ملائكم ذنب
وقد كنت أرجو ان تكونوا على النوى	كما كنتم ايام يجمعنا القرب

... الخ.

وفي الديوان اكثر من مقطوعة وقصيدة يعاتب فيها الشاعر مواليه آل عضد الدين اكتفي بالاشارة الى بعضها^(٤).

المدح بين التطور والجمود:

قبل دراسة المدح في القرن السادس، لا بد من اشارة الى ان هذا الفن لم يعد مقصورا على الشعراء المحترفين المشهورين كابن التعاويذي والابله والحيص بيص، بل نجد في هذه الحقبة مدحا ينظمه ابناء الوزراء^(٥)، والامراء^(٦)، كذلك نظم العلماء

(١) كان قائد الجيش في خلافة المستضيء. أنظر: الفصل الاول ص ٢٦.

(٢) الديوان ص ١٣.

(٣) نفسه ص ١٣، ٤٣، ٤٤.

(٤) نفسه ٤/٥٤٨.

(٥) نفسه ص ٣٠.

(٦) الخريدة ١/١٠٢.

شعرا في المدح كما فعل ابن الشُّجْري^(١)، والبارع^(٢)، وعبد الرَّحِيم بن الاخوة البغدادي^(٣).

ويلاحظ ان الذين ينظم شعر المدح ليسوا رجال السياسة الكبار كالخلفاء والوزراء وحدهم، بل نجد في هذه الحقبة مديحا نظم في النساء^(٤)، ومديحا نظم في العلماء^(٥)، ومديحا نظم في صاحب حمام^(٦).

وغني عن البيان ان هذه الدراسة تعنى بشعر المدح الذي نظمته الشعراء المحترفون الكبار، للحصول على الجزاء المادي من كبار رجال العصر وقادته.

ظل شعر المديح في هذه الحقبة، بصورة عامة، محافظا على تقاليد هذا الفن الموروثة من ناحيتي الشكل والمضمون، وكذلك في البناء العام لقصيدة المدح.

فمن الناحية الشكلية:

بقيت المقدمة الطللية تنصدر معظم قصائد المدح، وخاصة مدح الخلفاء، بعد ان مال الشعراء فيها الى سهولة اللغة ولينها، واسقطوا الحوشي والغريب من الالفاظ. على ان الشاعر قد يحذف هذه المقدمة ويبدأ بالغرض الاصلي مباشرة، خاصة اذا كانت المدحة قد نظمت اثر حادث كبير مهم، ولكن هذا ليس قاعدة مطردة، فقد مر^(٧) ان ابن التعاويذي بدأ قصيدته بالغزل في مدح المستضيء بعد عودة الخطبة للعباسيين في مصر، وهو من اكبر الاحداث كما اشرت.

وكان ذوق العصر يميل الى تطويل المدائح، ولعل الابله البغدادي من بين شعراء المدح الكبار الذين تتصف مدائحهم بالاعتدال في الطول، اذ يتراوح عدد ابيات قصيدته بين ٣٠ و ٣٥ بيتا، ويندر ان تتجاوز الاربعين. اما ابن التعاويذي والحيص بيص فالطول هو الغالب على مدائحهما، وخاصة الاول اذ تصل بعض مدائحه الى اكثر من مائة بيت^(٨).

وفي سبيل الوصول بقصيدة المدح الى الطول المطلوب، راح كل من الشاعرين يلجأ على طريقته او طرقه الخاصة. فالحيص بيص يطيل في مقدمات مدائحه من فخره بنفسه وبقومه، حتى يصل - احيانا - بهذه المقدمة الى حوالي ٢٥ بيتا، ثم يبدأ

(١) وفيات الاعيان ٩٨/٥.

(٢) الخريدة / نسخة ايران ٢٣٣.

(٣) نفسه ٢٤٤.

(٤) أنباه الرواة ٣٢٦/٢.

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦، الخريدة ١٥٨/١.

(٦) الفصل الأول ص ٩.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٤٩.

(٨) تنظر القصيدة الأولى في الديوان، ص ٣٠، ١٩٠، ٢٦٤، ٢٨٤، ٣٠٩.

بالمَدح^(١)، وأحياناً يعتمد على الوصف للوصول الى الطول الذي يريده لقصيدته: كأن يصف السيل وكيف يندفع ويكتسح كل من يقف في طريقه، زاعماً ان الممدوح يشبه هذا السيل في كرمه وجوده^(٢). أما ابن التعاويذي فطرقه لاطالة المدائح تختلف عن طرق زميله: فهو يطيل في المقدمة الغزلية حتى يصل بها الى ٣٠ بيتاً أو أكثر^(٣)، وأحياناً يلجأ الى القسم لتوكيد ما يزمعه للممدوح من صفات، ويفصل بين القسم وجوابه بعدة أبيات قد تزيد على عشر. فمثلاً قال يمدح الناصر لدين الله من قصيدة، مطلعها:

يَا عَلُوْاْ أَغْرَيْتِ السُّهَادَ بِنَاطِرِي وَرَقَدَتْ عَنْ لَيْلِ الْمُحِبِّ السَّاهِرِ
قال - بعد أن بدأ بالمَدح -:

أَوْ مَا وَأَمْثَالِ الْقِسِيِّ لَوَاعِبِ^(٤) مِنْ فَوْقِ أَمْثَالِ السَّهَامِ ضَوَامِرِ
هَجَرُوا ضِلَالَ الْعَيْشِ فِي أَوْطَانِهِمْ وَتَعَرَّضُوا لِسَمَائِمِ^(٥) وَهَوَاجِرِ^(٦)
مِنْ كُلِّ اشْعَثَ فِي الرِّحَالَةِ^(٧) مُخْلَصِ اللَّهُ أَوَابِ إِلَيْهِ مُهَاجِرِ
ظَمَانٍ يَقْدِفُ نَفْسَهُ، مُسْتَشْعِرًا خَوْفَ الْقِيَامَةِ فِي الْهَجِيرِ الْوَاعِرِ^(٨)
يَرْمِي بِهِمْ أَهْوَالَ كُلِّ تَنَوُّفٍ^(٩) عَيْسَى^(١٠) كَخَيْطَانِ^(١١) النَّعَامِ النَّافِرِ
مِنْ كُلِّ وَالْعَةِ^(١٢) بِحَجَرَتِهَا^(١٣) إِذَا ظَمِئْتُ تَعَلَّلَ بِالسَّرَابِ السَّاحِرِ^(١٤)
وَجَنَاءِ^(١٥) تَحْمِلُ مِنْ هِضَابٍ يَلْمَلُمُ رُكْنًا، وَتَنْظُرُ مِنْ قَلْبِ^(١٦) غَائِرِ
يَرْجُونَ مَوْقِفَ رَحْمَةٍ تُلْقَى بِهَا أَعْبَاءُ أَوْزَارٍ لَهُمْ وَكِبَائِرِ
وَالْبَدْنُ خَاضِعَةُ الرَّقَابِ دَوَامِي الدِّ لَبَاتِ^(١٧) تَفَحَّصُ^(١٨) فِي النَّجِيعِ^(١٩) الْمَائِرِ^(٢٠)
أَخَذَتْ مَصَارِعَهَا الْجَنُوبُ، فَاسْلَمَتْ مِنْهَا التَّحَوُّرُ إِلَى شِفَارِ الْجَاوِرِ

(١) الديوان المصور: و ٢١، ٧.

(٢) الخريدة ١ / ٢٩١، وأنظر أيضاً: ١ / ٢٦٨، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥١، ٢٨٢.

(٣) الديوان: ص ٦٣، ٣٠٩.

(٤) كذا بالأصل بلعل الصواب بالغين (لَوَاعِبُ) وهي المنفعة.

(٥) السماثم: الرياح الحارة.

(٦) الهواجر: مفردها هاجرة: نصف النهار في القيط.

(٧) الرحالة: السرج من جلود لا خشب فيه.

(٨) الواغر: الشديد الحر.

(٩) تنوفة: بركة لا ماء فيها ولا أنيس.

(١٠) العيس: الأبل البيض، يخالط بياضها سواد خفيف.

(١١) خيطان: جماعات.

(١٢) والعة: كاذبة.

(١٣) الحرة: العطش.

(١٤) الساجر: كذا بالأصل، ولعلها بالجيم (الساجر) أي الساخن.

(١٥) الوجناء: الناقة القوية.

(١٦) القلب: القليب: البشر.

(١٧) اللبات: الواحدة لبة: موضع القلادة في العنق.

(١٨) تفحص: تبحث بأرجلها.

(١٩) النجيع: الدم.

(٢٠) المائر: الجاري.

وَشَعَائِرِ اللَّهِ الَّتِي عَظُمَتْ، وَمَا
وَالْبَيْتِ وَالْحَرَمِ الْمُطِيفِ بِهِ، وَمَا
إِنَّ الْخَلِيفَةَ خَيْرٌ مَنْ وَطِئَ الْحَصَا
ضَمَّتُهُ مَكَّةُ مِنْ صَفَا وَمَشَاعِرِ
وَارَاهُ مِنْ حُجْبٍ لَهُ وَسَتَائِرِ
مِنْ خَيْرٍ بَادٍ فِي الْأَنَامِ وَحَاضِرِ^(١)

ويبدو لي ان ابن التعاويذي، قد ضاق ذرعا بجميع المقدمات الجاهزة لقصائد المدح، ورآها بعيدة عن روح العصر. فكيف يصف رامة، ويقطع فيافي نجد، ويصف غزلان وجرة، وهو البغدادي المترف الذي لم تخطر العيس بباله الا حين يمدح خليفة أو وزيراً؟ ولذلك قرر ان يغامر فيبدأ احدي مدائحه بمقدمة «بغدادية» يصف فيها تجربة عرفها كثير من اهل بغداد، مسرحها انهار بغداد، ومنها الصُّرَاة^(٢)، وقد تم اللقاء فيها على ظهر زورق، لا جمل، وصاحبه بغدادية منعمة «غير الهبيد»^(٣) طعامها، كما يقول، في قصيدة، منها:

وَبِالْقَصْرِ مِنْ بَغْدَادَ خَوْذُ^(٤) إِذَا رَنْتَ^(٥)
كَعَابَ كَخُوطِ الْبَابِ، لَا أَرْضُهَا الْحِمَى
مُنْعَمَةٌ غَيْرَ الْهَبِيدِ طَعَامُهَا
لَا دُونَهَا يَبْدُ يُخَاضُ غِمَارُهَا
مَحَلَّتْهَا أَعْلَى الصُّرَاةِ، وَدَارُهَا
.. وَلَمَّا تَلَاقَتْ بِالصُّرَاةِ رِكَابُنَا
عَلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ، وَالْجَوَّ مَوْهِنًا^(٦)
... الْخِ^(٨)

لَوَاحِظُهَا، لَمْ يَنْجُ مِنْ كَيْدِهَا قَلْبُ
وَلَا دَارُهَا سَلْعُ، وَلَا قَوْمُهَا كَهْبُ
وَمِنْ غَيْرِ الْبَابِ اللَّقَاحُ^(٦) لَهَا شُرْبُ
قِفَارُ، وَلَا طَعْنُ يُخَافُ وَلَا ضَرْبُ
عَلَى الْكَرْخِ، لَا أَعْلَامُ سَلْعٍ وَلَا الْهَضْبُ
وَرَقٌّ لَنَا مِنْ حَرِّ انْفَاسِنَا الرُّكْبُ
رَقِيقُ الْحَوَاشِي، وَالنَّسِيمُ بِهَا رَطْبُ

ان هذه المقدمة الحديثة، برغم رقتها وبعدها عن التكلف، وهذا الجو البغدادي الاخاذ الذي رسمه الشاعر بدقة متناهية، اقول برغم هذا كله لم تنجح التجربة، وظل القوم يميلون الى المقدمات التي تتحدث عن نجد وسلع، والدليل ان الشاعر لم يكرر التجربة، وبقيت وحيدة في ديوانه.

(١) الديوان: ص ١٦٩-١٧٠، وأنظر ص ٨١، ٢٥٣.

(٢) الصُّرَاة: أسم لنهرين كانا ببغداد، هما الصُّرَاة العظمى والصُّرَاة الصغرى. دليل خارطة بغداد: ص ٦.

(٣) الهبيد: الخنظل أو حَبَّه.

(٤) خوذ: امرأة شابة.

(٥) رنت: من الرنن، وهو أدامة النظر مع سكون الطرف.

(٦) اللَّقَاح: واحدها لقوح. الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

(٧) مَوْهِنًا: نحو منتصف الليل أو بعد ساعة منه.

(٨) الديوان: ص ٣١.

ولعل ميل الابله الغدادي وعشقه للغلمان^(١)، هو الذي دفعه الى أن يبدأ طائفة من مدائحه بالتغزل بهم. والغريب ان الوزير الحنبلي يحيى بن هبيرة، كان من بين الذين افتتح الابله مدائحهم بذكر الغلمان، قال يمدحه:

ذَنْبُ الْعَوَازِلِ لَيْسَ يُغْفَرُ وَالرَفَقُ بِالْعُشَّاقِ أَجْدَرُ
أَقْصِرْ مِنَ الْعَذْلِ الطَّوِيلِ لِي، فَإِنَّ عُمَرَ الْوَصْلِ أَقْصَرُ
مَنْ لِي بِأَسْمَرَ قَدَهُ - عِنْدَ التَّشْيِ - قَدْ أُسْمِرُ^(٢)
خَالِي الضَّلُوعِ مِنَ الْغَرَا م، يَنَامُ عَنْ لَيْلِي، وَأَشْهَرُ
... الخ^(٣).

وقد افتتح الابله عددا غير قليل من مدائحه بهذا النوع من الغزل^(٤).

ولا بد من اشارة - في ختام هذه الالمامة باشهر، مقدمات المدائح - الى ان اردأ تلك المقدمات وأسوأها، واقلها نصيبا من الشاعرية، هي مقدمات الابله البغدادي لطائفة من مدائحه، اذ بدأها بالدعاء، مستعملا الفاظ وعبارات نسوة بغداد من العوام احيانا. وبذلك اخل هذا الشاعر بشرط مهم من شروط نجاح القصيدة.

وهو الذي سماه النقاد «براعة الاستهلال». قال ابن رشيق: «انه اول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عند الشاعر من اول وهلة^(٥)».

قال الابله يمدح ابن الصاحب - وكان استاذ^(٦) الدار: -

يَا رَبَّ مَسَى الصَّاحِبِ ابْنَ الصَّاحِبِ بَعُلُوا مَرْتَبَةً، وَسَعِدِ رَاتِبِ
وَاحْفَظْهُ، مَا حَذَرَ الصَّبَاحُ لِشَامَهُ لِمَلَّمٍ بِالْقُرِّ أَغْبَرَ، شَاحِبِ^(٧)
وقال يهنيء آخر بولد ذكر:

يَا رَبَّ يَمُنْ طَلْعَةُ الْمَوْلُودِ وَاحْفَظْ أَبَاهُ أَخَا النَّدَى وَالْجُودِ
سَمَحَتْ بِهِ الْإَيَّامُ أبيضَ تَنْجَلِي عَنَّا بِهِ ظُلُمُ الْخُطُوبِ السُّودِ^(٨)

(٢) أسمر: أي رمح

(١) الوافي بالوفيات: ٢/ ٢٤٥.

(٤) نفسه: ٧٣، ٧٠، ٧٨، ١٤٨، ١٥٤.

(٣) ديوان الابله: ٦٢.

(٦) انظر: الفصل الثاني ص ٧٢ هامش ٢

(٥) العمدة: ١/ ٢١٧.

(٨) نفسه: ٨٦.

(٧) ديوان الابله: ١٦٢.

وقال في ابن الصاحب:

صَبَّحَ اللَّهُمَّ مَجْدَ الدِّينِ بِالسَّعْدِ الْمُقِيمِ
وَاحِبُهُ مَا رَنَحَ الْغُضِّ نَ ضَحَىٰ مَرُّ نَسِيمِ
فَهُوَ سَارٍ مِنْ ثَرَاهُ فِي طَرِيقِ مُسْتَقِيمِ^(١)

ولست استبعد ان يحبس أحد الممدوحين الشاعر من اجل قصيدة من هذا النوع، كما يشير ديوان^(٢) ابن التعاويذي.

ومهما يكن، فقد قال ابن رشيق في القرن الخامس: «ان طريق العرب القدماء في كثير من الشعر، قد خولفت الى ما هو اليق بالوقت، واشكل باهله^(٣)».

اما من حيث المضمون او المعاني والافكار:

فقد ظل الشعراء عيالا على اسلافهم ممن اشتهر بالمدح كالبُحْثَرِي وابي تَمَّام والمُتَنَّبِي: يدورون في فلكهم، ويلوكون افكارهم، ويعيدون صورهم ومعانيهم. فقد بقيت الفكرة القائلة بوجوب التمييز بين مدح الخليفة ومدح الوزير ومدح القاضي والقائد، على الرغم من متطلبات العصر وكر السنين وتباين الأمزجة والاهواء، فصرنا لا نجد فرقا ولا نحس اختلافا بين مدح الناصر لدين الله في أواخر القرن السادس، ومدح آبائه واجداده من خلفاء القرنين الثالث والرابع، لانهم جميعا - في قصائد المدح - من بيت الرسول ﷺ، وهم ملجأ الخائفين، وامل العفاة البائسين المرملين، مع ملاحظة ان الشعراء السابقين تناولوا معاني اسلافهم فطوروها، و اضافوا اليها من تجاربهم وثقافتهم، واستطاعوا ان يحتفظوا بمتانة اللغة ونصاعتها، وقوة الاسلوب وبعده عن الركة والعامية والهلهله. اما شعراء القرن السادس - الا القليل النادر - فقد لانت اساليبهم، وضعفت لغتهم، وغزتهم العامية، وظلوا يرددون المعاني القديمة كالبيغاوات. وحين حاول بعضهم الخروج من دائرة القديم، سقط سقوطا يثير الضحك ويدعو الى الرثاء.

فعلى سبيل المثال: اخذ طلحة بن محمد النعماني بيت ابي تمام:

نَكَادُ عَطَايَاهُ يَجُنُّ جُنُونُهَا إِذَا لَمْ يُعَوِّذْهَا بِنَغْمَةِ طَالِبِ^(٤)
فقال:

(١) نفسه: ١٧٩، وأنظر ١٦٦، ١٨٢، ١٧٦.
(٢) شرح ديوان أبي تمام: ٢١١/١.
(٣) العمدة: ٣٠١/١.
(٤) ص ٢٤٣.

أَعِيدُ عَطَايَاهُ مِنَ الْمَسِّ، إِنَّمَا مَدَائِحُنَا شُخِبَ عَلَيْهَا وَأَحْرَارُ^(١)

فقصر عن شاعر القرن الثالث في اللفظ والمعنى جميعا.

واراد ابن التعاويذي ان ينقل معنى بيت مشهور للشريف الرضي من الغزل الى المدح. قال الشريف:

سَهْمُ أَصَابَ، وَرَامِيهِ يَذِي سَلَمٍ مِّنَ الْعِرَاقِ، لَقَدْ أَبْعَدَتْ مَرَمَاكَ^(٢)

فقال ابن التعاويذي بمدح صلاح الدين:

لَبَّى دُعَائِي مِنَ الْعِرَاقِ، وَقَدْ أَسْمَعُهُ بِالصَّعِيدِ تَثْوِييَ^(٣)

فلم يستطع ان يوضح ما يريد، وكل الذي فعله ان اتي في صدر البيت بـ «العراق» وبـ «الصعيد» في العجز، وترك السامع في حيرة، علما بأن معنى «التثويب» التلويح بثوب ونحوه، وابن التعاويذي يقول: ان تثويه يسمع، على خلاف قواميس اللغة.

وقال منصور^(٤) النمري بمدح الرشيد:

إِنْ اخْلَفَ الْقَطْرُ لَمْ تُخْلَفْ غَيَابُهُ^(٥) أَوْ ضَاقَ أَمْرُ ذِكْرِنَاهُ فَيَتَسَّعُ^(٦)

فجاءه ابن التعاويذي في بيتين، فقال مرة:

نَهَبُ بِهِ فِي لَيْلٍ خَطْبٌ فَيَنْجَلِي وَنَدَعُوهُ فِي كَرْبٍ فَيَنْفِرُجُ الْكَرْبُ^(٧)

فلم يفسد بيت النمري، ولكنه اراد ان يصارع سلفه عسى ان يفوز، فقال:

وَمَنْ إِذَا ضَاقَ بِنَا أَمْرُ ذَكْرِنَا فَاَنْفَسَحَ^(٨)

فخسر شاعرنا وسقط. تأمل عجز البيت، فـ «ذكرنا» هذه اراد بها «ذكرناه» فحذف

(١) الخريدة: ١٤/٢، والسخب والاحراز: التمام والعود.

(٢) ديوان الشريف الرضي: ٥٩٣/٢.

(٣) الديوان: ص ٢٢.

(٤) هو منصور بن الزبرقان. النمري أبو القاسم، شاعر من أهل الجزيرة الفراتية، كان يظهر للرشيد أنه عباسي منافق للشيعية العلوية، توفي نحو سنة ١٩٠ هـ. الشعر والشعراء/تحقيق أحمد محمد شاكر ص ٨٥٩-٨٦٢، الأغاني (ط. دار الكتب) ١٣

١٤٠-١٥٧، تاريخ بغداد ١٣/٦٥-٦٩، نهاية الأرب ٣/٨٢، الأعلام ٨/٢٣٨.

(٥) المخاليل: العلامات والدلائل.

(٦) طبقات الشعراء: ص ٢٤٢.

(٧) الديوان: ص ٣٢.

(٨) نفسه: ص ١٠١.

المفعول به لسبب يتصل بالوزن، وهو غير مقبول من شاعر كبير.

وقد اشرت قبل صفحات الى ان ابن التعاويذي من اطول شعراء العصر قصيدة مديح، ولذلك يكثر عنده التكرار في اللفظ والمعنى، كما نجده يسط عبارته ويمدها ويوسع جملته وأبياته، حتى ان المعنى الذي يعبر عنه شاعر كالمُتنبّي في نصف بيت، لا يستطيع ابن التعاويذي الا ان يقصر عنه بعد ثلاثة أبيات اتعب نفسه في نظمها، ولذلك نجد طائفة من شعره خالية من التركيز باهتة عديمة الطعم واللون والرائحة. فمثلا قال يمدح صلاح الدين:

تَكْسُوهُ حَمْدًا تَبْقَى مَلَابِسُهُ وَالْحَمْدُ كَاسِيهِ غَيْرَ مُسْلُوبٍ^(١)

وعلى الرغم من رداءة لفظة «ملابس» فقد كررها عدة مرات: فقال مرة يمدح الناصر لدين الله:

مَدَحًا لَكُمْ خِيطُ مَلَابِسِهِ فَمَا يَعْتَامُ غَيْرَ بِيوتِكُمْ أَيْبَاتُهُ^(٢)

وقال يمدح أحد الوزراء:

وَلِمَجْدِكُمْ خِيطُ مَلَابِسٍ فَخَرَهَا فَبِغَيْرِ نِعْمَةٍ طِيئِكُمْ لَا تَعْبُقُ^(٣)

وكررها مرة رابعة فقال في الرثاء:

وَمَلَابِسًا مِنْ غِبْطَةِ الْبُسْتِي جُدْدًا، عَلَامَ أَعْدَتِهَا أَسْمَالًا؟

وتأمل قول ابن التعاويذي يمدح المستضيء بعد اعادة الخطبة لبني العباس في

مصر:

خَبِرَ طَبَّقَتْ بِشَائِرُهُ الْأَرْضَ، فَمِنْهُ السَّرَاءُ وَالضَّرَاءُ

فَهُوَ فِي الرُّومِ وَالْكَنَائِسِ رُزْءٌ وَهُوَ فِي الشَّامِ وَالْعِرَاقِ هَنَاءُ

وَنَرَاهُ فِي سَمْعِ قَوْمٍ نَعِيًّا وَهُوَ فِي سَمْعِ آخَرِينَ غِنَاءُ^(٤)

ان البيتين الثاني والثالث هما تكرار لمعنى السراء والضراء في البيت الاول، لأن الشاعر يريد لقصيدته ان تطول. ومعنى الابيات الثلاثة من نصف بيت مشهور لابي الطيب المتنبّي هو قوله: «مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ قَوَائِدُ».

(١) الديوان: ص ٢٢.

(٢) نفسه: ص ٦٧.

(٣) نفسه: ص ٢٩٧.

(٤) نفسه: ص ٣-٤.

(٤) ديوان ابن التعاويذي: ص ٣٥٣.

عيوب المدح:

ويمكن اجمال اهم عيوب المدح في القرن السادس بما يلي:

١ - شدة التوسل والتضرع للممدوحين:

بالغ قسم من شعراء المديح في المسألة والالاحاح في استدرار الاكف، حتى يخيل للباحث ان هؤلاء فقدوا كرامتهم، ولم يتركوا كلمة ولا معنى يدل على الاستجداء الا تسابقوا اليه. ان هذه الظاهرة الجديدة على الشعراء العرب - كما اظن - لا يتحمل المجتمع وحده وزرها بسبب بعد القوم عن الروح العربية، وتغلغل الاعاجم والدخلاء في أوساط الناس، وسيطرتهم على كثير من مرافق الحياة، بل ان شيوعها عند بعض الشعراء سببه شخصيات هؤلاء الادباء ونفسياتهم - ربما بسبب انحذارهم من اصول غير عربية. . . ولعل مكانة الحيص بيص وشهرته، وموقفه من ممدوحيه - وقد مرت^(١) الاشارة اليه - تقف دليلا يدحض ادعاءات الذين يحاولون القاء جميع التبعات على المجتمع.

ومن الشعر الذي يدل على ان بعض شعراء القرن السادس فقدوا عزة انفسهم قول طلحة بن محمد النعماني يمدح المستظهر بالله:

وَمَدِيحُ مَجْدِكَ فِي الْكِتَابِ مُرْتَلٌّ	جَارٍ مَعَ الْأَعْشَارِ وَالْأُخْمَاسِ
أَنَا عَبْدُكَ ^(٢) الْقِنُّ الَّذِي مُدُّ لَمْ أَرْلُ	أَسْطُو عَلَى أَعْدَائِكَ الْأَرْجَاسِ ^(٣)
مَا جَالَ الْآ فِي مَدِيحِكَ خَاطِرِي	وَبَغِيرِ وَصْفِكَ مَا جَرَتْ أَنْفَاسِي
وَبِذِّلٍ مَجْدِكَ قَدْ عَلَّقْتُ فَلَا تَدْعُ	ظَنِّي يَعُودُ مُلَازِمًا لِلْيَاسِ ^(٤)

وقال ابن التعاويذي:

عَبْدُ شُكْرِ، وَحَرٍ أَنْ	يَشْكُرَ الرُّوضُ السَّمَاءِ ^(٥)
----------------------------	---

وقال:

خَدَمَ تَحْمِلُ فِي أَوْ	عِيَةِ الشُّكْرِ الْهِنَاءِ ^(٦)
--------------------------	--

وقال من قصيدة في القاضي الفاضل:

دَعْوَةُ عَانٍ، وَعَدَاكَ الْأَذَى يَسْمَعُهَا مَنْ كَانَ ذَا وَقَرٍ

(١) أنظر: دراسة الحيص بيص في الفصل الثاني ص ٥٨ - ٦٠. (٢) القن: العبد إذا ملك هو وأبواه.

(٣) الأرجاس: من الرجس، وهو العمل القبيح.

(٤) الخريدة ٢/ ٢٦.

(٦) نفسه.

(٥) ديوان ابن التعاويذي: ص ١٢.

أَلَسْتُ عَبْدًا لِأَيَادِيكَ مَوْ قَوْفًا عَلَى التَّقْرِيطِ وَالذِّكْرِ
كَمْ حُرْمَةٍ أَكْدهَا الْفَضْلُ بِي وَخِدْمَةٍ قَدَّمَهَا شِعْرِي
مَلَكْتُ رَقِي، وَأَبُو خَالِدٍ فِي وَاسِطٍ بَعْدُ عَلَى الْمَجْرِ (١)
وقال الأبله:

أَنَا عَبْدٌ لَكَ اسْتَرْقِنِي الْإِحْسَانُ، فَلْتَشْهَدْ الْعُدُولُ الشُّهُودُ (٢)

٢ - المبالغة في صفات الممدوحين:

اطلق الشعراء للاستهم العنان فراحوا يكيلون الصفات كيلا لممدوحهم، غير عابئين او ملتفتين الى وازع من دين او فن او خلق. ولم اجد احدا من هؤلاء الممدوحين اعترض على شاعر وصفه بصفات لا تليق الا بالخالق سبحانه، فكأن هذا السكوت تشجيع للقوم على الجري في هذا الميدان الى نهايته. وربما قلد هؤلاء الشعراء المتنبي، فقد اولع بالمبالغات ولج بها (٣)، ولكن فاتهم ان مبالغات المتنبي كانت من بين عيوبه، فليتهم قلدوه في محاسنه.

ان شيوع المبالغات في الصفات التي يخلعها الشعراء على افراد الطبقة الحاكمة من المجتمع العباسي، وارتياح هؤلاء الافراد لما يقال فيهم، بل وتشجيعهم لاصحابه قد يدل على شعور الحاكمين بانهم لا يملكون شيئا مما يدور حولهم، وان سلطانهم واهن ضعيف لا يزيد على مجموعة من الأكاذيب يطلقها شاعر مداح في ساعة طمع.

فمن مبالغات القرن السادس قول طلحة بن محمد النعماني:

وَلَوْ كَانَ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ أَتَى مُرْسَلٌ خِلْنَاكَ بِالْجُودِ مُرْسَلًا (٤)
وقال:

لَا يَرْزُقُ الرَّحْمَنُ مَنْ لَمْ تُعْطِهِ وَكَذَلِكَ لَيْسَ بِمَنْعٍ مَنْ تَرْزُقُ (٥)
وقال ابن التعاويذي:

مَذْحَكَ لَا يَسْتَطِيعُهُ الْبَشَرُ أَتَى، وَقَدْ أَنْزَلَتْ بِهِ السُّورُ

(١) نفسه: ص ١٩٥.

(٢) ديوان الأبله: و ٢٤، وأنظر الخريدة ١/ ١٩٩، ١٩٨، ١٩٧، ٢٠٠.

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر: ص ٢٩١، ٣٢٣.

(٤) الخريدة: ٤٧/ ٢.

(٥) نفسه: ٤٠/ ٢.

أَغْتَتَكَ عَنْ مَدْحٍ مَادِحِيكَ مِنَ السَّجْعِ^(١) الْمَثَانِي يَاسِينَ وَالزَّمْرُ^(٢)
وقال الحليص بيص:

سَأَلْنَا اللَّهَ يُعْطِينَا إِمَامًا نُسَرُّ بِهِ فَأَعْطَانَا نَبِيًّا
بَلَّغْنَا فَوْقَ مَا كُنَّا نُرَجِّي هَنِيئًا يَا بَنِي الدُّنْيَا هَنِيئًا^(٣)

وهذان البيتان الاخيران من خمسة أبيات، كانت جائزتها من المستضيء ٣٠٠ دينار
وخلعة ودارا وضيعة كبيرة.

وبعد «فلست اشك ان الشعر حين يفضي الى هذا النوع من المبالغة لا يعبر عن
احساس او وجدان، وانما يعبر عن نوع من السقوط الفني. اذ يذهب الشعراء بعيدا في
تصوراتهم وافكارهم، وكأنهم ينجحون الى كل افراط في الشعر^(٤)...»

٣ - الثرية والركة:

ان من يطالع ديوان ابن التعاويذي والابله البغدادي، وخاصة ديوان هذا الثاني،
يجد ان مديحه - ومعظم ديوانه مدح - تشيع في طائفة منه ركة غير قليلة، وثرية نعجب معها
كيف عد من مشاهير شعراء القرن السادس. ان جملة من قصائد هذا الشاعر بدت، وكأنها
مجرد الفاظ مرصوفة، فلا عاطفة ولا خيال ولا تعبير متماسك. انها اجمالا ليست من الشعر
لولا الوزن والقافية. تأمل - مثلا - قصيدته:

لَوْ مَا عَلَى الْعَذْبِ الْمُقْبَلِ	لَا تَعْدِلَنَّ فَلَسْتُ أَقْبَلُ
مَنْ لِّلْتَصْبِرَ عَنْهُ قَلْلُ	وَاقِلْ عَذْلَكَ فِي هَوَى
عَمْدًا، وَلِلْهَجْرَانِ حَلْلُ	جَذْلَانُ حَرَمٍ وَصَلُّ
طَو مَا شِئًا، وَالذَّعْصِ أَهْيَلُ ^(٥)	كَالْغُصْنِ أَهْيَفَ حِينَ يَخُ
وَتَرَائِبِ مِثْلِ السَّجْنَجِلِ ^(٦)	بِذَوَائِبِ مِثْلِ الدُّجَى
ظَبِي غَضِيضِ الطَّرْفِ أَكْحَلُ	يَرْنُو الِي بِمُقْلَتِي
لِ، وَرَفْقُهُ بِالصَّبِّ أَجْمَلُ	وَيَزِيدُ تِيهَا بِالْجَمَا

(١) السبع المثاني: القرآن الكريم.

(٢) الخريدة: ١ / ٣٣٦.

(٣) الدعص: كتيب الرمل.

(٤) ديوان الأبله: ١٧ - ١٨.

(٥) الديوان: ص ١٥٨.

(٦) الفن ومذاهبه في الشعر: ص ٢٩٤.

(٧) السجنجل: المرأة.

انها ليست شعرا من الناحية الفنية، بل مجرد الفاظ مرصوفة، قد حشيت بالطباق الباهت والجناس الفج، وقد غزت العامة والاسفاف الفاظها من كل جانب تأمل مثلا هذه الطباقات: حرم وحلل، والوصل والهجران، وتتوج وتسربل، طال وقصر. وهذه الجناسات: اقبل والمقبل، اقل وقلل، واهيف واهيل. وتأمل قوله فيها: «بدر تتوج بالندى»، اراد ان يبالغ في وصف الممدوح بالكرم، فجعله يلبس الندى تاجا، وهو تاج غريب وصورة مضحكة. وتلاحظ العامة في قوله: «لست اقبل»، و«على سماحته توكل»، و«للتصبر قلل».

وهذه قصيدة ثانية، ينص الديوان «انه مدح بها الناصر لدين الله سنة ٥٧٧ هـ»، اي قبل وفاة الشاعر بستتين:

حَيْتَ مِنْ طَلَلٍ وَمَعْهَدُ	قَدْ حَالَ عَمَّا كُنْتُ أَعْهَدُ
وَتَلَاعَبْتُ بِرَسُومِهِ	أَيْدِي الْبَلَى، حَتَّى تَأْبُدُ ^(١)
فَلَنْ عَفَا، وَتَجَنَّبْتُ	فِيهِ الْبُرُوقُ بَرَقَ تَهْمُدُ
فَلَكُمْ رَبْعَتْ بِرَبْعِهِ	وَجَمَعْتُ شَمْلَ هَوًى مُبْدُدُ
أَيَّامِ اغْصَانِ الشَّيْبِ	بِةٍ فِي رِيَاضِ اللُّهُوِ مَيِّدُ
وَالْوَضْلُ مُنْتَبِهَ الْجُفُيْ	نَ، وَأَعَيْنَ الرُّقْبَاءِ هُجْدُ
مَعَ كُلِّ أَخَوَى أَخَوِرِ	وَمَهْفَهفِ الْكَشْحَيْنِ أَعْيَدُ ^(٢)

... الخ^(٣)

ان هذه القصيدة لا تختلف عن سابقتها، على الرغم من ان الممدوح هو الخليفة نفسه، وفي هذه الحالة يفترض ان يقدم الشاعر احسن ما عنده. ومن يدري؟ فربما قيل عن هذه القصيدة في ايام الشاعر: انها عصماء او يتيمة الدهر، لان المقاييس والاذواق تختلف، ولكل عصر احكامه، والابله نفسه كثير الزهو والتهى بجودة شعره، حتى انه كثيرا ما يذكر ممدوحه - قبل ان يختم قصائده - بان ما انشده نادر الوجود، عديم النظر، وان

(١) تأبد: أقفر ودرس.

(٢) ديوان الابله: ١٧-١٨.

(٣) الديوان: ٩-١٠، وأنظر ٩٨، ٩٧، ١٤٦، ١٤٥ و ١٤٩.

دهاقنة المديح من الشعراء السابقين لو بعثوا لأطنبوا في الثناء عليه .

قال في نهاية احدى قصائده :

فاسعدُ بها، واسمَعْ بها رائيةً غرَاءُ يَخْلِبُ^(١) لَفْظُهَا السَّحَارُ
لو أَنَّهَا سَبَقَتْ زَمَانِي لَادَّعَى أَيْبَاتُهَا الْحَكْمِيَّ^(٢) او بَشَارُ^(٣)
وقال :

فُخْذُهَا كَمَا رَقَّ النَّسِيمُ، وَغَازَلْتُ دُمُوعُ الْقَمَامِ الْمُسْتَهْلُ^(٤) الْإِقَاجِيَا
إِذَا قَضَّهَا فِي الْقَوْمِ رَاوٍ حَسْبَتُهُ يَفْضُ عَلَى الْأَسْمَاعِ سَبْعًا^(٥) مِثَانِيَا
وقال :

وَأَسْمَعُ بِهَا فَكَأَنَّهَا سِلْكٌ وَهِيَ مِنْ كَفِّ نَاطِمٍ
أُضْحَى الْمَوْلَدُ^(٦) رَبَّهَا فَمَنْ الْوَلِيدُ^(٧)، وَمَنْ كُشَاجِمُ^(٨)
غَرَاءُ لَا مِثْلَ لَهَا فَبَقِيَتْ مُمَثَّلَ الْمَرَاسِمِ^(٩)

اما ابن التعاويذي ، فطاقة شعرية كبيرة ، لا تقارن بشاعرية الابله المتواضعة وعندي ان ضعف وركه طائفة من مدائح ابن التعاويذي ، سببه ان الشاعر مطيل - وقد اشرت الى ان بعض مدائحه زادت على المائة بيت - كذلك تعددت الاغراض الشعرية التي طرقها - بينها اقتصر الابله على المديح في الغالب - فكان لا بد ان يجيد احيانا ، وان يضعف ويسقط احيانا اخرى . ان معظم شعر ابن التعاويذي الركيك في المدح ، وليس ذلك غريبا على الشعر والشعراء ، فقد كان البحري - مثلا - مشهورا بجودة مديحه ، ولكنه لا يحسن الهجاء^(١٠) .

ومن مدائح ابن التعاويذي الركيكة قصيدته :

خَجِلْتُ مِنْ عَطَائِكَ الْأَنْوَاءُ وَتَجَلَّتْ بِنُورِكَ الظُّلُمَاءُ

(١) بالأصل (تخلب) ، وهو يخالف للفاعل (لفظها) .

(٢) الحكمي : هو أبو نواس ، الشاعر المشهور .

(٣) الديوان : ١٤ .

(٤) السبع المثاني : القرآن الكريم .

(٥) الوليد : هو البحري الشاعر العباسي المشهور .

(٨) كشاجم : هو محمود بن حسين (وقيل ابن محمد بن الحسين) شاعر ، متفنن ، أديب ، توفي سنة ٣٦٠ هـ . الفهرست ٢٠٠ ط . مصر ، الديارات ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، شذرات الذهب ٣/٣٧ ، الأعلام ٨/٤٣ ، معجم المؤلفين ١٢/١٥٩ .

(٩) الديوان : ٨٤ ، وأنظر ٦٢ ، ٤٧ ، ٤٣ .
(١٠) الموشح ص ٣٣٨ .

وَأَسْتَجَابَتْ لَكَ أَلْمَالُكَ إِذْعَا نَأْ، وَفِيهَا عَلَى سِوَاكَ إِبَاءُ
أَصْبَحْتُ^(١) فِي يَدَيْكَ، وَأَتَّفَقْتُ طَوْ عَاً عَلَيْكَ الْقُلُوبُ وَالْأَهْوَاءُ
نَسَخُ^(٢) الْعَدْلُ فِي إِبَالَتِكَ الْجَو رَ كَمَا يَنْسَخُ الظَّلَامُ الضِّيَاءُ
وَأَهْنَيْتَ الْمَالَ الْعَزِيزَ عَلَى غِي رِكَ، حَتَّى اسْتَوَى الثَّرَى وَالْثَرَاءُ
... الخ^(٣).

وتستمر القصيدة على هذا المستوى من رخاوة الأسلوب، وشحوب العاطفة، ورتابة الأفكار وتناقضها، حتى تزيد على الثمانين بيتاً، على الرغم من أن فتح مصر، أو إعادة الخطبة للعباسيين فيها - وهو سبب نظم القصيدة - كان حدثاً مدوياً هز العالم الإسلامي آنذاك، وكان جديراً بتحريك وجدان الشاعر والهاب حماسه ومشاعره، كما حدث فعلاً في قصائد أخرى اشترت إليها في مكان آخر من هذه الدراسة^(٤).

ونطالع قصيدته الأخرى في مدح صلاح الدين الأيوبي، والتي مطلعها:
سَرُبُ مَهْأَ أَمْ دُمَى مَحَارِبِ أَمْ فَتَيَاتُ الْحَيِّ الْأَعَارِبِ^(٥)
وهي لا تختلف عن سابقتها، لا تربطها بالشعر سوى رابطة الوزن والقافية وحتى هذه خان ابن التعاويذي فيها طبعه، وحكمت عليه المقادير أن يختار لها كلمات ليست شعرية أبداً، مثل «مربوب» في بيته:

شِعْرِي رَبُّ الْأَشْعَارِ قَاطِبَةٌ وَهَلْ يُسُوِي رَبُّ بَمَرْبُوبِ؟
و «خطوبي» في قوله:

أَمَسْتُ مُلُوكَ الْأَفَاقِ تَخَطَّبُهُ وَأَنْتَ دُونَ الْأَنَامِ خَطُوبِي
و «مقروب» أي في القرب:

رَبُّ الْمَذَاكِي^(٦) الْجِيَادِ مَقْرَبَةٌ^(٧) وَالنَّصْلُ عُرْيَانٌ غَيْرُ مَقْرُوبِ

وقد يكون سبب سقوط ابن التعاويذي في هذه القصيدة أنه حاول مجازاة المتنبي ومصاولة في قصيدته:

(١) كذا بالأصل، ولعل الصواب (أصحت) أي خضعت وأنقادت.

(٢) نسخ: أزال أو أبطل.

(٣) الديوان: ص ١.

(٤) أنظر: العوامل المؤثرة في المدح ص ١١٣.

(٥) الديوان: ص ١٩.

(٦) المذاكي: الخيول التي تمت أسنانها.

(٧) مقربة: هي الخيول التي تقرب مرابطها ومعالفها لكرامتها.

مَنْ الْجَاذِرُ فِي زِيِّ الْأَعَارِبِ حَمْرُ الْحُلَى وَالْمَطَايَا وَالْجَلَابِيبِ^(١)
بدليل تشابه قافيتي القصيدتين، وإن بعض أبيات ابن التعاويذي تغلفها معاني
قصيدة أبي الطيب. فقول ابن التعاويذي:

هَبْ لِي بَقَايَا شَبِيبَتِي، وَارْتَجِعْ مَا اكْسَبْتِي أَيْدِي التَّجَارِبِ
مَا أَنَا رَاضٍ عَمَّا سَلَبْتَ بِمَا أَفَدْتُ مِنْ حُنْكَةٍ وَتَجْرِبِ
هما محاولة للتعليق بقول أبي الطيب:

لَيْتَ الْحَوَادِثَ بَاعَتْنِي الَّذِي اخَذْتُ مِنِّي بِحُلْمِي الَّذِي أَعْطْتُ وَتَجْرِبِي

٢ - الهجاء:

هذا فن شعري شديد العلاقة بالمدح منذ القدم، فمعظم الشعراء الذين نظموا شعر
المدح كان لهم هجاء أيضاً، كذلك نجد طائفة كبيرة من كبار الرجال الذين قصدهم
الشعراء بمدحهم تعرضوا كذلك للهجاء. ولعل الخلفاء هم وحدهم الذين وصلنا مديح
فيهم يفوق كثيراً ما وصلنا من هجاء لهم، بل أنني لم أعثر إلا على ستة أبيات في هجاء خلفاء
القرن السادس^(٢)، على حين نجد مدائحهم تغص بها الكتب، ودواوين الشعراء. ولعل
من أهم أسباب هذه الظاهرة، سببان:

الاول:

أن الخليفة له مركزه الديني المقدس، لذلك كان التعرض له في الشعر قد يعني
الانسلاخ عن الاسلام، ولم أقف إلا على نص وحيد يشير إلى أن هبة الله بن الفضل لم يسلم
من لسانه حتى الخليفة^(٣).

الثاني:

أن الخلفاء عامة عرفوا بعدم التساهل مع الذين يحاولون النيل من مكانتهم وهيبتهم -
وربما كانوا معذورين أحياناً-. وكان من العقوبات التي عرفوا بها: النفي، وعرفت «المشان»
بالبصرة بكونها منفي^(٤)، كما نفي بعضهم إلى واسط، والزم أن يقيم بها إلى أن مات^(٥)
وعوقب آخرون بهدم دورهم^(٦)، أو حتى اعدامهم^(٧) ولذلك قال صاحب الفخري عن

(٢) الخريدة: ٤ / ١١٣.

(٤) المنتظم ١٠ / ٢٥٩، معجم البلدان: المشان.

(٦) المنتظم ١٠ / ٥٩.

(٧) المنتظم ٩ / ١٧١، الجامع المختصر ٩ / ٤٤، شذرات الذهب ٤ / ٢٠٦.

(١) شرح ديوان المتنبّي ١ / ٢٨٨.

(٣) وفيات الأعيان ٥ / ١٠٤.

(٥) الجامع المختصر ٩ / ٩٤.

بعض الخلفاء: «فكم من نعمة ازالوها عن اربابها، ونفس ازهقوها بسبب كلمة منقولة او حكاية مقولة^(١)».

وكما اشتهرت طائفة من الشعراء بالمديح، اشتهرت طائفة اخرى بالهجاء. والذين اشتهروا بالهجاء من شعراء القرن السادس هم: هبة الله بن الفضل، المعروف، بابن القَطَّان^(٢)، وعلي بن افلح الكاتب ت ٥٣٥ هـ^(٣)، والحسن بن احمد، المعروف بابن حكينا المتوفى سنة ٥٢٨ هـ^(٤)، وعلي بن احمد، المعروف، بـ «قبلة الادب» المتوفى سنة ٥٧٠ هـ^(٥)، واحمد بن علي بن عيسى ابو جعفر الهاشمي المتوفى سنة ٥٩٣ هـ^(٦)، والابله البغدادى^(٧)، والمؤيد الإلوسي المتوفى سنة ٥٥٧ هـ^(٨)، والمؤيد التكريتي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ^(٩).

وهذه الوفرة في عدد شعراء الهجاء المشهورين، قد توحى بأن ما وصلنا من الهجاء اكثر مما وصلنا من المدح، لان شعراء المدح المشهورين لم يزدوا على اربعة، كما اشرت، ولكن الواقع على النقيض تماما، فقد ضاع معظم الهجاء وبقي اكثر المديح.

ولست استبعد ان يعتمد المؤرخون والرواة اسقاط كثير من الهجاء وعدم روايته وتدوينه، لاسباب دينية وخلقية، لان الهجاء لا يخلو عادة من سباب وافحاش، لذلك نقل صاحب العمدة ابن الرسول عليه السلام قال: «مَنْ قَالَ فِي الْإِسْلَامِ هِجَاءً مُقْدَعًا فَلِسَانُهُ هَذِرٌ»^(١٠). وهناك اسباب اخرى ادت الى هذه الشحة الواضحة في شعر الهجاء منها: ان طائفة من الشعراء حين يتقدم بها العمر، وتوشك على مغادرة هذه الدنيا، تتدم على ما فرط منها وتحاول التوبة، فتتلف هجاءها او تغسله، كما فعل ابو جعفر الهاشمي، السالف الذكر^(١١). وبعضهم لم يدون هجاءه اصلا، فلا بد ان يضيع بمرور الزمن^(١٢)، وبعضهم اتلف شعرهم بامر من الخليفة، عقابا لهم، كما حدث لعلي بن افلح^(١٣). وهكذا ضاعت دواوين كل من: هبة الله بن الفضل^(١٤)، وعلي بن افلح^(١٥)، والمؤيد الالوسي^(١٦).

(١) الفخري ص ٦١ (ط. دار صادر).

(٢) المنتظم ٢٠٧/١٠، وفيات الأعيان ١٠٤/٥، عيون الأنباء ٣٠٤/٢.

(٣) المنتظم ٨٠/١٠، الخريدة ٥٢/٢، وفيات الأعيان ٦٨/٣.

(٤) الخريدة ٢٣٠/٢، المختصر المحتاج اليه ٢٧٥/١، فوات الوفيات ٢٢٨/١.

(٥) تلخيص معجم الألقاب ج ٤ ص ٣، ٥٧٢، وانظر الهامش (١).

(٦) ابن الأثير: ١١/١٢، المختصر المحتاج اليه ١٩٧/١، الوافي بالوفيات ٩٠/٦ مصور.

(٧) الخريدة/نسخة ايران ١٦٠، الروضتين ٥٤/٢.

(٨) الخريدة ١٧٢/٢، معجم البلدان: الوس، الوفيات ٤٢٨/٤.

(٩) الجامع المختصر ١٠٧/٩، الوافي بالوفيات ١١٥/٢.

(١٠) الخريدة ٢٧٠/٢.

(١١) الوافي بالوفيات ٩٠/٦ مصور.

(١٢) وفيات الأعيان ١٠٤/٥.

(١٣) نفسه ٤٢٨/٤.

(١٤) نفسه ٦٨/٣.

ضروب المهجّوين :

لو حاولنا ان نصنف المهجّوين في القرن السادس ، او لو استعرضنا اشهر انواع الهجاء ، لوجدنا ما يلي :

١ - كبار موظفي الدولة : ومنهم الوزير^(١) ، والقاضي^(٢) ، وقاضي القضاة^(٣) ، والحاجب^(٤) ، والعامل^(٥) ، وكتاب الديوان^(٦) ، وجميع رجال الدولة دون تعيين^(٧) . واحيانا لا ينص على وظيفة المهجو ، ولكن الشعر يدل على انه موظف كبير ، كقول هبة الله بن الفضل :

كَمْ تَرَدَّدَتْ مِرَاراً وَتَجَوَّعْتُ مَرَارَةً
ثُمَّ لَمَّا وَفَّقَ الْمَلَأُ هُ ، وَوَقَعْتُ بِكَارَةً^(٨)
لَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ الْحِنْدِ طَةً مَا تَقْرُضُ فَازَةً^(٩)
وقول علي بن أفلح :

سَأَلْتُكَ التَّوْقِيعَ فِي قِصَّتِي فَاحْتَطَّتْ لِلْأَجْلِ بِالْعَاجِلِ
وَحِفَّتْ أَنْ تُجَرِّيَ فِي قَابِلٍ وَقَّعَ ، فَمَا تَبْقَى إِلَى قَابِلٍ^(١٠)

ويلاحظ ان هجاء الموظفين : يؤكد فيه على ابراز وتجسيم الصفات التي لا تتفق ووظيفة ذلك الموظف ، بحيث يبدو غير اهل للمنصب الكبير الذي يتولاه . فمما هجي به الوزراء - على سبيل المثال - التوفيق والمماطلة :

قَدْ جِئْتُ بِابْنِي - فاعرفوا وجهه - لِيَأْخُذَ النَّائِلَ مِنْ بَعْدِي
فَلَيْسَ فِي التَّقْدِيرِ أَنِّي أَرَى قَبْلَ مَمَاتِي سَاعَةَ الرَّفْدِ^(١١)

وقد اتخذ الشاعر اسلوب السخرية والتهكم للتعبير عن ماطلة الوزير وعدم وفائه بما يقول .

كما هجي الوزراء بالجبروت وشدة الرهبة :

-
- (١) الخريدة ١ / ١٨١ ، ٢ / ٦٦ ، ٢٢٨ ، ٢٤٥ ، ٢٧٧ ، ٤ / ٣٩٣ .
(٢) نفسه ٢ / ٢٣٣ .
(٣) وفیات الأعيان ٣ / ١٥١ .
(٤) الخريدة ١ / ١٨١ .
(٥) نفسه ٤ / ٤٥٤ والعامل في الفترة التي ادرسها هو المحافظ في العصر الحاضر .
(٦) وفیات الأعيان ٥ / ١٠٩ .
(٧) عيون الأنباء ٢ / ٣١٢ .
(٨) الكاره : مقدار معلوم من الطعام أو الحنطة .
(٩) الخريدة ٢ / ٦٥ .
(١٠) نفسه ٢ / ٢٤٥ .
(١١) نفسه ٢ / ٢٤٥ .

يا مُعْشَرَ النَّاسِ الْنفِيرِ الْنفِيرُ قَدْ جَلَسَ الْهَرْدُبُ^(١) فَوْقَ السَّرِيرِ
وَصَارَ فِينَا أَمْرًا نَاهِيًا وَكُنْتُ أَرْجُو أَنَّهُ لَا يَصِيرُ
وَكُلَّمَا قَالُوا: غَدًا تُنْجِلِي وَظُلْمَةٌ عَمَّا قَلِيلٍ تُنِيرُ
فَتَحْتُ عَيْنِي، فَإِذَا الدَّوْلَةُ الـ دَوْلَةٌ، وَالشَّيْخُ الْوَزِيرُ الْوَزِيرُ^(٢)

وقد استعمل الشاعر التكرار اللفظي في تأكيد المعنى الذي يريده، خاصة في هذا البيت الاخير حيث اجاد الافصاح عن تبرمه وسأمه وحنقه.

وهجي القضاة بالسرقة وعدم الامانة، وهما صفتان لا تليقان بالقاضي :
وَبَارِدِ التَّمْيِيسِ^(٣) بَيْنَ الْوَرَى يَفْعَلُ مَا لَا يَفْعَلُ اللَّصُّ
يَصْطَادُ أَمْوَالَ الْوَرَى كُلَّهَا بِطَرْحَةٍ^(٤) مِنْ تَحْتِهَا شِصُّ^(٥)

وقد استعان الشاعر هنا بطريقة التصوير لابراز فكرته وتوضيحها: فالقاضي صياد، وهو يصيد اموال الناس، وما طرحته سوى غطاء يخفي حته الشخص.

وفي القرن السادس - كما في القرون التي سبقت^(٦) عرف بعض الشعراء بهجاء كبار موظفي الدولة في قصيدة واحدة، ونبز كل واحد منهم بشيء. ان اقدم نص لهذا النوع من الهجاء يرجع الى القرن الثالث للهجرة. قال القفطي عن محمد ابن الدقيقي (ويقال احمد) ابو نعامه: «كوفي يكنى ابا جعفر، شاعر، خبيث اللسان، هجاء، وله قصيدة مزدوجة^(٦) ذكر فيها جميع رؤساء الدولة في ايام المتوكل من اهل «سر من رأى» وبغداد، ورماهم بالقبائح. المتوفى سنة ٢٦٠ هـ^(٧)»، وفي القرن الرابع عرف علي بن محمد ابن نصر، المعروف بابن^(٨) بسام المتوفى سنة ٣٠٢ هـ بقصيدة، قال في ختامها:

فَخَلَّ الزَّمَانُ لِأَوْغَادِهِ إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ، وَالْهَاوِيَةِ
فِيَا رَبِّ قَدْ رَكِبَ الْأَرْدَلُونَ وَرَجَلِي مِنْ رِجْلِهِمْ عَالِيَةً^(٩)

(١) الهرذب: العجوز. الجبان.

(٢) تمام المتون ص ٧٦.

(٣) التميمي: الاحتيال والافساد.

(٤) الطرحة: لباس القضاة، الطيلسان.

(٥) الشريدة ٢/ ٢٣٣.

(٦) هي القصيدة التي تكون جميع أبياتها مصرعة، وأميز ما يكون ذلك في الارجيز. فن التقطيع الشعري والقافية ص

٢٨٨.

(٧) الحمدون ص ٣٢١.

(٨) شاعر هجاء، حسن البديعة، استفرغ شعره في هجاء والده، وهجاء جماعة من الوزراء. الفهرست ص ١٥٠ ط.

أوربا، معجم الأدباء ١٤/ ١٣٩، وفيات الأعيان ٣/ ٤٦، فوات الوفيات ٢/ ١٦٧.

(٩) المشهور في رواية عجز البيت (ورجلي من بينهم حافية).

فان كنت حاملنا مثلهم والّا فارجل^(١) بني الزانية
وفي هذا الشعر - كما قال صاحب مروج الذهب - جمع جميع رؤساء أهل الدولة
في ذلك العصر^(٢).

وفي القرن الخامس عرفت قصيدة ابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٥ هـ في هجو
ارباب الدولة الجَلالية^(٣) الملكشاهية:

لو أنّ لي نفساً صَبَرْتُ لِمَا ألقى، وَلَكِنْ لَيْسَ لِي نَفْسُ
ما لي أَقِيمُ لَدَى زَعَانِفَةٍ^(٤) شُمُّ الْقُرُونِ أَنْوَفُهُمْ فُطْسُ
لي مَبَاتَمُ مِنْ سَوْءٍ فِعْلُهُمْ وَلَهُمْ بِحَسَنِ مَدَائِحِي عُرسُ
وَلَقَدْ غَرَسْتُ الْمَدَحَ عِنْدَهُمْ طَمَعاً، فَحَنَظَلْ ذَلِكَ الْغَرَسُ
... الخ^(٥).

وفي القرن السادس عرف هبة الله بن الفضل بانه صاحب القصيدة الرائية
المشهورة - كما يقول ابن خلكان - التي جمع فيها خلقاً من الاكابر ونيز كل واحد منهم
بشيء وفيها يقول:

تَكْرِيتُ تُعْجِرُنَا، وَنَحْنُ بِجَهْلِنَا نَمْضِي لِتَأْخِذَ تَرَمِذاً مِنْ سَنْجَرٍ
ومنها البيت السائر:

نَسَبُ إِلَى الْعَبَّاسِ، لَيْسَ شَبَهُهُ فِي الضَّعْفِ غَيْرُ الْبَاقِلَاءِ الْأَخْضَرِ^(٦)

ولا يمكن - بالطبع - ان يجهل شاعر القرن السادس قصائد الذين سبقوه في

(١) كذا بالأصل، ولعل الصواب (فارجل) بالجيم.

(٢) مروج الذهب ٢٩٨/٤.

(٣) هو محمد بن محمد... أبو يثقل البغدادي، كان شاعراً مجيداً، خبيث اللسان. الخريدة ٧٠/٢، شذرات الذهب ٤/

٢٤، أعيان الشيعة ٤٥/٣٢٦، ٣٢٧، معجم المؤلفين ١١/٢٢٥.

(٤) نسبة إلى ملكشاه بن ألب أرسلان، الملقب بجلال الدولة. قال ابن خلكان: «كان أحسن الملوك سيرة، حتى كان يلقب

بالسلطان العادل». المتوفى سنة ٤٨٥ هـ ببغداد. وفيات الأعيان ٤/٣٧٠.

(٥) زعانقة: أراذل الناس.

(٦) الخريدة ٨١/٢ - ٨٤.

(٧) وفيات الأعيان ١٠٩/٥. وفي نصرة الفترة ٢٠٢-٢٠٣، أورد العماد ٣٦ بيتاً من هذه القصيدة. وعن الباقلاء الأخضر،

قال العماد: «ينادي في بغداد على الباقلاء الأخضر بـ العباسي». الخريدة ٢/٢٧٦.

الموضوع ذاته، فهل نظم قصيدته لمجرد التشبه بالاسلاف؟ انني استبعد هذا الاحتمال، لان الموضوع خطير، قد يكلف الشاعر حياته، ولعل الاقرب الى الصواب ان الشاعر - وكان طبيب العسكر - قد خسر بعض الامتيازات ايام المسترشد - وقد نظمت القصيدة في خروجه لقتال السلطان مسعود^(١) - بدليل ان الشاعر قال في آخرها - بعد ان ذكر امتيازات جماعة كانوا معه بصحبة الخليفة: -

لَهُمْ مَعَايِشُهُمْ، وَمَالِي بَيْنَهُمْ مَا كَانَ لِي فِي دَوْلَةِ الْمُسْتَظْهِرِ
وَوَلَاتِي فِي الْجِرْمَانِ لَيْسَ بِنَاقِصٍ وَتَنَائِي غَضَّ لَيْسَ بِالْمُتَغَيِّرِ^(٢)

اذن فقد نظم الشاعر هذه القصيدة، لانه خسر ما كان له في دولة المستظهر. ان هجاء الموظفين - وقد مرت نماذج منه - يقل فيه التعرض لشكل المهجو، او تصوير ملامحه الخارجية، كما يندر ان يتعرض الشاعر لاصل المهجو او يفحش في ذكر نسائه ومحارمه. ويبدو ان الشعراء وجدوا ان نعت المهجو بالدمامة والقبح، والتعرض للنساء وذكر العورات مما لا يكفل لهجائهم الذبوع والسيورة والانتشار، كما اكد النقاد ان ابلغ الهجاء واجوده «ان يسلب الانسان الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض»^(٣). . .
ومع ذلك تعرض علي بن افلح لخلقة احد الوزراء، حين قال يهجو:

لَوْلَا السَّوَادُ^(٤) وَذَقْنُهُ مَا بَانَ فِي وَقْتِ السَّلَامِ
كَزْرِيْقٍ^(٥) دَجَلَةٌ، كُلُّهُ رِيْشٌ، وَبَاقِيهِ عِظَامٌ^(٦)

وقال آخر يهجو عاملا ظلمه:

وَجْهٌ يَمُتُ بِسَوْءِ مَنْظَرِهِ إِلَى شَخْصٍ تَقَارَبَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضِهِ
وَنَحَافَةٌ مُوصُولَةٌ بِدَمَامَةٍ تَقْضِي عَلَى كُلِّ الْأَنَامِ بِنُغْضِهِ^(٧)

(١) أنظر: الفصل الأول ص ٦

(٢) نصره الفترة: ٢٠٣.

(٣) العمدة ١٧٤ / ٢.

(٤) السواد: أي الثياب السود التي كان وزراء العباسيين يرتدونها.

(٥) زريق دجلة: لعله ما يعرف الآن باسم «نعيج الماء» وهو طائر أكثره بياض، يرى في دجلة في أيام الربيع.

(٦) الحريدة ٦٨ / ٢، وأنظر الهامش.

(٧) الحريدة: ٤٥٤ / ٤.

٢ - هجاء اصحاب الحرف :

ومن هؤلاء: الشاعر^(١)، والواعظ^(٢)، والمغني^(٣)، والحلاق^(٤)، وصاحب الحمام^(٥)، والفاصد^(٦)، والمُنجم^(٧)، والطبيب^(٨).

وهجاء هؤلاء يؤكد ويبالغ في رميهم بكل ما يبعد الناس وينفرهم، ويجعلهم غير صالحين للحرف التي يرتزقون منها. فمثلا المغني: يفترض ان يساعد الناس على الفرح ونسيان الهموم، فاذا كان بارد الغناء، حصل العكس، قال ابن جارية^(٩) القصار يهجو مغنيا:

يا بُدْيُوِي^(١٠) قَدْ نَشَأَ لَكَ فِي الْعَو
دِ اُخْ يَسْتَغِيثُ مِنْهُ الْعَوْدُ
اَنْتَ تَدْرِي اَنْ الشِّتَاءَ عَلَى الْاَشْ
جَارِ صَعْبٌ - اِذَا اُطْلُ - شَدِيدُ
لَوْ اَرَادَ الْاِلَهُ بِالْاَرْضِ خِصْباً
مَا تَغْنَى مِنْ فَوْقِهَا مَحْمُودُ^(١١)
كُلَّمَا اَنْبَتَ يَسِيراً مِنَ الْعُشْبِ
سَبْ، وَغْنَى، غَطَى عَلَيْهِ الْجَلِيدُ^(١٢)

اما الواعظ فلا بد ان يجدد ويطور في وعظه، حتى لا يمل السامعون، فاذا عرف احد الوعاظ بانه يعيد ويكرر فيما يقول، انصرف عنه الناس. قال ابن جَكِينَا يهجو واعظا:

يُعِيدُ مَا قَالَ أَمْسٍ فِي غَدِهِ
بِلا اِخْتِلَافِ الْمَعْنَى وَلَا اللفظِ
حَضَرْتُ بَعْضَ الْاَيَّامِ مَجْلِسَهُ
فَكُلَّ مَا قَالَهُ عَلَى حِفْظِي^(١٣)

ويعد الحيص بيص اشهر من هجى من شعراء القرن السادس، وكان يزعم انه من تميم، وتغلب على طباعه اخلاق اهل البادية، فقال زميلة هبة الله بن الفضل يهجوه:

كَمْ تَبَادَى^(١٤)؟، وَكَمْ تَطَوَّلَ طُرْطُو^(١٥) رَكَ؟!، مَا فِيكَ شَعْرَةٌ مِنْ تَمِيمٍ

(١) عيون الأنباء ٣١٢/٢، وفيات الأعيان ١٠٥/٥.

(٢) الخريدة ٢٤٥/٢، الوفيات ٣٦٣/٣.

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٦٧، الخريدة ٢٥١/٢، ٢٦١.

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٤٧.

(٥) نفسه ص ٣٢١، ٥٤٠.

(٦) مجلة المجمع العلمي العربي مج ٤٢ ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٧) تاريخ الحكماء ص ٢٧٨ (ط). السعادة، الروضتين ٧٣/٢.

(٨) تلخيص معجم الألقاب ق ٤ ج ٣ ص ١٧٣.

(٩) هو محمد بن المبارك، أبو عبد الله، نسب إلى أمه، وكانت غوادة محسنة. توفي بعد سنة ٥٤٠ هـ. الخريدة ٢٥٠/٢.

(١٠) قال العماد انه: البديوي الغوادة الخريدة ٢٥١/٢. عمود: شقيق البديوي العواد.

(١١) الخريدة ٢٥١/٢. نفسه ٢٤٥/٢.

(١٢) الخريدة ٢٥١/٢. (١٣) نفسه ٢٤٥/٢. (١٤) أراد تتبادى، أي تشبه بأهل البادية.

(١٥) الطرطور: القلسوة الدقيقة الطويلة.

فَكَلِّ الضَّبَّ، واقْرِطِ الحَنْظَلِ اليَا بَسْ، واشْرَبْ - ماشَتْ - بُولَ الظِّلِمِ (١)
لَيْسَ ذَا وَجَهَ مَنْ يَضِيفُ، وَلَا يَقْدِرُ لَا يَدْفَعُ الْإِذَى عَنْ حَرِيمِ (٢)

٣ - هجاء المدن:

من المدن التي هجيت بغداد (٣)، واصفهان (٤)، وسنجان (٥)، وواسط (٦)، وهيت (٧) واربل (٨)، ودمشق (٩).

وهذا الهجاء قد ينظم للتسلية والمزاح، يقطع به المسافرون طرقهم الطويلة، وقد يجد فيه بعض الشعراء متنفساً عما أصابهم من إحدى المدن أو من أهلها. وليس هجاء المدن على أسلوب واحد، فمنهم من يذم أهل المدينة بانهم معرضون عن شعره:

يَتَمَنُّونَ أَنْ تَحُلَّ الْمَسَامِي رُبَّ بِأَسْمَاعِهِمْ، وَلَا الشَّعْرَ مِثِّي (١٠)
ومن الشعراء من يزعم أن المدينة كثيبة، حزينة، لا تشرح قلب المسافر، ولذلك هجاها:

تُبَا لِسَيْطَانِي، وَمَا سَوَّلَا لِأَنَّهُ أَنْزَلَنِي إِرْبِلَا
نَزَلْتُهَا فِي يَوْمِ نَحْسٍ، فَمَا شَكَّكْتُ أَنِّي نَازِلُ كَرْبِلَا (١١)
وقال ياقوت عن هذه القصيدة بأنها «مشهورة سلك فيها الشاعر - وهو المعروف بشيطان العراق (١٢) - طريق الهزل، راكبا سنن الفكاهة، موردا الفاظ البغداديين والاكرد». .

أما بغداد فقد هجيت بانها مدينة الاغنياء المترفين، والمفلس فيها غريب مهمل «كأنه مصحف في بيت زنديق».

بَغْدَادُ دَارُ لَاهِلِ الْمَالِ طَيِّبَةٍ وَلِلْمَقَالِسِ دَارُ الضَّنْكِ وَالضُّيْقِ
ظَلَلْتُ حَيْرَانَ أَمْشِي فِي أَزْقَتِهَا كَأَنِّي مُصْحَفٌ فِي بَيْتِ زَنْدِيقٍ (١٣)

(١) الظِّلِم: ذكر النعام.

(٢) وفيات الأعيان ١٠٧/٢.

(٣) الخريدة/ نسخة إيران ٢٠٠، معجم البلدان: جي.

(٤) المنتظم ٩٤/١٠.

(٥) معجم البلدان: سنجان.

(٦) الخريدة ١٨٢/١.

(٧) نفسه ٢٩٤/٤، معجم البلدان: هيت.

(٨) معجم البلدان: اربل، نكت الهميان ص ١٢٢.

(٩) الخريدة/ نسخة إيران ٢٤٠.

(١٠) معجم البلدان: هيت.

(١١) معجم البلدان: اربل.

(١٢) اسمه أنوشروان، وكان ضريباً، والغالب على شعره الخلاعة والمجون والهزل والفحش. نكت الهميان ص ١٢٢.

(١٣) المنتظم ٩٤/١٠.

وهجيت سنجار بالصغر والضيقة:

زَادَ أَمِينُ الدِّينِ فِي وَصْفِهِ سِنْجَارَ، حَتَّى جِئْتُ سِنْجَارَا
فَعَايَنْتُ عَيْنَايَ - إِذْ جِئْتُهَا - مَضِيدَةً قَدْ مُلِئَتْ فَارَا^(١)

٤ - هجاء المجتمع بأسره:

الشعراء جماعة من الناس تختلف عنهم في الاحاسيس والمشاعر والعواطف فهم ارق احساسا من سائر الناس، لذلك تراهم يغضبون ويثرون لامور يراها سواهم لا تستحق الاهتمام، وقد يكلفون ويولعون بما لا يلفت نظر الآخرين. ان الشاعر - في بعض الاحيان - لا يستطيع الوقوف بوجه الطغاة المتجبرين من بني البشر، لا يقدر ان يقول كلمة الحق ويجهر بها امام اناس اعتادوا الكذب والدجل والخداع، ولذلك يضطر الشعراء الى مهاجمة الزمن وصب غضبهم عليه، وهم يعلمون ان اهل الزمن او حكامه هم اساس البلاء:

إِنِّي رَأَيْتُ الدَّهْرَ فِي صَرْفِهِ يَمْنَحُ حَظَّ الْعَاقِلِ الْجَاهِلَا
فَمَا رَأَيْتُ نَائِلًا ثَرَوَةً أَظُنُّهُ يَحْسُبُنِي عَاقِلًا^(٢)
وقد توهم بعض الشعراء - وهم في غمرة الانفعال - ان الساقطين من الناس هم المتقدمون:

قالوا: ابن صُغْلُوكِ^(٣) بِهِ أَبْنَةٌ فَقُلْتُ: كَلَا وَعَلَيَّ^(٤) الرُّضَا
مَنْزِلَةٌ مَا خِلْتُه نَائِلَهَا وَلَوْ سَعَى بَيْنَ يَدَيْهِ الْقَضَا^(٥)
ويرى ابن التعاويذي ان بعض المتنفذين لا يستحقون المديح، ولذلك ينصح زملاءه من الشعراء ان يتجهوا الى الهجاء فهو اجدى واصدق:

يَا قَالَةَ الشَّعْرِ أَمَا فَيَكُمُ فَتَى ذُو مَحْمِيَةٍ؟
يَأْنَفُ أَنْ يَغْشَى مَقَا مَا تِ السُّؤَالِ الْمُخْزِيَةِ
إِلَى مَتَى جَفَوْنَكُمْ عَلَى قَذَاهَا^(٦) مُغْضِيَةٍ؟

(٢) الخريدة ٢ / ٣٣١.

(١) معجم البلدان: سنجار.

(٣) هو يحيى بن صعلوك، قال العماد عنه: وشاب من أولاد حجاب الديوان العزيز، وتعاطى نظم الشعر مُضِيدَةً. الخريدة

٢ / ٢٢٨.

(٤) هو ابو الحسن علي الرضا بن موسى الكاظم. . أحد الأئمة الإثني عشر عند الإمامية. توفي سنة ٢٠٢، وقيل ٢٠٣.

تاريخ ابن الأثير: ١٣٠ / ٦، وفيات الأعيان ٢ / ٤٣٢، الأعلام ٥ / ١٧٨.

(٥) الخريدة ٢ / ٢٢٨.

(٦) القذى: الجسم الغريب في العين.

وَكَمْ تَمُوتُونَ بِأَذِّ
دَعَا المَدِيحِ، وَابردوا
قَدْ أُولَادِ الزَّنا
وَأِ الهُمومِ المَدْوِيَّةُ^(١)؟
صُدُورَكُمْ بِالْأَهْجِيَّةِ
فيه بعضُ التَّسْلِيَةِ

... الخ^(٢).

ان هجاء المجتمع، او الطبقة العليا منه، صورة من صور الواقع التي يحاول المجتمع طمسها وعدم الاعتراف بها والتستر عليها في كل زمان ومكان، ولكن الشعراء يأبون الا ان يذكرُوا بالحقيقة ويشيروا الى مواطن الضعف في البيئة الاجتماعية. وعلى مر العصور وتعاقب الدول والناس، ظل الشعراء يهجون ويصرخون، وظل المجتمع لا يأبه بهم، بدعوى انهم مثاليون لا امل في اصلاحهم وتحطيم بروجهم العاجية.

الهجاء بين اللفظ والمعنى:

من البديهي ان يستفيد شعراء القرن السادس من تجارب اسلافهم من شعراء القرون السابقة، فادرجوا الغرض الذي ينظم من اجله الهجاء، وعرفوا انه لا بد ان يصل الى اعماق المجتمع، والى اكبر عدد من افراده، كما عرفوا المعاني والاساليب التي تؤثر في الناس وتثيرهم، وقال لهم النقاد: «ان جميع الشعراء يرون قصر الهجاء اجود، وترك الفحش فيه اصوب الاجريرا... وسلك طريقته في الهجاء سوى علي بن العباس الرومي، فانه كان يطيل ويفحش^(٣)...»

ومن شعراء الهجاء - غير جرير وابن الرومي - عرف ابو نواس والمتنبي، وقد لاحظ النقاد ان هجاء هذين الاخيرين يختلف تبعا لاختلاف مراتب المهجوين^(٤) وقد استوعب شعراء القرن السادس هذا كله، وفي الوقت نفسه ادركوا نفسية ومزاج معاصريهم، فشاع في اهاجيهم القصر، ومالوا الى تركيز اهاجيهم في اقل عدد من الابيات، وهو ما عرف باللمحة الدالة، فجاءت معظم اهاجيهم قليلة الابيات والالفاظ، ولكنها مركزة المعاني، دقيقة الافكار، خالية من فضول الكلام، وهجين المعاني وفاحشها. على ان هذا لا يعني ان هجاء العصر خلا من القصائد الطوال، او سلم من البذاء والسباب، ان هبة الله بن الفضل من الشعراء الذين نظموا اطول قصائد الهجاء في القرن السادس، وقصيدته في قاضي القضاة:

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٦١
(٤) نفسه ١٧٣/٢

(١) المذوية: الممرضة.
(٣) الممنة ١٧٢/٢.

يا أخِي الشرطُ املكْ لستُ لثَلْبُ أتركْ

قال ابن خلكان: «انها ١٢٨ بيتاً»^(١). ويذكر العماد^(٢) شخصاً يسميه (جنون البصري) له قصيدة طويلة في بَغَاء، فيها افحاش، وقال العماد: انها سائرة. وعلى الرغم من ميل اكثرية الهجاء الى ذكر صفات المهجوين المعيبة والمبالغة فيها: كالتكبر والبخل والقسوة، ولكننا نجدهم احياناً يهجون بلؤم الاصل وخسة الجود، كقول سعد بن علي الخطيري:

كَمْ تَدْعِي كرمَ الجدو دِ، وَأَنْتَ تحَرِّمُ مَنْ شَكَرْ؟!
وَعَلَى فسادِ الاصلِ مِنْكَ يَدُلُّني عَدَمُ الثَّمَرِ^(٣)

وقول هبة الله بن الفضل في بعض الهاشميين:

يُكْنَى أبا العَبَّاسِ، وَهُوَ بِصُورَةٍ حَكَمْتُ عَلَيْهِ وَأُسْجِلْتُ^(٤) بِمُعَمَّرِ^(٥)
فِي كَفِّ وَالِدِهِ، وَفِي أَقْدَامِهِ أَثَارُ نَيْلٍ^(٦) لَا يَزَالُ، وَعُصْفُرٍ^(٧)
وَإِذَا رَأَى الْبَرْكِيْلَ^(٨)، يَخْفِقُ خَيْفَةً ذِي الْهَاشِمِيَّةِ أَصْلُهَا مِنْ خَيْبَرٍ^(٩)

واحياناً يكون الهجاء برقة الدين والخروج على تعاليم الاسلام:

يَا حَاكِمًا، مَا مُسْلِمٌ وَاحِدٌ يَسْلُمُ مِنْ أَحْكَامِهِ الْجَائِرَةِ
اِحْتَلَّتْ لِلدُّنْيَا فَحَصَّلَتْهَا، وَالرَّأْيُ أَنْ تَحْتَالَ لِلْآخِرَةِ^(١٠)

وقال ابن جنيته:

وَمُنْتَقِلٌ بِالْإِثْمِ أَرْسَاهُ جُرْمُهُ فَلَمْ يَقْدِرُوا مِنْ ثِقَلِهِ أَنْ يَقْلَوْهُ
رَأَى أَهْلُهُ إِعَادَهُ مَغْنَمًا لَهُمْ وَكَانَ كَثِيرًا عَنْدهُمْ، فَاسْتَقْلَوْهُ
وَلَمْ يَسْمَعْ الْحَقَّارُ سَاعَةً دَفْنِهِ وَتَوَسَّيْدِهِ، الْآ: «خُذُوهُ»^(١١) فَعْلُوهُ

(٢) الخريدة ٤/ ٧٥٩.

(٤) أسجلت: ملكت.

(١) وفيات الأعيان ٣/ ١٥١.

(٣) الخريدة ٤/ ٥١.

(٥) معمر: من العُمرة، وهي الزعفران: يصفه بالعبوسة والصفرة.

(٦) النيل: صبغ أزرق.

(٧) العُصْفُر: نبات يستخرج منه صبغ أحمر.

(٨) البركيلى أو البرقىل: القوس الذي يرمي به الصبيان البندق.

(٩) الخريدة ٢/ ٢٧٦، خيبر: ناحية مشهورة في الحجاز، كانت مساكن اليهود: يصفه بالجين، وانه من أصل يهودي.

(١٠) الخريدة ٢/ ١٦٦.

(١١) الخريدة ٢/ ٢٣٨، والافتباس من الآية ٣٠ (الحاقة).

ووجدت المذاهب الاسلامية طريقها الى معاني الهجاء، كقول المؤيد الالوسي :

وأعور رافضي^(١) لله ثم لشعري
يدعونه بابن زيد، وهو ابن زيد وعمرو^(٢)

وقال سعد بن علي الحظيري :

يا فتح، يا اشهر كل الورى
كَمْ تَدْعِي شِيعَةَ آلِ النَّبِيِّ؟ اسْمُكَ يُنْبِئُنِي عَنِ النَّصَبِ^(٣)

وكما تعددت معاني الهجاء، تعددت كذلك اساليب الشعراء في توكيد الهجاء، وضمان انتشاره وذيوعه بين الجماهير. فقد عمد الشعراء الى الاساليب البسيطة، السهلة، الشعبية، التي تقرب من لغة العامة وطرقها في التعبير، كقول هبة الله بن الفضل :

يا حَزِينَةَ، الطُّمِي الطُّمِي
وَي^(٥) عَلَى الشَّرْعِ وَالْقَضَا
أَتَرَى صَاحِبَ الشَّرِيدِ
قد وَلَّى (ابنُ المُرْخَمِ)^(٤)
وَيَّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ
عَةٍ قد جُنَّ او عَمِيَ^(٦)!

وقوله :

يا (كمال الدين) الذي
والرئيس الذي به
خُذْ حَدِيثِي، فَأَنَّهُ
كُلَّمَا قُلْتُ قَدْ تَبَغَّ
وَعَواشِ^(٨) عَلَى الرُّؤُ
هو شَخْصٌ مُشَخَّصٌ
ذَنْبٌ دَهْرِي يُمَحَّصٌ
نَبَأٌ سَوْفَ يَرُخَّصُ
دَدَ قَوْمِي تَحْمَصُصُوا^(٧)
سَ عَلَيْهَا الْمُقَرَّنُصُ^(٩)
... الخ^(١٠)

(١) رافضي : منسوب الى جماعة المسلمين التي ترفض خلافة ابي بكر وعمر (رضي).

(٢) معجم البلدان : آلوس.

(٣) تمام المتون ص ٢٤٧، النصب : بغض آل النبي (ص).

(٤) هو القاضي يحيى بن سعيد بن المرخم، وقد مرت الاشارة اليه في الفصل الاول ص ٢٦.

(٥) وي : إسم فعل مضارع بمعنى أتعجب.

(٦) المنتظم ٢٠٧/١٠.

(٧) تحمصصوا : صاروا من أهل حمص.

(٨) الغواشي : الواحدة غاشية، وهي الغطاء.

(٩) المقرنص والمقرنس : سقف عمل على هيئة السلم.

(١٠) وفيات الأعيان ١٠٨/٥ - ١٠٩.

كما عمدوا الى الالفاظ القرآنية، يقتبسون منها ما يلائم شعرهم، فبدا الهجاء طريفا وقد اكد وزين بآيات الكتاب الكريم. ولكن هذا الاقتباس قد يخرج الآيات عن معناها - احيانا - مما يغضب رجال الدين، وان اشبع عاطفة الشاعر الحائق الغاضب.

فمن الاقتباس قول هبة الله بن الفضل يهجو (كثير^(١)) بن شماليق):

(ابنُ شماليق) ليسَ فيه نفعٌ صغيرٌ ولا كبيرٌ
فكيفَ أُنِّي عليه يوماً ينطقُ الحامدُ الشُّكورُ؟!
واللهُ قد قالَ فيه قبلي يَهجوهُ: «لا خيرَ في كثيرٍ»^(٢)

وقال آخر:

أتحسبني أفدتُ إليك نفسي ولي بك، أو بما تَأْتيه، عِلْمُ؟
ظننتُ بكَ الجميلَ، فخابَ ظني وقالَ الله: «بعضُ الظنِّ إثمٌ»^(٣)

والاقتباس من القرآن الكريم ليس جديدا على الشعراء، فقد اورد صاحب مروج الذهب مجموعة من اهاجي علي^(٤) بن محمد بن نصر، وفي بعضها اقتباس من القرآن الكريم، كقوله:

عَبِيدُ^(٥) الله لَيْسَ لَهُ مَعَادُ وَلَا عَقْلُ، وَلَيْسَ لَهُ سَدَادُ
رُدِدَتْ الى الْحَيَاةِ، فَعُدَّتْ عَنْهَا لِقَوْلِ اللَّهِ: «لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا»^(٦)

كذلك ضمن الشعراء اهاجيهم شيئا من شعر اسلافهم، وهذا التضمين نادر في هجاء هذه الفترة، لم اقف له الا على شاهد واحد، اورده صاحب الوفيات^(٧) لشدة اعجابه به، وهو قول هبة الله بن الفضل:

(١) لم اقف على ترجمة له. وانظر الخريدة ٢٧٥/٢ هامش المحقق رقم ٥.

(٢) الخريدة ٢٧٥/٢، والاقتباس من الآية ١١٤ (النساء): لا خَيْرَ في كثيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِضِدْقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ.

(٣) الخريدة ٣٢٧/٢، والاقتباس من الآية ١٢ (الحجرات): يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ، وَلَا تَحْسَبُوا، وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا.

(٤) مروت ترجمته ص ١٤٦ هامش ٣.

(٥) هو عبيد الله بن سليمان بن وهب، وزير المعتضد، توفي سنة ٢٨٨، ابن الأثير ١٨٢/٧، وفيات الأعيان ٣٠٦/٢.

وفات الوفيات ٥٨/٣، الأعلام ٣٤٩/٤.

(٦) مروج الذهب ٣٠٠/٤، والاقتباس من الآية ٢٨ (الأنعام): وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

(٧) وفيات الأعيان ١٠٥/٥.

يا أهل بغداد، إِنَّ الْحَيْصَ بِيصَ أَق
هو الجبانُ الذي أبدى تَشَاجُعَهُ
وَلَيْسَ فِي يَدِهِ مَالٌ يَدِيهِ^(١) بِهِ
فَأَنْشَدْتُ جَعْدَةً^(٢) - مِنْ بَعْدِ مَا احْتَسَبْتُ
(أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً وَتَعَزِيَةً
كِلَاهُمَا خَلَفَ مِنْ فَقْدِ صَاحِبِهِ
بِفَعْلَةٍ أَكْسَبَتْهُ الْخِزْيَ فِي الْبَلَدِ
عَلَى جُرْيٍ ضَعِيفِ الْبَطْشِ وَالْجَلْدِ
وَلَمْ يَكُنْ بِبَوَاءٍ^(٣) عَنْهُ فِي الْقَوْدِ^(٤) -
دَمَ الْأَيْلِقِ عِنْدَ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ -
:إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابْتَنِي، وَلَمْ تُرِدْ
هَذَا أَخِي - حِينَ أَدْعُوهُ - وَذَا وَلَدِي^(٥)

ان شعراء القرن السادس لم يقفوا عند حدود الطرق السالفة في محاولاتهم المستمرة لتطوير فن الهجاء، والاخذ بأكثر الاساليب والوسائل اتفاقا وتمشيا مع روح العصر وطابع اهله، ولذلك حاولوا ان يطوروا اهاجيهم ويحوروها - لفظا ومعنى - تبعا لمراتب المهجوين ومنزلتهم الاجتماعية، فصار الهجاء انواعا وضروبا: فمن لا يجدي فيه التلويح والاشارة اتخذ له سلاح التصريح والعبارة الجارحة المؤلمة^(٦)، بل انهم ذهبوا الى ابعد من ذلك، فقد عمد هبة الله بن الفضل الى اللغة الفارسية، وراح يدس بين ابياته كلمات وتعابير فارسية، حين اضطر الى ان يهجو رجلا يكره العرب ويفضل عليهم الفرس.

ففي الوقت الذي نجد فيه شعراء القرن السادس يهجون افرادا. بمثل قولهم:

شَخْصٌ يَعْزُ عَلَى الْكَدِّ بِ أَنْ يُقَاسَ بِكَلْبٍ^(٧)
وقولهم: وهجوي لا أَعْرِضُهُ لِقَرْدٍ
مخافة أن تدنسه القرد
وقولهم:

لِللَّوْمِ شَرْعٌ، وَهَمْ رُسْلُهُ وَعَنْهُمْ جَاءَ بِمَنْهَاجٍ^(٨)

اقول في ذلك العصر نفسه، نجد شعراء الهجاء وقد أعدوا هجاء آخر يختلف عن هذه الشتائم، لافراد آخرين تؤلمهم الكلمة النابية، وقد لا يصدقها الناس، وربما سخروا

(١) يَدِيهِ: من الدِّبَّة، وهي ما يعطى من المال بذل القتل.

(٢) بَوَاءٌ: مُسَاوٍ لَهُ.

(٣) الْقَوْدُ: الْقَصَاصُ وَقَتْلُ الْقَاتِلِ بِدَلِّ الْقَتِيلِ.

(٤) جَعْدَةٌ: اراد بها هنا الكلبة، وأبو جعدة: كنية الذئب.

(٥) الْبَيْتَانِ الْمَضْمَنَانِ لِأَعْرَابِي قَتَلَ أَخُوهُ ابْنًا لَهُ. شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢٠٧/١.

(٦) الْخَرِيدَةُ ١٧٣/٢.

(٧) الْخَرِيدَةُ ٣٨٤/٤.

(٨) نَفْسُهُ ٣٨٥/٤.

(٦) الْعَمْدَةُ ١٧٣/٢.

(٨) الْخَرِيدَةُ ٣٨٤/٤.

من الشاعر لانه افترى وكذب على اشخاص عرفوا بين جميع الناس بخلاف ما ادعاه الشاعر. ومن هنا لا بد من تخير الهجاء المناسب للرجل المناسب، تأمل - مثلاً - كيف هجا ابن حَكِينَا الشريف هبة الله بن الشَّجَرِي - وكان من فضلاء عصره - :

يا سَيْدِي، والذي يُعِيدُكَ مِنْ نَظَمِ قَرِيضٍ، يَصْدَا بِهِ الْفَكْرُ
ما فيكَ مِنْ جَدِّكَ النَّبِيِّ سِوَى أَنْكَ ما يَنْبَغِي لَكَ الشَّعْرُ^(١)

فيحار الباحث: فماذا يسمى هذا الشعر؟ انه مديح قريب من الهجاء، أم هجاء كأنه مدح. ولست اشك ان معاصري الشاعر تداولوا هذين البيتين زمناً لبراعة الشاعر في الجمع بين المدح والهجاء.

وقال ابن حَمْدُون^(٢) الكاتب:

وَحَاشَا مَعَالِيكَ أَنْ تُسْتَزَادَ وَحَاشَا نَوَالِكَ أَنْ يُقْتَضَى
ولَكِنَّمَا أُسْتَزِيدُ الْحُظُوظَ وَإِنْ أَمَرْتَنِي النَّهْيَ بِالرُّضَى^(٣)

وقال ابن حَكِينَا:

ما بِالْ أَشْعَارِي - وقد ضُمَنْتَ مَدْحَكُمْ - تَرْجِعُ بِالذَّلَقِ^(٤)؟
ما فيكُمْ بخلٌ، وما بي غِنًى عَنْ نَائِلٍ، وَالنُّجُحُ فِي الصَّدَقِ
وَلَسْتُ أُسْتَبْطِى، وَلَكِنِّي يَنْقَطِعُ الْغَيْثُ فَاسْتَسْقَى^(٥)

ومن استعمال اللغة الفارسية، قول هبة الله بن الفضل للواعظ الغزنوي^(٦)، وكان يذكره ويتعرض به:

وَأَنْتَ تَهَيَّ النَّاسَ عَنْ غِيْبَةٍ فِي مِثْلِهَا تَأْمُرُ بِالرَّدِّ
أَمَّا بِتَخْوِيفٍ مِنَ النَّارِ، أَوْ بِنَوْعِ تَشْوِيقٍ إِلَى الْخُلْدِ
وَبَعْدَ ذَا تَفْعَلُ بِى هَكَذَا؟ زَهَارُ مِنْ سَالُوسِكَ السَّرْدِ!

(١) نفسه ٢٣٥/٢، وقد ألمح في عجز البيت الثاني إلى قوله تعالى: وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشَّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ. الآية ٦٩ (سورة يس).

(٢) هو أبو المعالي بن حمدون: مروت ترجمته في الفصل الأول ص ٢٩ هامش ٤.

(٣) وفيات الأعيان ١٦/٤.

(٤) الدلق: خروج الشيء من مخرجه بسرعة، وأراد بها هنا أن شعره لا فائدة منه.

(٥) الخريدة ٢٣٧/٢.

(٦) هو علي بن الحسين، الملقب بالبرهان، كان مفوهاً فصيحاً، يدل بمجبة الأعاجم ولا يعظم بيت الخلافة، توفي سنة ٥٥١

المنتظم ١٠/١٦٦، الكامل: ١١/٨٨، البداية والنهاية ١٢/٢٣٤، النجوم الزاهرة ٥/٣٢٣.

وهذه العُجْمَةُ، مِنْ عِنْدِكَ اَقْ تَبَسُّهُا، مَا هِيَ مِنْ عِنْدِي
لَا تُصْلِحِ الْفَاسِدَ مِنِّي بِمَا يُخْرِجُ مِنْ خَرْدٍ اِلَى شَدِّ^(١)
وَدَرْدٍ سَرٍّ، يَا نَوْرَ عَيْنِي، مُكُنْ لِضَيْقِ الْأَنْفَاسِ بِالذَّرْدِ
... الخ^(٢).

فعبارة: «زنهار من سالوسك السرد»، معناها: حذار من كلامك المخادع البارد.
وعبارة: «درد سر مكن» تعني: لا توجع رأسك. والذرد: الغم بالفارسية^(٣)، ولا زالت
شائعة على السنة العامة من العراقيين حتى اليوم.

٣ - الغزل والنسيب:

هذا غرض يكاد يساوي المديح من حيث كثرة الشعر وغزارة المقطوعات والقصائد
التي قيلت فيه، وحسبك ان جميع الناطمين من شعراء محترفين او غير محترفين قلما خلت
ترجمة احدهم من ابيات في الغزل.

ان معظم غزل القرن السادس هو مقدمات لقصائد المديح، ولذلك صار قسم كبير
من غزل هذه الحقبة من الغزل التقليدي الذي اعتاد الشعراء العرب ان يفتتحوا به قصائد
المديح، كذلك صرنا - ربما لأول مرة في تاريخ الشعر العربي - نجد طائفة من كبار شعراء
المديح هم انفسهم من شعراء الغزل المعروفين.

ان طول المقدمة الغزلية عند شعراء ليسوا غزليين هو من الظواهر الأدبية التي يحسن ان
اقف عندها، وخاصة عند الحسين بن عبد الوهّاب المعروف بالبارغ والمتوفى سنة ٥٢٤ هـ،
وكذلك مقدمات بعض قصائد ابن التعاويذي.

ان قصيدة البارغ التي مطلعها:

ذَكَرَ الْأَحْبَابَ وَالْوَطَنَا وَالصَّبِيَّ وَالْأَلْفَ وَالسُّكُنَا^(٤)

زادت مقدمتها الغزلية على اربعين بيتا، وكذلك قصيدته التي مطلعها:

طَرِبْتُ وَهَاجَ لِي الْبَرْقُ وَهَنَا^(٥) تَبَارِيحَ وَجِدٍ قَدِيمٍ بَلْبَنِي^(٦)

(١) خرد إلى شد: كذا بالأصل، وهو غير واضح المعنى، وأنظر الخريدة ٢/ ٢٨٤ هامش (٤٤).

(٢) الخريدة ٢/ ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٣) الألفاظ الفارسية ص ٦١.

(٤) الخريدة / نسخة ايران ٢٣٥.

(٦) الخريدة / نسخة ايران ٢٣١.

(٥) وَهَنَا: الْوَهْنُ: مُتَنَصِّفُ اللَّيْلِ أَوْ بَعْدَ سَاعَةٍ مِنْهُ.

وبعض مقدمات ابن التعاويذي زادت على الثلاثين بيتا كقصيدته التي مطلعها:

ابثكم أني مَشوقٌ بكم صَبُّ وأنَّ فؤادي للأسى بَعْدكم نَهَبٌ^(١)
وقصيدته:

عَصْرُ الشُّبابِ تَصَرَّمْتُ أوقاته وَتَبَسَّمتُ عن فَجَرها لَيْلاتُهُ^(٢) .

ان الشاعرين يعيدان ويكرران، ويشققان القول، ولا يكاد الواحد منهما يترك لفظة غزل، ولا عبارة نسيب، أو فكرة أو صورة يمكن ان تدل على صباية أو وجد الا استعملها في مقدمات المدائح، كل ذلك حتى يصل بها الى الطول المطلوب، وحتى لا يملك الباحث الا ان يتساءل متعجبا من اين يأتي هذان الشاعران بكل هذه الابيات؟ ومن اين لهما بهذه الالفاظ والمعاني، وهذا النفس الشعري الذي لا ينضب ولا يضعف حتى تصل القصيدة احيانا الى اكثر من مائة بيت؟

لقد اشرت في مكان آخر من هذه الرسالة^(٣) الى ان الطول هو الصفة الغالبة على قصائد المدح، ولا شك ان طول المقدمة الغزلية هو احدى طرق اطالة القصيدة بصورة عامة. وعندي ان سبب هذا الطول يرجع الى عاملين اساسيين:

الأول:

شاعرية الشاعر أو طاقته على النظم، فان الشاعر المحدود القابلية يختصر مقدمته اختصارا كي يسرع الى الهدف الاصلي من القصيدة، قبل ان يدركه الاعياء، اما كبار الشعراء فان رصيدهم لا ينفد، وربما تفتحت قرائحهم وظهرت مواهبهم كلما طال الشعر. وليس من المستبعد ان يطيل الشاعر في الغزل لانه مجيد في هذا الميدان، وهو يعرف ذلك جيدا. اما الذين اسقطوا المقدمة الغزلية من معظم مدائحهم - وأشهرهم الحيص بيص -، فربما عمدوا الى ذلك لانهم لا يجيدون التغزل - وان تعللوا بعلل اخرى.

الثاني:

ثقافة الشاعر، وخاصة في اللغة، اذ بدونها لا يستطيع ان يأتي بكل هذه المفردات التي يقيم بها شعره، وقد اشار ابن خلكان الى ان البارع كان نحويا لغوية مقرئا. افاد خلقا كثيرا خصوصا باقراء القرآن الكريم^(٤).

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٠.

(٢) الديوان ص ٦٣.

(٣) أنظر دراسة المدح في أول هذا الفصل الثالث.

(٤) وفيات الأعيان ١ / ٤٣٥.

ان ارتباط قسم كبير من غزل هذه الفترة بالمديح، وخاصة مدح الخلفاء وكبار شخصيات العصر، جعل الشعراء في موقف دقيق خاص، اذ لا بد أن يكون شعر هذه المناسبات الحاشدة الرسمية جديراً بسمعة الشاعر وهيبة الموقف، فلا مجال لاطلاق العنان والاسراف في الغزل وأحاديث الصبابة وغير الصبابة، على حساب الوقار والتقوى والورع التي يجب أن يتصف بها الخليفة، كما لا يصح ان يكون غزل الشاعر بارداً متكلفاً وهو يفتتح مديحه امام سمع وبصر حشد من كبار العلماء والأدباء والنقاد، فكل كلمة أو عبارة أو صورة، يجب أن توزن بدقة. ولذلك بدن الشعراء جهوداً جبارة، وحاولوا المستحيل، وسودوا عشرات الصفحات حتى استطاعوا ان يوقفوا بين الغزل ومدح الخلفاء. فكان من ذلك قصائد وأبيات كانت مثلاً يحتذى في العصور التالية، مثل قصيدة ابن التعاويذي في مدح القاضي الفاضل:

مَرَّتْ بِجَمْعٍ لَيْلَةَ النَّفْرِ^(١) تَجْمَعُ بَيْنَ الْإِثْمِ وَالْأَجْرِ^(٢)
فقد قال الشيخ ابن دقيق^(٣) العيد: انه لو مدح بها لاجاز عليها بالف دينار^(٤)
وقصيدة ابن المَعْلَم:

تَنْبَهِ يَا عَذْبَاتِ^(٥) الرَّنْدُ كَمْ ذَا الْكَرَى؟ هَبِّ نَسِيمُ نَجْدِ^(٦)
عارضها شاعران هما حماد الخراط^(٧)، وفتيان الشاغوري^(٨). ولا زال بيت الأبله البغدادي:

لَا يَعْرِفُ الشَّقَّ إِلَّا مَنْ يُكَابِدُهُ وَلَا الصَّبَابَةَ إِلَّا مَنْ يُعَانِيهَا^(٩)
حيا خالداً حتى اليوم.

وقد وجد في القرن السادس - الى جانب مقدمات المدائح - نوعان آخران من الغزل هما:

-
- (١) النفرة: اندفاع الحجاج من منى إلى مكة.
(٢) الديوان ص ١٩٠.
(٣) هو محمد بن علي بن وهب بن مطيع، الإمام العلامة، كان محدثاً مجوداً فقيهاً، أديباً شاعراً، نحويّاً. توفي سنة ٧٠٢ هـ.
فوات الوفيات ٢/ ٤٨٤، الدرر الكامنة ٤/ ٩١، شذرات الذهب ٦/ ٥، الأعلام ٧/ ١٧٣.
(٤) الوافي بالوفيات ٤/ ١٤.
(٥) العذبات: واحدتها عذبة، وهي طَرْفُ كل شيء.
(٦) الخريدة ٤/ ٤٣٩.
(٧) هو حماد بن منصور البُرَاعِي، قال العماد عنه: «... ليس بالشام في عصرنا هذا مثله رقة شعر وسلاسة نظم...». توفي حماد سنة ٥٦٥ هـ. خريدة الشام ٢/ ١٣٠، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٨٣.
(٨) هو الشهاب فتيان بن علي... الدمشقي، كان فاضلاً وشاعراً ماهراً. توفي سنة ٦١٥ هـ. خريدة الشام ١/ ٢٤٧.
وفيات الأعيان ٣/ ١٩٥، الأعلام ٥/ ٣٣٦، معجم المؤلفين ٨/ ٥٤.
(٩) الديوان و ١.

١ - الغزل المغنى :

وهو مقطوعات او ابيات تكون في العادة قليلة العدد، ! تنظم ليتغنى بها صناع الغناء أو المغنون، وقد وصلتنا اخبار اثنين منهم هما: مُظَفَّر الدين ابو الفتوح سعيد بن عبد العزيز المتوفى سنة ٦٠٠ هـ^(١)، والبدر محمد بن الفراش المتوفى ٥٩٨ هـ^(٢)، اما الشعراء الذين اشير الى ان المغنين كانوا مولعين بغناء طائفة من شعرهم فمنهم: الابله البغدادي^(٣)، وابن المُعَلَّم الواسطي^(٤)، وقد نص العمامد^(٥) على ان ابا المعالي بن مسلم الشروطي كان: «يعمل شعرا ويلقنه صناع الغناء».

وعلى الرغم من استقلال القطع المغناة عن المدح في العادة^(٦)، فاني لم اعثر في ديوان الأبله على غزل له مستقل عن المدح، وقد نص على ان قصيدته الاتي مطلعها:

إِنْ دَامَ هَجْرُكَ وَاسْتَمَرَّ أَلْفَيْتُ حُلُوَ الْعَيْشِ مُرًّا^(٧)
وهي في مدح الوزير ابن هبيرة، ومما غني به.

ان معظم النصوص التي اشير الى انها غُنيت او فيها غناء، تتصف بخلوها من آثار التقليد والتعلق بأذيال القدماء كالوقوف على الاطلال، والبكاء في اثر الطاعنين، وقد يكون سبب ذلك ان هذه الموضوعات ليس فيها ما يسر، وقد فقدت طرافتها لفرط ما اعيدت وكررت.

وقد قلت «معظم» لان بعض القطع المغناة لم تسلم من هذه اللازمة كقول عماد الدين ابن الوزير عضد الدين:

قِفْ بِاللُّوَى، إِنْ تَنَاءَتْ الدَّارُ فَعِنْدَ تِلْكَ الْاَوْطَانِ اَوْطَارُ
وَشِمُّ لَهَا بَارِقِ السَّحَابِ، فَإِنْ ضَنَّ، فَمَاءُ الْجَفَوْنَ مِذْرَارُ
أَحْبَابُنَا، أَزْمَعُوا الرَّحِيلَ، وَمَا أَظُنُّ أَنِّي أَعِيشُ إِنْ سَارُوا
رَاحُوا بِقَلْبِي، وَخَلَّفُوا جَسَدًا جَارَ عَلَيْهِ السَّقَامُ، مُذْ جَارُوا
أَحَبَّ نَجْدًا، إِنْ أَنْجَدُوا، وَإِذَا غَارُوا، فَعِنْدِي لِلْغُورِ إِثَارُ

(١) تلخيص معجم الالقاب ٥/ ٥٢٢.

(٢) الجامع المختصر ٩/ ٨٨.

(٣) وفيات الأعيان ٤/ ٨٧، تاريخ الموسيقى العربية ص ٢٣٣.

(٤) الخريدة ٤/ ٤٣٨.

(٥) نفسه ٢/ ٣٠٨.

(٦) انظر الخريدة ١/ ١٦٧، ١٨٦، ٢/ ٢٧٤، ٢٩٢، ٤/ ٣٧٣.

(٧) الخريدة/ نسخة ايران ١٦٤.

لا عُذَرَ لي في الحياة بَعْدَهُمُ النَّارُ في حُبِّهِمْ ولا العَارُ^(١)

ان الرجل من اكثر الناس بعدا عن «اللولى» و«نجد» وما اظن احدا يصدقه. حين يزعم ان احبابه على وشك الرحيل، وحين رحلوا خلفوه جسدا سقيما يائسا من الحياة. فاذا كان ابناء الوزراء - وهم في قمة الطبقة المترفة العباسية - يحبون نجدا لحب من سكنها، فماذا بقي لسكان البوادي الحقيقيين؟ انه التقليد ينطق الرجل بما لا يشعر به، ولذلك تفوح رائحة التلفيق والتكلف من كل بيت، بل من كل كلمة في ابياته. وقال آخر:

يا طُلُوءَ بَعْدَهُمُ كيف حال ذي شَجَنِ؟
غَيَّرْتُكَ حادثةً من حوادث الزمن^(٢)

ان هاتين المقطوعتين تدلان على ان طوائف من المجتمع العباسي في عصوره المتأخرة لا تزال تجد لذة ونشوة بالاستماع الى احاديث البادية وصور اهلها، وهم ينتقلون بين الاغوار والانجاد، ولذلك نجد عذرا للشعراء حين التزموا بالمقدمة الطللية، لانهم انما يعزفون الالحان التي يحبها الجمهور.

وليس بوسع الباحث ان يطمئن الى ان العماد الكاتب قد اطلع على جميع الشعر المغنى فاشار الى القطع المغناة كلها. ان المهمة الكبيرة، وهي تسجيل ادب القرن السادس في العراق وغير العراق التي تكفل بها كتاب الخريدة تدل - فيما تدل عليه - ان الرجل سيفوته الكثير، وان قضية فرعية مثل تتبع الشعر المغنى، لا بد ان قلم العماد مر بها مسرعا منطلقا مكتفيا بالاشارات السريعة التي خلفها وراءه هنا وهناك. ولذلك ارجح ان قسما غير قليل من القطع الشعرية الغزلية المبثوثة في الخريدة ووفيات الاعيان وفوات الوفيات وسواها من المصادر التي اهتمت بشعر الفترة وشعرائه، هي من الشعر الذي نظم من اجل الغناء - وان لم ينص على ذلك صراحة - والدليل ان امثال هذه المقطوعات فيها كل صفات الشعر المغنى: البحور القصيرة او المجزوءة، والألفاظ الرشيقة المختارة، والقوافي التي اختيرت خروفاها وحركاتها بعناية، وفوق كل ذلك قلة عدد أبياتها بحيث تصلح للاعادة والتكرار عند الغناء^(٣).

واكثر الذين رويت لهم امثال هذه المقطوعات هم: محمود الشروطي البغدادي^(٤)، ويوسف بن الدَّرَّ البغدادي^(٥)، وابن قَزَمي البغدادي^(٦)، وهذا الأخير بخاصة، أرجح ان

(٢) نفسه ٢/ ٢٩٢.

(٤) الخريدة ٢/ ٢٩٨، ٣٠٦.

(٦) نفسه ٢/ ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠.

(١) الخريدة ١/ ١٦٧.

(٣) حياة الشعر في الكوفة ص ٦٠٤.

(٥) نفسه ٢/ ٣٢٩.

كثيراً من نظمته ألف وكتب للغناء والمغنين لأن جميع الشعر الذي رواه له العماد، عليه طابع الغناء. ولم ينص صاحب الخريدة أن هذا الشاعر مدح أحداً، ولم يذكر سبب هذه الرشاقة والاناقة التي تغلف مقطوعاته، فتبدو متميزة عن سواها، تدل على أن الشاعر بذل جهداً غير قليل في اعدادها وصقلها وتذيينها مما يشهد له بعلو الكعب في الفن. مثل قوله:

لِي حَبِيبٌ لَأَنْ عَظُفًا لَيْتَهُ قَدْ لَأَنْ عَظُفًا
إِنْ قَلْبِي - مِنْ هَوَاهُ - فِي حَرِيقٍ لَيْسَ يُطْفَأُ
اشْتَهَى تَقْبِيلَ عَيْنِي (م) ه وَصَحْنِ الْخَدَّ الْأَفَا
ثُمَّ ضِعْفَ الشُّعْرِ (١) وَالْوَتْرَ (م) ر (٢)، وَضِعْفَ الضَّعْفِ ضِعْفًا (٣)
وقوله من ثانية:

لُطْفُ الْخُصُورِ الْمُخْطَفَةِ (٤) وَالطَّرْرُ (٥) الْمَصْفُفَةُ
وَالْوَجَنَاتُ الْبَضَّةُ (م) مَشْرِقَةُ الْمَتْرَفَةِ
وَلَيْنُ أَغْصَانِ الْقُدُو دِ الْلدَنَةِ الْمَهْفَهْفَةِ (٦)
أَبَقَتْ قُلُوبَ الْعَاشِقِينَ (م) نَ صَبَّةٌ مَخْطُفَةٌ
فَكَمْ مَرِيضٍ مُذْنَفٍ شِفَاؤُهُ لَتَمِ الشَّفَةُ
وَلَا يُبَالِي أَنْ يُعَمَّ (م) دَفَعْلُهُ مِنْ السَّفَةِ
قَالُوا لَهُ الْهَائِمُ لَا يَرُدُّهُ مَنْ عَنَّفَهُ
... الخ (٧).

٢ - امشاج من الغزل:

تصادف الباحث، وهو يدرس غزل القرن السادس، مقطوعات كثيرة لا يدري أين يدرسها، فهي ليست مقدمات لقصائد مديح، وليست من الشعر المغنى، كما أنها لا تخلو - أحياناً - من معنى طريف أو تعبير مبتكر، وفيها من قوة الشاعرية واصالتها ما يوجب انتشاها

(١) الشفع: الزوج من العدد.

(٣) الخريدة ٢ / ٣٣٦ - ٣٣٧.

(٥) الطرر: واحدتها طرّة وهي الجبهة أو الناصية.

(٦) المهفهفة: واحدتها مهفهف: الضامر البطن، الدقيق الخصر.

(٧) الخريدة ٢ / ٣٣٩، وأنظر ٢ / ٣٤٠.

من ايدي النسيان، وعرضها امام الباحثين فقد يرى فيها بعضهم من الدلالات غير ما تراه.

ان غزل القرن السادس الحقيقي - وهو قليل - لا يوجد في مقدمات المدائح حيث يتكلف الشاعر جزالة الالفاظ وفخامتها، وبدواة اللغة وقدمها، ولا في شعر الغناء حيث يجري الشاعر وراء الالفاظ التي تصلح للتلحين والموسيقى، مهذراً من أجل الالفاظ وفي سبيلها كل شيء. ان العواطف الصادقة البعيدة عن الافتعال الخالية من الأدعاء، تجدها في هوامش الغزل، بعيداً عن ضجيج الالفاظ، وصخب التملق والرياء. تجدها في البيتين او الثلاثة التي اصطادها الرواة فجمعوها من هذا وذاك، دون اشارة الى سبب نظمها، انها غزل وكفى، ولا يهمهم ان كان ناظمها عاشقاً أو فاسقاً.

ان قسماً من هذا الغزل نظمه علماء مشهورون كأبي سعيد محمد^(١) بن علي بن عبد الله. . الجاواني^(٢) الحلوى المتوفى سنة ٥٦١ هـ، ويبدو أن الرجل كان أعور، ولذلك قال:

أفديك بالعينِ الصَّحِيحِ(م) حة، فالمریضة لا تُساوي
إني أفيكم بالَحَا(م) سن لا أفيكم بالَمساوي^(٣)

وابي عبد الله الحسين بن محمد. . المنعوت بالبارع قال:

رُدي على الكرى، ثم اهْجُرِي سَكَنِي فَقَدْ قَتَعْتُ بطيف منكِ في الوَسَنِ
لا تُحَسِّي النَوْمَ قد أوحشتُ أطلُبُهُ الآ رجاء خيالٍ منكِ يُؤنسني
تَرَكْتَنِي والهوى فَرْدًا أغالبُهُ ونامَ لَيْلُكَ عَنْ هَمِّ يُورِّقُنِي^(٤)
ومن شعراء هذا الغزل: علي بن افلح الكاتب المتوفى سنة ٥٣٥ هـ:

دَعِ الهوى لأناسٍ يُعرفونَ بِهِ قَدْ مارسوا الحُبَّ حَتَّى لَانَ أَصْعَبُهُ
بَلَوْتُ نَفْسَكَ فيما لَسْتُ تُحِبُّهُ والشَّيْءُ صَعْبٌ على مَنْ لا يُجَرِّبُهُ
إِنْ اضطَبَّاراً - وإنْ لم تَسْتَطِعْ جَلْداً - فَرَبُّ مُدْرِكِ أثرٍ عَزَّ مَطْلَبُهُ
أحني الضُّلوعَ على قلبٍ يُحْيِيَنِي في كُلِّ يَوْمٍ، وَيُعِينِي تَقْلِبُهُ

(١) نفقه ببغداد على الغزالي. . وبرع وتميز وقرأ المقامات على الحريري، وكان إماماً مناظراً. . وله نظم. . الوافي بالوفيات ٤

١٥٥/

(٢) الجاواني: نسبة الى جاوان: وهي قبيلة كردية سكنت الحلة.

(٣) الوافي بالوفيات ٤/ ١٥٥، طبقات الشافعية الكبرى ٦/ ١٥٣.

(٤) الكامل لابن الأثير: ١٠/ ٢٥٤.

تَنَاقُحُ الرِّيحُ مِنْ يَهُيجِهِ وَلَا مِئُ الْبَرْقِ مِنْ نَعْمَانِ يُطْرِبُهُ^(١)
وللأمير بَذْران^(٢) الْمَزِيدِي :

وَصَغِيرَةٌ عُلِقَتْهَا كَانَتْ مِنَ الْفِتَنِ الْكِبَارِ
كَالشَّمْسِ إِلَّا أَنَّهَا تَبْقَى عَلَى ضَوْءِ النَّهَارِ^(٣)

ان هذه المقطوعات وأمثالها تدل على أن بعض شعراء العصر كان باستطاعتهم ان يطورو فن الغزل ويدفعوا به الى امام لو تركوا قرائحهم على هواها، تبرعوا بحس، وتختار الألفاظ التي تريد، ولكن دنيا العواطف هذه - فيما يبدو - كان نصيبها من عناية القوم جد قليل.

ولا بد من الإشارة الى انني لا أستبعد أن تدل هذه القطع أو بعضها على حب حقيقي، وعاطفة صادقة، لم يصلنا منها سوى بصيص لا يكاد يضيء، كذلك يصح أن بعض هذه القطع اخذت اصلا من قصائد مدح، ابى المؤرخون والرواة الا ان يجعلوا القصيدة الواحدة اشلاء مبعثرة، فتركوا الباحثين يعتمدون على الحدس والظن والتخمين.

خصائص الغزل :

١ - غلبة التقليد عليه : على الرغم من غلبة التقليد على معظم شعر القرن السادس - كما يتضح من فصول هذه الرسالة - فان هذه الظاهرة واضحة ملموسة في الغزل التقليدي أكثر من سواه، لأن شعر المديح هو أهم وأكبر اغراض العصر، وهذه المقدمة تنصدر المديح غالبا. فما أن تحاول تقليد أي من دواوين الفترة، أو تطالع أي كتاب يهتم بشعرها حتى تطالعك هذه المقدمة بنوعيتها :

الطللي : كقول ابن التعاويذي :

غَادَاكِ مِنْ بَحْرِ الرَّوَاعِدِ مُسْبِلٌ وَسَقَتَكَ أَخْلَافُ^(٤) الْغُيُومِ الْخُفْلُ^(٥)
وَجَرَتْ بَلِيلَ الدَّلِيلِ وَابْنَةُ الْخُطَا مَسْكِيَّةُ النَفْحَاتِ فِيكَ الشَّمَالُ
لِلَّهِ مَا حُمِلَتْ مِنْ ثِقَلِ الْهَوَى يَوْمَ اسْتَقَلَّ قَطِينُكَ الْمُتَحَمَّلُ
.. الخ^(٦).

(١) المنتظم ١٠ / ٨١، وانظر أيضاً وفيات الأعيان ٣ / ٦٨.

(٢) أنظر الفصل الثاني ص ٩٢.

(٣) الخريدة ٤ / ١٨٠.

(٤) الأخلاف : الضروع واحدا خلف.

(٥) الخفل : الممتلئة.

(٦) الديوان ص ٣٢٦، وأنظر ٣٤٤، ٣٦٣. وديوان الأبله و ٨٤، ٩٤، ١٠٠، ١٢٤.

والغزلي كقوله :

أرى الأيام صَبَغَتْهَا^(١) تَحْوُلُ وما هِوَاكِ مِنْ قَلْبِي نُصُولُ^(٢)
وَحُبٌّ لَا تُغَيِّرُهُ اللَّيَالِي مُحَالٌ أَنْ يُغَيِّرَهُ الْعَذُولُ
بِنَفْسِي مَنْ وَهَبَتْ لَهَا رُقَادِي فَلَيْلِي بَعْدَ فُرْقَتِهَا طَوِيلُ
... الخ^(٣).

وما دام الشاعر البغدادي المترف، قد ارتضى لنفسه ان يعيش على ضفاف دجلة بين أحضان الترف والحضارة، ولكنه مع ذلك يطوف في غزله بين البوادي والرمال على ظهور الجمال، أقول ان شاعرا بدا بالصحراء والخيام والأطعان، لا بد ان يسير في هذا الطريق الى نهايته فنجد:

(أ) أسماء الاماكن والبقاع التي يزعم الشاعر أن أحبابه من سكانها او ان له بها ذكريات وعلى ترابها عبرات، هذه الاماكن كلها غريب على المجتمع العراقي والبغدادي . فما اظن عراقيا مر ذات يوم بـ العقيق^(٤)، او المُنْحَنِي^(٥)، أو نجد^(٦)، او الشَّقِيقَة والضال^(٧) او رملي يبرين^(٨)، او غيرها من الاسماء التي يرددها الشعراء ويلوكونها في غزلهم .

ان الشعراء لفرط ترديدهم للاسماء البدوية وحياتهم في الماضي، كأنهم نسوا ان في العراق اماكن وبقاعا يمكن ان تذكر في الغزل، فيثير ذكرها زواجع من الذكريات الحية المعاصرة. ان اسماء مثل الكرخ ودجلة والصراة والنيل^(٩)، لا تكاد تعثر عليها في غزل هذا العصر الا بشق الانفس، واذا وجدت اطلت عليك من بيت تلول من البداوة تخنقها خبقنا كقول ابن التعاويذي :

وبالقَصْرِ مِنْ بَغْدَادَ خَوْدُ^(١٠) إِذَا رَنْتَ لَوَاحِظُهَا لَمْ يَنْجُ مِنْ كَيْدِهَا قَلْبُ

(١) صبغتها: بالأصل صبغتها (بالياء) وما أثبتته يتفق ومعنى البيت .

(٢) نصول: أراد بها هنا خروج.

(٣) الديوان ص ٣٣٩، ٣٧٤، ٣٨٦. وأنظر الخريدة ٢/ ١٧٥، ١٧، ٢٤، ٢٧، ٥٩ ...

(٤) ديوان الأبله و ٩٤.

(٥) نفسه و ١٠٠.

(٦) نفسه و ٣٦٣.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٢٠.

(٨) نفسه و ٤٢٠.

(٩) نهر يخترق مُلَيَّذَة النيل في سواد الكوفة قرب جَلَّة بني مزيد.

(١٠) خَوْد: امرأة شابة.

(٦) رنت: من الرَنَو وهو إدامة النظر مع سكون الطرف.

كَعَابٌ^(١) كَخَوِطِ الْبَابِ، لَا أَرْضُهَا الْحِمَى
- مُنْعَمَةٌ، غَيْرُ الْهَبِيدِ^(٣) طَعَامُهَا
وَلَا دُونَهَا بَيْدٌ يُخَاضُ غِمَارُهَا
مَحَلَّتُهَا أَعْلَى الصُّرَاةِ، وَدَارُهَا
وَلَا دَارُهَا سَلْعٌ، وَلَا قَوْمُهَا كَعْبٌ
وَمِنْ غَيْرِ اللَّقَاحِ^(٤) لَهَا شُرْبٌ
قِفَارٌ، وَلَا طَعْنٌ يُخَافُ وَلَا ضَرْبٌ
عَلَى الْكَرْخِ لَا أَعْلَامُ سَلْعٍ وَلَا الْهَضْبُ
... الخ^(٥).

ان الشاعر لم يستطع ان يذكر بغداد والصراة والكرخ الا من خلال سلع وكعب والهضب والهبيد والحمى والبيد، وهذه الفتاة البغدادية المنعمة لم يجد شاعر بغداد في القرن السادس الا ان يصف طعامها بانه «غير الهبيد» وان شرابها من غير «البان اللقاح»، فهل تصدق ان البغداديات المترفات - وابن التعاويذي من بغداد - ليس لما يأكلن ويشربن من اسماء سوى هذه الاسماء والصفات البعيدة عن القرن السادس؟

وفي قصيدة اخرى قال:

وَيَوْمٌ بِالصُّرَاةِ لَنَا قَصِيرٌ وَأَيَّامُ التَّوَاصِلِ لَا تَطُولُ
وقبله بأبيات قال:

وَعَنْفَنِي عَلَى الْعَبْرَاتِ صَحْبِي عَشِيَّةَ قَوْضَ الْحَيِّ الْحُلُولُ
وقالوا: اسْتَبَقِ لِلْأَحْبَابِ دَمْعاً فَقَدْ شَرَقَتْ بِأَدْمُعِكَ الطُّلُولُ^(٦)

فاين الصراة من الدموع والطلول؟ والحي الحلول؟ وما فائدة ذكر هذا النهر في وسط يضحج بالاطلال والابل والرحيل والعبرات؟

ب - ان صورة المرأة التي رسمها الشعراء على انها المرأة المثالية كما يتخيلها الرجل، ظلت في القرن السادس نسخة من زميلتها في العصور السابقة البعيدة كالعصر الجاهلي وصدر الاسلام، وكذلك صفات الرجل العاشق هي هي حتى كأن الزمن واقف، والمجتمع يراوح في مكانه، والدنيا ثابتة لا تتزحزح، والعقلية العربية الاسلامية لم تهضم وتتصل بحضارات وثقافات غيرت كل شيء.

(١) الكعاب: الفتاة نهد ثديها.

(٢) الخوط: الغصن الناعم.

(٣) الهبيد: الحنظل أو حبه.

(٤) اللقاح: واحدها لقوح: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

(٦) الديوان ص ٣٤٠.

(٥) الديوان ص ٣١.

اما المرأة فلا زالت تشبه بالبدر:

تجري دموعي شوقاً إن نظرتُ الى بدرِ السماءِ وبدرِ الأرضِ قد غاباً^(١)
وعيونها مريضة من غير مرض:
عبدتني له، وما كنتُ عبداً صحّة في جفونه واعتلالاً^(٢)
وقوامها كالقضب، ووجهها كالصباح، وشعرها كالليل:
تريك قضيّاً في كئيب اذا انتت وضبحاً مُنيراً تحت جُنج ظلام^(٣)
ولا زالت علامات جملها:

نحيف خصر، كئيب ردف ظامي الحشا مُقعم^(٤) المعاصم^(٥)
ان الاوصاف البدوية للمرأة لا زالت كما هي على الرغم من تأثر الحياة الاجتماعية العربية بالامم الأخرى المتحضرة كالفرس والترك منذ زمن بعيد، ولكن هذا التأثير لم يظهر في شعر الشعراء المقلدين، فاكتمى بعض الشعراء بالاشارة الى ان محبوه تركي:
جَدُّ بقلبي ومزح ظبي من الترك سنح^(٦)
تماما كما فعل ابن الرومي قبله بثلاثة قرون حين قال:

فتاة من الأتراك ترمي بأسهم يُصين الحشا في السلم لا في المعارك^(٧)
ان شعر الغزل في نهاية العصر العباسي، لم يزل كما كان في بداية هذا العصر منذ ستة قرون: يدور معظمه حول جسم المرأة وملاحظها الخارجية: العيون نجلاء تشبه نظراتها بالسهم، والقوام يثنى مشبها الرمح او غصن البان، والحدود أسيلة كأن حمرتها اخذت من دماء العشاق، والفم رضابت كالخمر تسكر الباب الرجال. . اما جمال المرأة المعنوي: جمال الروح، وخفة الدم، وحلاوة الحديث، ورقة الاحاسيس، وفرط الحنم، واثر ذلك على مشاعر الرجل فقلما التفت اليها الشعراء.

اما صورة الرجل العاشق فلا زالت هي الاخرى دون تغيير انه يطلق لدموعه العنان في اثر الاحباب الطاعنين:

يا منزلاً بدواعي البين مُتَهَبَّ وما البليّة الا من دواعيه

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٤٧.

(٤) مُقعم: ممتلئ.

(٥) ديوان الأبله و ٩٠، وأنظر ديوان ابن التعاويذي ص ٣٣٩.

(٧) ابن الرومي (حياته من شعره) ص ٣٥٨.

(١) الخريدة ١/ ١٥٧.

(٣) ديوان الأبله و ٩٤.

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٩٩.

وَقَفْتُ اشكو اشتياقي والسحاب به
فأنهل دَمعي وما انهلَ غواليه
والنارُ من زَفْرائي لا بوارقه
والماءُ مِنْ عِبْرَائي لا غَواديه
... الخ^(١).

وأبرز ما يتصف به العاشق: النحول والأرق وفقدان الصبر وضعف الجيلة:
عَنْ جُفُونِي النَّوْمُ مَنْ بَعْدَهُ؟ وإلى جِسمي الضَّنَا مَنْ قَرَبَهُ؟
وَصَلُّوا طَيْفًا إِذَا لَمْ تَصِلُوا مُسْتَهَامًا قَدْ قَطَعْتُمْ سَبِيلَهُ
وَالِي أَنْ تُحْسِنُوا صُنْعًا بِنَا قَدْ أَسَاءَ. الْحُبُّ فِينَا أَذْبَهُ^(٢)
وقال الحِصْبُ بِيص:

عَجِزْتُ فَمَا لِي جِيلَةٌ فِي هَوَاكُمُ سِوَى أَنِّي أَزْدَادُ وَجَدًّا مَعَ الصَّدِ
وَلَوْ أَنِّي جَاهَدْتُ نَفْسِي فَيَكُمُ سَلَوْتُ، وَلَكِنْ لَا جِهَادَ عَلَى الْعَبْدِ^(٣)
ولا بد ان يتصف العاشق بالوفاء غير المحدود، على العكس من الحبيب فهو غادر
خائن ابدا:

أَعِذْكُمْ مِنْ لَوْعَتِي وَشُجُونِي وَنَارِ أَسَى بَيْنَ الضُّلُوعِ دَفِينِ
وَبِرْجِ جَوَى، لَمْ يُبْقِ مِنِّي بَقِيَّةً سِوَى حَرَكَاتٍ تَارَةً وَسُكُونِ
سَهَرْنَا بِنَعْمَانٍ، وَنَمَّ بِبَابِلٍ فَيَا لَعِينٍ مَا وَقَتْ لَعِينٍ
أَكَاذِبُ سَمْعِي عَنْ أَحَادِيثِ غَدْرِكُمْ وَأَعْرِفْهَا عَنْ صِحَّةِ وَيْقِينِ
أَلَا تُخْبِرُ عَنِّي قُلُوبًا أَبْيَّةً يَقُولُ لَهَا: كَمْ ذِي الْقَسَاوَةِ؟ لِيْنِي^(٤)

ولا بد من القول في ختام دراسة ظاهرة التقليد هذه: ان التزام الشعراء بالمقدمة
الغزلية التقليدية، ومدى محافظتهم عليها او التخفف من رسومها وتقاليدها يعتمد على:
١ - الشاعر.
٢ - غرض القصيدة.

ان شاعرا كابن التعاويذي يبدو مولعا بالقديم مفتونا به، ولذلك نجده يبدأ حتى
بعض قصائده الذاتية - التي لم تنظم للمدح- يبلّغها بالغزل التقليدي، كما فعل في قصيدته
التي أولها:

(١) ديوان ابن المعلم، و ٢٠ (نسخة النجف).

(٢) نفسه و ٤.

(٤) الخريدة ١ / ١٨٦.

(٣) الخريدة ١ / ٢٤٢.

أَتَرَى تَعُودُ لَنَا كَمَا سَلَفَتْ لَيَالِي الْأَبْرَقِينَ^(١)؟
وكذلك قصيدته التي أولها:

تَأْوِبَنِي فَأَرْقِنِي خَيَالٌ سَرَى لِلْمَالِكِيَّةِ بَعْدَ وَهْنٍ^(٢)

وهذه ظاهرة جديدة في الشعر العربي - على ما اظن - لأن الشعراء اعتادوا أن يتغزلوا في أوائل قصائد المديح مجبرين مضطرين، وهم يحاولون - حتى في شعر المدح هذا - أن يروا بالغزل التقليدي مسرعين متعجلين. فما ظنك بمن يلتزم التقليد مختاراً، وربما مفتوناً؟

ولعل من الجديد أيضاً أن نجد الأبله البغدادي يجمع في مقدمات بعض قصائده بين الغزل بالمؤنث والمذكر، وهذا الأخير هو الساقى في العادة، كقوله في قصيدته التي أولها:

عَلَى دَارِ سَلَمَى بِالْعَقِيقِ سَلَامَى سَقَاهَا مُلْكٌ^(٣) مِثْلُ دَمْعِي هَامِي^(٤)
وكذلك قصيدته التي مطلعها:

أُطْلَاهُمْ بِلَوَى^(٥) الْعَقِيقِ فَحَاجِرٍ لَاعَقَ نُؤْيَ^(٦) حِمَاكِ نَوْءُ^(٧) مُحَاجِرِي^(٨)

وفي هذه القصيدة الثانية نجد الشاعر - بعد ثمانية أبيات يتغزل فيها بالمؤنث - ينتقل فجأة في البيت التاسع إلى الغزل بالمذكر قائلا:

وَمُعَذِّرُ^(٩) حُلُو الشَّمَائِلِ وَاللَّمَى^(١٠) كَمْ لِي عَلَى حُبِّي لَهُ مِنْ عَازِرٍ
لَمْ أَنْسَهُ إِذْ زَارَنِي مُتَلَثِّمًا تَحْتَ الظَّلَامِ عَلَى صَبَاحٍ سَافِرٍ
بِمَنَاطِقِ^(١١) نَطَطِي وَحِجْلٍ صَامِتٍ وَمُؤَزَّرٍ عَبْلٍ^(١٢) وَكَشْحٍ^(١٣) ضَامِرٍ
يَرْنُو بِمَطْرِفٍ ذِي سَقَامٍ سَاحِرٍ فِي رَقْدَةٍ عَنْ طَرْفٍ صَبَّ سَاهِرٍ
وَيَهْزُ أَعْدَلُ قَامَةٍ فِيهَا - إِذَا لَعِبَتْ بِهَا الْخِيَلَاءُ - سِيرَةَ جَائِرٍ

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٣٥.

(٢) نفسه ص ٤٣٩، والوهن: نحو منتصف الليل أو بعده بساعة.

(٣) أُلْتُ: المطر الذي يدوم أياماً. (٤) ديوان الأبله و ٩٤.

(١) اللوى: ما انعطفت واستدق من الرمل، وهنا أراد بها مكاناً بعينه.

(٢) النؤي: حفرة تحفر حول الخيمة لوقايتها من المطر والسيول.

(٧) النؤ: المطر، وأراد بها هنا الدمع.

(٩) المُعَذِّرُ: أي ذو العذار وهو جانب اللحية.

(١١) المناطق: واحدتها منطقة وهي ما يشد على وسط الانسان.

(١٢) عَبْلٍ: ممتلئ. (١٣) الكشح: ما بين السرة ووسط الظهر.

عَاطِيَتُهُ صَفَرَاءَ مَا حَلَّتْ حَشَاً فَرَأَتْ لَجِيْشَ هُمُوهِ مِنْ صَافِرٍ^(١)
 بَرَزَتْ بُرُوزَ الشَّمْسِ بَيْنَ شَمَامِسٍ^(٢) سَجَدُوا لَهَا إِذْ أُخْرِجَتْ مِنْ كَافِرٍ^(٣)
 .. الخ^(٤).

ان المقدمة التقليدية يغلب ان تلتزم بدقة في مدائح الخلفاء ، ثم يعتمد مدى الالتزام بها في المدائح الأخرى على مدى العلاقة بين الشاعر والممدوح، فكلما توطدت هذه العلاقة، صرنا نجد الشاعر يخلع اللباس الرسمي في المدح، ويختار المقدمة التي تعجبه، ولذلك وجدت بعض المقدمات التي تكاد صلتها بالقديم تنقطع، كقول ابن افلح يمدح عم العماد الكاتب:

هَاتِيكَ دَجْلَةً رَدْ، وَهَذَا النِّيلُ مَا بَعْدَ ذَيْنِ لِحَائِمٍ تَنْوِيلُ
 إِنْ كَانَ بَرْدُ الْمَاءِ عِنْدَكَ نَافِعاً حَرَّ الْجَوَى^(٥)، لَا الْأَشْنَبُ^(٦) الْمَعْسُولُ^(٧)
 عَجَباً لِشَأْنِكَ تَدْعِي ظُمًا، وَفِي جَفْنِيكَ مِنْ سَيْلِ الْجَفُونِ^(٨) سَيُولُ
 وَتَنْحُ مِنْ لَفْحِ الْهَجِيرِ^(٩) وَخَرِّهِ وَحَشَاكَ فِيهِ لَوْعَةٌ وَغَلِيلُ^(١٠)
 مَا هَذِهِ آيَاتُ مَنْ عَرَفَ الْهَوَى وَشَجَاهُ رَفَرَأُ الْحَيَاءِ أَسِيلُ^(١١)
 لَا تَكْذِبَنَّ، فَمَا بِهِذَا عِنْدَنَا أَهْلَ الصَّبَابَةِ - يُعْرِفُ الْمُتَبُولُ^(١٢)
 ... الخ^(١٣) وكذلك قصيدة البارع التي أولها:

ذَكَرَ الْأَحْبَابَ وَالْوَطَنَا وَالصَّبِي وَالْأَلْفَ وَالسَّكْنَا^(١٤)

٢ - قلة التجديد:

يكاد الدارسون يجمعون على ان الشعر العربي دخل منذ القرن الرابع في مرحلة الجمود والركود، اذ قلما وجد ابتكار او تجديد يمكن ان يشار اليه، وظل الشعراء عيالا على اسلافهم: يرددون افكارهم ويكررون صورهم. ويرى القاضي الجرجاني: ان المتنبي ومعاصريه معذرون اذا قصرُوا عن اسلافهم، لان احدهم يقف محصورا بين لفظ

(١) الصافر: الواحد.

(٢) الشمامس: واحدها شَمَاس: وهو دون القيس.

(٣) الكافر: أراد به وعاء الخمر لانه يخفيها

(٤) ديوان الأبله و ٨١.

(٥) الجوى: شدة الوجد.

(٦) الأشنب: ذو الأسنان البيضاء الحسنة.

(٧) المعسول: الخلو.

(٨) الجفون: واحدها جفن: قراب السيف وهو هنا السيف نفسه.

(٩) الهجير: شدة الحر.

(١٠) الغليل: العطش الشديد.

(١١) الأسيل: الخد الصويل في امتلاء.

(١٢) المتبول: الذي أذهب الحب عقله.

(١٣) الخريدة ٥٥ / ٢.

(١٤) الخريدة / نسخة ايران ٢٣٥.

قد ضيق مجاله، وحذف أكثره، وقل عدده، وحظر معظمه ومعان قد اخذ عفوها وسبق الى جيدها^(١). ويؤكد صاحب العمدة هذا الرأي، مشيراً الى ان الشاعر كلما تأخر زمنه، صار امله في التجديد والابداع ضئيلاً، لان اسلافه لم يتركوا من الالفاظ والمعاني الا ما لا خير فيه^(٢).

وقال الدكتور شوقي ضيف: ان الناقد لا يحس ازاء شعراء القرن الرابع وما بعده من قرون بالاعجاب الذي كان يحسه ازاء اسلافهم من شعراء القرنين الثاني والثالث، فقد شمل الحياة الفنية غير قليل من الركود والجمود، فالماء ساكن وليس عليه امواج ولا رياح، وكأني بالحضارة العربية قد ضلت طريقها، فوقفت عند تقليد الاوضاع القديمة، وقلما ظهر جديد في الشعر والفن، الا هذا التلفيق الواسع للماضي وافكاره وصوره^(٣)...

وبعد اراء الخبراء هذه: ايصح ان يبحث عن «تجديد» في القرن السادس؟ ان التجديد الذي اريده، وسأحاول ان اجمع الشواهد عليه، هو تجديد نسبي، حملتني عليه ظروف العصر، وواقع الأدب والشعر فيه. ان التجديد الذي ادرسه، وانوع به، واصطاد له الشواهد من بين اكداس الشعر، كان من حقه ان يهمل، ولا يلتفت اليه - لو كان العصر الذي ادرسه غير القرن السادس -

أ - من ناحية المعنى أو المضمون:

يقول ابن خلكان: ان بيت عيسى^(٤) بن بهرام المعروف بالحاجري المتوفى سنة ٦٣٢ هـ:

وَيْلَاهُ مِنْ بَرْدِ رُضَابٍ لَهُ أَشْكُو إِلَى الْعُدَالِ مِنْهُ الْحَرِيقُ

وكذلك بيت النفيس القطرسي^(٥):

أَحْرَقَتْ يَا ثَغَرَ الْحَبِيبِ (م) سَبَّ حَشَائِي لَمَّا دُقْتُ بَرْدُكَ^(٦)

الاصل فيهما بيت ابن التعاويذي:

يُدْكِ الْجَوَى بَارِدٌ مِنْ ثَغَرِهِ شَبِّمٌ^(٧) وَيَوْقُظُ الْوَجْدَ طَرَفٌ مِنْهُ وَسَنَانُ^(٨)

(١) الوساطة ص ٥٢.

(٢) العمدة ١/ ١١٣.

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٣٠١.

(٤) هو أبو العباس أحمد بن أبي القاسم عبد الغني... اللخمي المالكي، من أهل مصر نسب الى جده قطرس: كان من

الأدباء وله ديوان شعر أجاد فيه توفي سنة ٦٠٣ بمدينة قوص وقد ناهز السبعين. وفيات الأعيان ١/ ١٤٨.

(٦) وفيات الأعيان ١/ ١٤٨.

(٧) الشبم: البارد.

(٨) ديوان ابن التعاويذي ص ٤١٣، وفيات الأعيان ٥/ ٢٩.

كذلك رد صاحب الوفيات على ضياء الدين ابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ: بان قوله في احدى رسائله الى الخليفة ببغداد: . . . ودولته هي الضاحكة وان كان نسبها الى العباس، فهي خير دولة اخرجت للزمان، كما ان رعاياها خير امة اخرجت للناس، ولم يجعل شعارها من لون الشباب الا تفاؤلا بانها لا تهرم. . . هذا المعنى (السواد خير من البياض لانه لون الشباب، والربط بينه وبين شعار العباسيين) ليس من اختراع ابن الاثير كما يدعي، بل سبقه اليه ابن التعاويذي من قصيدته في مدح الناصر لدين الله:

يا نَهَارَ الْمَشِيبِ مَنْ لِي - وَهَيْهَا (م)	ت - بَلِيلِ الشَّيْبَةِ الدِّمَاسِ (١)؟
حَالِ بَيْنِي وَبَيْنَ لَهْوِي وَأَطْرَا (م)	بِي ذَهْرُ أَحَالٍ صِبْغَةً رَاسِي
وَرَأَى الْغَانِيَاتُ شَيْبِي، فَأَعْرَضَ (م)	نَ، وَقَلَنْ: السَّوَادُ خَيْرُ لِبَاسِ
كَيْفَ لَا يَفْضُلُ السَّوَادُ وَقَدْ اضْ (م)	حَى شِعَاراً عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ (٢)

. . . ويضيف ابن خلكان: ولا شك ان ضياء الدين زاد على هذا المعنى، لكن ابن التعاويذي هو الذي فتح الباب، وأوضح السبيل، فسهل على ضياء الدين سلوكه (٣):

وقال العماد الاصفهاني: ان قول ابن جكينا في مدح عور عين الحبيب:

يا لائمي، وَالْمَلُومُ مُتَّهَمُ	حَسْبُكَ مَا قَلَتْ فِيهِ مِنْ عَوَرِ
يَنْرَشِقُ عَنْ فَرْدٍ مُقَلَّةٍ، وَلَهُ	أَلْفُ جَرِيحٍ مِنْهَا عَلَى خَطَرِ
لَمْ كَيْفَ شِئْتُ، لَسْتُ تَارِكُهُ	الآنَ صَحَّ الشَّيْبُ بِالْقَمَرِ (٤)

كما لم يسبق اليه.

وعلى الرغم من «ان العبرة في الفن بجمال الاخراج وجمال الاوضاع والهيئات لا بالابداع المطلق» (٥). . . «أقول بالرغم من رأي الدكتور شوقي ضيف هذا، فان اختراع ثلاثة معان في قرن كالقرن السادس، يعد شيئاً كالمعجزة، اذا تذكرنا ان شاعرا كأبي تمام، مشهود له بالعبقريّة والزعامّة، لم يثبت له بعض النقاد سوى ثلاثة معان مبتكرة» (٦).

(١) الدِّمَاسُ: أراد بها هنا سواد اللون، ومن معانيها الحفرة المظلمة.

(٢) الديوان ص ٢٣٧، وفيات الأعيان ٣٠ / ٥.

(٣) وفيات الأعيان ٣٠ / ٥.

(٤) الخريدة ٢ / ٢٣٣.

(٥) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٢٩٦.

(٦) تاريخ النقد الأدبي ص ١٦٩.

اما بقية معاني الغزل فقد التقطها الشعراء من البيئة المحيطة بهم: من السياسة ورجالها، او من الحرب وما تحدثه من دمار وخراب، كذلك استغل الشعراء ثقافتهم الدينية واللغوية والتاريخية فاستطاعوا ان يتوصلوا الى معان بدت كالجديدة المبتكرة لما فيها من طرافة..

فمن السياسة اخذ ابن الفضل قوله:

يا مَنْ هَجَرْتَ وَلَا تُبَالِي هَلْ تَرْجِعُ دَوْلَةَ الْوِصَالِ^(١)؟
فقد تخيل الشاعر وجود دولة للوصال والغرام، تدبر شؤون اهل الهوى، وان هذه الدولة يعترها ما يعترى الدول من ضعف وانحلال، ومن قوة وعظمة وجبروت.

ومن السياسة ايضا قول الآخر:

وَصَالِكٌ لِي مِثْلُ خُبْرِ الْوَزِيرِ يُوَصِّلُ يَوْمًا، وَيَعْتَاصُ^(٢) شَهْرًا^(٣)
وقول الخطيري الوراق:

يا غَزَالًا فَاتَرَ النَّظَرَ يا شَيْبَةَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
كَيْفَ يَخْفَى مَا أُكْتِمَهُ وَزَفِيرِي صَاحِبُ الْخَبْرِ^(٤)؟
وصاحب الخبر هو رئيس الاستخبارات باصطلاحات الوقت الحاضر. أما الحرب فمنها اخذ ابن قزّمي قوله:

جَارَ عَلَيَّ الْحَبِّ^(٥)، وَالْمِ (حَبُّ لَثِيمُ الظُّفَرِ^(٦))
ان الحرب وحدها التي يوجد فيها ظافر لثيم، وآخر كريم، وقد تصور الشاعر ان الحب مثل الحرب فيه ظفر وفيه هزيمة، وهو خيال جميل طريف.
ومن الحرب ايضا قول ابن التعاويذي:

تَغْيِرُ لَوَاحِظُهُ فِي الْقُلُوبِ فَتَرْجِعُ بِالسَّبِي مِنْهُ ثِقَالًا^(٧)
وقوله:

فَبَيْنَ الْقَلْبِ وَالسَّلْوَانِ حَرْبٌ وَبَيْنَ الْجَفْنِ وَالْعَبْرَاتِ صُلْحٌ^(٨)

(١) الخريدة ٢ / ٢٧٤.

(٢) يعتاص: ينقطع ويتوقف.

(٣) تلخيص مجمع الآداب ٥ ٥٧ ق ١.

(٤) الخريدة ٢ / ٣٣٧.

(٥) نفسه ص ١٠٢.

(٦) الخريدة ٢ / ٢٧٤.

(٧) تلخيص مجمع الآداب ٥ ٥٧ ق ١.

(٨) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٦٨.

اما الثقافة الدينية فتبدو من استفادة الشعراء من الاحكام الشرعية كقول اسير الهوى
الهيبي المتوفى سنة ٥٤٦ هـ:

شُهُودٌ صِدْقٍ غَرَامِي فَيْكَ أَرْبَعَةٌ: الْوَجْدُ وَالِدَمْعُ وَالْإِسْقَامُ وَالسَّهَرُ^(١)
وقول الآخر:

يَا سَافِكاً ذَمِي الْحَرَامَ بِطَرْفِهِ أَوْ مَا تَخَافُ اللَّهُ يَوْمَ الْمَوْقِفِ؟
أَرَوَيْتَهُ عَنْ عَالِمٍ، أَوْجَدْتَهُ فِي مُسْنَدٍ، أَقْرَأْتَهُ فِي مُصْحَفٍ^(٢)؟
كذلك اخذ الشعراء بعض الفاظ القرآن الكريم - وهو غير الاقتباس - وطعموها
غزلهم وزينوه، كقول ابن قزَمي:

مَنْ لِفُؤَادٍ نَارُهُ رَامِيَةً بِالشَّرَرِ^(٣)؟
وقال ابن التعاويذي:

نَجْلَاءُ^(٤) لَا النَّافِثَاتُ^(٥) تَبْلُغُ مَا يَبْلُغُهُ سِحْرُهَا وَلَا الْعُقَدُ^(٦)
ويبدو اثر العروض والصرف والنحو في قول جمال الدين ابي العباس احمد
لبادرائي^(٧):

كَأَنِّي فَعُولُنْ فِي الطَّوِيلِ، وَمُهَجِّي بَكْفِ الْأَسَى كَالنَّوْنِ بِالْكَفِّ^(٨) تَزَحْفُ
وَهَا أَنَا مُعْتَلُّ الثَّلَاثِي، وَالضَّنَى مَنِ النُّحُو تَصْرِيفُ بِهِ يَتَصَرَّفُ
وَقَدْ كُنْتُ تَأْسِيساً^(٩)، فَيَا لَيْتَ أَنِّي دَخِلْتُ^(١٠)، إِذَا عَلَتْ قَوَافٍ وَأَحْرَفُ
بَلَيْتُ سَوَى اسْمِي فِي هَوَاكُمُ كَزَائِدِ مَعَ اللَّفْظِ يَبْدُو، وَهُوَ فِي النَّعْتِ يُحْذَفُ^(١١)

(٢) نفسه ١٠٢/٧ ط. ماركليوث الثانية.

(١) معجم الأدباء ١١/ ١٥١.

(٣) الخريدة ٢/ ٣٣٧، وهو من الآية ٣٢ (المرسلات): إِنَّمَا تُرْمَى بِشَرِّهِ كَالْفَصْرِ.

(٥) النافثات: الساحرات.

(٤) نجلاء: واسعة.

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ١٥٢، وهو من الآية ٤ (القلق): وَبَيْنَ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ. والعقد في الآية الكريمة تعني ما

يقوله الساحرات عند قيامهن بالسحر.

(٧) البادرائي: نسبة الى بادرايا، وتعرف اليوم بـ بَذْرَة في محافظة واسط.

(٨) الكف: حذف السابع الساكن في العروض. فن التقطيع الشعري والقافية ص ٢٠٧.

(٩)، (١٠) التأيسس: ألف ملتزمة تقع في لفظة واحدة مع الزوي ويفصلها حرف يعرف بالدخيل لا يلتزم ولكن حركته

تلتزم. فن التقطيع الشعري ص ٢٤٦.

(١١) الخريدة ٤/ ٥١٧.

ان فعولن والطويل والكف والتأسيس والدخيل من الفاظ العروضيين، والثلاثي المعتل من الفاظ الصرفيين، والزائد الذي يحذف في النعت من الفاظ النحاة.

اما الثقافة التاريخية فمنها قول الابله:

يَقْرَأُ الْمُتِمُّ مِنْ صَحِيفَةٍ خَدِهْ فِي الْهَجْرِ مِثْلَ صَحِيفَةِ (١) الْمُتَلَمِّسِ (٢)

وقول ابن المُعَلِّم الواسطي:

وَآخَرَ قَلْبِ الْمُبْتَلِ لِمَنْجِدٍ وَمُتِّهِمِ

يَبْكِي لِغَيْرِ مَالِكٍ (٣) بِمُقَلَّتِي مُتَمِّمِ (٤)

ب - من ناحية اللفظ أو الشكل:

ان الدُوييت او الرُّباعية هي الشكل الجديد الوحيد الذي - يمكن ان يعد ابن القرن السادس، لانه شاع وذاع في هذا القرن، بعد ان اخذه العراقيون عن الفرس، ومن العراق انتشر الى الاقطار العربية الاخرى (٥).

ويلاحظ ان معظم دوييت القرن السادس في الغزل، كما ان معظم ناظميه ليسوا من الشعراء المحترفين الكبار، فقد خلت منه دواوين اشهر شعراء الفترة كابن التعاويذي، والابله، وابن المعلم، والحيص بيص، على حين اطلع به الاغنياء المترفون، الذين ينظمون الشعر على سبيل الهواية، وقضاء أوقات الفراغ: ومن هؤلاء ورير المسترشد بالله الحسن بن علي بن صَدَقَةَ المتوفي سنة ٥٢٢ هـ (٦)، وسديد الدولة ابن الأنباري منشئ دار الخلافة المتوفي سنة ٥٥٨ هـ (٧) وأبو المحاسن البوشنجي، وقد استوزر أيام المستظهر بالله (٨)، وأبو الفرج ابن الجوزي الواعظ الحنبلي المشهور المتوفي سنة ٥٩٧ هـ (٩).

ان الدوييت لانتمائه الى الفرس من ناحية، وكونه يتيح للشاعر حرية في تنويع قوافيه وتبديلها من ناحية اخرى - وهو امر غير مقبول في القصيدة التقليدية - لذلك لا استبعد ان

(١) الْمُتَلَمِّسُ هو خال طرفه بن العبد، واسمه جرير بن عبد المسيح، ويراد بصحيفته الكتاب الذي كتبه له الملك عمرو بن هند، وفيه أمر بقتل الشاعر. والقصة مشهورة وفيات الأعيان ١٤٢/٥.

(٢) ديوان الابله و ٦١، وفيات الأعيان ١٤٣/٥.

(٣) هو مالك بن نُؤَيْرَة، ورناء إخوة مُتَمِّم له مشهور معروف. فوات الوفيات ٢٩٥/٢.

(٤) ديوان ابن المعلم و ٢٥ (نسخة النجف).

(٥) أنظر مقدمة «ديوان الدوييت في الشعر العربي» ص ٣٠-٩٥.

(٦) الخريدة ٩٦/١، ديوان الدوييت ص ١٥٤.

(٧) الخريدة ١٤٢/١، الدوييت ص ١٦٩.

(٨) الخريدة ٢٥٨/٢، ديوان الدوييت ص ١٧٣.

(٩) ديوان الدوييت ص ١٨٩.

يكون شيوعه مقصوراً على أولئك الذين لهم صلة بالفرس وآدابهم بطريقة من الطرق، وكذلك صغار الشعراء الذين يتلقفون كل بدعة أدبية ويروجون لها، لأنها تلائم قابليته المتواضعة التي تعجز عن مجارة كبار الشعراء في الميدان التقليدي^(١).

ومن هنا لم يكتب للدوبيت في القرن السادس أن يكون ظاهرة أدبية متميزة بارزة بين فنون الشعر العراقي، بل ظل مقصوراً على مجالس خاصة.

وقد يكون لانحسار النفوذ الاجنبي، وعودة السلطة الى ايدي الخلفاء بعد سنة ٥٤٧ هـ اثر في تقلص ظل الدوبيت وانكماشه.

ومن نماذج الدوبيت قول سديد الدولة:

يا رينحُ تحملي من المهجورِ شكواهُ الى المعسكرِ النصورِ
قولي لمعدبي، شبيه الحورِ ما أنت عن الجوابِ بالمعدورِ^(٢)

وقول ابي الحسين احمد بن المبارك ابن الخَلّ المتوفى سنة ٥٥١ هـ أو ٥٥٣ هـ:

هذا ولهي، وكم كتمتُ الوها صوناً لودادٍ من هوى النفس لها
يا آخرَ محنتي ويا أولها آياتُ غرامي فيك من أولها^(٣)؟

بعد الدوبيت عاد شعراء القرن السادس الى النماذج اللفظية الموروثة يقبلونها ذات اليمين، وذات الشمال، عليهم يعثرون على لفظ أو تعبير أو صيغة، لم يستهلكها القدماء. وبعد تفتيش ودأب ومحاولات هنا وهناك، التفت القوم الى الشعر المغني. رأوا الاسلاف قد بذلوا كل ما في وسعهم لتوفير الالفاظ المناسبة له، ثم اختاروا له البحور القصار، والمجزوءات، ثم عمدوا الى التفعيلات ذاتها فاكثروا فيها من الزحافات، والجوازات، والضرورات الشعرية^(٤).

فماذا بقي لشعراء القرن السادس؟

يبدواهم فعلوا في الالفاظ الموروثة ما فعلوه في المعاني الموروثة: لقد وجدوا مجموعة من المبالغات عند اسلافهم، فاستغلوها، وازادوها، واكثروا منها، حتى افسدوا المعاني افساداً لاصلاح بعده^(٥).

(١) ديوان الدوبيت ص ٧٢-٧٣، ص ١٠٧.

(٢) نفسه ص ١٦٩.

(٣) وفيات الأعيان ٣/ ٣٦٣.

(٥) تنظر المآخذ على شعر المدح من هذه الرسالة.

(٤) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٧٤ وما بعدها.

وهذا بعينه ما حدث في الجانب اللفظي من الغزل: فقد بالغ الشعراء وافرطوا، وتجاوزوا جميع الحدود من اجل العثور على غزل، تكون الفاظه مما لم يستعمله الشعراء السابقون. ولا يضير- بعد هذه النتيجة - ان كان هذا الشعر «الجديد» ذا قيمة فنية تساوي ما بذل من أجله ام انه جديد، لا يمت الى الموروث العربي بصلة. تأمل - مثلاً - هذه المقطوعة لابن القطان البغدادي، والتي اشار العماد الكاتب الى انها من الشعر المغني:

يا مَنْ هَجَرْتُ ولا تُبالي	هل ترجعُ دولةَ الوصالِ؟
ما أطمعُ يا عذابَ قلبي	أَنْ يَنعَمَ في هَواكِ بالي
الطرف، كما عهدتِ، بالكِ	والجسمُ، كماترين، بالِ
ما ضَرَكِ أَنْ تُعلِّليني	في المَوصلِ بموعِدِ مُحالِ؟
أهواكِ وَأَنْتِ حَظُّ غيري	- يا قاتلتِي - فما اختيالي؟
أيامُ عَنائي فيكِ سوْدُ	ما أشبَهَهُنَّ بِأليالي
والسُعْدُلُ فيكِ قد نَهَوِي	عَنْ حَبِّكِ، ما لَهْمُ؟ ومالي؟
... الخ ^(١) .	

ان البحث عن وزن هذه المقطوعة بين بحور الخليل، جهد ضائع: فهي ليست من العروض العربي، كما انها لا تشبه الدوبيت المكون من اربعة مقاطع عادة، فماذا صنع الشاعر حتى توصل الى هذا الوزن الغريب؟ لقد بالغ وغالى في اخضاع الوزن للموسيقى، فظل يسقط من الالفاظ الجزء تلو الجزء، والحرف بعد الحرف، حتى استحال الوزن العربي الى هذا الوزن الجديد، وبذلك لطمأن الشاعر، وابقن انه جاء بما لم يستطعه السابقون، وترك علماء العروض يضربون احماسا باسداس: فمن قائل ان هذه المقطوعة من البحر الوافر، الا ان القصص وهو اجتماع الخزم^(٢) والعصب^(٣) - دخل عليه، فتحوّلت (مفاعيلن) الى (مفعول - بتحريك اللام)^(٤)، وقال آخرون: بل الصواب ان هذه المقطوعة من مجزوء الدوبيت، ما دامت لا تشبه الدوبيت الاصيلي ذا المقاطع الاربعة^(٥).

والمهم ان محاولة ابن القطان، ظلت وحيدة، تدل على ان الشاعر سار بعيدا عن التجديد الذي ترتضيه الاذن العربية، حتى جاء البهاء زهير المتوفي سنة ٦٥٦ هـ^(٦)،

(١) الخريدة ٢/ ٢٧٤ - ٢٧٥.

(٢) الخزم: حذف أول الوند المجموع من أول البيت في مطلع القصيدة. فن التقطيع الشعري والقافية ص ٥٢.

(٣) العصب: تسكين الخامس المتحرك وهو خاص بالبحر الوافر. فن التقطيع ص ٢٠٨.

(٤) الخريدة ٢/ ٢٧٣ - الماش ٤ (٥) ديوان الدوبيت ص ٦٨ - ٧٢.

(٦) هو أبو الفضل زهير بن محمد بن علي... المهلبي، الكاتب: من فضلاء عصره، وأحسنهم نظمًا ونثرًا وخطًا...

وفيات الأعيان ٢/ ٨١، البداية والنهاية ١٣/ ٢١١، ٢١٢، النجوم الزاهرة ٧/ ٦٢، ٦٣، شذرات الذهب ٥/ ٢٧٦، =

فجارى ابن القطان، وباراه في مقطوعة، كتب لها الذبوع والانتشار منها:

يا مَنْ لعبْتُ به شَمُولٌ^(١) ما الطفَ هذه الشمائل!
نشوان يَهْزُهُ دلالٌ كالغُصْنِ مع النَّسيمِ مائلٌ
لا يُمكنهُ الكلامُ لكنْ قد حَمَلَ طَرْفُهُ رسائلٌ
ما أطيب وقتَنَا وأهنا والعاذِلُ غائبٌ وغافلٌ
... الخ^(٢).

٤ - الرثاء:

من الظواهر الأدبية التي تستوقف الباحث في شعر القرن السادس ظاهرتان: الأولى قلة المراثي قلة غير معهودة قياسا الى كثرة المدائح والممدوحين. والثانية ان هذه المراثي القليلة ليست جيدة - بصورة عامة - حتى يمكن ان تشفع لهذا الفقر الواضح في فن الرثاء. لقد عودنا الشعراء ان يخلدوا في مراثيهم رجال الامة العظام ونابغيها في شتى مجالات الحياة الا شعراء القرن السادس، فان الباحث يجد الهوة واسعة بين احداث العصر الكبيرة - كما سجلها التاريخ - وبين قصائد الرثاء.

ان الشعراء يندر ان يبكوا رجلا عظيما خسره هذا العالم، وحتى الرثاء الذي وصلنا في بعض الرجال المشهورين، جاء باردا هزيلا، شاحب العاطفة، كأن الشاعر يريد ان يتخلص من هذه المهمة الثقيلة بأي شعر. فإلهم ان يقول شيئا، وان يسود صفحة أو صفحتين، ثم يتنفس الصعداء.

ولعل الغريب حقا ان نجد الشعراء وقد امسكوا عن رثاء بعض من يستحق الرثاء من قادة العصر وزعمائه، كما اخفقوا في رثاء معظم الذين رثوهم من هؤلاء الزعماء، اقول من الغريب ان يتجه بعض هؤلاء الشعراء انفسهم الى رثاء من لا يستحق الرثاء، من الذين ثلبهم المؤرخون، وغمزوا سيرتهم كالوزير السميمري^(٣) مثلاً^(٤).

وفي مقدمة اسباب قلة المراثي سبيان: الأول فقدان قسم كبير من شعر القرن السادس - كما سبق ان اشرت^(٥) - ولا بد ان يكون بين هذا الشعر المفقود بعض قصائد

= ٢٧٧، الأعلام ٣/ ٨٨، معجم المؤلفين ٤ ك ١٨٧.

(١) الشمول: الخمر.

(٢) ديوان الدوييت ص ٢٤٣.

(٤) الحريدة ٤/ ٢٤٥.

(٣) انظر الفصل الأول ص ١٢ هامش ١.

(٥) انظر: مقدمة الفصل الثاني من هذه الرسالة.

الرثاء او اجزاء ومختارات من تلك المراثي . ويؤيد هذا الفرض ما يقوله ابن الجوزي^(١)، وابن رجب^(٢)؛ من ان الوزير يحيى بن هبيرة قد رثى بمرث كثيرة ليس بين ايدينا منها سوى واحدة . كذلك اشار صاحب الجامع المختصر^(٣) : الى ان السيدة والدة الناصر لدين الله قد رثيت بعدة قصائد، لم يصلنا منها سوى مرثية ابن التعاويذي^(٤) .

واشار العماد الكاتب^(٥) الى ان دُبَيْساً المدائني^(٦)، ثَقَّة الدولة ابن اَدْرِينِي^(٧) بقصيدة لم يستطع العماد ان يحصل الا على خمسة أبيات منها هي قوله :

قَدْ قُلْتُ لِلرَّجُلِ الْمَوْلَى غَسْلَهُ هَلَا اطَاعَ وَكُنْتُ مِنْ نُصَحَائِهِ
جَنَّبُهُ مَاءَكَ ثُمَّ غَسَّلُهُ بِمَا تُجْرِيهِ عَيْنُ الْمَجْدِ عِنْدَ بُكَائِهِ
وَأَزَلُّ أَفَاوِيهِ^(٨) الْخَنُوطُ^(٩) وَطَيْبُهُ عَنْهُ وَخَنَطُهُ بِطَيْبِ ثَنَائِهِ
وَمُرُّ الْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ^(١٠) بِحَمْلِهِ أَوْ مَا تَرَاهُمْ وَقَفَاءً بِأَزَائِهِ؟
لَا تَوَهُ^(١١) اعْنَاقَ الرَّجَالِ بِحَمْلِهِ يَكْفِي الَّذِي فِيهِنَّ مِنْ نَعْمَائِهِ^(١٢)

وهذه الابيات تدل على اننا خسرنا قصيدة، افضل من كثير مما وصلنا .

والثاني : تحزب الشعراء لرجال السياسة : وهو عامل سبق ان اشرت الى اثره على شعر المدح^(١٣)، فليس من المعقول ان يمدح الابله البغدادي الوزير ابن هبيرة باكثر من خمس عشرة قصيدة^(١٤)، ثم يلتزم هذا الشاعر الصمت المطبق حين مات الوزير . وكذلك الامر بين ابن التعاويذي ومواليه من آل عضد الدين : فقد شغلت قصائده فيهم جل شعره كما يقول في مقدمة الديوان^(١٥)، فكيف يصح ان يخلو ديوان هذا الشاعر من رثاء اي^(١٦) من مواليه؟ ان من المعقول جدا أن يحذف الابله وابن التعاويذي من ديوانيهما أية قصيدة يشعران ان اثباتها سيغضب زيدا او عمرا من ولاة الأمور .

(١) المنتظم ٢١٧/١٠ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٨٦ .

(٣) الجامع المختصر ٩/ ٢٧٩ .

(٤) الديوان ص ٢٢٢ .

(٥) شعراء المدائن (منطقة قرية من بغداد) وكان ضَرِيرًا . الخريدة ٤/ ١١٦-١١٧ .

(٦) مرت ترجمته في الفصل الأول ص ٣٩ هامش ٣ . (٨) الأفاوية : الطيب .

(٩) الخنوط : كل ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسادهم .

(١٠) الكرام الكاتبون : الملائكة .

(١١) لَا تَوَهُ : لا تنقل .

(١٢) النعماء : اليد البيضاء الصالحة .

(١٣) أنظر : العوامل المؤثرة في المدح من هذه الرسالة .

(١٤) ديوان الابله و ٣٧-٣٨ ، و ١٢-١٦ .

(١٥) مقدمة ديوان ابن التعاويذي ص ١٣ .

(١٦) باستثناء زوجة عماد الدين . الديوان ص ٣٩٤ .

ضربا الرثاء:

لم يعرف شعراء القرن السادس من الرثاء سوى ضربين اثنين^(١) قصروا فيهما عن اسلافهم تقصيرا بينا وهما:

١- رثاء الاهل والاقارب: ومنه رثاء ابن التعاويذي لابن ابنه^(٢)، ولاخيه^(٣)، وجلده^(٤) لامه، ولابنة له صغيرة^(٥)، ورثاء الحيص بيص لاخته^(٦)، ورثاء الامير احمد بن ابي الفتوح لابنه^(٧)، ورثاء عبد الرحيم بن الاخوة لابنه^(٨).

ويغلب على هذه المراثي جميعها - باستثناء واحدة او اثنتين - برود العاطفة ونضوب الافكار والاخيلة، فلم يستطع الشعراء ان ينقلوا اليها حزنهم وألمهم، وكل الذي فعلوه ان وصفوا ما تركه الراحل من ضعف في قوة الشاعر، ونقص في انصاره وموازيه - اذا كان المرثي كبيرا - وكذلك يصفون فقدان الشاعر لصبره وجلده وتوازنه من هول ما اصابه، كقول ابن التعاويذي في رثاء جده لامه:

يا ساكنَ اللَّحْدِ الَّذِي أَفْرَدَنِي مِنْ لَاعِجِ الشُّوقِ بِمِثْلِ مَا أَنْفَرَدَ
إِنْ كُنْتُ فِي ثَوْبِ الْعُلَى، فَاتْنِي بَعْدَكَ فِي ثَوْبِ نُحُولٍ وَكَمَدَ
يَا مُوَحِّشِ الْأَرْضِ عَلَيَّ فَقْدُهُ حَتَّى كَأَنَّ لَيْسَ عَلَى الْأَرْضِ أَحَدَ
أَوْحَدْتَنِي - وَفِي الرِّجَالِ كَثْرَةً - يَا قَلَّةَ الْجَارِ وَقِلَّةَ الْعَدَدِ
كُنْتُ إِذَا جَارَ الزَّمَانُ عَضْدِي فَالْيَوْمَ لَا جَارِحَةً وَلَا عَضْدَ
... الخ^(٩).

ونبحث عن العاطفة في هذه الأبيات، فلا نعثَر عليها، انها الفاظ يابسة متخشبة، لا تدل على حزن، على الرغم من جودة الافكار، وكونها لا تختلف عما رده شعراء العرب الكبار في مراثيهم كالشريف الرضي والمتنبي. ولعل اراداً ما في هذه القصيدة تكرار لفظة «مالك» ثلاث مرات في خطاب الشيخ المتوفى:

(١) في الحريدة ٢٢٣/٢ خمسة أبيات لمحمد بن حنيد المتوفى سنة ٥١٧ يرثي نفسه.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٥٨.

(٣) نفسه ص ١٠٤.

(٤) نفسه ص ١٣٥.

(٥) نفسه ص ١٣٨.

(٦) نفسه ٤/٥٥٤، ٥٥٩.

(٧) الحريدة ١/٣٤١.

(٨) ديوان ابن التعاويذي ص ١٣٦.

(٩) الحريدة / نسخة ايران ٢٠٢.

مَا لَكَ لَا تَرُقُّ لِي مِنْ زَفَرَةٍ تُلِفْتُ أَثْنَاءَ الْفَوَادِ وَالْكَبِدِ؟
 مَا لَكَ لَا تَرَابُ^(١) أَحْوَالي وَلَا تُصْلِحُ أَرَاؤَكَ مِنْهَا مَا فَسَدُ؟
 مَا لَكَ لَا تَرْحُمُ ذُلَّ مَوْقِفِي وَكُنْتَ أَحْنَى وَالِدٍ عَلَى وَلَدُ؟

امارتاء الاطفال فيكون بوصف الفراغ والوحشة اللذين تركهما غياب الصغير في البيت، وفي قلب امه وابيه واهله، وبالرغم من النص على صعوبة رثاء الاطفال، لضيق الكلام وقلة الصفات^(٢)، فقد استطاع ابن التعاويذي ان يقول شيئا - وهو يرثي حفيده:

يَا بِأَبِي الْمُخْتَلَسُ^(٣) الْمُسْتَلَبُ عَنْ لَه سَهْمٌ حِمَامٍ^(٤) غَرَبَ^(٥)
 وَاَنْتَزَعْتُهُ لِلْمَنَايَا يَدُ مُغْتَالَةً مِنْ حُجْرٍ أَمِّ وَأَبِ
 أَفْدِيهِ مِنْ رِيحَانَةٍ غَضَّةٍ عَادَ هَشِيمًا عُودُهَا الْمُخْتَطَبُ
 يَاقُوتَةٍ أَذْهَبَ جَرِيًّا^(٦) لَهَا الـ مَوْتُ، فَعَادَتْ كَقَضِيبِ الذَّهَبِ
 كَأَنَّهُ الْوَرْدُ أَتَى زَائِرًا ثُمَّ انْقَضَتْ أَيَّامُهُ عَنْ كَثْبِ
 أَشْرَقَ كَالنَّجْمِ مُضِيئًا، فَمَا مَلَأْتُ عَيْنِي مِنْهُ حَتَّى غَرَبَ
 ... الخ^(٧).

اما المراثية الثانية التي لابد ان يشار اليها فهي مراثية الامير احمد بن ابي الفتح لابنه، وقد بكى عليه حتى ذهبت عيناه^(٨)، قال:

لَبَسَ الْجَنُودُ جَدِيدَهُمْ فِي عِيدِهِمْ وَلَبِسْتُ حُزْنَ أَبِي^(٩) الْحُسَيْنِ جَدِيدَا
 وَوَقَدْتُ لَوْ حَضَرَ الْمُصَلَّى فِيهِمْ حَيًّا، وَكُنْتُ الْمَيِّتَ الْمَلْحُودَا
 أَيْسَرُنِي عَيْدٌ، وَلَمْ أَرَ وَجْهَهُ فِيهِ؟ إِلَّا بُعْدًا لَذَلِكَ عَيْدَا
 كَيْفَ الْمَسْرُةَ لَأَمْرِي فَقَدْ أَهْوَى وَحَثَا^(١٠) عَلَيْهِ جَنَادًا وَصَعِيدًا^(١١)؟
 أَفَحِينَ عَادَ اللَّيْثُ بِأَسَاءٍ يَتَّقَى وَالبدرُ حُسْنًا وَالسُّحَابَةُ جُودَا

(٢) العمدة ١٥٤/٢

(٤) الحمام: الموت.

(٦) الجُرَيَال: أراد بها هنا البريق أو اللعنان.

(٩) أبو الحسين: كنية المراثي.

(١١) الصعيد: التراب.

(١) لا تراب: لا تصلح.

(٣) الْمُخْتَلَس: الذي مات صغيرا.

(٥) سهم غَرَب: أي لا يدري رامي.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٥٨

(٨) نكت الهميان ص ١١٥

(١٠) حثا: هال عليه التراب.

وتَقِيلُ ^(١) النجباء من آبائِهِ وجدودِهِ المتخيرين الصيدا ^(٢)
وَرَجَا الصَّدِيقُ - كما رَجَوْتُ - بان يَرى بَعدي بِهِ ما ساءني مَسْدودا
وَتَحَذَّتُهُ رُكْنًا أَرُدُّ بِهِ الادي عني، وَرُكْنًا فِي الحُطوبِ شَدِيدا
... الخ ^(٣).

٢ - رثاء الاباعد:

ومنه رثاء ابن التعاويذي لوالة الناصر لدين الله ^(٤)، ورثاؤه لابن البخاري ^(٥)، ورثاء
الحيص بيص لدببس بن صدقة ^(٦)، ولبعض امراء الاكراد ^(٧)، ولابن الخليفة المسترشد ^(٨)،
وللخليفة المقتفي لامر الله ^(٩)، ورثاء الابله البغدادي للمقتفي ايضا ^(١٠)، ورثاء نصر ^(١١)
النميري لابن هبيرة الوزير ^(١٢) ..

ان تلك المراثي جميعها خلو من العاطفة المخلصة والدموع الحرار - الا النادر الشاذ - لان
الشعراء نظموها بدافع المجاملة لاجل الميت من ناحية، ولان جميع هؤلاء المراثيين - باستثناء
الخليفة المقتفي ووزيره ابن هبيرة - لم تؤثر عنهم اعمال باهرة كبيرة، تثير الشعراء وتحرك
مشاعرهم وعواطفهم، من ناحية ثانية. ولذلك ملأ الشعراء هذه المراثي بالمبالغات وتهويل شأن
الميت وما تركه ففقدته من شروخ وصدوع في هذه الدنيا، كقول الحيص بيص يرثي الخليفة المقتفي
لامر الله:

الْحَطْبُ أَكْبَرُ فِي النَفُوسِ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُرَاقَ لَهُ الدَّمُوعُ أَوْ الدَّمُ
وَلَوْ أَنَّ شَمْسَ الصَّبْحِ رَاقَبَتْ ^(١٣) الْعُلَى لَتَغَيَّتْ فَالْصَبْحُ دَاجٍ مُظْلَمٌ
وَلَكُورَتْ ^(١٤) حُزْنًا لَفَقَدَ خَلِيفَةً شَهِدَ السَّنَانُ بِيَأْسِهِ وَالْمُخَذَّمُ ^(١٥)

(١) تقيل: أشبه.

(٢) الصيد: واحدها أصيد، وهو الرجل الذي يرفع رأسه كبرا. (٣) الخريدة ٥٥٤/٤ - ٥٥٦

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٢٢

(٥) هو جلال الدين، حبة الله بن محمد بن البخاري، كان ينوب في الوزارة، وهو منصب من مستحدثات العصور العباسية
التأخرة. ديوان ابن التعاويذي ص ٣٥٠، وانظر: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ١١٦

(٦) الخريدة ٣٣٦/١

(٨) نفسه ٣٤٤/١

(٩) نفسه ٣٤٢/١

(١٠) ديوان الابله ٣ - ٤

(١١) نفسه ٣٤٨/١

(١٢) هو أبو المَرْقَف نَصْر بن منصور. الصرير، الشاعر المشهور، قدم بغداد في صباه وسكنها إلى حين وفاته سنة ٥٨٨ هـ. معجم

الأدباء ٢٢٢/١٩، وفيات الأعيان ١٩/٥، نكت الهميان ص ٣٠٠، البداية والنهاية ٣٥٣/١٢، النجوم الزاهرة ١١٨/٦

(١٣) المتنظم ٢١٧/١٠، ذيل طبقات الحنابلة ٢٨٦/١

(١٤) كُورَتْ: تعني هنا خافت علي.

(١٥) الخريدة ٣٤٨/١، المخذَّم: السيف.

وقوله - يرثي ولد المسترشد بالله - :

نَبَأَ عَادَ لَهُ الصَّبْحُ دُجَى^(١) وَذُعَافاً^(٢) رَيْقُ^(٣) الْمَاءِ الزُّلَالِ
جَلَّ أَنْ يُبْكِيَ دُمُوعاً، فَجَرَتْ أَعْيُنُ الْحَيِّ بِمُحَمَّرٍ^(٤) مُذَالِ
وَأَنْشَنَتْ مِنْ حَزَنِ الدَّهْرِ بِهِ غُرُرُ^(٥) الْأَمَالِ سَوْدَا كَاللَّيَالِي
وَعَلَا عَنْ نُذْبَةٍ مِنْ بَشَرٍ فَرثَاهُ الْمَجْدُ مَفْهُومَ الْمَقَالِ^(٦)

والخيض بيض - برغم كل ما ادعاه من جريان الدماء بدل الدموع، وصيرورة النهار ليلاً، والصبح دجى، وريق الماء سما ذعافاً - اقول برغم هذا كله، فقد فضح الشاعر نفسه، ودل على حزن متكلف، والم لا دليل عليه سوى هذه المبالغات والتلفيقات.

ولما كان الغرض من هذه المراثي - في الغالب - هو الحصول على الجائزة من خلف المتوفى، أو من اهله وابنائهم، لذلك فقد شغل الشعراء انفسهم في كيفية الجمع بين التعزية والتهنئة، خاصة وقد اخبرهم النقاد ان التبريز والاجادة في هذا الميدان، مما لا يتاح لكل شاعر^(٧).

وفعلاً قل بين شعراء القرن السادس من احسن الجمع بين التهنئة والتعزية، وكل الذي فعلوه هو ان قسموا القصيدة الواحدة الى قسمين: الاول منها للرثاء، والثاني فيه ما يدل على انه تهنئة. وبعض الشعراء لم يحسن التسوية بين هذين القسمين فجار احدهما على الآخر، وصارت القصيدة ليست من الرثاء ولا من التهنئة. تأمل قول الابله البغدادي يرثي الخليفة المقتفي لامر الله، ويهني الخليفة الجديد:

عَزَاءٌ، وَإِنْ أَضْحَى الْعَزَاءُ حَرَاماً مَضَى مَنْ حَمَى سِرْبَ^(٨) الْأَنَامِ وَحَامَى
قَضَى عَامِرُ الدُّنْيَا، وَغَامِرُ^(٩) أَهْلِهَا عَطَاءٌ كَجَمَّاتٍ^(١٠) السَّيُولِ جُمَامِ^(١١)
قَضَى قَائِدُ الْخَيْلِ الْعَتَاقِ سَوَاهِمَا^(١٢) تَخَالُ نَعَاماً، بَلْ تَظُنُّ نَعَاماً
قَضَى نَحْبَهُ مَنْ كَانَ بِالْعَدْلِ مُلْهِمَا وَبِالْجَيْشِ يُرْدَى الْمَارِقِينَ لُهُمَا^(١٣)

(١) الدجى: الليل المظلم.

(٢) الذُعاف: السم القاتل. السريع المفعول.

(٣) الرَيْقُ: أفضل كل شيء.

(٤) الْمُحَمَّرُ الْمُذَالُ: ربما أراد به الدم.

(٥) الْغُرُرُ: الواحدة غُرَّة. وهي أول كل شيء، ومعظمه.

(٦) الخريدة ٣٤٤/١

(٨) السرب: جماعة الناس.

(٧) العمدة ١٥٥/٢

(٩) غامر: كثير العطاء.

(١٠) جَمَّاتٍ: السيول: الأماكن التي تلتقي فيها.

(١١) جُمَامٍ: كثير.

(١٢) سواهم: واحدتها ساهمة: الضامرة.

(١٣) لُهُمَا: جيش عظيم.

(١٤) المارقين: الخارجين على الخليفة.

قَضَى مَلِكُ زَمْ^(١) الزَّمَانَ بِرَأْيِهِ
سَلَامٌ عَلَى ذَاكَ الضَّرِيحِ لَقَدْ حَوَى
وَلَا فَاتَهُ جَوْدٌ^(٢) مَنِ الْمَزْنِ لَا يَنِي
لَنْ جَبَّتِ^(٣) الْأَيَّامُ غَارِبٌ^(٤) مُلْكُهُ
فَقَدْنَا غَمَاماً عَوَّضَ اللَّهُ بَعْدَهُ
خَلِيفَةً حَقٌّ، وَهُوَ خَيْرٌ مُخْلَفٍ
وَأَوْسَعُهُمْ عَدْلًا وَبَدَلًا وَرَحْمَةً
... الخ^(٥)

وهكذا في قصيدة عدد ابياتها ثلاثة وعشرون بيتاً، نجد ستة أبيات في الرثاء، والبيت السابع بينَ يَنْ فهو تمهيد لترك الرثاء وافتتاح التهئة، ثم بقية القصيدة لمدح وتهئة الخليفة الجديد.

واسلوب الابله هذا في الجمع بين التعزية والتهئة، بافتتاح القصيدة بالرثاء ثم - بعد ابیات - ينتقل الى التهئة، هو الشائع بين شعراء العصر في هذا الضرب من القصائد^(٦).

وهناك اسلوب آخر هو ان تفتتح القصيدة بالجمع بين الرثاء والتهئة منذ المطلع، كقول الحيص في مراثية الامير عنتر^(٧) بن ابي العسكر والثناء على اخيه مهلهل:

أَسَى وَسُرُورٌ نَاصِرٌ وَمُحْذَلٌ أَتَاحَهُمَا لِي عَنَتْرُ وَالْمُهْلَهْلُ
فَمَاضٍ بَكَتْ عَيْنِي لِفَقْدِ كَمَالِهِ وَبَاقٍ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَجْدِ أَجْزَلُ
... الخ^(٨)، وقوله:

- (١) زم: من الزمان أي قاد.
(٢) زام: بالية.
(٣) الجود: المطر الغزير.
(٤) سجام: مصبوب.
(٥) الغارب: أعلى الشيء.
(٦) شمام: إسم جبل لباهلة (معجم البلدان ٩٢/٥) ديوان الابله و ٣.
(٧) أنظر الخريدة ٣٣٨/١، ٣٤٤

(١٣) هو الامير فخر الدين، من اكراد الحلة الجاوانيين، كان من قواد العسكر في اماره الحلة المزيديه. قتل سنة ٥٣٢ هـ. وبعد مقتله تولى أخوه مهلهل الحلة للسلطان مسعود. تاريخ ابن الأثير ٢٥/١، أخبار الدولة السلجوقية ص ١١٠، تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ق ٣ ص ٢٧٢.
(١٤) الخريدة ٣٤٣/١

اما اذا سَلِمَ الإمام الأعظم وَسَلِيلُهُ^(١)، دَقَّ^(٢) الجليلُ المُعْظَمُ
عَزَّ العِزَاءُ، وهَانَ حِينَ بَقِيَّتْهَا فَاَلْمَجْدُ بِاِكِّ طَرْفُهُ مُتَبَسِّمٌ
وَبَقَاءُ شَمْسِ الصُّبْحِ يُحْدِثُ سَلْوَةً فِينَا اذا بَدَرَّ هَوَى او اَنْجُمُ
... الخ^(٣).

وعندي ان الجمع بين العزاء والتهنئة، يدل على زيف حزن الشاعر، وادعائه الالم ادعاء دون ان يحتوي بناره، ويذوق غصصه؛ لان المفروض بالحزين الذي سد عليه الالم وهول المصاب جهاته، وحال بينه وبين اي شعور آخر، ان ينسى هذا العالم وما فيه من مادة ومال. اما التفكير بالميت والحى، بالمصيبة، ومقدار الجائزة، في وقت واحد، وفي قصيدة واحدة، فأمر لا يمت الى دنيا العواطف والفرن بصلة، خاصة اذا اخذنا مستوى شعراء العصر - بصورة عامة - بعين الاعتبار. فقول الحبيص بيص - مثلاً - (المجد باك طرفه متبسم) امر يكذبه الواقع، لان البكاء عاطفة تختلف عن الابتسام والجمع بينهما يعني الكذب والافتعال والادعاء لا محالة، وان كنت اميل الى ان معظم قصائد الرثاء - التي جمع فيها بين التهنئة والتعزية - هي اقرب الى مدح الخليفة، او الشخص الذي خلف المتوفى، منها الى رثاء الميت، لان الشاعر - في مثل هذا الشعر - يؤكّد ويلح على ان الدنيا لم تخسر شيئاً بل انها كانت الفائزة الرابعة، والدليل هو ان فلانا الفلاني - الذي سيأخذ الشاعر منه الجائزة - لما يزل على قيد الحياة.

والرثاء - مثل المدح والهجاء - اختلف تبعاً لمقامات المرثيين ومنزلتهم الاجتماعية، وهوامر كان معروفاً قبل القرن السادس، فالخليفة تبكيه الخيول المسومة، والعدل والكرم والدين^(٤)، والقادة الزعماء بكتهم الكتائب وسوح الحرب، ودمائة الخلق، وحسن تصريف الامور في الشدائد^(٥).

والنساء خسرت الدنيا بفقدن العفاف والصون، ومساعدة المحتاجين، وان جنان الخلد والخور العين سيكن باستقبالها^(٦).

والشاعر في جميع هذه المراثي، لا بد ان يتحدث عن فلسفة الموت والحياة، وقد يضرب الامثال بالامم والممالك التي بادت ودرست آثارها. فقول الحبيص بيص:

(١) سليله: ابنه.

(٢) دَقَّ: صفر.

(٣) الخريدة ١/ ٣٤٥

(٤) الخريدة ١/ ٣٤٢، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨

(٤) الخريدة ١/ ٣٤٨، ديوان الابله ٣

(٦) ديوان الابله ٤، ديوان ابن التعاويذي ص ٢٢٣، ٣٩٥

لَا يَرْكَنَنَّ إِلَى الْحَيَاةِ مُتَمَتِّعٌ فَالْبُعْدُ دَانٍ، وَالْمَدَى مُتَصَرِّمٌ
ووراءَ آمالِ الرُّجَالِ مَنِيَّةٌ يَعِدُو بِفَارِسِهَا حَيْثُ مِرْجَمٌ^(١)
وقوله:

حُمَ الْقَضَاءُ فَكَالِدَنِّي مُمَجَّدٌ عِنْدَ الْمَمَاتِ وَكَالْجِبَانِ مُصَمَّمٌ^(٢)
وقال ابن التعاويذي:

لَا يَفْخَرَنَّ الشَّامِتُونَ فَإِنَّمَا الـ(م) دُنْيَا تُحِيلُ صُرُوفُهَا الْأَحْوَالَ
مَكَارَةً، غَرَارَةً، غَدَارَةً يَبْعُولُهَا^(٣) تَسْتَبْدِلُ الْأَبْدَالَ
يَا مَنْ يُكَلِّفُهَا الْوَفَاءَ بِذِمَّةٍ كَلَّفَتْ دُنْيَاكَ الْغَدُورَ مُحَالَا
لَا تَخْذَعَنَّ بِشُرُورٍ وَشَيْبَةٍ وَارْقُبْ لِأَيَّامِ السُّرُورِ زَوَالَا^(٤)

وفي ختام هذه الدراسة للثرثاء في القرن السادس، اظن ان تقليد شعراء هذا القرن لاسلافهم من شعراء القرون السابقة في اسلوب الجمع بين التهنية والتعزية قد اضر بشعرهم ابلغ الضرر، والدليل هو وجود قصيدتين تعدان من اجود المراثي في هذا العصر كله، وقد خلطنا خلواتهما من اية اشارة الى التهنية، أو الجائزة، بل نجد الشاعر فيهما يكاذيقي نحبه في اثر من يرثيه، وهاتان المراثيتان هما:

١ - رثاء ابن التعاويذي لهبة الله بن البخاري ومنه قوله:

أَبَا الْمُظْفَرِ كُنْتَ لِي مِنْ عُسْرَتِي مَالًا، وَمِنْ جَوْرِ الْخُطُوبِ مَالًا^(٥)
مَا زِلْتُ عَوْنًا فِي الْحَوَادِثِ لِي إِذَا ضَعُفَتْ يَمِينُ أَنْ تُعَيِّنَ شِمَالَا
مَا بَالُ وَدٍّ فِي الزَّمَانِ ذَخَرْتُهُ لِشِدَائِدِي أَمْسَى عَلَيَّ وَبَالَا^(٦)
وَمَلَابِسًا مِنْ غِبْطَةٍ أَلْبَسْتَنِي جُدُدًا أَعْلَامَ أَعْدَتِهَا أَسْمَالَا؟^(٧)
وَمُبَشِّرَاتِكَ^(٨) كَيْفَ عُدُنَ سَمَائِمًا^(٩) هُوجَا^(١٠)، وَكُنْ عَلَى الْقُلُوبِ شِمَالَا؟

(١) الخريدة ٣٤٩/١، المِرْجَم: الفرس الشديد الوطء كأنه يرمج الأرض بحوافره.

(٢) نفسه ٣٤٧/١ (٣) البعول: واحدها بعول وهو الزوج. (٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٥٤

(٥) مَال: مرجع وملاذ. (٦) الزُّبَال: الشدة وسوء العاقبة.

(٧) الأسمال: الواحد سَمَل: الثوب البالي.

(٨) المُبَشِّرَات: الرياح التي تبشر بالمطر لقوله تعالى في الآية ٤٦ (سورة الروم): وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ.

(٩) سَمَائِم: المفرد سَمُوم: الريح الحارة. (١٠) الهُوج: الرياح التي لا تستوي في هبوبها وتقلع البيوت.

سَلَيْتَ تَجْمَلُهَا عَلَيْكَ وَزَارَةً لَيْسَتْ بِمُلْكِكَ رَوْقًا وَجَمَالًا
يَبْكِي لِفَقْدِكَ دَسْتُهَا^(١)، وَلَقَلَّمَا كَانَتْ تُبْكِي غَابَةً رِيَالًا^(٢)
يَا مُورِدِي مَاءَ الدَّمْعِ وَلَمْ يَزَلْ وَرَدِي نَمِيرًا مِنْ يَدَيْهِ زَلَالًا
وَمُحْمَلِي الْعَبءِ الثَّقِيلِ بَرَزْتُهُ إِنِّي عَهْدَتُكَ تَحْمِلُ الْأَثْقَالَ
أَمْسَكْتَ عَنْ رَدِّ الْجَوَابِ، وَطَالَمَا جَادَلْتُ فُرْسَانَ الْكَلَامِ جِدَالًا
وَقَطَعْتَ آمَالَ الْعُفَاةِ، وَلَمْ تَكُنْ لَكَ شِمَةٌ أَنْ تَقْطَعَ الْأَمَالَ
وَأَعَدْتَ أَيَّامِي الْحَوَالِي بِالْأَسَى عُطْلًا^(٣)، وَلِيلَاتِي الْقِصَارَ طَوَالًا
... الخ^(٤).

ان ابن البخاري هو الوحيد الذي رثاه الشاعر، من بين جميع ممدوحيه ومنهم الخلفاء، ومواليه آل المظفر، مما يؤكده مكانته الكبيرة عند الشاعر ولذلك نحس بلذعة حزن، وحرارة تنبعث من بعض الابيات. ولو قدر لهذه القصيدة ان تحلو من هنات وركه، لامكن وضعها بجانب الخالدات من لاميات العرب في الرثاء: كلامية مروان بن ابي حفصة المتوفى سنة ١٨١ هـ، في معن بن زائدة المتوفى سنة ١٥١ هـ:

مَضَى لِسَبِيلِهِ مَعْنٌ، وَأَبْقَى مَكَارِمَ لَنْ تَبِيدَ وَلَنْ تُنَالَا^(٥)

ولامية الشريف الرضي في الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ:

أَكْذَا الْمَنُونُ تُقْنِطِرُ الْأَبْطَالَ؟ أَكْذَا الزَّمَانُ يُضْعِضُ الْأَجْبَالَ؟^(٦)

٢ - رثاء نصر النُميري^(٧) للوزير عَوْن الدين بن هُبَيْرَة ومنها:

أَلَمِمْ عَلَى جَدِّ حَوَى تَاجَ الْمُلُوكِ^(٨)، وَقُلْ سَلَامٌ

وَاعْقُرْ سَوِيدَاءَ^(٩) الضَّمِيرِ (م) ر، فَلَيْسَ يُقْنِعُنِي السَّوَامُ^(١٠)

وَإِذَا ارْتَوَتْ تِلْكَ الْجَنَانُ (م) دِلٌّ مِنْ دَمْعِكَ وَالرَّغَامُ^(١١)

(١) الدُّسْتُ: (فارسية): صدر المجلس أو البيت.

(٢) الرِّيَال: الثياب الملتف الطويل.

(٣) الْعُطْلُ: غير التجملات.

(٤) وفیات الأعيان ٤ / ٣٣٥

(٥) تصحفت إلى البحري في المنتظم.

(٦) (٨) تاج الملوك: من القاب الوزير ابن هبيرة.

(٩) السویداء: حبة الضمير.

(١٠) السَّوَامُ: الماشية والابل الراعية.

(١١) الرِّغَام: التراب.

فَاقِمِ صُدُورَ الْيَعْمَلِ^(١) (م) تِ، فَبَعْدَ يَحْيَى لَا مَقَامُ
 ذَهَبَ الَّذِي كَانَتْ تَقِيَّ (م) سَدَنِي مَوَاهِبُهُ الْجَسَامُ
 فَاذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ لَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِي الشَّامُ^(٢)
 غَاضُ^(٣) النَّدَى الْفَيَاضُ عَنْ رَاجِيهِ وَاشْتَدَّ^(٤) الْأَوَامُ
 وَتَفَرَّقَتْ تِلْكَ الْجُمُوعُ عُ، وَقُوَّضَتْ تِلْكَ الْخِيَامُ
 عَجَبًا لِمَنْ يَغْتَرُّ بِالْمِ (م) دُنْيَا، وَلَيْسَ لَهَا دَوَامُ
 عُقْبَى مَسَرَّتْهَا الْأَسَى وَعَقِيبُ صِحَّتِهَا السَّقَامُ
 مَا بَمْتُ وَحَدَكْ يَوْمَ مَتِ (م) تِ، وَأُنْمَا مَاتَ الْإِنَامُ^(٥)

ان سبب الحزن في بعض ابيات هذه المراثية، يعود الى ان الشاعر شامي الاصل، وكان كثير الانقطاع لابن هبيرة^(٦)، ولذلك رأى في موت الوزير كارثة حلت به، وهو الضرير المغترب، اصف الى ذلك ان شخصية ابن هبيرة من الشخصيات التي استمالت القلوب وراعت الناس في القرن السادس.

(١) الْيَعْمَلَاتُ: النوق.

(٢) يقول أنه نسي وطنه الشام وأهله فيه لفرط رعاية الوزير له.

(٣) غاَضُ: نقص أو نضب.

(٤) الْأَوَامُ: العطش.

(٥) المتنظم ٢١٧/١٠، ذيل طبقات الحنابلة ٢٨٦/١ وقد تصفحت الأبيات في هذا المصدر الثاني بما لا مزيد عليه، وجمع كل بيتين في

بيت واحد، وهي هنا أطول بكثير مما ورد في المتنظم.

(٦) نكت الهميان ص ٣٠١

الفصل الرابع الاتجاه الديني

تمهيد:

ان التيار او الاتجاه الديني في شعر القرن السادس، تيار كبير واسع، يمثل رقعة واسعة من الحياة الادبية على اختلاف فنونها، فهو واضح جدا في المديح خاصة، ومدح الخلفاء بصورة اخص، وكذلك الامر - ولكن بصورة أقل بطبيعة الحال - في الهجاء والنسيب والثناء.

ان الحكومة العباسية، وعلى رأسها الخليفة، اكتسبت شرعيتها واحترام الناس لها وحرصهم على طاعتها من الدين وتعاليمه. ولذلك حرص الخلفاء على احاطة انفسهم بهالة من الدين والقداسة، ترد عنهم كيد الاعداء وتحميمهم من سهام النقد، عن طريق الابهاء للناس بان الخليفة يصدر، في جميع اوامره وتصرفاته، بتفويض وتحويل من الخالق سبحانه. فلا مجال للتذمر ولا موجب للشكوى.

ومن الاساس الديني للخلافة، اتخذ سلاح محاربة اعداء العباسيين ومنهم الفاطميون والسلاجقة والمزيديون^(١)، وكذلك حزب الشيعة^(٢)، وجميع اولئك الذين لم ترضهم سيرة العباسيين ولم يوافقوا على الرأي الشائع بأن الخليفة نائب الله في الأرض.

وفي القرن السادس كانت الحروب الصليبية مشتعلة ذات لهب، وصلاح الدين الايوبي هو بطل الاسلام الذي حمل لواء الدين في مواجهة الغزو الصليبي المسيحي، وكان صلاح الدين، في نظر المسلمين، قائدا من قواد الخليفة ومنفذا لأوامره ولذلك شارك قسم من شعراء العراق في ادب الحروب الصليبية، وهوادب اساسه الدين، لان الحرب كلها ذات طابع ديني.

وفي هذه الفترة، كما في الفترات التي سبقتها، كان الصراع لا يكاد يهدأ بين المذاهب

(١) لم أقف على شعر في الصراع الديني السياسي بين العباسيين والمزيديين، مع أن التاريخ يعكس صوراً عديدة من هذا الصراع، كما أشرت في أول هذه الرسالة.

(٢) يغلب على الظن أن حركة قائد الجيش قطب الدين قايماز في خلافة المستنصر سنة ٥٧٠ هـ. كانت حركة شيعية، لأن أحد المشاركين فيها وهو علاء الدين تنامش كان شيعياً، أضف إلى ذلك أن قطب الدين كان له دور في قتل المستنصر سنة ٥٦٦ هـ. تنظر التفاصيل في ابن الأثير ٩/ ١٣٤، ١٩٨، والمختصر المحتاج اليه ٢/ ٢٩٧ في الهامش.

والفرق الاسلامية، من شافعية وحنابلة ومتصوفة واشاعرة، كل يعظم مذهبه وينصر فرقته ويرد على خصومها. وكان الشعر هو سلاح الجميع، والشاعر هو الرجل المختار في سوح النضال الفكري ومعارك الخصام المذهبي.

وكان للمعارك الحربية والكوارث الطبيعية ومنها الفيضانات المدمرة، اثر لا يستهان به في تردي الاحوال الاقتصادية، مما كان له اسوأ الاثر في حياة الناس الاجتماعية فكثرت الشكوى وساد القلق والخوف وضعف الشعور بالامن وعرفت الفوضى طريقها الى حياة الناس، فضاخوا ذرعا بهذا العالم وزهدوا فيه ومالوا الى طريق الدين والتزهد والرهبة، حتى خيل لهم ان لا منقذ لهم مما يعانون الا الرسول ﷺ فتطلعوا بابصارهم وقلوبهم الى الحجاز، فنشأت المدائح النبوية في النصف الثاني من القرن السادس للهجرة.

ومن الطريف ان نجد في القرن السادس شاعرا، هو ابن التعاويذي، يشبه رجل الصحافة المرتزق في هذه الايام. لقد عرف هذا الرجل اهواء معاصريه وميولهم، فالجميع يحبون ان يوصفوا بالدين وينعتوا بالتقوى. ان اشارة صغيرة في بيت شعر اذا فهم منها ان فلانا رقيق الدين، كانت كافية لاسقاطه في عيون الناس. وعلى ضوء هذه الحقيقة الكبرى راح ابن التعاويذي يكسب رزقه ويدبر اموره، وديوان شعره هو الشاهد على ما اقول:

لقد مدح خلفاء بني العباس ورفعهم الى مصاف الانبياء، على حين جرد خصومهم - ومنهم بعض كبار القادة والزعماء - من اية صلة بالدين. وكان يتقرب الى زعماء الشيعة بما يرضيهم، ومن ذلك ان يدس في مدائحه لهم ابياتا تهمد ان يشير فيها الى الامام علي (رض)، ولم يتردد هذا الشاعر حتى عن الكذب حين زعم - وهو يمدح الوزير عضد الدين - بان في آباء هذا الوزير نزلت الآيات والسور^(١) وهو يعلم ان الوزير فارسي الاصل.

ولعل الادهي من هذا كله: ان ديوان الشاعر يوحى بانه كان يحفظ القرآن الكريم ولكن هذا الديوان نفسه يدل على ان الشاعر غير متدين^(٢).

١ - الدين والسياسة:

أ- تعد الحروب الصليبية من اكبر الحروب التي شنت باسم الدين على الرغم من الاهداف السياسية التي دفعت الاوربيين الى مهاجمة البلاد العربية^(٣) والاعتداء على المقدسات الاسلامية. لقد قيل ان تعصب السلاجقة للدين الاسلامي، ادى بهم الى ان اساءوا معاملة

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٩٨

(٢) نفسه ص ١٨٨، ٢٢٦، ٢٣١

(٣) ادب الحروب الصليبية ص ١٦

الحجاج المسيحيين لبيت المقدس، فعاد هؤلاء الحجاج من فلسطين وبالغوا في وصف الالهات التي لحقتهم في اثناء قيامهم بفريضة الحج، وهنا ثار الرأي العام الاوربي^(١).

وعلى الرغم من ان العراق لم يكن طرفا مباشرا في ذلك الصراع، فان الخلافة العباسية، وعلى رأسها الخليفة، كانت تمثل في ذلك الحين اكبر سلطة دينية اسلامية يمكن ان يلجأ اليها حين يتعرض المسلمون، في أية جهة كانت، لخطر داهم كبير. ولذلك يحدثنا التاريخ بان الصليبيين حين اخذوا بيت المقدس، ووضعوا السيف في اهله، ووصلوا بخيولهم الى معبد سليمان، هاج اهالي دمشق - حين وصلتهم اخبار تلك المذبحة - وماجوا وخرج المستنفرون منهم، ومعهم قاضي المدينة ابوسعد الهروي، قاصدين بغداد، حيث حضروا في الديوان وقطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا... فقال ابو المظفر محمد بن احمد الأيوبردي^(٢) يصف ذلك.

مَزَجْنَا دِمَاءً بِالدُمُوعِ السَّوَاجِمِ^(٣) وَلَمْ يَبْقَ مِنَّا عَرْضَةٌ لِلْمَرَاحِمِ
وَشَرُّ سِلَاحِ الْمَرْءِ دَمْعٌ يُفِيضُهُ إِذَا الْحَرْبُ شَبَّتْ نَارُهَا بِالصَّوَارِمِ^(٤)
فَلَيْهَا بَنِي الْإِسْلَامِ إِنَّ وِرَاءَكُمْ وَقَائِعَ يُلْحَقْنَ الذُّرَى بِالْمَنَاسِمِ^(٥)
أَتَهْوِمَةٌ^(٦) فِي ظِلِّ أَمْنٍ وَعِبْطَةٌ وَكَيْفَ تَنَامُ الْعَيْنُ مَلءَ جَفُونِهَا
وَإِخْوَانُكُمْ بِالشَّامِ يُضْحِي مَقِيلُهُمْ^(٧) عَلَى هَفَوَاتٍ^(٨) أَيْقَظَتْ كُلَّ نَائِمٍ؟
تَسْوِمُهُمُ الرُّومُ الْهَوَانَ، وَأَنْتُمْ ظُهُورَ الْمَذَاكِي^(٩) أَوْبُطُونَ الْقَشَاعِمِ^(١٠)
تَجْرُونَ ذَيْلَ الْخَفْضِ^(١١) فِعْلُ الْمُسَالَمِ
... الخ^(١٢)

وفي سنة ٥٢٣ هـ حاصر الصليبيون دمشق، فخرج اليهم اهلها وقتلوهم قتالا شديدا، وبعثوا عبد الله الواعظ ومعه جماعة من التجار يستغيثون بالخليفة وهموا بكسر منبر الجامع^(١٤).

(١) نفسه ص ١٥

(٢) مرت ترجمته ص ٩٥ هامش ١٠

(٣) السَّوَاجِم: المصبوبة.

(٤) الصَّوَارِم: طرف خف البعير.

(٥) المَنَاسِم: النوم القليل.

(٦) التَّهْوِمَةُ: الزهر.

(٧) أَيْقَظَتْ: من هفا القلب من الحزن أي استطير.

(٨) الْمَذَاكِي: الخيول.

(٩) أَوْبُطُونَ: لين العيش وسعته.

(١٠) الْقَشَاعِم: النور.

(١١) الْخَفْضُ: لبس العيش وسعته.

(١٢) ابن الأثير: ١٨٩/٨ - ١٩٠، أدب الحروب الصليبية ص ٣٠ - ٣١، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٢٩

(١٣) البداية والنهاية ١٢/٢٠٠

وهذا الذي فعله اهل دمشق ، فعله كذلك اهل بُزَاة (على ستة فراسخ من حلب) سنة ٥٣٢ هـ^(١).

وهذا الشعور بالوحدة بين المسلمين ، وان بغداد تحتل مركز الزعامة الاسلامية لوجود خليفة المسلمين وزعيمهم الروحي فيها ، هو الذي حمل جماعة من البغاددة من الفقهاء وغيرهم - ومنهم ابن الرَّاغُوني^(٢) - على الخروج الى الشام لاجل الجهاد وقتال الفرنج ، وذلك حين بلغهم انهم فتحوا مدائن عديدة . . ثم رجع كثير منهم حين بلغهم كثرة الفرنج^(٣).

وحين دارت الدائرة على الصليبيين ، واستطاع المسلمون بعد ان وحدوا صفوفهم بقيادة صلاح الدين الايوبي ان يستردوا المدن والقلاع الاسلامية الواحدة بعد الاخرى ، كان الخلفاء العباسيون قد نجحوا في التخلص من سيطرة السلاجقة كما نجح صلاح الدين في اعادة الخطبة لهم بمصر سنة ٥٦٧ هـ^(٤). ولذلك صار صلاح الدين يرسل الخليفة ويشره بكل موقعة ينتصر فيها على الصليبيين ، ذاكرًا جهاده ومعاناته للحرب ومضايقاته للصليبيين وتدمير قلاعهم وحصونهم ، وكان آخر وفد ارسله صلاح الدين الى بغداد سنة ٥٨٨ هـ ، لان بطل الحروب الصليبية توفي سنة ٥٨٩ هـ بعد أن اخبر الخليفة بالهدنة التي عقدها مع الصليبيين ذاكرًا اسبابها وأهميتها^(٥).

وكما شارك الشعر في اوقات الحزن والألم ، حيث كان الشعراء يستنهضون الهمم ويشجعون المقاتلين ويذكرون المجاهدين بالجنة وحسن العاقبة ، كذلك تسامع الشعراء بانتصارات صلاح الدين وجهاده في سبيل نصره الاسلام وانقاذ بلاد المسلمين فكانوا يتبعونه في كل هذه الفتوحات ويزدحمون على بابه طمعا في العطاء ، حتى قال في ذلك شاعر بغداد سبط ابن التعاويذي :

فَلَا يُضْجِرُنْكَ اَزْدِحَامُ الْوُفُودِ	عَلَيْكَ وَكَثْرَةُ مَا تَبْدُلُ
فَأَنَّكَ فِي زَمَنِ لَيْسَ فِيهِ	جَوَادُ سِوَاكَ وَلَا مِفْضَلُ
وَقَدْ قَلَّ فِي أَهْلِ الْمُتَعَمِّمُونَ	وَقَدْ كَثُرَ الْبَائِسُ الْمُرْمِلُ ^(٦)
وَمَا فِيهِ غَيْرُكَ مَنْ يُسْتَمَاحُ	وَمَا فِيهِ إِلَّا مَنْ يُسْأَلُ ^(٧)

(١) نفسه ٢١٢/١٢ - ٢١٣

(٢) البداية والنهاية ١٧٢/١٢

(٣) أنظر الفصل الأول من هذه الرسالة ص ٨ - ٩

(٤) وفيات الأعيان ٢٠٢/٦ ، تاريخ العراق العباسي الأخير ص ٣٣ - ٢٤ (٦) العرمل: الفقير الذي لا زاد عنده.

(٧) ادب الحروب الصليبية ص ١٤٤ ، قارن ذلك بما ورد في ديوان ابن التعاويذي ص ٣٣٣.

وما كاد صلاح الدين الايوبي يسترد بيت المقدس ويحررها من ايدي الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ^(١) حتى اسرع وزيره القاضي الفاضل بنقل هذه البشري الى الخليفة الناصر لدين الله ، فقال - من رسالة طويلة - :

. . واستقرت على الاعلى اقدمهم ، وخفقت على الاقصى اعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها - وان كانت صخرة - قلوبهم ، كما يشفى الماء عليلهم ولما قدم الدين عليها عرق منها سويدا قلبه ، وهنأ كفؤها الحجر الاسود بيت عصمتها من الكافر بحربه ، وكان الخادم^(٢) لا يسعى الا لهذه العظمى ، ولا يقاسي تلك البؤسى الارزاء هذه النعمى^(٣) . . .
كذلك كتب العماد الاصفهاني - كاتب صلاح الدين - الى الخليفة - بمناسبة فتح بيت المقدس قائلا :

أُشْرِ بِفَتْحِ امِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَتَى وَصِيَّتُهُ فِي جَمِيعِ الْأَرْضِ جَوَّابُ
وَمَا كَانَ يَخْطُرُ فِي بَالٍ تَصَوُّرُهُ وَاسْتَصْعَبَ الْفَتْحُ لَمَّا أَغْلَقَ الْبَابُ
وَحَامَ^(٤) عَنْهُ الْمُلُوكُ الْاَقْدَمُونَ ، وَقَدْ مَضَتْ عَلَى النَّاسِ مِنْ بَلَوَاهُ أَحْقَابُ
وَجَاءَ عَصْرُكَ ، وَالْأَيَّامُ مُقْبِلَةٌ فَكَانَ فِيهِ لِقَيْضِ الْكُفْرِ أَنْضَابُ^(٥)
نَصْرًا أَعَادَ صِلَاحُ الدِّينِ رَوْقَهُ إِبْجَازُهُ يَبْلِيغُ الْقَوْلَ إِسْهَابُ
... الخ^(٦) .

ويبدو ان الحماس والعاطفة الدينية هي التي حملت القاضي الفاضل ، في الجزء الذي نقلته من رسالته للخليفة ، على نعت المسيحيين بالكفر . وكذلك فعل العماد الاصفهاني في البيت الرابع من ابياته المتقدمة ، وابن التعاويذي في قوله من ابيات اشرت الى ان جامع ديوانه اسقطها منه :

وَاصْمِدْ لِحَرْبِ الْمُشْرِكِينَ مُهَذَّبًا بِالسَّيْفِ مَنْ بِسَوَاهُ لَا يَتَهَذَّبُ^(٧)
ومعروف ان الاسلام يعترف بالمسيحية ديناً سماوياً ، ولذلك لم يلزمهم بالدخول في

(١) وفيات الأعيان ١٧٤/٦ - ١٧٧

(٢) يريد به صلاح الدين الايوبي .

(٣) وفيات الأعيان ١٨٠/٦ - ١٨١

(٤) خام : جبن ونكص .

(٥) أنضاب : نضوب ، اقلال . (٦) الروضتين ١٠٢/٢

(٧) انظر قسم المديح من الفصل الثالث ص ١١٤ - ١١٦

الاسلام، على حين ليس بين المشركين والمسلمين الا السيف.

والشعراء العراقيون الذين شاركوا في انتصارات صلاح الدين بشعرهم خلال الفترة التي ادرسها ثلاثة: اولهم واكبرهم سبط ابن التعاويذي. وقد أشرت في مكان آخر من هذه الرسالة^(١) الى انه كان يرسل قصائد الى القاضي الفاضل وهو الذي يعرضها على صلاح الدين. وفي ديوان الشاعر قصيدة مطلعها:

أَمِطِ اللَّثَامَ عَنِ الْعِذَارِ^(٢) السَّائِلِ لِيَقُومَ عُذْرِي فَيْتَبَّ عِنْدَ عَوَاذِلِي

قال فيها يخاطب القاضي الفاضل:

وَلَكِنْ دَعَوْتُكَ مِنْ مَحَلٍّ شَاسِعٍ نَاءٍ مَدَاهُ عَلَى السُّرَى الْمُتَطَاوِلِ
فَالسَّحْبُ بَعْدُ أَنْ تُنَالَ وَصُوبُهَا^(٣) دَانٍ قَرِيبٌ مِنْ يَدِ الْمُتَنَاوِلِ
فَارْفَعْ - إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْكَ قَصَائِدِي مَدَحِي إِلَى الْمَلِكِ الرَّحِيمِ الْعَادِلِ
وَأَسْفِرْ^(٤) بِجَاهِكَ بَيْنَ حَظِّي وَالْغِنَى وَتَقَاضَ^(٥) لِي أَيَّامَ ذَهْرِي الْمَاطِلِ
وَأَنْهَضْ بِهَا أَكْرُومَةً قَعَدَ الْوَرَى عَنْهَا، فَمِنْ مُتَقَاعَسٍ أَوْ نَاكِلٍ^(٦)
إِنْ كُنْتَ أَكْرَمَ مَنْزِلٍ نَزَلَتْ بِهِ فَلِيَحْمَدَنَّ عَلَيْكَ أَفْضَلُ نَازِلِ
لَمْ أَدْعُ - حِينَ دَعَوْتُ نَصْرَكَ - غَافِلًا عَنِّي، وَلَا اسْتَنْجَدْتُ مِنْكَ بِخَاذِلِ
قَدْ اخْصَبْتُ أَرْضَ الْعِرَاقِ، وَأَنِّي لَارُودُ^(٧) مِنْهَا فِي جَدِيبٍ مَاحِلِ
.. الخ^(٨).

والقصيدة واضحة الدلالة على ان العلاقة بين الشاعر المادح والوزير المدحوح لا تشبه العلاقات المعروفة بين الشعراء ومن يقصدونهم بالمديح. ان الشاعر واثق من مكانته عند القاضي الفاضل، ولذلك اباح لنفسه ان يخاطبه مخاطبة الصديق الذي يجب ان يسعى من اجل صديقه. والواقع ان قصائد ابن التعاويذي في صلاح الدين الايوبي ووزيره، تثير الاستغراب

(١) انظر: الفصل الثالث ص ١١٣

(٢) العذار: جانب اللحية.

(٣) صُوبُ السَّحْبِ: مطرها.

(٤) أسفر: من السفارة وهي الصلح.

(٥) تقاض: أراد أعني أو ساعدني.

(٦) ناكل: من نكل أي نكص وجبن.

(٧) أرود: أنحول.

(٨) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٣٦

والدهشة بسبب كثرتها اولا وتنوعها ثانيا، حتى يخيل للمرء ان ابن التعاويذي من شعراء مصر أو بلاد الشام القريبين جدا من ملك الايوبيين.

ففي القاضي الفاضل توجد - غير اللامية المتقدمة - قصيدتان: رائية مطلعها:

مَرَّتْ بِجَمْعٍ لَيْلَةَ النَّفْرِ تَجْمَعُ بَيْنَ الْإِثْمِ وَالْأَجْرِ^(١)

وبائية اولها:

عَسَى قَاعِدُ الْحِطِّ يَوْمًا يَثْبُ فَيَسْفِرَ عَنْ وَجْهِهِ الْمُتَعَبِ^(٢)

وهناك قصيدتان يمدح فيها الشاعر رسول صلاح الدين الامير شمس الدين محمد بن ابي المضاء سنة ٥٧٠، ٥٧١^(٣)، وثمة قصيدة قافية يحذره الشاعر صلاح الدين من ابن الحصين الذي هرب الى دمشق بعد ان استدان من جماعة من اهل بغداد ديونا كثيرة^(٤). وفي الديوان قصيدة بائية مطلعها:

حَتَّامٌ أَرْضَى فِي هَوَاكَ وَتَغَضُّبُ؟ وَالْيَ مَتَى تَجْنِي عَلَيَّ وَتَعْتَبُ؟

قال ابن خلكان ان الشاعر: «اجاد فيها كل الاجادة»^(٥)، ولكن المؤرخ الكبير وكذلك الديوان لا ينصان على المناسبة التي نظمت فيها القصيدة، باستثناء القول انها نظمت سنة ٥٨٠ هـ، ويصف الشاعر فيها الخلع التي انفذت الى صلاح الدين من دار الخلافة^(٦). ويبدو من قصيدة ثامنة ان الشاعر كان يرى نفسه متفوقا على زملائه من شعراء بغداد، ولذلك يعاتب صلاح الدين على مساواته ببقية الشعراء في العطاء، قال من قصيدة:

وَكَانَ يَا يَوْسُفَ السَّمَّاحِ بِنَا
حَاشَاكَ أَنْ تُرْسَلَ الصَّلَاتِ عَلَى
سَوَيْتِ بِي فِي الْعِطَاءِ مَنْ لَا يُجَا
وَعَيْرُ بَدْعٍ فَالْسُّحْبُ مَا بَرَحَتْ
وَالْحِدْقُ فِي مَا عَلِمْتُ مُكْتَسَبُ
إِلَى عَطَايَاكَ شَوْقُ يَعْقُوبِ
غَيْرِ نِظَامٍ وَغَيْرِ تَرْتِيبِ
رَيْنِي فِي مَذْهَبِي وَأَسْلُوبِي
يَقْلُ مِنْهَا حِطُّ الْأَهَاضِيبِ^(٧)
وَأِنَّمَا الْحِطُّ غَيْرُ مَكْسُوبِ

(١) الديوان ص ١٩٠، والنفر: اندفاع الحجاج من متى إلى مكة.

(٢) نفسه ص ٢٧

(٣) نفسه ص ٣٠٥

(٤) نفسه ص ١٨٥، ٤٨٠

(٥) الديوان ص ٢٢

(٦) وفیات الأعيان ٢٠٩ ٨

(٧) الأهاضيبي: الحساب، المرتفعات.

ولي عَلَيْهِمْ فَضِيلَةُ السُّبْقِ فِي مَدْحِكَ فَأَعْرِفْ سَبْقِي وَتَعْقِي
شَاؤُهُمْ سَابِقًا، وَصَلُّوا^(١) فَمَنْ أَوْلَى بِبِرِّ مَنِّي وَتَقَرِّبِ؟
... الخ^(٢).

وعلى الرغم من ان شهرة صلاح الدين قائمة على انتصاراته في الحروب الصليبية وقد عبر شعر ابن التعاويذي عن هذه الحقيقة ابلغ تعبير، فان ديوان الشاعر لم ينص - في تقديم القصائد - سوى مرة واحدة على ان صلاح الدين قد انتصر على الفرنج وهزمهم سنة ٥٧٠ هـ، وهذه القصيدة هي التي مطلعها:

قَلْبِي فِي حُبِّكَ مَعْمُودٌ^(٣) وَحَظُّ عَيْنِي مِنْكَ تَسْهِيدٌ^(٤)

وقد اشار المحقق انه اسقط منها خمسة ابيات لعدم المنفعة كما قال^(٥).

وفي الديوان قصيدة واحدة اشار صاحب الروضتين^(٦) انها نظمت لتهنئة صلاح الدين لانتصاره في موقعة مَرَج عَيُون^(٧)، وهي من انتصارات صلاح الدين المشهورة على الصليبيين^(٨)، وقد التزم الديوان الصمت، فلم يشر الا الى ان القصيدة نظمت في مدح صلاح الدين وانها ارسلت اليه بدمشق سنة ٥٧٥ هـ^(٩). على الرغم من اشارة محقق الديوان الى ان الروضتين من مصادر شعر ابن التعاويذي وفي هذه القصيدة بالذات^(١٠)؛ وهذه القصيدة الفريدة هي التي مطلعها:

إِنْ كَانَ دِينُكَ فِي الصَّبَابَةِ دِينِي فَقِفِ الْمَطِيَّ بِرَمَلَتِي يَبْرِينِ^(١١)

وفيهما قال الشاعر:

كَأَدَّ الْأَعَادِي أَنْ يَصِيكَ كَيْدُهَا لَوْ لَمْ تَكِدْكَ بِرَأْيَا الْمَافُونِ^(١٢)
تُخْفِي عَدَاوَتَهَا وَرَاءَ بَشَاشَةٍ فَتَشْفُ عَنْ نَظَرِ لَهَا مَشْفُونِ^(١٣)
دَفَنْتَ حَبَائِلَ مَكْرِهَا، فَرَدَدْتُهَا تَدْوِي^(١٤) بِغَيْظِ صُدُورِهَا الْمَدْفُونِ

(١) صَلُّوا: أي جاءوا بعد السابق.

(٢) الديوان ص ٢١

(٣) الْمَعْمُود: الذي هَذَّ العشق.

(٤) الديوان ص ١٠٨

(٥) نفسه ص ١١١ في الهامش، وانظر الفصل الثالث ص ١١٥ (٦) الروضتين ١٠/٢

(٧) مَرَج عَيُون: قال ياقوت أن موقع هذا المرح بسواحل الشام. (معجم البلدان ١٦/٨).

(٨) أدب الحروب الصليبية ص ١٢١ (٩) الديوان ص ٤٢٠ (١٠) نفسه ص ٧ من المقدمة.

(١١) يَبْرِين: قيل أنه رمل لا تترك أطرافه عن يمين مطلع الشمس من حَجَر اليمامة (معجم البلدان ٨/٤٩٤).

(١٢) الراي المافون: الضعيف.

(١٣) النَظَرُ لِلْمَشْفُونِ: هو نظر الحاسد الحذر المترقب. (١٤) تَدْوِي: تحمل الضغن، تمرض.

وَعَلِمْتَ مَا أَخْفَوْا كَأَنَّ قُلُوبَهُمْ أَفْضَتْ إِلَيْكَ بِسَرِّهَا الْمَخْزُونِ
كَمِنُوا - وَكَمْ لَكَ مِنْ كَمِينِ سَعَادَةٍ - فِي الْغَيْبِ يَظْهَرُ مِنْ وَرَاءِ كَمِينِ
فَهَوْتُ نُجُومٌ سُعُودِهِمْ، وَقَضَى لَهُمْ بِالنَّحْسِ طَائِرُ جَدِّكَ الْمَيِّمُونَ^(١)

اما الشاعر العراقي الثاني فهو محمد بن بختيار المعروف بالابله البغدادي، وله قصيدة واحدة اشار الديوان انه «قالها في صلاح الدين» ومطلعها:

سَقَى أَيَّامَنَا بِلَوَى زُرُودٍ ضَحُوكُ الْبَرَقِ صَحَابُ الرُّعُودِ^(٢)

وهي خالية من أية اشارة الى سنة النظم، وكذلك من المناسبة التي نظمت فيها، وليس في ابيات القصيدة اية دلالة على سنة النظم او مناسبتها، وان كان البيت الاخير فيها يدل على تهنته بالصوم، وهو قول الشاعر:

وَهَنَيْتَ الصَّيَّامَ، وَلَا اسْتَحَالَتَ لَكَ الْإِيَّامُ عَنْ حَالِ حَمِيدٍ

ومن هذه القصيدة قول الابله - بعد المقدمة الغزلية -

فَأَقْسِمُ مَا عَلَى وَجْدِي وَجْدَوَى^(٣) صَلَاحِ الدِّينِ يَوْمًا مِنْ مَزِيدٍ
أَخِي الْبَاسِ الشَّدِيدِ إِذَا تَرَاخَتْ كُمَاةُ الْحَرْبِ وَالرَّأْيِ السَّدِيدِ
مُبَاحِ حِمَى الْمَكَارِمِ، وَالْأَيَادِي فَلَايِدُ جُودِهِ فِي كُلِّ جِيدٍ^(٤)
تُفَرِّجُ بَيْضَهُ^(٥) فِي كُلِّ نَقْعٍ^(٦) ذُبُولَ قَسَاطِلٍ^(٧) كَاللَّيْلِ سُودٍ
وَتُلْقَى سُمْرُهُ^(٨) حُمْرًا وَرَادًا^(٩) إِذَا غَشِيَ الْوُغَى^(١٠) بِذِمِّ الْوَرِيدِ
خَلَّى الْعِطْفِ مِنْ عُنْجَبٍ وَتِيهِ وَمَلَأَ الدَّرْعَ مِنْ كَرَمٍ وَجُودِ
يَضُنُّ^(١١) بِعَرَضِهِ كَرَمًا وَطُولًا^(١٢) وَيَسْمَحُ بِالطَّرِيفِ^(١٣) وَبِالتَّلِيدِ
... الخ^(١٤)

(١) في الروضتين رواية أخرى لعجز هذا البيت ولم يشر إليها المحقق وهي: ... بالنَّحْسِ طَائِرُهُمْ يَجْرُ عَيْنُ الْإِدْيَانِ ص ٤٢٢

(٢) ديوان الابله و ١٠٢ (٣) الْجَلْدَى: العطاء. (٤) الْجِيدُ: العنق.
(٥) الْبَيْضُ: واحدها بَيْضَةٌ وهي الخوذة من الحديد، ويصح أن تكون السيوف. (٦) النَّقْعُ: الغبار.
(٧) الْقَسَاطِلُ: واحدها قَسَاطِلُ: غبار الحرب. (٨) السُّمَرُ: الرماح.
(٩) الْوَرَادُ: التي يميل لونها الاحمر إلى صفرة. (١٠) الْوُغَى: الحرب. (١١) يَضُنُّ: يبخل.
(١٢) طُولًا: ترفعًا.
(١٣) الطَّرِيفُ والتَّلِيدُ: المال القديم والجديد.
(١٤) الديوان و ١٠٢

وواضح ان الشاعر مهتم بالبديع اكثر من اهتمامه بالمعنى ، ولذلك حشد في هذه الابيات عددا من الجناسات غير قليل مثل : استحالت وحال في البيت الاخير المتقدم ، ووجدى ووجدوى في البيت الاول ، والشديد والسديد في الثاني ، وجود ووجد في الثالث ، ووراد ووريد في الخامس . ويلاحظ الطباق بين خلي وملء ، والعجب والته والكرم والجود في البيت السادس ، وكذلك بين يضمن ويسمح والطريف والتليد . .

ولولا ان الابله يكثر من البديع في جميع شعره ^(١) ، لكان من المحتمل ان يكون قد تعمد الاكثار من البديع في هذه القصيدة بالذات ، ليرضي القاضي الفاضل ومدرسته وهم المقربون من صلاح الدين والمحيطون به ^(٢) .

واما الشاعر العراقي الثالث فهو الامير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان من اهل الحِلَّة المَزْيَدِيَّة ^(٣) ، وهو يختلف عن زميله ابن التعاويذي والابله لانه شهد الموقعة التي مدح صلاح الدين من اجلها بنفسه ، وهي فرصة يحسده عليها كثير من العراقيين ، قال :

هَنِيئاً صَلَاحَ الدِّينِ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ	وَنَيْلِ الْأَمَانِي الْغُرِّ وَالْفَتْكَ الْبَكْرِ ^(٤)
وَمَا حُزَّتْ فِيهَا مِنْ فَخَارٍ وَمِنْ عُلَا	وَحُسْنٍ ثَنَى يَبْقَى إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ
سَمَوَتْ لَهَا بِالْمَشْرِفِيَّةِ ^(٥) وَالْقَنَا ^(٦)	سُمُو أَبِي لَا يَنَامُ عَلَى وَتَرٍ ^(٧)
وَصَلَتْ بِهَا حَبْلُ الْمَفَاخِرِ مِثْلَمَا	قَطَعَتْ بِهَا يَوْمَ الْوَعَى دَابِرَ الْكُفْرِ
سَلَكْتَ بَيَاضَ الصُّبْحِ ، وَهُوَ صَوَارِمٌ ^(٨)	وَحُضَّتْ سَوَادَ اللَّيْلِ ، وَهُوَ دَمٌ يَجْرِي
وَقَدْ عَرَفَ الْإِفْرَنْجُ بَأْسَكَ فِي الْوَعَى	وَجَرَعَتْهُمْ مِنْهُ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ
وَوَظَّنُوا بِنَاءَ الْحُصْنِ ^(٩) صَوْنًا لِمُلْكِهِمْ	فَأَصْبَحَ بِالشَّعْوَاءِ ^(١٠) مُنْهَتِكَ السُّتْرِ
... الخ ^(١١) .	

(١) انظر الدراسة الفنية في آخر هذه الرسالة .

(٢) أدب الحروب الصليبية ص ١٢٢ ، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ٢٠٢ - ٢٠٤ .

(٣) الروضتين ١٢/٢ ، ولم أعثر لهذا الشاعر على ترجمة في المصادر المتوفرة .

(٤) الفتنكة البكر : الجديدة ، التي لم يسبقه إليها أحد .

(٥) المشرفية : السيوف .

(٦) القنا : الواحدة قناة أراد بها الرمح .

(٨) الصوارم : السيوف .

(٧) الوتر : النار .

(٩) الحصن : هو حصن الداوية أو حصن المخاض أو بيت الأحزان أو بيت يعقوب وقد خربه صلاح الدين . أدب الحروب الصليبية

ص ١٢٢

(١٠) الشعواء : أراد بها الحروب أو الغارة .

(١١) الروضتين ١٢/٢

وهكذا ساهم شعراء العراق مع اخوانهم من شعراء مصر وسوريا في الاشادة بمآثر صلاح الدين الايوبي وجهاده في سبيل اعلاء كلمة الاسلام والمسلمين ، فكان هذا الشعر العراقي خير تعبير عن الوحدة الاسلامية التي كانت السبب الاول في دحر الصليبيين وطردهم .

ب- ان الصراع بين العباسيين والفاطميين يمثل حلقة اخرى- بعد الحروب الصليبية- من حلقات الصراع الديني السياسي .

لقد كانت كل من الدولتين تطمح الى زعامة العالم الاسلامي استنادا الى اسباب دينية . فالعباسيون يستندون الى العباس بن عبد المطلب عم الرسول الكريم محمد ﷺ ، على حين يقول الفاطميون انهم من ابناء فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ .

ومن هذا المنطلق الديني صار جمهور اهل السنة والجماعة من المسلمين يميلون الى الجانب العباسي . وصار عامة الشيعة يرون في الدولة الفاطمية فرصة لتقويض النظام العباسي ، وخلق المتاعب له ، او على الاقل رأي الشيعة في الدولة الفاطمية املا يمنون انفسهم في اللجوء اليه او الاستعانة به عندما تسوء الامور مع بعض العباسيين .

ولذلك حين فتح البويهيون بغداد سنة ٣٣٤ هـ ، وهم من الشيعة الزيدية ، سمحوا لدعاة الفاطميين بنشر عقائد مذهبهم في العراق وغيرها من البلاد التي كانت خاضعة لنفوذ بني بويه . واستقبل رسول العزيز بالله الفاطمي لما وصل الى بغداد استقبالا حافلا . فقد اصطف الجند على جانبي الطريق واخذ القواد وكبار رجال الدولة اماكنهم كل على حسب مكانته ، على حين جلس الخليفة الطائع وراء الستر^(١) . وعندما قطع ابو الحارث البساسيري^(٢) الخطبة للعباسيين ببغداد سنة ٤٥٠ هـ وخطب للمستنصر الفاطمي^(٣) ، مال اليه اهل الكرخ لكونهم من الشيعة ورحبوا بقدومه^(٤) .

اما حين استولى الاتراك السلاجقة- وهم سنيون- على مقاليد الامور ببغداد بعد سنة ٤٤٧ هـ فقد حرصوا على تعقب دعاة الفاطميين الذين قاموا بنشر دعوتهم في بلاد فارس والعراق ، كما تعصبوا للمذهب السني وبلغ من تعصبهم لهذا المذهب ان اقصوا غير السنيين من وظائف الحكومة^(٥) .

(١) النفوذ الفاطمي ص ٨٠ - ٨١

(٢) هو أرسلان بن عبد الله مقدم الاتراك ببغداد ، قتله عسكر السلطان طغرل بك ببغداد سنة ٤٥١ هـ . وفيات الأعيان ١٧٢/١
النجوم الزاهرة ٢/٥ ، ٦٤ ، مقدمة ديوان داعي الدعاة ص ٤٠ - ٤٧

(٣) وفيات الأعيان ٣١٧/٤

(٤) نفسه ص ١٢٦

(٥) النفوذ الفاطمي ص ١١٧

وعلى الرغم من ان الصراع بين العباسيين والفاطميين هو من بعض جوانبه صراع بين مذهبين وعقيدتين تنتميان الى الدين الاسلامي ، وكان المفروض ان تتافسا من اجل نشر المبادئ الاسلامية واحياء التراث الاسلامي ، والوقوف صفا واحدا بوجه اعداء الاسلام من الصليبيين والروم البيزنطيين ، ولكن الهدف السياسي الذي يكمن وراء الشعارات والمبادئ الدينية ، هو الذي جعل اتباع الدين الواحد يقتل بعضهم بعضا ، ويحاول جاهدا ابادته واستئصاله بجميع الوسائل والطرق المتاحة ، ولذلك مرت الدعوة الفاطمية في اول امرها بدور الائمة المستورين في ذات الله خوفا من بطش بني العباس وتكيلهم لانهم علموا ان فيهم من يروم الخلافة^(١) وهذا هو الستر الأول ، وحين انتقل مركز الدعوة الى اليمن في عهد آخر ملوك الفاطميين بدأ دور الستر الثاني^(٢).

ويذهب اكثر المؤرخين الى ان الفاطميين كانوا شديدي التعصب لمذهبهم الديني وتطرفوا في عصبيتهم حتى انهم اكرهوا الناس على اعتناق عقيدتهم رهبة لا رغبة ، وانهم في سبيل ذلك اضطهدوا علماء مذاهب اهل السنة بل افنوهم تقتيلا^(٣) . . بل ان الخوف من الفاطميين وانصارهم بلغ حدا لا يكاد يصدق حين رفض الشريف الرضي ، وهو في عاصمة الخلافة العباسية ان يوقع على وثيقة تدبى الفاطميين خوفا من الاغتيال ، فعجب ابوه وقال له : اتخاف ممن هو بعيد عنك وتراقبه ، وتسخط من هو قريب وانت مبرأى منه ومسمع وهو قادر عليك وعلى اهل بيتك^(٤) ؟

وكما يحدث دائما بين المتخاصمين ، نجد العباسيين قد استغلوا قضية الشك في نسب الفاطميين احسن استغلال وبدأوا يتوسعون ويبالغون في هذا الموضوع وربما اضافوا اليه اشياء تساعد على اخراج خصومهم من جملة المسلمين في نظر العامة الذين يصدقون كل شيء يصدر عن الخليفة ، اقول هذا ترجيحا وظنا حين وجدت ان الخليفة القادر بالله لجأ الى محاربة الفاطميين عن طريق التشهير بسمعتهم في العالم الاسلامي ، فعقد اجتماعا دعا اليه الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة واصدروا في شهر ربيع الثاني سنة ٤٠٢ هـ محضرا - وكذلك صدر محضر آخر عن الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٤٤ هـ^(٥) - يتضمن الطعن في نسب الفاطميين خلفاء مصر ، وفي شرعية امامتهم ، وما ورد في هذا المحضر : « . . فشهدوا جميعا ان الناجم بمصر وهو منصور ابن نزار الملقب بالحاكم . وهو من تقدمه ومن سلفه الارجاس الانجاس ، ادعياء ، خوارج ، لا

(١) وفيات الاعيان ٣٠١/٣

(٢) في أدب مصر الفاطمية ص ١٨٤

(٣) نفسه ص ١٢٦

(٤) النفوذ الفاطمي ص ٨٨ ، الحماسة في شعر الشريف الرضي ص ٦٨

(٥) النجوم الزاهرة ٥٣/٥

نسب لهم في ولد علي بن ابي طالب ، وان ذلك باطل وزور ، وانهم لا يعلمون ان احدا من الطالبين توقف عن اطلاق القول في هؤلاء الخوارج انهم ادعياء . وقد كان هذا الانكار شائعا بالحرمين^(١) في اول امرهم بالمغرب . ان هذا الناجم بمصر هو وسلفه . . قد عطلوا الحدود ، وسفكوا الدماء ، وسبوا الانبياء ، ولعنوا السلف ، وادعوا الربوبية^(٢) . .

وليس من المعقول ، بعد هذا كله ، ان يكون شعراء الطرفين المتنازعين بمعزل عن حلبة الصراع ، وقد وجدنا شعراء العراق يساهمون في شعر الحروب الصليبية وهم بعيدون عن ميدانها ، فكيف اذا كان احد المتخاصمين من ابناء العراق ، وكان انصار الخصم ، وهم الشيعة ، ينتشرون في المدن والقرى العراقية ، ومنهم شعراء كبار لا يخفون ضيقهم بالسلطان العباسي من جهة ، وبعضهم يطمح الى الخلافة من جهة اخرى^(٣) ؟

ولعلي لا ا جانب الحقيقة حين لاحظ ان الشعراء هم الفئة التي وجد الخصمان المتنازعان في استمالتها وتشجيعها خير عون على دحر الخصوم وتسفيه آرائهم وجذب الانصار والمؤيدين وشدا زرعهم ، خاصة وقد عرف الطرفان ان الشعر العربي منذ العصر الجاهلي كان من اهم وسائل الدعاية للقبيلة في العصر الجاهلي وللحزاب السياسية والفرق الاسلامية بعد ظهور الاسلام^(٤) .

وعلى الرغم من قدرة الفاطميين وكياستهم في فن السياسة واصطناعهم كل ما يفيدهم في دعوتهم من علماء وأدباء وشعراء ، حتى انهم اتخذوا من الشعر وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية على نحو ما تتخذ الاحزاب السياسية اليوم بعض الصحف لتعبر عن اتجاه هذه الاحزاب وآرائها^(٥) ، اقول على الرغم من هذا كله فقد كتب عليهم ان يخسروا في معركتهم الأدبية ضد بني العباس ، مع ان الباحث المنصف لا يستطيع ان ينكر الاثر الفاطمي الواضح في شعر العراق في القرن السادس ، بل وفي مدح خلفاء بني العباس بالذات ، وخاصة المستضيء وابنه الناصر لدين الله ، كما سيأتي بيانه بعد قليل ان شاء الله .

فاذا عدنا الى اسباب انتصار العباسيين وجدنا منها :

١ - كتب على الدولة الفاطمية ان ينتهي حكمها سنة ٥٦٧ هـ ، وهو تاريخ بدأت فيه الدولة العباسية تسترجع قوتها وتعود الى سابق عزها . وتبعا لقاعدة الويل للمغلوب ، صار الأدباء

(١) الحرمان : مكة المكرمة والمدينة المنورة .

(٢) النجوم الزاهرة ٤/ ٢٢٩ - ٢٣٠

(٣) الحماسة في شعر الشريف ص ٦٧ ، ٤٠

(٥) في أدب مصر الفاطمية ص ١٥٨

(٤) في أدب مصر الفاطمية ص ١٥٨

والشعراء يتقربون الى بني العباس بثلب الفاطميين والتنديد بهم ، فقال العماد الاصفهاني يمدح المستضيء بعد الخطبة له بمصر سنة ٥٦٧ هـ :

قَدْ خَطَبْنَا لِلْمُسْتَضِيءِ بِمِصْرٍ نَائِبِ الْمُصْطَفَى إِمَامِ الْعَصْرِ
وَحَذَلْنَا لِنَصْرِهِ الْعُضْدَ الْعَا(م) ضِدَّ(١) وَالْقَاصِرَ الَّذِي بِالْقَصْرِ
وَأَشْعَنَّا بِهَا شِعَارَ بَنِي الْعَب(م) بَاسٍ، فَاسْتَبَشَّرْتُ وَجْهَهُ النَّصْرِ
وَتَرَكْنَا الدَّعْيَ يَدْعُو ثُبُوراً(٢) وَهُوَ بِالذَّلِّ تَحْتَ حَجَرٍ وَحَصْرِ
وَتَبَاهَتْ مَنَابِرُ الدِّينِ بِالْخُط(م) بَةِ لِلْهَاشِمِيِّ فِي أَرْضِ مِصْرٍ
وَلَدِينَا تَضَاعَفَتْ نِعْمُ الد(م) هِ، وَجَلَّتْ(٣) عَنْ كُلِّ عَدُوٍّ وَحَصْرِ
فَأَعْتَدَى الدِّينُ ثَابِتَ الرُّكْنِ فِي مِص(م) رٍ، مَحْوَطَ الْحِمَى، مَصُونِ الثَّغْرِ
... الخ(٤).

واعادة الخطبة لبني العباس بمصر من احداث القرن السادس المهمة ، كما سبق ان اشرت(٥)، وقد تبارى الشعراء في الاشادة بها ، فكان مما قاله حاجب الوزير ابن هبيرة من قصيدة اولها :

لَعَلَّ حُدَاةَ الْعِيسِ(٦) أَنْ يَتَوَقَّفُوا لِيَشْفِي غَلِيلاً(٧) بِالْمَدَامِعِ مُدْنَفٌ(٨)
قَالَ:
لِيَهْنِكَ يَا مَوْلَى الْأَنَامِ بِشَارَةً بِهَا سَيُفُ دِينَ اللَّهِ بِالْحَقِّ مُرْهَفٌ(٩)
ضَرَبْتَ بِهِ هَامَ الْأَعَادِي بِهَمَّةٍ تَقَاصَرَ عَنْهَا السَّمْهَرِيُّ(١٠) الْمُتَقَفُّ
بَعَثْتَ إِلَى شَرْقِ الْبِلَادِ وَعَرَبِهَا بُعُوثاً مِنَ الْآرَاءِ تُحْيِي وَتُتْلَفُ
فَقَامَتْ مَقَامَ السَّيْفِ، وَالسَّيْفِ، قَاطِر وَنَابَتْ مَنَابِرُ الرَّمْحِ، وَالرَّمْحُ يَرْعَفُ(١١)

(١) العاضد : آخر خلفاء الفاطميين بمصر ، وقد سماه بالقاصر لصغر سنه .

(٢) الثُّبُور : الوبل والهلاك .

(٣) جلت : عظمت وكبرت .

(٤) دراسات في الشعر في عصر الايوبيين ص ١٢

(٥) أنظر : الفصل الثالث ص ١١٦

(٦) العيس : الابل يجالط بياضها سواد خفيف .

(٧) الغليل : حرارة الحب أو الحزن .

(٨) المُدْنَف : المريض ، وهو هنا العاشق .

(٩) السَّمْهَرِيُّ : الرمح الصلب .

(١٠) سيف مرهف : دقيق الحد ، قاطع .

(١١) يَرْعَفُ : يقطر دما .

وَقُدَّتْ لَهَا جَيْشًا مِنَ الرُّوعِ هَائِلًا إِلَى كُلِّ قَلْبٍ مِنْ عِدَاتِكَ يَزْحَفُ
لِيَهْنِكَ يَا مَوْلَايَ فَتَحُ تَتَابَعْتُ إِلَيْكَ بِهِ خُوصُصُ^(١) الرُّكَائِبُ تُوجِفُ^(٢)
أَخَذْتُ بِهِ مِصْرًا، وَقَدْ حَالَ دُونَهَا مِنَ الشُّرْكِ نَاسٌ فِي لَحَى^(٣) الْحَقِّ تَقْذُفُ
... الخ^(٤).

وهنا لا بد من وقفة ونقلب بها صفحات التاريخ، فسنجد ان مصر كانت تابعة لبني العباس قبل سنة ٣٥٨ هـ. وفي هذه السنة قطعت خطبة بني العباس بها بعد ان استولى عليها القائد جَوَهَر^(٥) مولى المعز لدين الله الفاطمي^(٦). . فاين الشعر الذي قيل في هذه المناسبة؟ اذ لا يعقل ان تمتلئ كتب الادب والتاريخ بالشعر حين ينتصر العباسيون، ولكن الشعراء يلتزمون الصمت حين يفتح الفاطميون مصر.

ان المؤرخين من السنة اهتموا جميع الشعر الذي يشيد بالفاطمين ويؤرخ انتصاراتهم تقربا لبني العباس وتملقا لهم. ومن ذلك ان ابن خلكان يشير الى ان القائد جوهر احيى توفي سنة ٣٨١ هـ: لم يبق بمصر شاعر الارثاء^(٧)؛ ولكن المؤرخ الكبير لم يورد من هذا الشعراي بيت. وكذلك فعل ابن الجوزي اذ قال: ان ابا علي ابراهيم بن محمد بن محمد. . من اولاد زيد بن علي بن الحسين، سافر الى الاقطار واتصل بالخلافة الفاطمية بمصر وحصل له من المستنصر خمسة آلاف مصرية، ثم عاد الى الكوفة وتوفي بها سنة ٤٦٦ هـ^(٨)، ثم لا يذكر اي بيت لهذا الشاعر.

٢- ان الفاطمين وجميع من ايدهم وسار في ركابهم ممن له عند العباسيين ثارات وديون، هؤلاء جميعا يمثلون اقلية ضئيلة اذا ما قورنوا بالاكثريّة التي صدمتها اراء الفاطمين وعقائدهم، خاصة وان هذه الآراء والعقائد تميل الى الجانب الفلسفي المصبوغ بالصبغة الاسلامية^(٩). وكان الفاطميون في فترة ضعفهم محاطين بمد اسلامي شديد التعصب ضد المتفلسفة وآرائهم، وهو المذ الذي يمثله الحنابلة في العراق^(١٠)، والايوبيون في مصر والشام^(١١) اصف الى ذلك ان الذين

(١) خوص: الواحدة خوصاء: الناقة الغائرة العينين.

(٢) تُوجِف: تسرع.

(٣) لَحَى: جانبه أو جهته.

(٤) المنتظم ٢٠٩/١٠

(٥) هو أبو الحسن جوهر بن عبد الله المعروف بالكاتب، الرومي المتوفي سنة ٣٨١ هـ استقل بحكم مصر أربع سنين وعشرين يوماً، وكان محسناً إلى الناس. وفيات الأعيان ٣٢٥/١، النجوم الزاهرة ٢٨/٤

(٦) وفيات الأعيان ٣٢٦/١ - ٣٣٠ (٧) نفسه.

(٨) المنتظم ٢٨٨/٨ (٩) في أدب مصر الفاطمية ص ٣٦، ١٤٦

(١٠) تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٤٣٤ (١١) في أدب مصر الفاطمية ص ١٦٨

استطاع الفاطميون استمالتهم من العراقيين، وكان من المحتمل ان يقفوا الى جانبهم - ولو بالسنتهم - هؤلاء، كانوا تحت سيطرة العباسيين وفي مناطق نفوذهم، ولذلك يستحيل عليهم الافلات من عيون بني العباس وجواسيسهم. ولعل الشريف الرضي خير مثال على ما اقول. فعلى الرغم من منزلة الرجل العلمية والادبية، وانه عاش في فترة حكامها متعاطفون مع الفاطميين، وهم البويهيون، ولم تصدر عنه سوى بعض ابيات ضد بني العباس - ولعله قالها في اوقات لم يستطع فيها ان يكظم غيظه، مثل قوله:

وَيَا رَبُّ أَدْنَى مِنْ أُمِّيَّةٍ لُحْمَةٌ^(١) رَمُونَا عَلَى الشَّنَانِ^(٢) رَمِي الْجَلَامِدِ
طَبَعْنَا لَهُمْ سَيْفًا فَكُنَّا لِحَدِّهِ ضَرَائِبَ عَنْ أَيْمَانِهِمُ وَالسَّوَاعِدِ
أَلَا لَيْسَ فِعْلُ الْأَوَّلِينَ وَإِنْ عَلَا عَلَى قُبْحِ فِعْلِ الْآخَرِينَ بَزَائِدِ^(٣)
وقوله:

مَا مُقَامِي عَلَى الْهَوَانِ، وَعِنْدِي مَقُولٌ صَارِمٌ وَأَنْفٌ حَمِيٌّ
وَأِبَاءٌ مُحَلَّقٌ بِي عَنْ الضَّيِّ مِثْلُ كَمَا رَاغَ طَائِرٌ وَخَشِيٌّ
أَيُّ عُذْرٍ لَهُ إِلَى الْمَجْدِ إِنْ ذَلْ^(٤) لَ غُلَامٌ فِي غِمْدِهِ الْمَشْرِفِيُّ؟
الْبَسُ الذَّلَّ فِي دِيَارِ الْأَعَادِي وَبِمَصْرِ الْخَلِيفَةِ الْعَلَوِيِّ؟
مَنْ أَبَوْهُ أَبِي وَمَوْلَاهُ مَوْلَا يَ، إِذَا ضَامَنِي الْبَعِيدُ الْقَصِيٌّ
إِنْ ذُلِّي بِذَلِكَ الْحَيِّ عَزُّ وَأَوَامِي^(٥) بِذَلِكَ الرَّبِّعِ رِيٌّ^(٥)

اقول على الرغم من مكانة الشريف، وان البويهيين هم حكام البلاد الفعليون، فان الشاعر لم يسلم من تعنيف الخليفة القادر بالله^(٦). فما ظنك بمن هم دون الشريف بدرجات كثيرة؟

ولعلي - بعد هذا الذي بسطت القول فيه - غير مبالغ ولا موغل في الافتراض والظن حين لاحظ انه من المستبعد ان يقف الشعراء العراقيون صامتين - كما تريد المصادر ان توحى الينا - وهم يرون ابا الحارث البساسيري يقتل وزير الخليفة ويدعو الى الفاطميين على منابر بغداد لمدة

(٢) الشَّنَان: البغضاء.

(١) اللُّحْمَةُ: القرابة.

(٣) ديوان الشريف ٢٨٢/١

(٤) الأوام: العطش.

(٥) ديوان الشريف ٩٧٢/٣ - ٩٧٣

(٦) النفوذ الفاطمي ص ٨٧، الحماسة في شعر الشريف ص ٦٨

سنة كاملة^(١). كذلك لا اكاد اصدق ان نهاية الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ - بعد كل ما بذلته من جهود وتضحيات استمرت عشرات السنين لتثبت موضع قدم لها في العراق^(٢) - تكون بهذا الشكل الذي يحاول المؤرخون اقتناعنا به، وهوان جميع الشعراء العراقيين سارعوا الى الوقوف بجانب العباسيين، فرحين مستبشرين بزوال دولة الكفر والاحاد، على الرغم من الشواهد الكثيرة التي تثبت ان بعض هؤلاء الشعراء - ومنهم ابن التعاويذي والحيص بيص - لم يكونوا على علاقة طيبة ببني العباس في جميع الاحوال.

قال ابن التعاويذي من قصيدة مطلعها:

يَا زَمَنَ السُّوءِ الَّذِي مَسَّنِي بَعْمَرَةٍ^(٣) لَيْسَ لَهَا كَاشِفٌ

قال:

يَحْسُدُنِي النَّاسُ عَلَى مَوْرِدٍ مُكْدَرٍ يَنْزَحُهُ الرَّاشِفُ
وَصَاحِبُ هَمِّي مَا سَرَّهُ وَهُوَ عَلَى مَا سَاءَنِي عَاكِفُ
إِذَا بَدَتْ مِنِّي لَهُ هَفْوَةٌ أَعْرَضَ لَا يُعْطِفُهُ عَاطِفُ

الى ان قال:

يَا دَوْلَةً مَا نَالَنِي خَيْرُهَا وَأُنِي مِنْ شَرِّهَا خَائِفُ
نَاءَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ عَنْهَا، فَمَا يَطُوفُ لِلذُّعْرِ بِهَا طَائِفُ
فَارْقُبْ لَهَا إِنْ رَقَدَتْ فِتْنَةٌ نَكْبَاءُ^(٤) شَرُّ رِيحِهَا عَاصِفُ^(٥)

وقد اشار هذا الشاعر مرات الى انه يفكر في مغادرة العراق، بسبب ما يلاقي كقوله:

سَمِئْتُ مِنَ الثَّوَاءِ بِدَارِ ذُلٍّ أُجَرِّدَيْلَ مَنْقَصَةٍ وَوَهْنِ
أَرَى مَنْ لَا تَشَاقُ^(٦) إِلَيْهِ عَيْنِي وَاسْمِعْ مَا تَصُمُّ عَلَيْهِ أُذُنِي
وَأُمْسِي مُضْمِراً وَدَأَّ صَاحِحاً لِمَطْوِيٍّ عَلَى حَنْقٍ وَضِغْنٍ^(٧)

(١) وفيات الأعيان ١٧٢/١

(٢) النفوذ الفاطمي - ابتداء من ص ٧٢ - ١٣٦

(٣) الغمرة: الشدة.

(٤) النكباء: الريح المنحرفة عن مهاب الرياح فتهب بين ريحين.

(٥) الريح العاصف: الشديدة. الديوان ص ٢٩٦

(٦) لا تشاق: بالاصل: لا تتشاق، وهو كاسر للوزن.

(٧) الضغن: الحقد.

فَأَسْهَلْ جَانِبًا، وَالْيَنُ عِظْفًا لأَجْبَاسٍ^(١) من المعروف حُشْنُ
أُنَافِيسُ فِي وِدَادٍ أَخٍ مَشُوبٍ^(٢) بِغِلٍّ^(٣) أَوْ سَمَاحٍ يَدٍ بِمَنْ
إلى ان قال:

تَنْقُلُ إِنْ فِي النَّقْلِ اغْتِلَاءٌ وَعِزًّا، وَالْهَوَانُ مَعَ الْمَبْنِ
لَثْنٌ ضَاقَتْ بِي الزُّورَاءُ دَارًا فَمَا ضَاقَتْ بِبِلَادِ اللَّهِ عَنِّي
وَلِي فِي الْأَرْضِ مُضْطَرَبٌ وَسِيعٌ وَمُرْتَكِضٌ إِذَا هِيَ لَمْ تَسْعَنِي
سَأْرَهْفُ مِنْ مَضَاءِ الْعَزَمِ عَضْبًا^(٤) إِذَا نَبَتِ الصَّوَارُمُ لَمْ يَخُنِّي
.. الخ^(٥).

وقال من قصيدة ثانية:

فَسَدَّ النَّاسُ، فَالْمَوْدُ^(م) دَاتٌ فِيهِمْ عَلَى ذَخْنٍ^(٦)
فَتَوَحَّدُ، وَلَا تَكُنْ ذَا سُكُونٍ إِلَى سَكْنٍ^(٧)
وَتَغَرَّبْتَ لَا تَحْمِلِ^(م) ضِيمَ فِي مَوْطِنٍ تَهْنُ
فَأَخُو الْفَضْلِ حَيْثُ كَا نَ غَرِيبًا عَنِ الْوَطْنِ
فَهُوَ كَالْمَاءِ مَا أَقَا مَ بِأَرْضٍ إِلَّا أَجْنُ^(٨)
وَالْفَتَى الْحَازِمُ الَّذِي سَبَرَ^(٩) الدَّهْرَ وَامْتَحَنَ^(١٠)

وأما الحَيْصُ بِيصٍ فإن دراسة شعره تثبت أن صلاته بزعماء الدولة العباسية ومنهم الخلفاء، محدودة ضيقة^(١١) وقد كان الرجل معروفًا بجميله إلى الشيعة رغم أنه شافعي المذهب^(١٢)، وقد خرج هذا الشاعر إلى حرب الخليفة المسترشد بصحبة أمير الحلة دُبَيْسَ المزيدي^(١٣). ويبدو أن ولاء الحَيْصُ بِيصٍ لبني العباس كان موضع شك، ولذلك كان هذا الشاعر ممن قبض عليهم

(١) الأجباس: واحدها جَبَسٌ: اللثيم، الجبان.

(٢) مشوب: ممزوج.

(٣) الغِلُّ: الخقد والغش.

(٤) العَضْبُ: السيف.

(٥) الديوان ص ٤٤١

(٦) ذَخْنٌ: فساد.

(٧) السكْنُ: الانقطاع عن الحركة ويراد بها هنا المسكن أو المنزل.

(٨) أَجْنُ الماء: تغير لونه وطعمه.

(٩) سَبَرَ الدهر: عرفه جيدا.

(١٠) الديوان ص ٤٢٧ - ٤٢٨

(١١) أنظر - مثلاً - أسماء المدوحين في الجزء الأول من الديوان المطبوع.

(١٢) الشعر العربي في العراق ٦٣/٢

(١٣) مقدمة الجزء الأول المطبوع ص ٤٧

حين ورد الخبر الى بغداد بوفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ، ولكنه اطلق بعد حين واعيد عليه ما أخذ منه^(١). وللحيص بيص مقطوعة في ديوانه المطبوع يعاتب فيها الخليفة المسترشد على قلة ما يصل اليه لقاء شعره أولها:

خَلِيفَةُ اللَّهِ مَا لِي كُلَّمَا بَسَطْتُ نَفْسِي الرَّجَاءَ طَوَى الْجِرْمَانَ آمَالِي؟
وَكُلَّمَا كَثُرَتْ - وَالْحَالُ شَاهِدَةٌ - وَسَائِلِي أَذْنْتُ حَالِي بِإِقْلَالِ
الى ان يقول:

فَارْعَوْا ذِمَامَ حُبِّ دُونَ مَجْدِكُمْ مُقَارِعَ بَيْنَ قَوَالٍ وَصَوَالٍ
وَهَوِّنُوا الْمَالَ فِي إِحْرَازِ حَمْدِكُمْ فَالْحَمْدُ لِلْمُقْتَنِي أَبْقَى مِنَ الْمَالِ^(٢)
والمقطوعة صريحة الدلالة على ان خلفاء بني العباس كانوا لا ينظرون الى الحيص بيص بارتياح، ولذلك يتعمدون التفتير عليه في العطاء.

مدح العباسيين بعقائد الفاطميين:

مر بنا ان جوهر الخلاف وسبب الصراع والقتال بين العباسيين والفاطميين الذي استمر اجيالاً طويلة، وخسر المسلمون جميعاً بسببه كثيراً من الارواح كان يمكن ان يستفاد منها في الذود عن بلاد المسلمين، اقول لقد شاع وعرف ان الخلاف بين الطرفين سببه الدين أو المذاهب الدينية بعبارة أدق.

فقد قال العباسيون - ومعهم جمهور اهل السنة والجماعة - ان غلو الفاطميين في عقائدهم - التي تدور كلها حول الامام الفاطمي وتمجيده اكثر من أي شيء آخر^(٣) - قد اخرجهم عن جماعة المسلمين، لان الاسلام لا يعرف هذه الصفات التي خلعتها الفاطميون على أئمتهم، ولذلك اطلق عليهم بعض السنة القاباً منها «الكفار» و «الزنادقة» و «المجوس»^(٤).

وحين تدخل الشعراء في هذه المعركة، راحوا يكيلون الشتائم والسباب للفاطميين، حتى اضطر بعض مؤرخي السنة انفسهم الى اسقاط رواية هذا الشعر تخرجاً^(٥).

(١) ابن الأثير ٣٢٨

(٢) الديوان المطبوع ٣٤٣/١

(٣) في أدب مصر الفاطمية ص ٣٦

(٤) دراسات في الشعر في عصر الايوبيين ص ١٤

(٥) اثر الصراع المذهبي ص ٣٠٥ - ٣٠٦

وقد استمرت المعارك سجالات بين الطرفين، كل طرف يحاول ان يثبت ويبرهن على ان رئيسه الأعلى أحق بالزعامة الدينية والدنيوية من خصمه لانه اقرب الى الرسول ﷺ من جهة أو لأن صفاته الدينية التي حباه الله بها وفضله لاجلها اكثر وأوضح مما هي عند الخصم. . وهكذا حتى سقطت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ، وبعد هذا التاريخ كان المفروض ان يعود المنتصرون- وهم الايوبيون والعباسيون- الى العقيدة التي حاربوا الفاطميين من أجلها. . ولكن ما حصل كان على النقيض تماما: فقد استمرت الصفات التي غلا الفاطميون فاطلقوها على خلفائهم استمرت تطلق على ملوك الايوبيين وخلفاء بني العباس، بل لقد قيل في هؤلاء من النعوت والصفات ما لم يقله الفاطميون^(١)، وهذا مما يؤكد ان الدين بريء مما نسب اليه، وانه كان ستارا لاهداف سياسية.

فاذا عدنا الى الشعر العراقي، موضوع هذه الرسالة، فسوف نجد ان مديح ابن التعاويذي للخليفتين المستضيء وابنه الناصر لدين الله، يكون اكبر مجموعة من القصائد تصلنا كاملة من مدائح خلفاء بني العباس في القرن السادس، وبدراسة هذه المجموعة الشعرية النادرة، ظهر واضحا ان شاعر الديوان العباسي كان يمدح الخلفاء بالصفات والنعوت والمعاني التي اشتهرت بانها من اختراعات الفاطميين وغلوهم في أئمتهم.

١ - من عقائد الفاطميين العقيدة التي كثيرا ما ردها دعاة المذهب، والتي تنص على انه لا تقبل من عبد طاعة الا باعتقاد ولاية الامام. وقد نظم هذه العقيدة شاعر المذهب الفاطمي وداعيته المؤيد^(٢) في الدين، فقال يمدح امامه المستنصر:

يا وَلِيَّ الْاِلهِ يا مَنْ به تُقَمِّمُ (م) بَلْ مِنْا صَلَاتُنَا وَالصَّيَامُ^(٣)

وقال تميم^(٤) بن المعز :

به يَقْبَلُ اللهُ فَرَضَ الصَّيَامِ وَحَجَّ الْحَجِيجِ وَأَهْلًا لَهَا^(٥)

وقوله:

(١) دراسات في الشعر ص ٣٦، ٣٩ - ٤٣، أثر الصراع ص ٤٥٢، ٤٥٣

(٢) هوهبة الله بن موسى بن داود الشيرازي، كان من أكبر علماء عصره، وتدلنا كتبه على أنه كان واسع الثقافة فصيلا اماما تاما بجميع العلوم التي عرفت في العالم الاسلامي إذ ذاك. توفي في القاهرة سنة ٤٧٠ هـ. مقدمة ديوانه ص ١٧ - ٦٤ - في أدب مصر الفاطمية ص ٨١ - ٨٨

(٣) ديوان داعي الدعاة ص ٢٣٤

(٤) هو أبو علي تميم بن المعز بن المنصور، كان فاضلا شاعرا ماهرا توفي بمصر سنة ٣٧٤ هـ. يتيمة الدهر ٢٥٣/١، ٣٩٠ - ٣٩٧

(٥. ط. الصاوي)، المنتظم ٩٣/٨، وفيات الأعيان ٢٦٩/١، مقدمة ديوانه.

(٥) ديوان تميم ص ٣٢٠

فَهَيَّئْتُهُ يَا مَنْ بِهِ اللَّهُ قَابِلُ مَنْ الْخَلْقِ فِيهِ كُلُّ نُسْكِ مُقَدَّمٌ^(١)

وهذا المعنى الفاطمي هو نفسه الذي رده ابن التعاويذي في مدح خلفاء بني العباس، فقال يمدح الناصر:

خَلِيفَةُ طَاعَةِ الرَّحْمَنِ طَاعَتُهُ حَقًّا وَعِصْيَانُهُ لِلَّهِ عِصْيَانُ
إِذَا تَمَسَّكَتْ فِي الدُّنْيَا بِطَاعَتِهِ فَمَا لِسَعِيكَ عِنْدَ اللَّهِ كُفْرَانُ^(٢)
وقال يمدح المستضيء بأمر الله:

لَوْلَا تَمَسُّكُهَا بِطَاعَتِهِ لَمَا أَنَى لَهَا بُمِرَاجِمٍ عَنْ أَمْرِهِ
وَبِهِ عِبَادَتُهَا تَتِمُّ، وَنُسْكُهَا وَقَالَ إِيْضًا يَمْدَحُهُ:
صَحَّتْ عَقِيدَتُهَا وَلَا إِسْلَامُهَا لَوْ حَاوَلْتُهُ لَسَفَّهْتُ أَحْلَامُهَا
وَنِكَاحُهَا، وَصَلَاتُهَا، وَصِيَامُهَا^(٣)

تَرْمِي الْعِدَى بِنَوَافِذِ^(٤) الدِّينِ لَا يُرْتَضَى مِنْ عَامِلٍ
وَمِنْ قَصِيدَةٍ فِي مَدْحِ النَّاصِرِ:
عَزَمَاتٍ مِنْ آرَائِهَا عَمَلٌ بِغَيْرِ وَلَائِهَا^(٥)

مِنْ مَعْشَرٍ وَرَثُوا النَّبِيَّ خِلَافَةً قَوْمٌ بِحَبِّهِمْ وَطَاعَتِهِمْ غَدَاً
أَفْضَتْ إِلَيْهِمْ كَابِرًا^(٦) عَنْ كَابِرٍ فِي الْحَشْرِ يُعْرِفُ مُؤْمِنٌ مِنْ كَافِرٍ^(٧)
وقال يمدح المستضيء:

وَطَاعَتُكَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالْهُدَى وَلَوْلَاكَ مَا صَحَّتْ عَقِيدَةُ مُؤْمِنٍ
وَعِصْيَانُكَ الْإِلْحَادُ فِي الدِّينِ وَالْكَفَرُ تَقِيَّ، وَلَمْ يُقْبَلْ دُعَاءٌ وَلَا نَذْرُ^(٨)

ويبدو ان الناس في الفترة التي ادرسها - أو العامة منهم على وجه التخصيص - كانوا

(١) ديوان تميم ص ٣٨١.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٤١٤

(٣) نفسه ص ٤١٠.

(٤) الاراء النوافذ: المطاعة.

(٥) الديوان ص ٤٧٣ - ٧٤

(٦) الكابر: الجد الأكبر.

(٨) نفسه ص ١٧٣

(٧) الديوان ص ١٧٠

يعتقدون ان فروض الدين لا تقبل منهم الا اذا رضي عنهم الخليفة، جاء في المنتظم: ان العامة ببغداد كانوا يسبون الاثراك السلاجقة ويقولون يا باطنية، يا ملاحدة، عصيتم أمير المؤمنين، فعقودكم باطلة وانكحتكم فاسدة^(١).

ومما يتصل بولاية الامام وانها احد اركان الدين، قال الفاطميون: ان الامام حجة الله على عباده وهاديهم الى الطريق القويم، وهو حبل الله الممدود بينه وبين العباد^(٢). وقد وردت هذه اللفظة «حجة الله» و«حبل الله» عدة مرات في مدائح ابن التعاويذي للخليفين الناصر لدين الله. ووالده المستضيء، كقوله في المستضيء:

أَنْتَ - فَلْيَرْغَمْ الْعِدَى - حُجَّةُ اللَّهِ - وَأَنْتَ الْمَحَجَّةُ الْبَيْضَاءُ
أَنْتَ حَبْلُ اللَّهِ الَّذِي فَارَ مَنْ أَدَّ - نَتَهُ مِنْهُ مَوْدَّةٌ وَوَلَاءُ^(٣)

وقال في الناصر:

يَا مُبِيدَ الْعِدَى، وَيَا قَاتِلَ الْمَحْ - لِي نِدَاءُ وَطَارِدَ الْإِفْلَاسِ
حُجَّةُ اللَّهِ أَنْتَ وَالسَّبَبُ الْمَمْدُودُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ^(٤)

٢ - اعتقد الفاطميون بان الامام يتصف بما يتصف به الرسول، وان كانت مرتبة الامامة دون مرتبة النبوة، ولذلك قالوا بان الأئمة لهم حق الشفاعة لاتباعهم يوم القيامة. وهذا يفسر قول ابن هانيء في مدح المعز:

هَذَا الشَّفِيعُ لَأَمَةٍ يَأْتِي بِهَا - وَجُدُوهُ لِحُدُودِهَا شَفْعَاءُ
هَذَا أَمِينُ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ - وَبِلَادِهِ إِنْ عُذَّتِ الْأَمْنَاءُ^(٥)

وهذه الفكرة ذاتها مدح بها ابن التعاويذي الخليفين الناصر لدين الله والمستضيء عدة مرات، قال يمدح المستضيء من قصيدة:

أَنْتُمْ لِلنَّاسِ أَعْلَامٌ هُدًى - يَلْتَجِي السَّارِي إِلَى نِيرَانِهَا
أَنْتُمْ فِي الْحَشْرِ ذُخْرٌ يَوْمَ لَا - يَنْفَعُ النَّفْسَ سِوَى إِيْمَانِهَا
يَوْمَ لَا تَحْبُطُ أَعْمَالُ فَتًى - حُكْمُكُمْ فِي كَفْتَي مِيزَانِهَا

(١) المنتظم ٢٥٩/٨

(٢) في أدب مصر الفاطمية ص ٢٢، اثر الصراع ص ٣٣٧

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٢

(٤) نفسه ص ٢٣٨

(٥) شرح ديوان ابن هاني ص ١٨

وَذُنُوبٌ أَوْبَقْتَنِي^(١) كَثْرَةً بِكُمْ أَطْمَعُ فِي غُفْرَانِهَا^(٢)
وقال أيضا في مدحه:

يَا مَنْ عَلَيْهِ مُعَوَّلٌ فِي عَاجِلِ الدِّمِ (م) دُنْيَا، وَفِي الْآخِرَى عَلَيْهِ أَعْوَلُ
وَبِمَدْحِهِ مِيزَانُ أَعْمَالِي - إِذَا خَفَّتْ مَوَازِينُ الْقِيَامَةِ - تَنْقَلُ^(٣)
وقال يمدح الناصر:

أَيُّضِلُّ أَوْ يَصْلِي لَطَى مَنْ أَنْتُمْ شَفَعَاؤُهُ وَالْيَ الصَّرَاطِ هُدَاتُهُ؟
وَاللَّهِ لَا وَرَدَ الْقِيَامَةَ ظَامِيًّا مَنْ أَنْتُمْ آلُ النَّبِيِّ سُقَاتُهُ
كَلَّا وَلَا خَابَ أَمْرُؤُ وَالْأَكْمُ فِي كَفَّتِي مِيزَانِهِ حَسَنَاتُهُ^(٤)
وقال فيه أيضا:

بِهِمْ تُحْطُ الْأَوْزَارُ عَنَّا، فَإِنْ عَنْ بَلَاءٍ فَهَمُّ لَنَا وَزُرُ^(٥)
كُلُّ مُسِيٍّ إِلَى شَفَاعَتِهِمْ فِي الْحَشْرِ يَوْمَ الْمَعَادِ يَفْتَقِرُ^(٦)
وقال:

مَوَازِينُ أَعْمَالِي غَدًا بَوْلَانَهُمْ - إِذَا خَفَّ مِيزَانُ الْخَلَائِقِ - تَرْجُحُ
مِيَامِينُ مَنْ عَادَاهُمْ، فَهُوَ مُخْسِرٌ شَقِيٌّ، وَمَنْ وَالَاهُمْ فَهُوَ مُرِيحٌ^(٧)
٣ - حِينَ قَالَ ابْنُ هَانِي الْأَنْدَلُسِيِّ فِي مَدْحِ الْمَعَزِ لَدَيْنَ اللَّهِ الْفَاطِمِيِّ:
مَا شِئْتُ لَا مَا شَاءَتْ الْأَقْدَارُ فَاحْكُمْ، فَانْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(٨)

فهم القدماء من هذا البيت وامثاله ان الشاعر يؤله امامه، وحكموا بان الائمة
الفاطميين ادعوا الالهية^(٩). ولم يشر احد الى ان ابن التعاويذي قد نقل هذا المعنى
حرفيا ليمدح به الخليفة العباسي الناصر لدين الله، فقال من قصيدة:

(١) أَوْبَقْتَنِي: أَهْلَكْتَنِي.

(٢) الديوان ص ٤٤٦

(٣) نفسه ص ٣٢٩

(٤) الديوان ص ٦٧

(٥) الوزر: أَرَادَ الْمَعِينُ وَالْمُسَاعِدَ، مِنَ الْفِعْلِ: أَزَرَ.

(٦) الديوان ص ١٦٠

(٧) نفسه ص ٨١، وَأَنْظَرْ أَيْضًا ص ١٦٦، ١٧٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ١٧٠

(٨) شرح ديوان ابن هاني ص ٣٦٥

(٩) فِي أَدَبِ مِصْرَ الْفَاطِمِيَّةِ ص ٢٩

أَنْتَ رَبُّ الزَّمَانِ تَجْرِي بِتَصْرِيحٍ (م) فَكُ فِي أَهْلِهِ يَدُ الْمُقْدُورِ
والليالي خَوَادِمُ لَكَ، وَالْأَيُّ يَأْمُ، فَاحْكُمُ حُكْمَ الْغَزِيرِ الْقَدِيرِ^(١)

وقد يكون شاعر الفاطميين معذورا، لانه انما يعبر عن عقيدة القوم وفلسفتهم، ولذلك قال المرحوم الدكتور محمد كامل حسين عند بيت ابن هاني المتقدم: ولو كان القدماء يعرفون حقيقة العقيدة الفاطمية ما وجدوا في هذا القول تأليها ولا غلوا في العقيدة^(٢).

اما شاعر القرن السادس فما اظن سنيا واحدا يجد له اي عذر. لقد اراد أن يجدد ويطور في المعاني التي مدح بها الخلفاء، وقد وجد كأن القدماء لم يتركوا زيادة لمستزيد في هذا الميدان، فاضطر الى الكفر الصريح. وكما هي العادة دائما حين لا يجد الشاعر من يحاسبه او يناقشه في معاني شعره وانما يواجه بالصمت المطبق - ربما خوفا من الخليفة لان الشاعر من المقربين اليه - لذلك استمر الشاعر يمدح الخلفاء بهذه المعاني الدينية، فقال من قصيدة أخرى في الناصر:

.. تَبْقَى بَقَاءَ الْأَيَّامِ حَالِيَةً
.. فَاحْكُمُ عَلَى الدَّهْرِ قَادِرًا فِيمَا
.. يَا صَاحِبَ الْعَصْرِ وَالزَّمَانِ وَمَنْ
.. وَمَنْ لَهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا
وَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ وَالشَّوَاهِقُ وَالْغُرُ
.. عِتَادُ مُلْكٍ لَهُ زَيْبُرُ سَطَى
.. مِنْ مَعَشَرٍ تَخَضَعُ الْجِبَاهُ لَهُمْ
وَمِنْ قَصِيدَةٍ فِي مَدْحِ الْمُسْتَضِيِّ:

مُرِ الدَّهْرَ يَفْعَلُ مَا تَشَاءُ، فَإِنَّهُ
.. وَكَيْفَ يُقَاسُ الْبَحْرُ جُودًا بِكَفِّهِ
وَمَا لُضِيَاءُ الْبَدْرِ إِشْرَاقُ وَجْهِهِ
.. وَكَيْفَ يُهْنَى بِالزَّمَانِ، وَإِنَّمَا
بَأْمَرَكَ يَجْرِي فِي تَصْرِفِهِ الدَّهْرُ
وَمِنْ بَعْضِ مَا تَحْوِيهِ قَبْضَتُهُ الْبَحْرُ
وَأَنْتَى، وَمِنْ إِشْرَاقِهِ خُلُقُ الْبَدْرِ؟
تُهْنَى بِهِ الْإَيَّامُ وَالْعَامُ وَالْعَصْرُ

(٢) في أدب مصر ص ٢٩

(١) الديوان ص ١١٥

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ١٥٨ - ١٦٠

ولكننا نُثني عليه تعبداً وإن كان عنا ذا غنى فبنا فقر^(١)

وعندي ان شعر ابن التعاوذي هذا، وهو شاعر الخليفة الرسمي، قد شجع بقية الشعراء على السير في هذا الاتجاه، ولذلك نجد كمال الدين النبیه المتوفى سنة ٦١٩ هـ، يقول في مدح الخليفة الناصر:

بَغْدَادُ مَكْتَنًا، وَاحْمَدُ أَحْمَدُ حُجَّوْا إِلَى تِلْكَ الْمَنَازِلِ وَاسْجُدُوا
يَا مُذْنِبِينَ بِهَا ضَعُوا أَوْزَارَكُمْ وَتَطَهَّرُوا بِتَرَابِهَا، وَتَهَجَّجُوا
فَهَنَّاكَ مِنْ جَسَدِ النَّبُوَّةِ بِضَعَةٍ^(٢) بِالْوَحْيِ جَبْرِيلُ لَهَا يَتَرَدَّدُ
... الخ^(٣).

ولهذا الشاعر قصيدة أخرى لم يبق فيها زيادة لمستزيد، مدح بها القاضي الفاضل ومطلعها:

قُمْتُ لَيْلَ الصُّدُودِ إِلَّا قَلِيلاً ثُمَّ رَتَلْتُ ذِكْرَكُمْ تَرْتِيلاً^(٤)

ان القراءة الدقيقة لمدائح ابن التعاوذي في خلفاء بني العباس، تدل على أن الشاعر يريد اثبات تفوق الخليفة العباسي على منافسه الفاطمي من الناحية الدينية حتى بعد ان زال نفوذ الفاطميين السياسي، ولذلك كان من الطبيعي أن يصف حرص الخليفة الشديد على اداء شعائر الاسلام - ومنها الصلاة والصوم - حتى في اصعب الأوقات كقوله في مدح الناصر:

إِمَامٌ يُطِيعُ اللَّهَ فِي خَلَوَاتِهِ بِطَاعَتِهِ الْأَعْمَالُ تَزْكُو^(٥) وَتَصْلَحُ
.. هُوَ الْقَائِمُ الصَّوَامُ، وَاللَّيْلُ صَائِفٌ وَلِلْقَيْظِ زُنْدٌ فِي نَوَاحِيهِ يَقْدَحُ^(٦)
وقوله:

إِمَامٌ يَخَافُ اللَّهَ سِرًّا وَجَهْرَةً وَيُضْمِرُ تَقْوَى اللَّهِ فِي الْحَلِّ وَالْعَقْدِ
.. يُقِيمُ حُدُودَ اللَّهِ غَيْرَ مُرَاقِبٍ بِقَائِمٍ مَطْرُورٍ^(٧) الشُّبَا بَاتِرِ الْحَدِّ^(٨)

(١) نفسه ص ١٧٣ - ١٧٦ ، وأنظر أيضا ص ١٧٢

(٢) البَضْعَةُ: القطعة من اللحم.

(٤) ديوان ابن النبیه ص ٦٨

(٥) تزكو: تحسن وتصلح.

(٧) مَطْرُور الشُّبَا: مُعَدَّد الطَّرَف.

(٣) ديوان ابن النبیه ص ٣

(٦) ديوان ابن التعاوذي ص ٨٠ ، ٨١

(٨) الديوان ص ١٤٩ ، ١٥٠

وقال*

فَلِمُلْكِهِ رَادُ^(١) الضحى تثقيفه ولربِّه جُنَحُ^(٢) الدُّجَى إخبأته^(٣)
.. لابن السَّيْلِ عَطَاؤُهُ وَجِبَاؤُهُ^(٤) وَلِذِي الْإِسَاءَةِ حِلْمُهُ وَأَنَاتُهُ^(٥)

كذلك حرص الشاعر على القول - في جميع المدائح تقريبا - على ان الخليفة شديد القرابة من الرسول ﷺ فهو ابن عمه :

أَلِ النَّبُوءَةِ بُرْدُهَا وَقَضِيئُهَا لَكُمْ وَمُنْبَرُهَا مَعَا وَحُسَامُهَا

أبناء عَمِّ الْمُصْطَفَى الْهَادِي وَخِي^(٦) رُ عَصَابِيهِ وَطِيءُ الثَّرَى أَقْدَامُهَا^(٧)

ومن البديهي أن الشاعر لا يمكن ان يعيد ويكرر في جميع القصائد والأبيات وفي شتى المناسبات عبارة واحدة هي أن الخليفة ابن عم الرسول ﷺ ولذلك راح يتصرف في هذا المعنى ويردده بألفاظ مختلفات فمرة يقول :

أَلِ الرِّسَالَةِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِمُ وَالْحَمْدُ يُفْتَحُ^(٨) الصَّلَاةُ وَتُخْتَمُ

قَوْمٌ عَلَى أَيْبَاتِهِمْ تَنْزَلُ الْإِمْلَاقُ، وَالْمَبْعُوثُ أَحْمَدُ مِنْهُمْ^(٩)

وقال ايضا :

جَارٍ عَلَى سُنَنِ^(١٠) وَسُنَّةِ الدِّينِ^(١١) خُلَفَاءٍ مِنْ آبَائِهِ تُتَقَبَّلُ^(١٢)

شَرَفًا بَنِي الْعَبَّاسِ شَادَ بِنَاءُهُ لَكُمْ فَاعْلَاهُ النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ

وَابْوَكُ سَيِّدُ هَاشِمٍ طَرًّا وَخِي^(١٣) رُ النَّاسِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ وَأَفْضَلُ

وَوَقَّفْتُ مِنْ شَرَفِ الْخِلَافَةِ مَوْقِفًا مِنْ دُونِهِ سِرُّ النَّبُوءَةِ مُسَبَّلُ^(١٤)

والشاعر في هذا البيت الاخير يخاطب الخليفة المستضيء، ويلاحظ ان الشاعر - وهو يتصرف في التعبير عن القرابة بين الرسول ﷺ والخليفة - لا يتحرج من تجاوز المعروف والمسموح به دينيا في هذه الصلة، مما يكشف حقيقة تدين الشاعر من ناحية، والمدى الذي بلغت سلطة الدين على الناس في القرن السادس من ناحية اخرى، ففي البيت المشار اليه

(١) راد الضحى : وقت ارتفاع الشمس .

(٢) الجُنَح : الناحية .

(٣) الأخبأت : الخشوع لله سبحانه .

(٤) الجبَاء : العطاء .

(٥) نفسه ص ٤٠٩

(٦) الديوان ص ٦٥ ، ٦٦

(٧) الديوان ص ٣٧٣

(٨) كذا بالأصل والصواب : تفتتح .

(٩) تُتَقَبَّلُ : تتبع ، وهي بالأصل بالياء تنقبل تصحيف .

(١٠) السُّنن : الطرق .

(١١) الديوان ص ٣٢٨ ، ٣٢٩

قال الشاعر «ستر النبوة» وهو يريد «ستر الخلافة» وهو متعمد في هذا التلاعب بالالفاظ - وهو غير جائز دينيا - لانه يريد ان يوحي للناس بان لا فرق بين الخلافة والنبوة، ولست هنا انطق الشاعر بما لم يقصد اليه، فقد قال في قصيدة اخرى:

أَرَدَيْتُمْ كَسْرِي وَتُبِعَ خَيْرِ وَالْمُلْكُ مَعْصُوبٌ بِكُمْ حَزْرَاتُهُ^(١)
وَكِفَاكُمْ شَرْفًا وَمُعْجَزَةً تَضَا وَلَهُ لَكُمْ حَتَّى هَوَتْ شُرَفَاتُهُ^(٢)

فقد زعم الشاعر ان الخلفاء من بني العباس لهم معجزات، وهي لم تصح الا للانبياء. وقال يمدح الناصر:

فَقُلْ لِمَلِكِ الْأَرْضِ دِينُوا لِأَمْرِهِ وَلَا تَتَوَلَّوْا حَائِرِينَ عَنِ الْقَصْدِ
وَلَا تُضْمِرُوا عِصْيَانَ أَمْرِ إِمَامِكُمْ مُخَالِفَةً عَنْهُ فِعْصِيَانَهُ يُرْدِي
أَطِيعُوهُ مِنْ حُرٍّ وَعَبْدٍ، فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ مَبْعُوثٍ إِلَى الْحُرِّ وَالْعَبْدِ^(٣)

ففي هذا البيت الاخير جعل الخليفة كالنبي فهو «مبعوث» الى الحر والعبد ولعل ابن التعاويذي في ابياته هذه ومحاولاته للتقريب بين النبي والخليفة أراد ان يقلد الفاطميين الذين يعتقدون ان الامام يقوم مقام النبي^(٤).

٥ - وما دام الشاعر ابن التعاويذي حريصا على ابراز المكانة الدينية للخليفة العباسي - وهو ما يمكن ملاحظته بسهولة من مدائح الشاعر كلها - لذلك لا بد أن يستعين بآيات والفاظ القرآن الكريم في اشاعة الجو المقدس والاطار الروحي لتلك القصائد، فمثلا حين يمدح المستضيء بعد اعادة الخطبة للعباسيين بمصر قال:

مَلَكَتْهَا يَدَاكَ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَشَاءُ^(٥)

وقال ايضا في القصيدة ذاتها:

نَزَعَ الْغُلَّ^(٦) مِنْ صُدُورِهِمْ عِنْدَ ذِكِّ جُودٍ لَا يُبْتَغَى وَعِطَاءُ^(٧)

(١) الحزرات: الخيار من كل شيء.

(٢) الديوان ص ٦٦

(٣) نفسه ص ١٥٠، وأنظر ص ٢٨٣ البيتان ٩، ١٠

(٤) في أدب مصر الفاطمية ص ١٨٦

(٥) الديوان ص ٢

(٦) الغل: الحقد.

(٧) الديوان ص ٥

وواضح ان البيت الاول من قوله تعالى في الآية ٢٤٧ (سورة البقرة): وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. والبيت الثاني من قوله تعالى في الآية ٤٣ (سورة الاعراف): وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ.

ومن قصيدة ثانية قال الشاعر يمدح الناصر:

وَبِهِ يُرْتَجَى النَّجَاءُ إِذَا حُصِّصَ صِلَ يَوْمَ الْحِسَابِ مَا فِي الصُّدُورِ^(١)
وهو من قوله تعالى في الآية ١٠ (سورة العاديات): أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ.

ومن قصيدة في مدح المستضيء قال:

بَقَدَفْتُهُم بِالرُّعْبِ مِنْ كُلِّ مَسْلَكٍ فَكُلُّ سَبِيلٍ أَمَّ رَائِدُهُمْ وَعَرُ^(٢)

وهو من قوله تعالى في الآية ٢٦ (سورة الأحزاب): وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، ولست أشك ان الشاعر اظهر براعة في ادخال الألفاظ القرآنية الى مدائح الخلفاء وساعد بذلك على الايحاء بالجو الديني المقدس الذي يحيط بمركز الخليفة، ولكن الشاعر لا يريد لمدح الخليفة ان يقف عند حد، وهو يعلم ان الاستعانة بالقرآن الكريم في المدح عموماً ومدح الخلفاء خصوصاً ليس جديداً، ومن هنا لا بد من تجاوز هذا القديم المعروف. فكان ان اتجه الشعر الى الغلو والافراط في صفات الخلفاء، فالتقى في نهاية المطاف مع شعراء الفاطميين، لقد اراد ابن التعاويذي أن يعبر عن عظم مكانة الخليفة، فكان ان زعم بأن القرآن الكريم مدح الخليفة وأثنى عليه:

يَا مَنْ لَهُ مِدْحٌ يَقْصُرُ نَاطِقاً عَنْهَا لِسَانُ الْمَادِحِ الْوَصَافِ
نَطَقَتْ بِهَا أَيُّ الْكِتَابِ فَكَيْفَ تَبَّ لُغْهَا بِنَظْمٍ قَلَائِدٍ وَقَوَافِ^(٣)؟

وقال ايضاً:

يَا إِمَاماً اغْنَتْ عُلَاهُ عَنْ الْأَشْدِّ عَارِطَهُ وَالنَّمْلُ وَالشُّعْرَاءُ
مَدَحَتْهُ السَّبْعُ الْمِثْنَانِي فَمَا تَبَّ لُغُ غَايَاتِ مَدْحِهِ الْبُلْغَاءُ^(٤)؟

وقال من قصيدة ثالثة:

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٥

(٢) نفسه ص ١٧٥

(٣) نفسه ص ٢٨٧

(٤) نفسه ص ٢

عَنْ جَوْدِهِمْ رُوِيَ أَحَادِيثُ النَّدَى وَبِفَضْلِهِمْ نَطَقَ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ
إِنْ كُنْتَ تُنْكِرُ مَآثِرَاتِ قَدِيمِهِمْ فَاسْأَلْ بِهَا «يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ»^(١)

ان اصل الفكرة التي يرددها ابن التعاويذي هنا موجود عند شعراء الفاطميين منذ القرن الرابع، وما اظن احدا مدح خلفاء بني العباس بها بهذا الشكل قبل شاعر القرن السادس. فمن الشعر الفاطمي قول ابن هاني يمدح المعز:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْلَمْ حَقِيقَةَ فَضْلِهِ فَسَأَلْ بِهِ الْوَحْيَ الْمُنَزَّلَ تَعْلَمُ^(٢) *
وقال ايضا:

نَطَقْتُ بِكَ السَّبْعُ الْمَثَانِي السُّنَا فَكَفَيْنَا التَّعْرِیْضَ وَالتَّصْرِیْحَا
شَهِدْتُ بِمِفْخَرِكَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَا وَتَنَزَّلَ الْقُرْآنُ فِيكَ مَدِيحَا^(٣)

ان النتيجة الحتمية التي يخرج بها الباحث بعد دراسة مدائح ابن التعاويذي في خلفاء بني العباس هي ان الشاعر جعلهم فوق مستوى البشر وان العالم مدين لهم ببقائه ووجوده، ولا يحق لاحد ان يعترض عليهم او يقف في وجوههم، لأنه بذلك يعترض على ارادة الله سبحانه.

واظن ان هذا المفهوم هو نفسه الذي اراده الفاطميون حين غلوا في أئمتهم فاتهموا بالكفر والالحاد والخروج على المبادئ الاسلامية.

ومن البديهي ان ابن التعاويذي ليس الشاعر الوحيد الذي مدح الخلفاء في القرن السادس، بل ان مديحهم يأتي في مقدمة الشعر العراقي كله، كما سبق ان اشرت^(٤). ولعل الابله البغدادي يأتي في هذا الباب بالمرتبة الثانية^(٥).

كذلك من البديهي ان التأثير الفاطمي في الشعر العراقي لهذه الفترة لم يقتصر على شعر ابن التعاويذي وحده، فقد اثبت احد الباحثين المحدثين ان قصيدة ابي الفرج ابن الجوزي في مدح الخليفة المستضيء، والتي مطلعها:

يَا سَيِّدَ الْخَلْقِ وَعَيْنَ الْاَكْوَانِ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْعَظِيمِ السُّلْطَانِ^(٦)

(١) نفسه ص ٣٢٨، وانظر أيضا ص ١٧٤، ١٥٨، ٦٧ (٢) شرح ديوان ابن هاني ص ٦٦٦

(٣) شرح ديوان ابن هاني ص ١٦٠ - ١٦١

(٤) أنظر دراسة شعر المديح في الفصل الثالث.

(٥) له في الخلفاء تسع قصائد. أنظر الديوان و ١ - ٩ (٦) المنتظم ٢٦٣/١٠ - ٢٦٤

فيها آراء فاطمية كما في هذين البيتين:

حُبُّ بني العباسِ أَصْلُ الإيمانِ بَنَى الإلهَ وَدَّهْمُ فِي الجُثْمَانِ
الحجرُ والبيتُ لَهُمُ والأركانُ أَصْبَحَتْ كالرُّوحِ وَنَحْنُ أَبْدَانُ

فقال الدكتور صلاح الدين محمد: ألا تراه قد جعل حب خلفاء بني العباس أصلا للإيمان، وجعلهم في عالم الدين كالأرواح بالنسبة للأبدان، أي أنه يفضلهم على سائر البشر، وقد رأينا هذه المعاني نفسها تتردد على السنة الشعراء الفاطميين^(١)

ولكن رغم هذا يلاحظ أن الآراء الفاطمية واضحة وكثيرة في شعر ابن التعاويذي حين يمدح الخلفاء فقط، وكثرتها في هذا الديوان تلفت النظر وتجعله متميزا عن بقية شعر العراق في القرن السادس كله، مما يحمل المرء على البحث عن أسباب هذه الظاهرة، خاصة وكان المفروض أن يحدث العكس ما دام ابن التعاويذي من شعراء ديوان الخلافة، وهو يعلم أن عقائد الفاطميين وآراءهم من أكبر وأهم أسباب نقمة أهل السنة عليهم. ولا يخفى أن خليفة بغداد هو الرئيس الديني الأعلى للمسلمين من غير الشيعة.

ج - ظن خلفاء بني العباس أن خضوع البلاد للسلاجقة السنيين بدل البويهيين الشيعة سيغير الأمور إلى صالحهم، ولكن الأيام أثبتت بطلان هذا الظن. فبدأ الخلفاء يتتهزون بالفرص للانقضاض على السلاجقة وتخليص البلاد من شرهم، لا سيما وقد كانوا السبب في مقتل خليفتين^(٢).

وكان سلاح العباسيين لطرد السلاجقة وحمل العراقيين على التخلص منهم ذا حدين:

أولهما الدين وقد حمل لواءه أول خليفة عباسي يقود جيشا لمحاربة السلاجقة وهو المسترشد بالله حين قال يحرض الناس ويصف الأتراك: فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق، فبغوا علينا فطال عليهم الأمد، فقصت قلوبهم وكثير منهم فاسقون^(٣). وواضح أن الخليفة تعمد الضرب على وتر الدين الحساس حين اختار الفسوق ليصف السلاجقة به مستشهدا بنص من القرآن الكريم.

وفي سنة ٥٤٧ هـ أمر الخليفة المقتفي لأمر الله بآراقة الخمر من مساكن أصحاب السلطان، ووجد في دار مسعود بلال شحنة^(٤) بغداد كثير من الخمر فأريق، ولم يكن الناس

(١) أثر الصراع المذهبي ص ٤٥١

(٢) أنظر دراسة الحياة السياسية من الفصل الأول لهذه الرسالة.

(٣) جهاز مقاله ص ٣١، والعبارة الأخيرة من الآية ٢٦ (سورة الحديد):

(٤) عن معنى «الشحنة» أنظر: الفصل الأول ص ١٦ هامش ٧

يظنون انه شرب الخمر بعد ان حج^(١).

وهكذا يستغل الخليفة الدين للتشهير بكبار السلاجقة امام العامة فاذا كان من حج منهم يشرب الخمر فما ظنك بالآخرين؟

ويسخر احد علماء الحنابلة من تدين بهروز بن عبد الله الغياثي^(٢) الذي ولي العراق من قبل السلاجقة نيفا واربعين سنة حتى توفي سنة ٥٤٠ هـ قائلا: عجايبهروز منع ان يجتمع الرجال والنساء في السفن وجمع بينهم في المواخير^(٣).

ويبدو لي ان خلفاء بني العباس لم يلاقوا صعوبة في مهاجمة سلاطين السلاجقة من الناحية الدينية، لان الناس - قبل القرن السادس بزمان طويل - قد الفوا واعتادوا ان يكون الخليفة هو الحاكم الذي يذكر الدين اذا ذكر، على حين لم يستطع الناس ان يربطوا بين السلطان والدين برابط متين، فكأن السلاطين هم اصحاب الدنيا، والخلفاء اصحاب الدنيا والدين معا. ولعل دواوين الشعر وقصائد المديح خير من أوضح هذه الحقيقة.

ان الحيص بيص هو اشهر شاعر مدح سلاطين السلاجقة بين شعراء العراق في القرن السادس، ففي الجزء الاول من ديوانه المطبوع - على سبيل المثال - نجد سبع قصائد في مدح السلطان مسعود^(٤)، وقصيدة واحدة في مدح طغرل^(٥) واخرى في مدح سنجر^(٦). وفي هذه القصائد كلها نجد الشاعر يحرص على نعت هؤلاء السلاطين بالشجاعة والهيبة وسعة الملك وضخامة الجيش وشدة الفتك بالاعداء والخصوم، ولكنه - وهو الشاعر الذي يمه رضى الممدوح - لم يصف ايا منهم بالدين او التقوى والورع وكثرة الصوم والصلاة، وهي الصفات التي اعتاد الشعراء ذكرها عند مدح الخلفاء وحدهم.

وثانيهما: ان السلاجقة اعاجم اتركا. وعلى الرغم من ان التيار الديني هو السائد في هذه العصور، فان الباحث يحس بوجود اشارات يمكن ان ترشدنا الى احساس بالقومية بدأ يظهر على نتاج الادباء بصورة خاصة: فمثلا قال العماد الاصفهاني عن الخليفة المقتفي لامر الله وفي خلافته انتصر العباسيون على السلاجقة لأول مرة: «وهو الذي اقام حرمة دار

(١) تاريخ ابن الأثير ٣٢٨

(٢) نسبة إلى مولاة السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه. المختصر المحتاج إليه ٢٦٥/١

(٣) المتظم ١١٧/١٠

(٤) أنظر ص ٨٤، ٢٦٧، ٣٣٠، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٨، ٣٨٣

(٥) ص ١٧٩

(٦) ص ٢٢٨

الخليفة واعاد رونقها وحفظ رمقها وقطع طمع الاعاجم عنها وحكم ياسهم منها^(١)، وقال
 طَلْحَة بن محمد النُّعماني يمدح قاضي قضاة شيراز عماد الدين ابا محمد طاهر بن محمد
 الفزاري من قصيدة:

حَمَانِي نَدَاهُ مِنْ زَمَانِي، وَصَانِي فَلَيْسَ يَرَى وَجْهِي أَيَّازُ وَقِيمَازُ^(٢)
 وَشَائِحُ قُرْبِي قَدْ رَعَاهَا بِجُودِهِ وَحَمْدُ تَلَاهُ نَارِحُ الدَّارِ مُجْتَازُ
 وَقُرْبِي أُصُولِ بَيْنَنَا عَرَبِيَّةٌ رَعَاهَا فَزَارِي الْأُرُومَةِ مُتَّازُ^(٣)
 ولابن الخراساني في الخليفة المستضيء:

إِمَامٌ أَهْدَى دَمًا لِلْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ عَلَى رَغَمِ انْفَادِ الْأَعَاجِمِ وَالتُّرْكِ
 بَقِيَتْ لَهَا حَتَّى الْمَعَادِ خِلَافَةٌ لَهَا نَبَأُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ كَالْمُسْكِ
 وَمَا الْحَسَنُ الْوَضَّاحُ لِلَّهِ دَرَّةٌ سَوَى رَحْمَةِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ مَا شَكَّ
 عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مَا ذَرَّ شَارِقُ^(٤) وَمَا مَخَرَّتْ^(٥) فِي الْبَحْرِ جَارِيَةُ الْفُلْكِ^(٦)

وقال الابله البغدادي يمدح الوزير ابن هبيرة - وهو ساعد الخليفة المقتفي في قتال
 السلاجقة - من قصيدة مطلعها:

وَهَوَاكِ أَقْسَمُ أَنَّهُ أَوْفَى الْقَسَمِ مَا كُنْتُ فِي السُّلُوفِ إِلَّا مُتَّهَمٌ
 قَالَ فِيهَا:

وَعُدًّا تَعُودُ إِلَى الْعِرَاقِ مُظْفَرًا وَالْعُرْبُ قَدْ أَوْلَيْتَهَا مُلْكَ الْعَجَمِ^(٧)

وواضح من هذا البيت ان الوزير كان يقود حملة خارج العراق ضد السلاجقة وان لم يشر
 الديوان الى ذلك.

ومن المحتمل ان يكون الوزير ابن هبيرة قد أثار متعمدا الشعور بالقومية العربية لدى
 البغداديين خاصة، ليضمن تعاونهم معه - على اختلاف مذاهبهم الدينية - ضد السلاجقة حين
 وجد ان العامل الديني وحده ليس مقنعا بدرجة كافية لاثارة السنة ضدهم، لا سيما وقد امتدت

(١) الخريدة ٣٥/١

(٢) أباز وقيماز: أرجح أن الشاعر أراد بها مجرد الإشارة الى الاتراك، ولم يرد أشخاصاً معينين.

(٣) الخريدة ١٣/٢ - ١٤

(٤) ذرّ شارق: طلع واشرق.

(٥) نحرّت: كذا بالاصل المصور، والصواب «نَحَرَّتْ»

(٦) الخريدة / نسخة ايران ق ٢ و ٥

(٧) ديوان الابله و ٥٥

سيطرة السلاجقة على العراق لمدة تقارب قرناً من الزمان . والذي يرجح هذا الاحتمال ان نسب ابن هبيرة - في وفيات الاعيان - قد اوصل الى مَعَدَّ بن عدنان ، وعلق ابن خلكان على سلسلة النسب هذه بقوله : « وانما اخرج له هذا النسب بعد سنين من وزارته ^(١) . فلماذا اراد الوزير ان يكون عربياً صليبي في عصر كانت العجمة فيه هي السائدة؟

اضف الى ذلك ان مجموعة الادباء التي احاطت بابن هبيرة اثناء وزارته والتي شردا وقتل بعضها بعد وفاته من قبل استاذ ^(٢) الدار عضد الدين - على الراجح - كان البعض منهم معروفا بنسبه العربي الصريح مثل الشاعر الضيرير نَصْرُ الثُمَيْرِي ^(٣) ، والبعض الآخر كان عربي النسب عربي الاسلوب وطريقة الانشاد والاياد مثل الشاعر مَفْلِح بن علي الانباري ^(٤) . فاذا صح هذا الاحتمال كانت العداوة والمعروفة بين ابن هبيرة وعضد الدين بن رئيس الرؤساء ، والتي اشار اليها ابن خلكان ^(٥) ، ترجع الى اسباب قومية وصراع بين التيار العربي والتيار الفارسي أو الاجنبي داخل البلاط العباسي ، لان عضد الدين من اسرة فارسية معروفة ^(٦) .

فاذا عدنا الى موضوع الدين والسلاجقة ، فسوف نجد سؤالاً مهماً هو : اين الشعر العراقي الذي يفضح ادعاء السلاجقة الدين ، ويؤيد الخلفاء في حملتهم ضد المنكرات التي جلبها السلاجقة معهم الى العراق؟ .

ان سعي الشعراء للحصول على مكانة لدى الخلفاء - وخاصة بعد ان اصبح زمام البلاد بأيديهم - لا بد ان يحملهم على المبالغة والتهويل من شأن الاضرار التي لحقت بالاسلام بعد احتلال السلاجقة بغداد .

وللاجابة على السؤال المتقدم لا بد من ملاحظة ما يلي :

١ - ان اتخاذ الدين سلاحاً بوجه السلاجقة ، كان يهدف الى غرض سياسي ولذلك لا بد من ملاحظة التطرف في استعماله .

٢ - ان الحيف بيص - وقد اشرت الى انه اشهر من مدح السلاجقة - رجل دين غلب عليه الشعر ^(٧) ، ولذلك من غير المنتظر ان يشير هذا الشاعر باصبع الاتهام الى دين من عرفهم من رجال

(١) وفيات الاعيان ٢٧٤/٥

(٢) انظر عن «الاستاذ دابية» الفصل الثاني ص ٧٢ هامش ٢

(٣) وفيات الاعيان ١٩/٥ ، وقد مرت ترجمة هذا الشاعر ص ٢٠٢ هامش ٨

(٤) الخريدة ٣٠١/٤ - ٣٠٢ (٥) وفيات الاعيان ٢٨٥/٥

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٩٤ ، ٢٢٢ ، ٤٠٤ ، ٤٧٦ ، ٤٦٧ ، ٤٣٣ ، ديوان الابله و ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٧

(٧) وفيات الاعيان ١٠٦/٢

السلاجقة، بل العكس هو الذي تشير اليه بعض قصائده، كقوله في مجاهد الدين بهروز:

لما غدا بهروز مُتَقِيًّا رَبَّ العُلَى في السَّرِّ والجَهْرِ
ألقى عليه من مهابته سرًّا مُطَاعَ النُّهْيِ والأَمْرِ
فَنَجَّاحُهُ في كُلِّ مُطَلَبٍ فَرَضَ على الأَيَّامِ والدَّهْرِ^(١)
وقال من قصيدة في وزير السلطان مسعود:

لا يَخْتَشِي عَضْبَ العَسَاكِرِ بَعْدَمَا صَرَفَ الزَّمَانَ الى رِضا الرَّحْمَنِ^(٢)
وقال في بهروز ايضا:

لِيَهْنِ التَّقَى والدِّينَ كَوْنُكَ سَالِمًا فَلَا دِينَ إِلَّا حَيْثُ أَنْتَ مُجَاهِدُ
تَسَاوَى فِصَاحُ الحَيِّ فِيكَ وَلَكِنَّهُ^(٣) مَدِيحًا، فكلُّ القولِ فِيكَ قِصَائِدُ
كَمَا أَنَّ ضَوْءَ الشَّمْسِ شَاعَ، فَمَا لَهُ -ولا الرَّجُلُ الأَعْمَى- مِنَ النَّاسِ جَاحِدُ
... الخ^(٤).

وهكذا لا يمكن أن يفيدنا شعر الخيص بيص الا في اثبات تدين رجال الدولة السلجوقية الذين مدحهم، وهو امر ربما اشار الى زيف اتهام السلاجقة بركة الدين.

(١) ديوان الخيص بيص المطبوع ٣١٣/١

(٢) نفسه ٣١٥/١

(٣) اللكن: الواحد الكُن: وهو ألمي العمي اللسان.

(٤) الديوان المطبوع ٣٠١/١، وانظر ايضا ٣٠٧/١

٢ - بين الفكر والدين :

درست في الصفحات الماضية ما كان من أثر لاختلاط الدين بالسياسة في شعر القرن السادس العراقي ، فدرست اثر الحروب الصليبية ، والصراع بين العباسيين والفاطميين ، ثم بين السلاجقة والعباسيين من خلال النصوص الشعرية .

وفي الصفحات الآتية سأحاول دراسة أثر الخلاف المذهبي او الفكري على شعر العراق لهذه الحقبة من الزمان .

وعلى الرغم من وجود المذاهب الاسلامية قبل تدخل الاجانب - من بويهين وسلاجقة - في الحياة العباسية ، فقد كان تدخل هؤلاء سببا مباشرا في اذكاء العصبية المذهبية ، وتحولها من خلافات فكرية نافعة الى معارك دموية مدمرة ، كان المنتفع الوحيد منها هو ذلك الاجنبي الدخيل الذي استطاع عن طريقها اطالة أمد احتلاله للبلاد . فحين وجد السلاجقة ان بني بويه قد شجعوا الاتجاه الشيعي على حساب اهل السنة قاموا هم بالاجهاز على الجماعة التي قويت شوكتها ، وهكذا عمت المصائب جميع العراقيين .

ولا بد ان الكوارث والمعارك المذهبية التي عانى منها الناس مدة طويلة هي التي حملت معتنقي المذهب الواحد على التجمع والسكن في مناطق متجاورة متلاصقة كي يواجهوا الاعداء متراصين متحدين فيخفف اثر المصيبة على المجموع . وهذا هو التعليل المعقول للنصوص التي تدل على ان معظم اهل الجانب الغربي من بغداد من الحنابلة^(١) ، على حين كان اهل الكرخ كلهم شيعة امامية لا يوجد فيهم سني البتة^(٢) .

وعلى الرغم مما شاع وعرف من ان نظام الملك ، الوزير السلجوقي ، كان يهدف الى محاربة التشيع عن طريق المدارس النظامية التي بثها في كثير من مدن الامبراطورية السلجوقية^(٣) ، فقد ثبت ان هذه المدارس كانت سببا في تفريق اهل السنة انفسهم ، وتعميق الخلافات وبذر بذور الحسد والبغضاء بين الشوافع من جهة ، وكل من الحنابلة والحنفية من جهة اخرى^(٤) . فلما رأى الحنفية ما عزم عليه نظام الملك الشافعي من تأسيس المدارس النظامية في امهات مدن الاقطار .

(١) المنتظم ١٠/١٤٥

(٢) معجم البلدان : كرخ بغداد (٧/٢٣٤) .

(٣) تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٢٢٢

(٤) نفسه ص ٢٢٦

أسرعوا الى تربة الامام ابي حنيفة وأنشأوا مدرسة بازائها افتتحت قبل نظامية بغداد بما لا يقل عن خمسة اشهر^(١).

وقد اشرت في اول هذه الرسالة^(٢) الى وجود مدارس خاصة للحنابلة منها مدرسة ابن هبيرة الوزير الحنبلي المشهور.

وكان طموح بعض الفقهاء للوصول الى بعض المراكز المرموقة، ومنها التدريس في النظامية، سببا في شيوع بدعة تغيير المذهب التي كثرت في هذه الفترة كما سبق ان اشرت^(٣).

وعلى الرغم من اشارة بعض المؤرخين الى ان الخلاف بين مذاهب اهل السنة يعد شكليا اذا قورن بالخلاف بين السنة والشيعة عامة^(٤)، فان الامور قد ساءت الى حد كبير في القرن السادس بين السنة انفسهم حتى قال ابن هبيرة الوزير: ان اختصاص المساجد ببعض ارباب المذاهب بدعة محدثة، فلا يقال هذه مساجد اصحاب احمد فيمنع منها اصحاب الشافعي ولا بالعكس، فان هذا من البدع وقد قال تعالى في المسجد الحرام - وهو افضل المساجد -: «سَوَاءٌ فِيهِ الْعَاكِفُ وَالْبَادِ»^(٥).

وذكر عن محمد بن محمد البغوي ويقال الدوي - وكان قد قدم بغداد في اول عهد المستضيء ووعظ بالنظامية، ونصر مذهب الأشعري^(٦) - انه بالغ في ذم الحنابلة حتى انه قال: لو كان الامر له لوضع عليهم الجزية وقيل انه مات بسم دسه له احد الحنابلة^(٧).

ومن الغريب ان جهود السلاجقة لضعاف الفكر الشيعي وتفتيت قوة الشيعة في العراق قد باءت بالفشل: فان نشاط هؤلاء وكثرة انصارهم ووفرة ما خلفوه من اخبار واشعار، يدل كل ذلك ان للشيعة في العراق نفوذا كبيرا في القرن السادس.

ولعل من الاسباب التي جعلت الفكر الشيعي يتميز بنشاط واضح في هذه الحقبة: وجود مشاهد واضرحة أئمة الشيعة في عدة مدن عراقية منها: مقابر قريش في بغداد، وقبر الحسين بن

(١) دليل خارطة بغداد المفضل ص ١٥٦

(٢) أنظر ص ٤١ من الفصل الأول.

(٣) أنظر ص ٤٠ - ٤١ من الفصل الأول. تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٤٣٨

(٤) تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٢٢٢

(٥) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٨٠، والنص من سورة الحج اية ٢٥

(٦) نسبة إلى أبي الحسن علي بن اسماعيل... الأشعري. قال ابن خلكان عنه: «صاحب الاصول والقائم بنصرة مذهب

السنة... كان معتزليا ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن...» توفي ببغداد سنة ٣٢٤هـ (على قول). وفيات الاعيان ٤٦٦/٢، طبقات

الشافعية الكبرى ٢/ ٢٤٥، البداية والنهاية ١١/ ١٨٧.

(٧) تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٤٤٠

علي في كربلاء، وقبر الامام علي (رض) في الكوفة. ومن المعروف ان زعماء الشيعة يوصون ان يدفنوا في هذه المشاهد: فقد دفن سيف الدولة صدقة بن منصور الأسدي (ت ٥٠١ هـ) في مشهد الحسين عليه السلام^(١)، بينما دفن الوزير انوشروان بن خالد (المتوفى سنة ٥٣٢ هـ) في مشهد علي (ع)^(٢)، وكذلك دفن علاء الدين تنامش المتوفى سنة ٥٨٤ هـ، وهو من كبار الامراء الاثراك ايام المستضيء، دفن في مشهد الحسين عليه السلام^(٣) ومن الذين دفنوا بمشهد الامام موسى بن جعفر^(٤) بالجانب الغربي من بغداد ابو طالب يحيى بن سعيد بن زبادة الشيباني الكاتب المتوفى سنة ٥٩٤ هـ^(٥).

كما ان اسناد بعض المناصب الكبيرة ايام المستضيء وابنه الناصر الى رجال من الشيعة مثل مجد الدين هبة الله بن علي المعروف بأبن صاحب المتوفى سنة ٥٨٣ هـ استاذ الدار ايام المستضيء^(٦)، ونصير الدين ناصر بن مهدي المتوفى سنة ٦١٧ هـ وزير الناصر لدين الله^(٧)، ساعد على شعور القوم بان في دار الخلافة من يعتمدون عليه اذا ساءت الامور وحاول خصومهم ان يفعلوا شيئاً. ولذلك تميزت خلافة الناصر بالذات بنشاط شعبي ملحوظ يكاد يشبه ما كان عليه الحال ايام البويهيين.

فحين نقل الناصر الفتوة وجددها سنة ٦٠٤ هـ جاء في المنشور الصادر بهذه المناسبة ما نصه: «باسم الله الرحمن الرحيم، من المعلوم الذي لا يتمارى في صحته، ولا يرتاب في براهينه وادلته، ان امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه - هو اصل الفتوة ومنبعها، ومنجم اوصافها البشرية ومطلعها، وعنه تروى محاسنها وآدابها، ومنه تشعبت قبائلها واحزابها، واليه دون غيره ينتسب الفتيان»^(٨).

وفي سنة ٥٨٢ هـ قال سبط ابن الجوزي: «... وفي يوم عاشوراء فرش الرماد في الاسواق... وخرج النساء حاسرات يلطمن وينحن... والخلع تفاض عليهن وعلى المنشدين من الرجال... وكان اهل الكرخ يصيحون ما بقي كتمان... تحت منظره الخليفة...»^(٩). وكان للشيعة قصائد خاصة تقرأ في مواسم زيارة مشاهد اهل البيت، وقد احجم المؤرخون عن

(١) المنتظم ١٥٩/٩

(٢) تاريخ ابن الاثير: ١٩٨/٩

(٣) نفسه ٧٧/١٠ - ٧٨

(٤) هو الامام موسى الكاظم بن جعفر الصادق، أحد الأئمة الاثني عشر. توفي ببغداد سنة ١٨٣ هـ (على قول). وفيات الاعيان ٤/

٣٩٣

(٥) وفيات الاعيان ٢٨٨/٥

(٦) انسان العيون ٨٠ - ٨١، شذرات الذهب ٢٧٩/٤

(٧) تاريخ ابن الاثير: ٢٩٠/٩، ٢٩٧، ذيل الروضتين ص ٥٨، ٦٠

(٨) مرآة الزمان ٣٨٦/٨

(٩) الجامع المختصر ٢٢٣/٩

روايتها، ولكنهم ذكروا اسماء بعض اصحابها من شعراء الشيعة ومنهم محمد بن محمد بن المبارك الكرخي ابو منصور المقرئ المؤدب المتوفى سنة ٥٩٨ هـ^(١) وعلي بن حمدون ابو الحسن بن ابي القاسم الكاتب من اهل الحلة السيفية^(٢). . . ولذلك لا نعجب اذا ما قيل ان الخليفة الناصر نفسه كان يتشيع ويميل الى مذهب الامامية^(٣).

ويبدو لي ان سوء الحياة الاقتصادية، وعدم الاستقرار والقلق وانعدام الشعور بالأمن في الحياة الاجتماعية، اضافة الى الكوارث التي اصابت العراق ومنها الفيضانات المدمرة^(٤)، وتكالب الاعداء على بلاد المسلمين وخاصة الصليبيين والبيزنطيين، كل ذلك ساعد على اشاعة الحزن والميل الى الكتابة في نفوس الناس، ومن هنا وجدوا في النوح والبكاء على الحسين بن علي - رض - متنفسا عما يعانون ويكابدون من آلام وأوجاع^(٥). وبذلك تحولت مأساة كربلاء من قضية خاصة بالشيعة، الى مأساة اسلامية عامة^(٦)، يجد المسلمون في ترديد ها وذكرا المآسي التي حلت بأهل البيت خير ما يهون عليهم مصائبهم ويصغر عندهم عظام الخطوب.

ولذلك نجد شاعرا سنيا هو ابن التعاويذي، يرثي عينيه ويندب حظه في قصيدة قال فيها:

وَأَصَبْتُ فِي عَيْنِي الَّتِي	كَانَتْ هِيَ الدُّنْيَا بِعَيْنِ
عَيْنٍ جَنَيْتُ بِنُورِهَا	نُورَ الْعُلُومِ، وَأَيُّ عَيْنٍ؟
حَالَانَ مَسْتَنِي الْحَوَا	دْتُ مِنْهَا بِفَجِيعَتَيْنِ
إِظْلَامُ عَيْنٍ فِي ضِيَا	ءٍ مَشِيبَ رَأْسٍ سَرَّ مَدَيْنِ
صُبْحٍ وَإِمْسَاءٍ مَعَا	لَا خِلْفَةٌ ^(٧) ، فَأَعْجَبَ لِذَيْنِ
أَوْ رُحْتُ فِي الدُّنْيَا مِنَ السَّ	سَرَاءِ صِفَرِ الرَّاحَتَيْنِ
فِي بَرَزَخٍ مِنْهَا أَخَا	كَمَدٍ حَلِيفَ كَابَتَيْنِ
أَسْوَانُ ^(٨) لَا حَيٍّ وَلَا	مَيِّتٍ كَهَمْزَةٍ بَيْنَ بَيْنِ

... الى أن يقول:

(١) ابن الديبشي (المصور) ١٢٨/١، الجامع المختصر ٨٥/٩

(٢) انسان العيون ١٥٣

(٣) شذرات الذهب ٩٨/٥، تاريخ العراق في العصر العباسي ص ٤٣٥، الفكر الشيعة ص ٥٢.

(٤) أنظر: الفصل الأول: الحياة السياسية والاجتماعية.

(٥) الفكر الشيعة ص ٥٠ هامش ٤٣ أ.

(٦) المذائع النبوية ص ٦٥ والهامش ١١.

(٧) خِلْفَةٌ: أي واحد خلف الآخر.

(٨) أسوان: حزين.

وَالدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ وَالْم) نَكَبَاتٍ مَبْسُوطٌ^(١) الْيَدَيْنِ
أَرْسَى عَلَى عُمْدَانٍ وَالْ إِيوَانٍ مِنْهُ بِكَلْكَلَيْنِ^(٢)
وَأَنَاخَ فِي آلِ النَّبِيِّ^(م) يَ مُجَاهِرًا بِرَزَيْتَيْنِ
فَبَدَا بِرُزْءٍ فِي أَبِي حَسَنٍ وَثْنَى بِالْحُسَيْنِ
الطَّيِّبِينَ، الطَّاهِرِينَ، الْخَيْرِينَ، الْفَاضِلِينَ
الْمُذْلِلِينَ إِلَى النَّبِيِّ^(م) يَ، مُحَمَّدٍ بِقَرَابَتَيْنِ
.. الخ^(٣).

ان ابن التعاويذي في هذه الايات الاخيرة يحاول أن يهون على نفسه نكته في فقدان عينيه-
وضيق الدنيا عليه، فلم يجد عزاء وسلوى الا في ما اصاب الامام عليا وابنه الحسين، وهما من
اقرب الخلق الى الرسول الكريم ﷺ.

ولابن المُعَلِّم الواسطي من مرثية:

لَعَمْرِي لَنْ غَالَتْ عَلَيَّا، وَطَوَّحْتُ^(٤) بِهِ عَنْكَ مِنْ جَوْرِ الْقَضَاءِ الطَّوَانُحُ
فَقَدْ غَالَتْ^(٥) خَيْرُ الْأَوْصِيَاءِ وَنَجَلُهُ^(م) حُسَيْنٌ بِكُوفَانِ الْخُطُوبِ الْفَوَادِحُ^(٦)
تَعَزَّى، فَكَمْ فِي الطَّفِّ^(٧) مِنْ آلِ أَحْمَدٍ دَمٌ وَلَغَتْ فِيهِ الْكِلَابُ النَّوَابِغُ؟
دَمٌ فِيهِ لِلْبَاغِي التَّاسِي أُسُوءُ^(٨) وَنُورٌ لِمَنْ يَبْغِي الْهِدَايَةَ لَانْحُ
... الخ^(٩).

ان مقتل الامام علي واستشهاد ابنه الحسين واهل بيته في النصف الثاني من القرن الاول
للهجرة، من حوادث التاريخ الاسلامي الدامية التي اذا ذكرت رفع الشيعة رؤوسهم وتطلعوا
كالباحثين عن قتلة الحسين بين معاصريهم، وهم انما يفعلون ذلك ليفخروا على خصومهم من
ناحية ويهددوا اعداءهم من ناحية اخرى. ومن هنا أرجح أن ظهور مأساة كربلاء في قصائد

(١) ميسوط اليدين: كريم، جواد.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٣٦ - ٤٣٧

(٣) طَوَّحَ: أهلك.

(٤) غَالَتْ: أخذ وأهلك على حين غرة.

(٥) الخطوب والفواديح: المصائب الشداد.

(٦) الطف: كربلاء.

(٧) أسوء: قدوة.

(٨) ديوان ابن المعلم و ٢٣ (نسخة دار الكتب).

الشعراء فيه ما يدل على أن التشيع بدأ يغزو حياة الناس ويسيطر على مشاعرهم ، وصار الشيعة احرارا في التعبير عن مشاعرهم التي عانت من الكبت طويلا ، ولذلك وجدنا ابن التعاويذي - بتأثير العوامل التي مرت - يرثي الحسين بقصيدة طويلة قال فيها:

وَقَفْتُ عَلَى الدِّيارِ، فَمَا أَصَاحَتْ^(١) مَعَالِهَا لِمُحْتَرِقٍ بِكَيٍّ
أُرَوِّي تُرْبَهَا الصَّادِي^(٢)، كَأَنِّي نَزَحْتُ الدَّمَعَ فِيهَا مِنْ رَكِيٍّ^(٣)
وَلَوْ أَكْرَمْتَ دَمْعَكَ يَا شُؤُونِي بَكَيْتَ عَلَى الإِمَامِ الفاطميِّ
عَلَى الْمَقْتُولِ ظَمَانًا فَجُودِي عَلَى الظَّمآنِ بِالْجَفْنِ الرَّوِّيِّ
عَلَى نَجْمِ الْهُدَى السَّارِي، وَنَجْمِ الدَّ حَمَى الإِسْلَامِ، وَالبَطْلِ الْكَمِيِّ^(٥)
وَأَطْهَرَهُمْ ثَرَى عِرْقٍ زَكِيٍّ وَخَيْرِ الْعَالَمِينَ، أَبَا وَأُمًّا ... الخ^(٦).

ان ابن التعاويذي ليس شاعرا سنيا فحسب ، بل هو من شعراء البلاط الرسميين - كما يقال بلغة اليوم - ورثاؤه لابي الشهداء يبدو مستحيلا لولم يشعر - وهو القريب من دار الخلافة - بان السياسة العامة للدولة الى جانب الشيعة ، ولذلك راح يتقرب الى ولاة الامور برثاء ائمة الشيعة وترديد بعض افكارهم وآرائهم كقوله في القصيدة المتقدمة يخاطب خصوم الامام علي:

فَجُوزِيتُمْ لِبُغْضِكُمْ عَلِيًّا عَذَابَ الْخُلْدِ فِي الدَّرَكِ الْقَصِيِّ
وقال ايضا:

فَذُخِرِي لِلْمَعَادِ وَلَاءُ قَوْمٍ بِهِمْ عُورُ السَّعِيدِ مِنَ الشَّقِيِّ

وهذا البيت الاخير يجب ان يذكرنا بأبيات كثيرة سبقت الاشارة اليها^(٧)، كان الشاعر فيها يزعم ان ذخره ليوم القيامة كان ولاء بني العباس .

ومهما يكن فان ابن التعاويذي حاول التقرب الى زعماء الشيعة في عصره - وكذلك فعل زميله الحيص بيص كما سيأتي - بذكر مناقب الامام علي وهو يمدح اولئك الزعماء ، تملقا لهم

(١) اصاحت: اصفت . (٢) الصادي: الظمان .

(٣) الركي: واحدتها ركية: البثر ذات الماء . (٤) الغوالي: الرماح .

(٥) الكمي: الشجاع او لابس السلاح . (٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٥٦ - ٤٦٠

(٧) انظر قبل صفحات: الصراع بين العباسيين والفاطميين ص ٢٢٨

واستدرازا لأكفهم، وكذلك مشايعة للسياسة التي اتبعت في عصره تجاه الشيعة والتشيع .
قال ابن التعاويذي يشكر الموفق ابا علي^(١) بن الدوامي ، ، وقد استنهضه لحاجة فقضاها،
من قصيدة مطلعها:

لأبي علي مُرتقى في ذروة العلياء شاهق
قال فيها:

قَسَمًا بُمَزَجِي^(٢) السُّحْبِ نَحْ
وَمُسِيرِ الشُّهْبِ الثُّوَا
وَبِسَنَاطِحِ الْأَرْضِ إِلَهَا
وَبَسِيفِهِ الْمَسْلُولِ صِنْدُ
الْمُغَمِّدِ الْبَيْضِ، الصَّوَا
مَنْ قَالَ لِلدُّنْيَا أَذْهَبِي
بِوَلَائِهِ^(٦) يَتَمَيَّزُ الـ
وَبِحُبِّهِ تُسْتَدْفَعُ الـ
إِنَّ الْمَوْفِقَ - إِنَّ عَرَّتْ
دُوها^(٣) الرُّوَاعِدُ وَالصَّوَاعِقُ
قَبْ فِي الْمَغَارِبِ وَالْمَشَارِقُ
دِ وَرَافِعِ السَّبْعِ الطَّرَائِقُ
و^(٤) نَبِيَّهِ، خَيْرِ الْخَلَائِقُ
رَمَ فِي الْجَمَاجِمِ وَالْمَفَارِقُ
عَنِّي^(٥) إِلَيْكَ، فَأَنْتَ طَالِقُ
بِرُّ، التَّقْيُّ مِنَ الْمُنَافِقُ
نِقَمُ النَّوَازِلُ وَالْبَوَارِقُ
كَ خَصَاصَةٍ^(٧) خِلَ مُوَافِقُ
... الخ^(٨).

وواضح من هذه الابيات ان الشاعر تعمد الاشارة الى الامام علي - لان المدح شيعي -
وقد عرف الشاعر ان هذه الاشارة كفيلة بتحقيق الغرض من القصيدة.
وفي الديوان قصيدة اخرى يعاتب فيها الشاعر نقيب مشهد الكوفة ومطلعها:

يَا سَمِيَّ النَّبِيِّ يَا ابْنَ عَلِي قَاتِلِ الشَّرِكِ وَالْبَتُولِ الطَّهَّورِ^(٩)

(١) هو الحسن بن هبة الله بن الحسن : أحد الأعيان وحاجب الحجاب توفي في رجب سنة ٦١٦ هـ . المختصر المحتاج إليه ٢٩/٢

(٢) المَزَجِي : السابق .

(٤) الصَّنُو : الأخ الشقيق .

(٥) في شرح نهج البلاغة ٢٧٦/٤ قول الامام علي : يا دنيا يا دنيا إليك عني . . لا حاجة لي فيك قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها .

(٦) في مسند الامام أحمد بن حنبل ٥٧/٢ قول الرسول ﷺ : يَا عَلِيُّ لَا يَحِبُّكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يُبْغِضُكَ إِلَّا مُنَافِقٌ .

(٧) الخصاصة : الحاجة الشديدة .

(٨) ديوان ابن التعاويذي ص ٣١٧ - ٣١٨

(٩) ديوان ابن التعاويذي ص ٢١٤

وعلى الرغم من اسقاط وحذف بعض ابياتها، كما يتضح من عدم اتصال البيت الثامن منها بما تقدمه^(١) - وقد يكون الشاعر هو الذي اسقط الجزء الناقص - فان ما بقي منها يوضح جانباً من الحياة الفكرية المذهبية التي عاصرها الشاعر، ومنها عيد الغدير^(٢) عند الشيعة، ومحاولة السنة زيارة قبر مُصعب بن الزبير رداً على زيارة الشيعة لقبر الحسين (رضي)^(٣).
والحيص بيص شاعر آخر من شعراء السنة، تقرب الى الشيعة - أولاً - يهجو بني امية^(٤) فهو القائل:

مَلَكْنَا، فَكَانَ الْعَفْوُ مِنَّا سَجِيَّةً^(٥) فَلَمَّا مَلَكْتُمْ سَالَ بِالدَّمِّ أَبْطَحُ^(٦)
وَحَلَلْتُمْ قَتْلَ الْأَسَارَى، وَطَأَلْنَا غَدَوْنَا عَلَى الْأَسْرَى نَعْفُ وَنَصْفُ
فَحَسْبُكُمْ هَذَا التَّفَاوْتُ بَيْنَنَا وَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يُنْضَغُ^(٧)

- وثانياً - فعل ما وجدناه عند زميله ابن التعاويذي حين راح يعرج على الامام علي فيذكر مناقبه وفضائله عند مدحه لزعماء الشيعة طلباً للحظوة عندهم، وان كان الحيص بيص مشهوراً في ميله للعلويين. ولكنه ليس شيعياً كما توهم صاحب اعيان الشيعة^(٨).

ان الحيص بيص يشبه ابا تمام من هذه الناحية - وقد عد هو الآخر من اعيان الشيعة - فكلاهما «من الشعراء المتكسين الذين يتنسمون رائحة التكسب فيصطنعون الوسائل لاغتنامها أو الافادة منها، لا يلتزمون مذهباً بعينه ولا يخلصون لعقيدة أو مبدأ، وانما يتلونون بما يرضي السلطان ويقربهم الى الكسب»^(٩).

ففي قصيدة مدح بها الحيص بيص عميد الدين ابا جعفر بن المختار العلوي - وهونقيب الكوفة والمشهد - مطلعها:

إِذَا مَا غَزَوْتُمْ - مَعْلَمِينَ^(١٠) - قَرَاوَحُوا بَنِي دَارِمٍ^(١١) بَيْنَ الظُّبَى^(١٢) وَالْمَخَالِلِ^(١٣)

نجد الشاعر - بعد سبعة وأربعين بيتاً - يختم قصيدته بمدح الامام علي وذكر مناقبه فيقول:

(١) ولم ينته المحقق إلى ذلك.

(٢) سيرد الحديث عن هذا العيد مفصلاً بعد قليل. (٣) الفكر الشيعي ص ٥٠.

(٤) يغلب على الظن أن المراد هجاء بني العباس، ولكن الشاعر تجنب التصريح بذلك.

(٥) سَجِيَّةٌ: طبيعة، خلقاً.

(٦) الْأَبْطَحُ: مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى. (٧) وفيات الأعيان ٢/ ١٠٨.

(٨) أنظر ترجمة الحيص بيص في الجزء ٣٤ (٩) التشيع وأثره ص ١٥٥.

(١٠) أي ذوي علامات يضعها الفرسان ليعرفوا بها في الحرب. (١١) بنو دارم: قبيلة الشاعر من تميم.

(١٢) الظبى: واحدتها ظبة، وهي حد السيف أو السنان. (١٣) المخاليل: السحب المنطرة بالمطر.

وَأَنْزَعُ^(١) مِنْ شِرْكِ الْإِلَهِ مُبَرَّأً
شَدِيدُ مَضَاءِ الْبَاسِ يُغْنِي بَلَاؤُهُ^(٤)
لَهُ عَصْفَةٌ بِالْمُشْرَكِينَ كَأَنَّهَا
صَدُوفُ^(١١) عَنِ الزَّادِ الشَّهِيِّ فَوَادُهُ
جَرَى إِلَى قَوْلِ الصَّوَابِ لِسَانُهُ
أُعِيدَتْ لَهُ شَمْسُ الْأَصِيلِ^(١٣) جَلَالَةٌ
وَنَصُّ حَدِيثٍ بِالْغَدِيرِ دَلَالَةٌ
... الخ^(١٧)

ومن قصيدة كتب بها الى بعض امراء العلويين ومطلعها:
أَبَا عُمَارَةَ إِنْ شَطَطْتُ^(١٨) مَنَازِلُنَا فَمِنْ مَعَالِيكَ إِدْنَاءٌ وَتَقْرِبُ
نجد الشاعر يختتمها بذكر الامام علي قائلا:

وَعَاصِفٍ بِكَمَاةِ^(١٩) الشَّرْكِ صَارِمُهُ
غُرْنَانَ^(٢١)، وَالْعَامُ خِصْبٌ مِنْ مَكَارِمِهِ
وَلِلرَّوِيَةِ تَصْعِيدُ^(٢٣) وَتَصْوِيبُ^(٢٤)
مِنْ الْجَحَاجِجِ^(٢٠) وَالْأَبْطَالِ تَخْضُوبُ
ظَمَانُ، وَالْجُودُ مِنْ كَفْيِهِ أَثْغُوبُ^(٢٢)

-
- (١) الأترع: الذي انحسر الشعر عن جانبي جبهته. (٢) البطين: العظيم البطن.
(٣) النوافل: وأحدثها نافلة وهي العطية، والعبادة الزائدة على الفرض.
(٤) البلاء: الاختبار.
(٥) القنا: الرماح.
(٦) القنابل: جماعات الخيول.
(٧) الزعازع: الرياح الشديدة.
(٨) الخرق: الأرض الواسعة.
(٩) سوف: كذا بالأصل، جاء في الديوان لعلها: أسفيت أي حلت السفا وهو ما تحمله الريح.
(١٠) القلاقل: ما تحمله الريح.
(١١) صدوف: مفرغ، متجنب.
(١٢) رغيب: شديد الرغبة.
(١٣) الأصيل: وقت غروب الشمس.
(١٤) حال: تغير وتبدل.
(١٥) الأضراب: الواحد ضرب، وهو الشيء.
(١٦) المساجل: المعائل والشيبة.
(١٧) ديوان حصص بيص المطبوع ١٣١/٨
(١٨) شططت: بعدت.
(١٩) الكمأة: الأبطال - مفردة كمي.
(٢٠) الجحاجيح: السادة.
(٢١) غرنان: جانح.
(٢٢) أثغوب: سائل، كثير.
(٢٣) التصعيد: النظر إلى أعلى.
(٢٤) التصويب: النظر إلى أسفل.

رُدَّتْ لَهُ الشَّمْسُ حَيْثُ اللَّيْلُ مُقْتَرَبٌ وَأَحْسَنَ الْقَوْلَ فِي تَكْلِيمِهِ الذَّبِيبُ^(١)

ولست اشك ان هذه النصوص لا تكفي ليصبح الحيص بيص من شعراء الشيعة، لاسيما وقد اكد ابن خلكان على ان الشاعر شافعي المذهب^(٢).

شعر العقائد:

في فترة تتميز بالتساهل مع الشيعة وعدم التعرض لهم حين يجهرون بأرائهم ويظهرون معتقاداتهم، حتى اضطر بعض السنة - كما مر - الى ادعاء التشيع والحرص على تضمين اشعارهم شيئا من آراء الشيعة، اقول في فترة مثل التي اشرت الى جوانب منها، لا بد أن يكون الشعر الشيعي هو السائد المتميز في الجانب الادبي من حياة الناس العقائدية.

وفي الوقت الذي تبدو فيه كثرة الشعر والشعراء من الشيعة معقولة ومقبولة اذا صحت الصورة التي رسمتها للحياة العقائدية في هذه الفترة من تاريخ العراق - فان ندرة شعر الجانب السني الى هذا الحد تبدولي غير طبيعية. فلم يصلنا من شعر السنة العقائدي سوى القليل جدا، حتى انه لا يكفي لتصوير الجانب الادبي من عقائد اهل السنة، وقد مرت الاشارة الى انها كانت تتميز بنشاط ملحوظ.

ان اشهر ما وصلنا من شعر اهل السنة مقطوعة للحسين بن جعفر بن عبد الصمد الهاشمي المقرئ المتوفى سنة ٥٥٤ هـ، قال:

يَا ذَا الَّذِي أَضْحَى يَصُولُ بَدْعَةً وَتَشِيعُ، وَتَمَشُّعُ^(٣)، وَتَمَّعُزِلُ^(٤)
لَا تُنْكِرُنَّ تَحَنُّبِي، وَتَسْنُنِي فَعَلَيْهَا يَوْمَ الْمَعَادِ مُعَوِّلِي
إِنْ كَانَ ذَنْبِي حُبَّ مَذْهَبِ أَحْمَدٍ فَلْيَشْهَدْ الثَّقَلَانِ^(٥) أَنِّي حَنْبَلِي^(٦)

وليس بين يدي - بعد الابيات المتقدمة - سوى قصيدة في ٢١ بيتا نظمها ابو محمد (وقيل ابو عبد الله) ابن الباطوخ^(٧) البغدادي، يمدح فيها فقيها حنفيا قدم بغداد مع سلطان السلاجقة سنة ٥٣٨ هـ، ومطلعها:

(١) يشير إلى بعض فضائل الامام علي التي ذكرتها كتب الحديث. القدير ١٢٦/٣، الديوان المطبوع ١٨٩/١

(٢) وفيات الأعيان ١٠٦/٢

(٣) تمشع: أي اعتقاد مذهب أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري، وقد مر ذكره ص ٢٦٥

(٤) تمعزل: أي القول بأراء المعتزلة، الفرقة الاسلامية المشهورة. انظر عنهم: «المعتزلة» لزهدي حسن جبالله.

(٥) الثقلان: الجن والانس. (٦) ذيل طبقات الحنابلة ٢٣٥/١، شذرات الذهب ١٧١/٤

(٧) في الخريدة ٣٤٦/٢: «المعين بن الباطوخ...»، وفي المنتظم ١٠٧/١٠: «أبو محمد بن الباطوخ...»، وفي الوافي بالوفيات ١/

١٧١: «ابن الباطوخ الواعظ، محمد بن محمد... أبو عبدالله... توفي سنة ٥٤٤ هـ»، وانظر هامش محقق الخريدة.

صَرَفُ^(١) الْعُيُونِ إِلَيْكَ يُجْلُو وَكَثِيرٌ لَفْظُكَ لَا يُؤَلُّ
قال في ختامها:

ما تَمَّ غَيْرُ أَبِي حَنِيفٍ فَمَنْ، وَالْمَدِيحُ لَهُ يُجَلُّ
وَفَقِيحِهِ طَيِّبَةً^(٢) مَالِكٍ طَوْدٍ^(٣) لَهُ زُهْدٌ وَفَضْلُ
وَفَتَى ابْنِ حَنْبَلٍ، وَالْحَدِيدِ تُ عَنْ ابْنِ حَنْبَلٍ مَا يُؤَلُّ
وَالشَّافِعِيِّ، وَمَنْ لَهُ مِنْ بَعْدِ مَنْ قَدَّمْتُ مِثْلُ؟
فَهُمْ أَدَلُّنَا، وَمَنْ يَهْدِي بِغَيْرِهِمْ يَضِلُّ
كُنَّا نَعُدُّ خِلَافَهُمْ^(٤) صُلْحًا، وَنَدْرُسُهُ وَنَتَلُو
حَتَّى بُلِينَا بِالْخِلَا^(م) فِ^(٥)، وَزَادَ فِي الشَّطْرَنْجِ بَغْلُ
وَالْجَنْسِ يَضْبُطُ فِي الْبَهَا ثُمَّ أَصْلَهَا، وَالْبَغْلُ بَغْلُ^(٦)

اظن ان وجود نصين يمثلان «معظم» شعر اهل السنة المذهبي، هو امر لا يصدق. وقد يكون القسم الاكبر من هذا الشعر من تراث القرن السادس الذي فقد ولم يصلنا.

اما شعر الشيعة فيلاحظ ان المؤرخين حين يصفون مذهب شاعر ما بانه كان شيعيا رافضياً^(٧)، او انه كان شيعيا غالياً^(٨)، وبالرغم من علم هؤلاء المؤرخين بان الشيعة فرق متعددة، فلم اجد احدا يذكر الفرقة التي ينتسب اليها الشاعر بين فرق الشيعة، كما اعتادوا أن يميزوا بين اهل السنة بالقول ان المترجم له شافعي او حنفي او حنبلي. ولعل سبب هذا التمييز بين الطائفتين يعود الى:

١ - ان اهل السنة ينظرون الى الشيعة - على اختلاف فرقهم - على انهم مجموعة واحدة، لها عقائد متقاربة، وهي - اجمالا - مخالفة لمذاهب اهل السنة.

٢ - ان اطلاق لفظ الشيعة يراد به - في الغالب - فرقة الامامية الاثنا عشرية، وهو المذهب

(١) صَرَفَ الْعُيُونُ: ميلها وتطلعها.

(٢) طَيِّبَةُ: المدينة المنورة.

(٣) طَوْدٌ: جبل.

(٤) خِلَافُهُمْ: أي الاختلاف بين آرائهم.

(٥) الْخِلَافُ: المقارنة بين المذاهب الفقهية.

(٦) الْمُتَنَزَّمُ ١٠٧/١٠

(٨) الوافي بالوفيات ١٥/٨ - مصور.

(٧) النجوم الزاهرة ٢١٤/٥

الذي كان سائدا في العراق خلال الفترة التي ادرسها^(١).

ان ابرز الظواهر في شعر التشيع الذي ادرسه ما يلي:

١ - خلطوا تماما من أية إشارة الى هجاء الصحابة (رض) ، مع أن كثيرا من شعراء الامامية يفعلون ذلك^(٢) . وقد حذف مؤرخو السنة طائفة من شعر القرن السادس لتعرضه للصحابة^(٣) ، ولكن مؤرخا شيعيا هو ابن شهر آشوب لم يذكر هو الآخر اي نوع من هذا الشعر لاشهر شعراء الشيعة في القرن السادس : وهو الشاعر المعروف بابن العُودي النيلي^(٤) . فهل اتفق الشيعة والسنة في هذا الموضوع ، فيما يخص القرن السادس وحده؟ .

٢ - على الرغم من وفرة عدد شعراء الشيعة في هذه الحقبة^(٥) ، فان الشعراء الذين رويت لهم اشعار مذهبية قلة ، من اشهرهم ابن العُودي السالف الذكر ، وسعيد (وقيل سعد) بن مكي النيلي^(٦) .

ان نعت اي شاعر بالتشيع مع عدم الاشارة الى اي شعر مذهبي له قد يعني اما انه لم ينظم شعرا مذهبيا ابدا ، واما ان شعره المذهبي قد حذف دون ان يشير المؤرخون الى ذلك .

ويدولي ان مؤرخي السنة لم يكتفوا بوصف بعض الشعراء بانهم من الشيعة دون صفة او صفات اخرى ، الا لأن هؤلاء المؤرخين لم يعثروا على دليل شعري يدل على مقدار هذا التشيع ، ارجح هذا لأن بعض الشعراء قد وصف بانه شيعي فقط : قال ابن شاعر عن الحسن بن علي بن نصر بن عَقِيل ابي علي العَبْدِي الواسطي البغدادي المنعوت بألهمام : «مدح طائفة بالشام والعراق وأقام بدمشق ، وكان شيعيا . . توفي سنة ٥٩٦ هـ^(٧) . على حين قال مؤرخ آخر عن علي ابن علي بن حمدون بن الحسن بن ابي القاسم الكاتب من اهل الحِلَّة السَّيفِيَّة : «وكان فاضلا اديبا مدح الاكابر وسافر الى الشام ، وكان غاليا في التشيع ، مبالغا في الرفض ، خبيث العقيدة مجاهرا بتكفير الصحابة ، رضي الله عنهم وارضاهم^(٨)» . .

٣ - يغلب على ادب الشيعة الحزن ويتميز بكثرة البكاء على اهل البيت حتى قيل «أرق من

(١) تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٤٣٣

(٢) التشيع وأثره ص ١٤٩ ، نشأة التشيع وتطوره ص ٢٩٨

(٣) الخريدة ٢٠٨/٤ ، الوافي بالوفيات ١١١/٨ ومصوره ، انسان العيون ١٥٣

(٤) مناقب آل أبي طالب ٢١٧/١ ، ٢٣١ ، ٣١٧ ، ١٤٦/٣ ، ٤٤٥ . .

(٥) المختصر المحتاج إليه ١٨/٢ ، الوافي بالوفيات ١٥/٨ ومصوره ، فوات الوفيات ٢٤٣/١ ، النجوم الزاهرة ٢١٤/٥

(٦) الخريدة ٢٠٨/٤ ، معجم الأدباء ١٩٠/١١ ، فوات الوفيات ٢٤٤/١

(٧) فوات الوفيات ٢٤٣/١

(٨) انسان العيون ١٥٣

دَمْعَة شِيعِيَّة»، ورأى أئمة أهل البيت انفسهم ان المحن والعذاب كأس كتب عليهم تناولها^(١)، ولكن شعر الشيعة في القرن السادس خلا من رثاء اهل البيت، ولذلك خلا ايضا من الحزن والبكاء.

وهذه الظاهرة تؤكدها ما سبق ان اشترت اليه من ضياع وفقدان قسم كبير من شعر هذه الفترة، لاسيما وقد نص صاحب معجم الادباء على ان سعيد بن مكي النيلي المتوفى سنة ٥٦٥ هـ بعد ان عاش زهاء مائة عام: «كان اكثر شعره في مديح اهل البيت^(٢)، ونحن اليوم لا نملك من هذا الشعر الا تنفا قليلة، تعتمد مؤرخو السنة ان تكون من الشعر الذي لم يشتهر به، بحجة انه كان مغاليا في التشيع. وشاعر الشيعة الآخر: ابن العودي النيلي، الذي قال عنه الدكتور مصطفى جواد: «ان شعره في المذهب الشيعي كان شائعا جدا في اواسط القرن السادس»^(٣)، لم يشر العماد الكاتب حين ترجم للشاعر في الخريدة^(٤) الى انه من شعراء الشيعة، وقد تابعه في هذا محقق الكتاب، وليس من المعقول ان يجهل صاحب الخريدة مكانة ابن العودي بين شعراء الشيعة، وقد كان من معاصريه، ونص انه لقيه سنة ٥٥٤ هـ^(٥)، فلعل في نص الخريدة نقضا كان على المحقق ان ينبه اليه. أما شعر الشيعة الذي وصلنا من القرن السادس فان معظمه يتناول مناقب الامام علي بقصد الرد على الخصوم وتسفيه آرائهم، لان تلك المناقب تعتمد على احاديث رسول الله ﷺ من وجهة النظر الشيعية.

ومن تلك المناقب حديث غدير خم، وهو مكان بين مكة والمدينة وقف فيه الرسول ﷺ بعد حجة الوداع، فكان مما قاله عليه الصلاة والسلام: «... مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ مَوْلَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَاخْذِلْ مَنْ خَذَلَهُ، وَأَدِرِ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُمَا دَارَ...»^(٦).

وهذا الحديث «اعتقده الشيعة سنداً صريحاً لهم في القول بامامة علي، وقد اعترف اهل السنة جزئياً بصحة هذا الحديث، واولوه بان المقصود من الولاية هنا الولاية الروحية... اما السلف من الخنابلة المتقدمين فقد اولوا الموالاتة بعدم الكراهية، وانكر السلف المتأخرون الحديث انكاراً تاماً»^(٧). ومهما يكن فان شعراء الشيعة يؤيدون وجهة نظرهم، ولذلك قال سعيد بن مكي:

(١) نشأة التشيع وتطوره ص ٥، التشيع وأثره ص ٢٤٩ (٢) معجم الأدباء ١٩٠/١١

(٣) انظر مقالاته عن ادب العراق وأدبائه في القرن السادس/ مجلة الغرى السنة السابعة.

(٥) نفسه.

(٤) الخريدة ١٨٩/٤

(٧) نشأة التشيع ص ١١

(٦) مسند الامام أحمد بن حنبل ١٩٥/٢، نشأة التشيع ص ١١

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا
وَقَالَ لَهُمْ، وَالْقَوْمُ فِي خَمٍّ حَصْرًا^(٢)
عَلَيَّ كَزَرِّي مِنْ قَمِيصِي، وَإِنَّهُ
وَقَالَ ابْنُ الْعُودَى:

وَكُلُّ نَبِيٍّ جَاءَ قَبْلِي وَصِيَّهُ
فَفَعَلْتُكُمْ فِي الَّذِينَ أَصْحَى مُنَافِيًا
وَقُلْتُمْ مَضَى عَنَّا بِغَيْرِ وَصِيَّةٍ
نَصَبْتُ لَكُمْ بَعْدِي إِمَامًا يَدْلُكُمْ
وَقَدْ قُلْتُ فِي تَقْدِيمِهِ وَوَلَانِهِ
عَلَيَّ غَدَا مِثِّي مَحَلًّا وَقُرْبَةً
عَلَى رَسُولِي فَاتَّبِعُوهُ، فَإِنَّهُ

مُطَاعٌ، وَأَنْتُمْ لِلْوَصِيِّ عَصِيَّتُمْ
لِفَعْلِي، وَأَمْرِي غَيْرُ مَا قَدْ أَمَرْتُمْ
أَلَمْ أَوْصِ لَفْظًا؟ زُغْتُمْ^(٤) وَغَفَلْتُمْ
عَلَى اللَّهِ، فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَضَلَلْتُمْ
عَلَيْكُمْ، بَمَا شَاهَدْتُمْ وَسَمِعْتُمْ
كَهَارُونَ مِنْ مُوسَى فَلَمْ عَنْهُ مِلْتُمْ؟
وَلَيْكُمْ بَعْدِي إِذَا غِبْتُ عَنْكُمْ^(٥)

ومن المناقب أيضا ما عرف بهديث المِباَهلة: وذلك «حين أتى وفد نجران إلى الرسول (ص)، وسألوه عن حقيقة المسيح، نزل القرآن «إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ»^(٦). إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ^(٧). ثم دعا إلى المِباَهلة «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ، فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ»^(٨). ورضي الوفد بالمِباَهلة فاتى الرسول (ص) آخذا بيد الحسن والحسين تتبعه فاطمة وعلي بين يديه والقى عليهم الرسول بكسائه. ثم جثا رسول الله (ص) على ركبتيه وركع، فانسحب الوفد النجراني هاربا ورفض المِباَهلة»^(٩).

وقد أشار ابن العودي إلى المِباَهلة فقال:

هُمْ بَاهَلُوا نَجْرَانَ مِنْ دَاخِلِ الْعَبَا
وَأَقْبَلَ جَبْرِيلُ يَقُولُ مُفَاخِرَا
فَعَادَ الْمُنَادِي عَنْهُمْ، وَهُوَ مُفْحَمٌ
لِمِيكَالَ مَنْ مِثْلِي، وَقَدْ صِرْتُ مِنْهُمْ

(١) الرُّمَس: القبر.

(٢) كذا بالأصل، ويصح أن تكون حُصْرًا بالضاد.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٢/٢٢١

(٤) زُغْتُمْ: انحرفتم.

(٥) مناقب آل أبي طالب ١/٢١٧

(٦) سورة الزخرف آية ٥٩

(٨) آية ٦١ سورة آل عمران.

(٧) سورة آل عمران آية ٥٩

(٩) نشأة التشيع ص ٦ - ٧، وأنظر مسند أحمد بن حنبل ٩٧/٣ - ٩٨.

فَمَنْ مِثْلُهُمْ فِي الْعَالَمِينَ وَقَدْ غَدَا لَهُمْ سَيِّدُ الْأَمْلَاقِ جَبْرِيلُ يَخْدُمُ^(١) ؟
 وقال العلاء بن علي . . بن السَّوَادِي الواسطي المتوفى سنة ٥٥٦ هـ يذكر المباهلة في ختام قصيدة:

وَيْحَ نَفْسِي إِنْ لَمْ يَكُنْ لِي وَلَاءٌ كَانَ مِنِّي فِي طَاعَةِ الرَّحْمَنِ
 فِعْمَادِي وَعَدَّتِي فِي مَعَادِي عِنْدَ حَشْرِي إِذَا جَثَا الْخُصْمَانِ
 يَوْمَ عَرْضِي مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ وَالْبَتُولُ الزَّهْرَاءُ وَالْحَسَنَانِ
 خَمْسَةٌ فِي الْعَبَا اسْتَجَارَ بِهِمْ جَب رَيْلُ يَنْفِي الزُّلْفَى^(٢) إِلَى الْمَنَانِ^(٣)

ان الصفة الغالبة على معظم النصوص المتقدمة من الشعر العقائدي هي ان هذا الشعر سهل غاية السهولة في الفاظه ومعانيه ، وقد يكون غير متماسك النسيج مفككا يكاد يقرب من لغة العامة واساليبها . واذا عرفنا ان هدف الشعر العقائدي هو التبشير بالعقيدة والتغلغل بها بين كل طبقات الامة ، ما دركنا سر هذه السهولة وهذا الوضوح والحرص الذي يظهره الشعراء في الابتعاد عن التعقيد وتجنب الغريب .

اضف الى ذلك ان شاعر العقيدة كان يجهد نفسه في ان يأتي في شعره ببعض العقائد ، وان يلائم بين هذه العقائد والالفاظ التي يختارها لشعره ، ثم يوفق بين هذا كله وبين ضرورات الشعر^(٤) . وشيء آخر يجب ان يذكر هنا وهو التزيد والانتحال والتلفيق من المتحمسين والمتعصبين للعقائد الاسلامية ودورهم في وضع الشعر وانطاق الشعراء بما لم يخطر لهم ببال .

٣ - الدين الصَّرف :

شعر القرن السادس يدل على ان الناس في هذه الفترة كانوا فريقين من ناحية التمسك بالدين واتباع اوامره ونواهيه :

(١) الفريق الاول : يحاول ان يوفق بين الدين والدنيا ، لم يدخر وسعا في المتع بطيبات هذه الحياة ، ولم يبخل بجهد في سبيل ارضاء الذين بيدهم مفاتيح الأموال ومقاليد السلطة والجاه .

(١) مناقب آل أبي طالب ١٤٦/٣

(٢) الزُّلْفَى : القُرْبَى .

(٣) الخريدة ٣٧٧/٤ - ٧٨ ، المَنَان : الله سبحانه .

(٤) في أدب مصر الفاطمية ص ١٩٤ ، التشيع واثره ص ١١٨

ولو كان ذلك على حساب التمسك بالتعاليم الدينية - عن طريق الايحاء للناس بان الدين يسر، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ولذلك خاض هؤلاء معارك ضارية، سفكت فيها دماء، وازهقت أنفُس، تحت ستار اعلاء كلمة الدين والقضاء على المفسدين.

واظن انني بذلت ما استطيت، وما اسعفتني به النصوص، في الصفحات الماضية، كي ارسم صورة للدين كما فهمه هؤلاء.

اما الفريق الثاني: فقد سار في الاتجاه المضاد: اختار طريق الدين والتقوى، وآثر تعاليم الاسلام واحكام الشريعة، وفضل الآخرة الباقية على هذه الدنيا الفانية. ولذلك تجنب هؤلاء السلطة والسلاطين وراحوا ينادون: بأن ما عند الحاكم دراهم معدودة، زينة الحياة الدنيا، وان لله خزائن السماوات والأرض.

وقد تطرف بعض هؤلاء في الابتعاد عن الدنيا والتعلق بالآخرة، قال ابن الجوزي: ان «يحيى بن عيسى بن ادريس ابا البركات الانباري، كان ورعا، حتى انه عطش فجيء بماء من بعض دور الحكام فلم يشرب»^(١). وقال في ترجمة احدهم: «... سمع الحديث الكثير وتفقه... الا انه اشتغل بالعمل مع السلطان»^(٢).

وعلى الرغم من علامات الاقبال على الدنيا، وتلك الاشارات الدالة على ان حزب العاجلة يوشك أن ينتصر، بدليل الصراع المخيف بين العباسيين والسلاجقة من جهة، وكذلك بين العباسيين انفسهم على الوزارة والمناصب العليا من جهة ثانية^(٣). اصف الى ذلك غرام بعض الخلفاء - ومنهم المستضيء - ببناء القصور والاكثار منها^(٤). ثم هناك شرب الخمر والتغني بصفاتها وسقاتها ومعاصرها، وهو امر شائع جدا في شعر هذه الفترة حتى يخيل للمرء ان الخمرة ليست محرمة ولم يقل الفقهاء انها ام الخبائث، والا وقعنا في حيرة اذا اردنا معرفة سر الاقبال على التغني بذكر الخمر جهارا امام الخلفاء، وفي مجالسهم الحاشدة.

ولكن على الرغم من هذا كله، فان من الخطأ الاعتقاد بأن الطبقة المتدينة في ورطة، او ان رجال الدين مضطرون على التحايل والتسامح وغض النظر والتوسع في تفسير النصوص الدينية. ان الكتب التي اهتمت بالنشاط الديني وذكر رجال الدين والاشارة الى كتبهم ومناظراتهم واخبارهم ومنها: الجواهر المضية في طبقات الحنفية، وطبقات الشافعية الكبرى، والذيل على طبقات الحنابلة، والمختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الديبهي،

(٢) نفسه ١٠/١١٤

(١) المنتظم ١٠/١٨٠

(٣) أنظر: الفصل الأول من هذه الرسالة.

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٢٦، ٣٧٧، ٤٥٢

والتكملة لوفيات النقلة للمُنذري، وغاية النهاية في طبقات القراء، وغيرها مما سبقت الإشارة إليه^(١)، كل ذلك يدل على ان الدين بخير، وان رجاله يتمتعون بنفوذ كبير، وبغداد القرن السادس كانت قلعة من قلاع الاسلام الحصينة. وان ملاحظة ابن جبير عن بغداد «وان أهلها لا تكاد تظفر من خواصهم بالورع العفيف، ولا تقع من اهل موازينها ومكاييلها الا على من ثبت له الويل في سورة التطفيف»^(٢). . . ليست سوى نظرة مسافر متعجلة.

ان الظروف الاجتماعية والاقتصادية القاسية التي تعرض لها العراق والتي أشرت اليها في الفصل الأول من هذه الرسالة، وكذلك ميل الناس عامة لاحترام الزهاد وتوقيرهم والنظر اليهم باكبار واجلال^(٣)، هذان العاملان ساعدا على اتساع موجة الزهد والعزوف عن الدنيا، بحيث اصبحت ظاهرة اجتماعية عامة شملت جماعات كانت تعد بعيدة عن الزهد والزهاد: فقد جاء عن الامير سليمان بن نظام الملك متولي المدرسة النظامية انه حضر مجلس ابي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، فتواجد وخرق ثيابه وكشف رأسه وقام واشهد الواعظ والجماعة انه قد اعتق جميع ما يملك من الرقيق ووقف أملاكه^(٤). وقال ابن الديبشي: «ان الحسن بن عبد الله بن أبي الفوارس الحاجب كان خصيصا بخدمة الوزير ابي الفرج بن رئيس الرؤساء ملازما له، وانقطع في آخر عمره الى الصوفية واقام برباط^(٥) الزُّوزني مدة^(٦). . .» وقال عن «الحسن ابن محمد بن علي. . . الشيرازي الاصل، البغدادى المولد والدار ابي منصور، كان كاتباً في الاعمال السلطانية مدة، وترك ذلك واشتغل بطريقة التصوف، وتولى خدمة الصوفية برباط^(٧) الأرجواني بدرب زاخي^(٨) مدة. . . توفي سنة ٥٩٦ هـ»^(٩).

وهذه الظاهرة التي شاعت وانتشرت في الحياة الاجتماعية، يمكن ان ترشدنا الى تعليل لظاهرة ادبية تطالعنا في شعر طائفة من كبار شعراء القرن السادس الا وهي وجود قطع وقصائد في الزهد والوعظ، مع أن احدا لم يذكر هؤلاء الشعراء بين الزهاد او رجال الوعظ.

(١) انظر الفصل الأول من هذه الرسالة.

(٢) رحلة ابن جبير ص ١٧٤ (ط. دار التراث).

(٣) تلبس ابليس ص ١٦٦

(٤) تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ص ٣٩٧.

(٥) عن رباط الزوزني، انظر الفصل الأول ص ٤٦ هامش ٦

(٦) تاريخ ابن الديبشي و ٣١٩

(٧) ويعرف أيضا بـ«رباط أرجوان»، منسوب إلى السيدة أرجوان الأرمينية، والدة الخليفة المقتدي بأمر الله، وموقعه في بغداد الشرقية في شارع المتنبي الحالي، دليل خارطة بغداد ص ١٦٥

(٨) وفي رواية «زائخاء» ويرجح الدكتور مصطفى جواد أنه في موقع شارع المتنبي اليوم من بغداد الشرقية (الرصافة). دليل خارطة بغداد ص ١١٥.

(٩) تاريخ ابن الديبشي و ٣٤٥ - ٣٤٦

قال ابن التعاويذي يعظ نفسه ويذكرها الموت:

نِعِمْتُ زَمَاناً مَعَ الْمُتَرَفِّينَ وَعَشْتُ أَخَا ثَرَوَةٍ مُوسِيراً
وَقَضَّيْتُ عُمَرَ الْهَوَى بِالْوَصَالِ وَلَيْلِ الصَّبَى بِالدُمَى مُقَمِّيراً
طَلَيْقُ الْعِنَاقِ^(١) خَلِيعُ الْعِذَارِ^(٢) أَهْوَى الْعِزَالِ إِذَا عَذَّرَا^(٣)
وَلَمْ أُعْصِرْ فِي حُكْمِهَا غَاذَةً كَعَاباً، وَلَا رَشْأً^(٤) أَحْوَرَا^(٥)
وَيَا رَبُّ صَفْرَاءَ مَشْمُولَةٍ^(٦) أَهْنْتُ لَهَا الْمَسْجِدَ الْأَحْمَرَا
وَعَالَيْتُ فِي اللَّهِو لَا نَادِماً لِصَفْقَةِ غَبْنٍ، وَلَا مُخْسِرَا
وَنَادَمْتُ كُلَّ سَخِيٍّ^(٧) الْبَنَانِ يُطْعِمُ نِيرَانَهُ الْعَنْبِرَا
وَجَالَسْتُ كُلَّ مَنِيعِ الْحِجَابِ يَفْرُقُ مِنْهُ أَسْوَدُ الشَّرَى
الى ان يقول:

فَقِفْ بِي مُعْتَبِراً إِنْ مَرَرْتَ عَلَى جَدَّتِي^(٨)، وَابْنِكَ مُسْتَعْبِراً^(٩)
وَلَا تُخْذَعْنَ بِمُغْتَرَةٍ حَدِيثُ مَوَدَّتِهَا مُفْتَرَى^(١٠)
وَلَا تَرْكَنْتَ إِلَى ثَرَوَةٍ مَقِيلُكَ^(١١) مِنْ بَعْدِهَا فِي الثَّرَى^(١٢)
وقال في الزهد:

خُذْ مِنْ شَبَابِكَ، وَانْتَهِزْ أَيَّامَ صِحَّتِكَ الْفُرْصَ
تَشْرَى الْمَائِمَ مُغْلِيّاً وَتَبِيعُ دِينَكَ مُرْتَخِصَ
أَوْ مَا تَرَى ظِلَّ الشَّيْبِ بَةِ عَنْ عِذَارِكَ قَدْ قَلَصَ^(١٣)
اعرض عن الدنيا المشو^(م) بَةِ^(١٤) بالنوائب والغصص^(١٥)
كَمْ جَرَعْتُ أَبْنَاءَهَا مِنْ فَتْكِهَا بِهِمِ النَّعْصِ

(١) العناق: كذا بالأصل، والصواب العنان.

(٣) عذّر: ظهر عذاره، وهو لحيته.

(٥) أحور: من المحور، وهو شدة بياض العين مع شدة سوادها.

(٦) الصفراء المشمولة: الخمر.

(٩) مستعبر: آخذاً عبرة.

(١١) المقيّل: المنزل.

(١٣) قلص: انحسر.

(١٥) الغصص: الواحدة غصّة: ما يغص به الإنسان، الحزن، الهم.

(٩) النعص: تكدير الحياة.

(٢) خليع العذار: له مطلق الحرية.

(٤) الرشأ: ولد الطيبة.

(٨) الجدث: القبر.

(٧) سخي البنان: غني كريم.

(١٠) مفتري: من الافتراء، وهو الكذب.

(١٢) الديوان ص ٤٨١ - ٨٢

(١٤) المشوبة: المزوجة.

وَأَعْلَمَ - إِذَا مَا زِدْتَ مَا لَأ - أَنْ عُمْرَكَ قَدْ نَقَصَ
... الخ^(١).

ان ندره شعر الوعظ والزهد في ديوان ابن التعاويذي تدل على أن الرجل ليس من فرسان هذا الميدان، وان الدنيا من حوله بكل ما فيها من منغصات ومتاعب هي التي دفعتة الى العزف على قيثارة المحزونين.

وقال الحيص بيص:

ما لي وللدُّنيا؟ وَيَا غَفْلَتِي إِذَا تَفَكَّرْتُ؛ وَيَا سَهْوِي
أَضْحَكَ مِمَّا لَوْ تَأَمَّلْتُهُ بَكَيْتُ مِنْهُ أَبَدًا شَجْوِي^(٢)
ونعيمي عندها صحي إِنَّ هِيَ جَادَتْ لِي بِالصَّفْوِ-
صحتي مجموعها أني مَرَّتْهُنَّ بِالْأَكْلِ وَالنَّجْوِ
وَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ مِنْ بَعْدِهَا إِنَّ لَمْ تُصَادِفْ شَرَفَ الْعَفْوِ^(٣)

ومن شعر محمد بن محمد بن عمر . . ابي الفتح النُّعْمان الشاعر المشهور، ويعرف بابن الأديب المتوفى سنة ٥٦٩ هـ^(٤):

كَلَا السَّوَادَيْنِ مِنْ قَلْبِي وَمِنْ بَصْرِي فِدَاءُ مَا بَيَّضَ الْفَوْدَيْنِ^(٦) مِنْ شَعْرِي
صُبَّ عَلَى الرَّأْسِ مَوْقُوفٌ قَضِيْتُ بِهِ مَا شِئْتُ مِنْ لَذَّةٍ تُلْهِي وَمِنْ وَطَرٍ
مَرَّ الْجَدِيدُ^(٧) بِهِ حِينًا، فَأَخْلَقَهُ^(٨) وَإِنَّمَا ذَلِكَ الْأَخْلَاقُ لِلْعُمَرِ
مَا سَاعَةً تَنْقُضِي إِلَّا وَقَدْ أَخَذْتُ شَطْرًا مِنَ السَّمْعِ أَوْ شَطْرًا مِنَ الْبَصَرِ
لَوْ فَكَّرَ الْمَرْءُ فِي أَطْوَارِ خَلْقَتِهِ مَا كَانَ فِي غَيْرِهَا يَوْمًا بِمُعْتَبِرٍ^(٩)

وقال ابو الحسن علي بن احمد البغدادي المعروف بقبلة الادب المتوفى سنة ٥٧٠ هـ^(١٠):

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٤٨، وأنظر أيضا ص ٣٢٠

(٣) الشَّجْوُ: الحزن

(٤) ديوان حيص بيص ٥٠/٢

(٣) النَّجْوُ: ما يخرج من البطن.

(٥) أورد العماد الكاتب كثيراً من شعره، وأثنى على جودة خطه في القسم المخطوط من الخريدة/نسخة إيران/في خزانة المجمع

العلمي العراقي.

(٦) الْفَوْدَانُ: جانبا الرأس مما يلي الأذنين إلى الأمام.

(٧) الجديد: الليل أو النهار.

(٨) أخلقه: أبلاه.

(٩) الوافي بالوفيات ١٢٦/١

(١٠) أنظر دراسة المهجاء ص ١٤٢

قُلْتُ لِلْفَرَقْدَيْنِ^(١)، وَاللَّيْلُ مُلْتِي فَضْل^(٢) أَرْوَاقِهِ^(٣) عَلَى الْآفَاقِ
إِبْقِيَا مَا بَقِيْتُمَا سَوْفَ يُرْمَى بَيْنَ شَخْصَيْكُمَا بِسَهْمِ الْفِرَاقِ^(٤)

وقال الضحاك بن سليمان بن سالم ابو الازهر المتوفى سنة ٥٦٣ هـ:

مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ بِنِعْمَةٍ أَوْفَى مِنَ الْعَافِيَةِ
وَكُلُّ مَنْ عُوْفِيَ فِي جِسْمِهِ فَأَنَّهُ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ
وَالْمَالُ حُلُوٌّ، حَسَنٌ، جَيِّدٌ عَلَى الْفَتَى لَكُنْهُ عَارِيَةٌ
وَأَسْعَدُ الْعَالَمَ بِالْمَالِ مَنْ أَدَاهُ لِلْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ
مَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا، وَلَكِنَّهَا مَعَ حُسْنِهَا غَدَارَةٌ فَإِنَّهُ^(٥)

وبعد: فلست ارى فائدة من الاستمرار في عرض الشواهد، لانها كثيرة^(٧) وكثرتها خير دليل على الظاهرة التي اشير اليها.

مدح الرسول ﷺ:

اظن ان موجة الزهد واذم الدنيا وسوء الظن بالناس وما ادت اليه من شيوع الاتجاه الى السماء والدعوة الى رفض الاستعانة بغير الواحد الاحد، لان حكام الارض بدوا عاجزين عن اسعاد البشر وادخال الطمأنينة الى نفوسهم، اظن ان هذه الموجة كان يمكن ان تنحسر وتزول، لو قدر للأسباب التي خلقتها - وهي اسباب اجتماعية واقتصادية كما اشرت - ان تختفي فيعم الوثام ويحل السلام، بعد ان يقضى على اسباب الحروب التي دمرت الاقتصاد وفتكت بأسباب الرخاء والنعيم. ولكن الدلائل مجمعة على ان الامور في العراق والدول المجاورة كانت تسير من سيء الى اسوأ، وكل سنة جديدة تنذر الناس بمزيد من المتاعب ومزيد من الفقر والهم^(٨).

(١) الفرقدان: نجمان يبتدى بهما.

(٢) الفضل: الزيادة.

(٣) الأرواق: واحدها رَوْق: الطائفة من الليل.

(٤) تلخيص معجم الألقاب ق ٤ ج ٣ ص ٥٧٢ - ٥٧٣، وهامش ٤١٥.

(٥) عارية: مستعار، غير دائم. (٦) الخريدة ٤/١٢١، المختصر المحتاج إليه ١١٨/٢.

(٧) انظر شواهد أخرى في: ذيل الروضتين ص ٥٨، الجامع المختصر ٩٣/٩، الوافي بالوفيات ١١٢/٦ «مصوره»، ١٠١/٢.

مستدرك المختصر المحتاج إليه ص ٣٨

(٨) بدليل أن الموجة الصليبية التي بدأت تنحسر تدريجيا، حلت محلها أخبار الزحف المغولي من الشرق، وقد استطاع هؤلاء الاتيان على الخلافة العباسية من الجذور.

وهكذا وجد الأدباء انفسهم - وهم الذين عرفوا برهافة الحس ورقة الاحساس - في عالم كئيب، تسوده شريعة الغاب، ويقتل الناس فيه من اجل مكاسب تافهة. فماذا كانت النتيجة؟ لقد بدأ الأدباء يشكون في امكانية اصلاح هذا العالم، وظهر ان المستقبل مظلم، فازدادت موجة الزهد اتساعا، وزحف الوعظ والشعر الديني الى ميادين لم يعرفها من قبل، واشتدت الحاجة الى مثل اعلى يقصده الشعراء ويستعيضون بمدحه عن مدح الزعماء والحكام، فكان ان تطلعو بابصارهم الى الحجاز حيث مهبط رسالة السماء.

لقد شاعت في هذا العصر فكرة المجاورة في الديار المقدسة: وهي نوع من الهروب من هذا العالم ومحاولة البحث عن السكينة والطمأنينة بالالتجاء الى قبر الرسول ﷺ، ومن الذين قصدوا الحجاز لهذا الغرض ابو حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ، وجار الله الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ، الذي عرف بهذا اللقب «جار الله» بعد ان جاور في مكة زمانا^(١). ومن الذين جاوروا بمكة ايضا في الفترة التي ادرسها «الحسن بن علي بن ابي سالم». بن ناهوج الإسكافي الاصل، البغدادي المولد والدار. من اهل باب الأزج^(٢)، احد الكتاب المتصرفين في خدمة الديوان الامامي هو وابوه، وكان فيه فضل وأدب بارع وعربية وتصرف في فنونها. وكان خرج من بغداد حاجا في سنة ٥٨٩ هـ أو نحوها، فجاور بمكة ثم صار منها الى الشام واقام بحلب مدة، ثم انتقل الى مصر فسكنها الى ان مات بها سنة ٥٩٦ هـ. ومن شعره يتشوق الى الحجاز بعد مجاورته بمكة:

خَلِيلِي هَلْ يَشْفِي مِنَ الْوَجْدِ وَقْفَةٌ بَخِيفٍ^(٣) مِنْي، وَالسَّامِرُونَ هُجُوعٌ؟
وَهَلْ لِلَّيَالِ الْمُحْصَبِ^(٤) عَوْدَةٌ وَعِيشٌ مَضَى بِالْمَأْزَمِينَ^(٥) رُجُوعٌ؟
وَهَلْ سَرَحَةٌ^(٦) بِالسَّفْحِ مِنْ أَيْمَنِ الصَّفَا^(٧) وَعَتٌّ مِنْ عُهْدِي مَا أَضَاعَ مُضِيعٌ؟
وَهَلْ قَوَّضَتْ خَيْمٌ عَلَى أَبْرَقِ الْحَمَى^(٨) وَمَا ذَاكَ مِنْ غَدْرِ الزَّمَانِ بَدِيعٌ^(٩)

(١) وفيات الأعيان ٢٥٥/٤

(٢) تعرف اليوم باسم «باب الشيخ»، نسبة إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني، وفيها ضريحه.

(٣) بَخِيفٌ مِنْي: خيف: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، ومنه سمي مسجد الخيف من منى. (معجم البلدان ٣/٤٩٩).

(٤) المحصب: موضع فيما بين مكة ومنى، وهو إلى منى أقرب. (معجم البلدان ٣/٣٩٥). وهذا الشطر مكسور الوزن، ولعله:

وهلا.

(٥) المازمان: موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة. (معجم البلدان ٣/٣٦٢) (٦) سرحة: شجرة.

(٧) الصفا: مكان مرتفع من جبل أبي قبيس. (معجم البلدان ٥/٣٦٥).

(٨) أبرق الحمى: لم يذكره ياقوت بين «الابارق» التي ذكرها في معجمه.

(٩) بديع: جديد.

وَهَلْ تَرَدُّنْ مَاءَ بِشْعَبِ ابْنِ عَامِرٍ^(١) حَوَائِمُ لَوْ يُقْضَى لَهِنَّ شُرُوعُ؟
وما ذاك إلا عارضٌ مِنْ طَمَاعَةٍ لَهُ بِقُلُوبِ الْعَاشِقِينَ وَلُوعُ
... الخ^(٢).

وقد عاصر ابن ناهوج «ابونزار الحسن بن ابي الحسن . . النحوي المعروف بملك
النحاة . ولد ببغداد في الجانب الغربي . . ثم سافر الى بلاد خراسان وكرمان وغزنة . . وقدم
دمشق ثم خرج منها وعاد اليها واستوطنها الى ان مات بها سنة ٥٦٨ هـ، وكان قد ناهز الثمانين .
ومن شعره يمدح النبي ﷺ :

يا قاصداً يَثْرِبُ الْفِيحَاءُ^(٣) مُرْتَجِياً - أَنْ يَسْتَجِيرَ بَعْلِيَا خَاتَمَ الرُّسُلِ
خُذْ عَنِ أَخِيكَ مَقَالاً إِنْ صَدَعْتَ^(٤) بِهِ - مُدِحَتْ فِي آخِرِ الْأَعْصَارِ^(٥) وَالْأَوَّلِ
قُلْ: يَا مَنْ الْفَخْرُ مَوْقُوفٌ عَلَيْهِ، فَإِنْ - تُذَوِّكِرُ الْفَخْرُ لَمْ يَصْدِفْ^(٦)، وَلَمْ يَمَلِ
صِيَتْ إِذَا طُلِبَتْ غَايَاتُهُ خَرَقَتْ - سَبْعاً طَبَاقاً، فَبَذَتْ كُلَّ ذِي أَمَلٍ
عَلَوَتْ وَازْدَدَتْ، حَتَّى عَادَ مُنْتَزِحاً - جَبْرِيلُ عَمَّا لَهُ قَدْ كَانَ لَمْ يَطُلِ
وَعُدَتْ - وَالْكِبْرُ قَدْ نَافَى عُلاكَ - عَدَوْتَ شِيْمَةَ سَبْطِ^(٨) الْخَلْقِ، مُبْتَهَلٍ
أَتَكَ غُرُ قَوَافِي الْمَدْحِ خَاضِعَةً - لَدَيْكَ، فَاقْبَلْ ثَنَاءً غَيْرَ مُتَحَلٍ
ثَنَاءً مَنْ لَمْ يَجِدْ وَجْناً^(٩) تَحْمِلُهُ - إِلَيْكَ، أَوْصَدُ بِالْأَقْتَارِ^(١٠) عَنْ جَمَلِ^(١١)
وقال ايضا يمدح الرسول ﷺ :

لِلَّهِ أَخْلَاقُ مَطْبُوعٍ عَلَى كَرَمِ - وَمَنْ بِهِ شَرَفَ الْعَلِيَاءِ وَالْكَرَمِ
أَغْرُ اِبْلُجُ^(١٢) يَسْمُو عَنْ مُسَاجِلِهِ^(١٣) إِذَا تُذَوِّكِرُ الْإِخْلَاقَ وَالشَّيْمَ

(١) شعب ابن عامر: ارجح أنه وشعب جيلة الذي كانت فيه الواقعة المشهورة بين بني عامر وقيم وعيس وذبيان وفزارة، اذ لم يذكر

ياقوت شعباً بهذا الاسم في معجمه . (معجم البلدان ٥١/٣، ٥١٠/٥)

(٢) معجم الأدباء ٨٨/٩ (ط . دار المأمون)

(٣) الفيحاء: الواسعة . (٤) صدعت: جهرت .

(٥) الأعصار: واحدها عصر وهو الزمن . (٦) صدف: يعرض .

(٧) لم يطل: من القول أي القدرة، أي أن جبريل لم يصل إلى ما وصل إليه الرسول ولعل الشاعر يشير إلى ما ورد في كتاب (الاسماء

والمعراج) من أن الرسول ﷺ صعد إلى سموات لم يصل إليها جبريل .

(٨) سبط الخلق: كريم الشرائع، متواضع . (٩) الوجناء: الناقة القوية .

(١٠) الأقتار: الفقر . (١١) معجم الأدباء ١٢٣/٨ - ١٢٥ (ط . دار المأمون) .

(١٢) الأبلج: المفتقر الحاجب، وقيل الأبيض الحسن الواسع الوجه .

(١٣) المساجل: المنافس .

سَمَتْ عُلاكَ رَسُولَ اللَّهِ، فَارْتَفَعَتْ
لَا مَنْ رَأَى الْمَلَأَ الْأَعْلَى، فَرَاعَهُمْ
... الخ^(٢).

وقال يمدح الرسول أيضا:

مَنْ حَامِلٌ عَنْ أَخِيهِ سَبْطٌ مَأْلُكَةٌ^(٣)
يَقُولُ، وَالْحُجُرَاتُ الْغُرُ تَسْمَعُهُ
هَلْ سَامِعٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ لِمَنْ
... الخ^(٤).

ولابي نزار ثلاث قصائد أخرى في مدح الرسول أيضا: أحداها قافية ومطلعها:

يَا خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ قَاطِبَةً أَتَاكَ لَفْظُ الثَّنَاءِ يَسْتَبِقُ^(٥)
والأخرى دالية ومطلعها:

رَأَى الْبَرْقَ غَوْرِيٍّ الْوَمِيزِ فَأَنْجَدَا وَأَصْدَرَ رَكْبٌ بِالْعَقِيقِ فَأَوْرَدَا^(٦)
والثالثة رائية ومطلعها:

لِمَنْ النَّارُ عَلَى مَرْفُوعَةٍ مِنْ يَفَاعٍ^(٨) جَبَلٍ عَالِيهَا مَغَارٌ^(٩)؟

ان ملك النحاة - فيما اعلم - هو أول شاعر يمدح الرسول ﷺ بهذا العدد من القصائد،
وعندي ان لشخصية ملك النحاة علاقة بهذا الولع والاكثار من مدح سيد المرسلين . فقد كان
ابونزار عنده عجب بنفسه وتيه، وهو الذي اطلق على نفسه هذا اللقب «ملك النحاة» وكان
يسخط على من يخاطبه بغير ذلك^(١٠)، حتى انه قال عن مقاماته التي وضعها على غرار مقامات
الحريري: «مقاماتي جد وصدق، ومقامات الحريري هزل وكذب»^(١١).

والمهم ان شخصية ابي نزار هي التي املت عليه ان يتوجه بمدح الرسول ﷺ،
بعد ان خاب ظنه في الزعماء من معاصريه، لا سيما وقد عرفنا ان الرجل جال جولة كبيرة بين
حواضر العالم الاسلامي: بدأت ببغداد وواسط، ثم اربل وخراسان وكرمان . . وانتهى به

(١) الكلم: الكلام، ولعلها: قلم.

(٢) تهذيب تاريخ دمشق ١٦٧/٤

(٣) المألكة: الرسالة.

(٤) تهذيب تاريخ دمشق ١٦٧/٤ - ٦٨

(٥) أفيض: كثر، اتسع.

(٦) نفسه ١٦٨/٤

(٧) نفسه ١٦٨/٤

(٨) نفسه: ١٦٩/٤

(٩) اليفاع: المرتفع، وفي هذا المعجز اضطراب.

(١٠) أنباه الرواة ٣٠٩/١، حاشية ١١.

(١١) وفيات الاعيان ٣٧١/١

المطاف في دمشق^(١).

ولعل الوقوف على شعرابي نزار في مدح الرسول الكريم مما يعين على معرفة الاصل الذي الهم البوصيري^(٢) نظم قصائده الذائعة الصيت في مدح الرسول ﷺ وهو موضوع ظل يشغل بال المحدثين، اذ ليس من المعقول ان يكون البوصيري المتوفي في اواخر القرن السابع، قد ابتكر هذا الفن دون ان يستعين بأحد سبقه اليه، لأن هذه الفترة يغلب عليها التقليد، فكيف استطاع صاحب البردة الخروج على سمة عصره وطابعه؟

لقد ذهب الباحثون مذاهب شتى في تعليل الطريقة التي اهتدى البوصيري بها الى المدائح النبوية: فمن قائل ان مدح الخلفاء العباسيين، وزعماء الشيعة والفاطميين، بسبب قرباتهم للرسول، كانت البداية التي اوحى للبوصيري بالفكرة^(٣)، وقال المرحوم الدكتور محمد كامل حسين: ان الشعراء في أواخر العصر الفاطمي، وفي العصر الايوبي وما بعده في غزلهم، كانوا يحرصون على ان يذكروا بعض الاماكن والبلاد التي في الحجاز. . وكانت هذه الظاهرة اللاتفة في العصر الايوبي هي السبب الاول في ظهور فن جديد في الادب العربي هو فن المدائح النبوية^(٤).

اما المرحوم الدكتور مبارك فعلى الرغم من دراسته لموضوع المدائح النبوية في الأدب العربي في كتاب خاص، قال عنه: «انه اول من يرسم خصائص المدائح النبوية في الادب العربي. .»^(٥) ولكن الدكتور الفاضل لم يتطرق الى العوامل التي ساعدت البوصيري على النبوغ في هذا الفن فجأة، على الرغم من اشارته الى قصائد الشريف الرضي ومهيار في رثاء الحسين ﷺ واهل البيت^(٦). . وهي اشارة ربما اغنت عن العبارة.

التصوف:

يمثل المتصوفة اقصى درجات الزهد والمبالغة في الانصراف للدين والاعراض عن كل ما يمت الى هذه الدنيا بصله، ولذلك عرفوا بالميل الى الوحدة والابتعاد عن الناس وما يشغلهم، كما شهروا بالاكثفاء بما يسد الرمق من الطعام، وبما يستر الجسم من اللباس.

وقد عاش في العراق خلال الفترة التي ادرسها زعيمان مشهوران من شيوخ الصوفية،

(١) وفیات الأعيان ١/ ٣٧١

(٢) هو محمد بن سعيد بن حماد. . الصنهاجي، كان يعاني صناعة الكتابة والتصوف، وشعره في غاية الحسن واللطافة. توفي سنة

٦٩٥ هـ. فوات الوفيات ٢/ ٤١٢، الوافي بالوفيات ٣/ ١٠٥، المدائح النبوية ص ١٧١

(٣) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ١٩٣ - ١٩٤

(٤) الادب في بلاد الشام ص ٤١٢

(٥) المدائح النبوية ص ٩

(٦) نفسه ص ١٤٢ وما بعدها.

وهما الشيخ عبد القادر الكيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ في بغداد: «... وكان سكوته أكثر من كلامه... فظهر له صيت عظيم وقبول تام... وتاب على يده معظم أهل بغداد، واسلم معظم اليهود والنصارى...»^(١) وفي جنوب العراق، في البطائح اشتهر شيخ الطريقة الرفاعية أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ، وقد اشرت في مكان آخر من هذه الرسالة^(٢) إلى ما كان يعتقد من أن سبب لطافة شعر ابن المعلم الواسطي هو بركة انفاس المتسبين إلى الشيخ أحمد الرفاعي، لأنه عاش بينهم فترة طويلة.

إن انصراف المتصوفة عن الدنيا، وانشغالهم بالدين، قد لفت نظر الحكام اليهم، فحاولوا بذل كل ما يستطيعون للسيطرة على هذه الحركة، واستمالة زعمائها. فاصبح الصوفية فئة مميزة في المجتمع، واصبح لرؤسائهم مكانة عند الحكومة كالقضاة والشهود والوجوه، فكانوا يحضرون مجالس الوزير اسوة بكبار رجال الدولة^(٣)، وحين يذكر المؤرخون كبار المدعويين إلى الوليمة التي اعتاد الخليفة المستضيء اقامتها في مستهل رجب من كل سنة، يذكرون من بين المدعويين الكبار «... مشايخ الربط والصوفية وأهل الدين»^(٤).

إن هذه العلاقة بين الصوفية والحكومة قد أثارت سخط العارفين بأصل التصوف، المدركين حقيقة أهدافه^(٥).

كذلك استغل أعداء التصوف هذه العلاقة، وراحوا يشنعون على الصوفية بأن أوائلهم كانوا ينفرون من السلاطين والأمراء، ولكنهم الآن صاروا أصدقاء^(٦). وقال أحد الباحثين: كان لهذه الطبقة (المتصوفة) أثر كبير على الناس، إذا شاعت فيهم روح التوكل والاستجداء، وأصبحت السلبيّة طابع تلك العصور عند الشعوب أو المحكومين، ولم تقم بينهم دعوات للتحرر لأنها كانت تكبت لأول ظهورها^(٧). . . ، وقال باحث آخر: «... إن التصوف في الحقيقة حركة اتخذت الجانب السلبي من المثل... فقد كان قائماً على الاعتراف بالعجز، بل على التسليم بالضعف وقلة الحيلة والاعراض عن المادة كلها، وعن الاجداد والطموح وعن الشرف...»^(٨).

وللانصاف يجب أن يشار إلى وجوب التأكد من التهم التي يهاجم بسببها التصوف فليس جميع المتصوفة كانوا يقبلون هبات الحكومة ونقودها، فقد ورد أن كمال^(٩) الدين عبد الرحمن بن محمد بن الانباري المتوفى سنة ٥٧٧ هـ: «كان تقياً عفيفاً، خشن العيش خشن الملبس، لم يتلبس

(٢) انظر: الفصل الثاني ص ٨٩

(١) مرآة الزمان: ٢٦٤/٨ - ٢٦٥

(٣) تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٣٩٧

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٢٩

(٥) الرسالة القشيرية ص ٣

(٦) تلبس ابليس ص ١٦٦

(٨) الفكر الشيعي والنزعات الصوفية ص ٧١

(٧) الأدب في العصر الأيوبي ص ٤٩ - ٥٠

(٩) هو صاحب الانصاف في مسائل الخلاف، ونزهة الألباء، وأسرار العربية.

من الدنيا بشيء . . . وكان يحضر في نوبة الصوفية بدار الخلافة، فينفذ إليه بالتشريف والذهب فيعيده ولا يقبله . . . وكان بابه مفتوحاً لطالبي العلم يعلمهم لوجه الله تعالى^(١)؛ كذلك يجب الحذر من التعميم في اتهام الصوفية بالسلبية، قال سبط ابن الجوزي عن الشيخ عبد القادر الكيلاني، « . . . وكان يصدع بالحق على المنبر، وينكر على الظلمة، ولما ولي المقتني القاضي ابن المرخم^(٢) الظالم، قال على المنبر: «وليت على المسلمين أظلم الظالمين، فما جوابك غدا عند رب العالمين؟»^(٣).

أما شعر التصوف في الفترة التي أدرسها فيجب أن يقسم إلى ضربين:

الأول:

شعر أولئك الشعراء الذين اتصلوا بالتصوفة وعرفوهم عن كتب وعاشوا بينهم فترات ربما طالت - كما سبق عن ابن المعلم الواسطي مثلاً - ولكن هؤلاء الشعراء لم يعتنوا بالمبادئ الصوفية، ولا صاروا من جملة المريدين والاتباع لشيخ التصوف واقطابه، ولذلك يغلب على شعر هؤلاء روح التصوف ونفحاته دون غموضه واصطلاحاته، فتحس بخشوع ورهبة تجاه فنائهم وتعلقهم بالخالق سبحانه، ولا تملك نفسك من الإعجاب بهذا الحب الذي ملك عليهم جوارحهم، كقول سعد الله^(٤) بن نصر بن سعيد، الذي كان يخالط الصوفية ويحضر معهم السماعات:

لي لَذَّةٌ فِي ذِلَّتِي وَخُضُوعِي	وَأَحِبُّ بَيْنَ يَدَيْكَ سَفْكَ دُمُوعِي
وَتَضُرُّعِي فِي رَأْيِ عَيْنِكَ رَاحَةً	لي مِنْ جَوَى قَدْ كُنَّ ^(٥) بَيْنَ ضُلُوعِي
ما الذُّلُّ لِلْمَحْبُوبِ فِي شَرْعِ الْهَوَى	عَارٌ، وَلَا جَوْرُ الْهَوَى بِبَدِيعِ ^(٦)
هَبْنِي أَسَاتُ، فَأَيْنَ عَفْوُكَ سَيِّدِي	عَمَّنْ رَجَاكَ لِقَلْبِهِ الْمَوْجُوعِ ^(٧)
جُدْ بِالرِّضَا مِنْ عَطْفٍ لُطْفُكَ، وَاغْنِهِ	بِجَمَالٍ وَجْهَكَ عَنْ سُؤَالِ الشَّفِيعِ ^(٨)

إن البيت الأول من هذه الأبيات لا تصل إلى روعته وصدقه قصائد طوال ينظمها المفتونون بالحكام ودنانيرهم، ولست أشك أن الشاعر لم يكن يستطيع أن يتوصل إلى فكرة الجمع بين اللذة

(١) الروضتين ٢٧/٢، فوات الوفيات ٥٤٧/١.

(٢) بالأصل: ابن المجرم . . . تحريف، وانظر عن ابن المرخم القاضي الفصل الأول ص ٢٦.

(٣) مرآة الزمان: ٢٦٥/٨.

(٤) أنظر الفصل الأول ص ١٧ هامش ٧.

(٥) كُنْ: اختياً وتواري.

(٦) بدیع: بجديد، غير مألوف.

(٧) المَوْجُوع: الذي أصابه الوجع.

(٨) المختصر المحتاج إليه ٧٧/٤ وهامش المحقق رقم ١٥٤، فوات الوفيات ٣٤١/٨.

والذل والخضوع، ولا بين الحب وسفك الدموع، لولا الصوفية وطقوسهم وحياتهم التي رآها بعينه وسمعها بأذنه.

وليس في الأبيات من ألفاظ التصوف واصطلاحاته - بحسب علمي - سوى لفظة «المحجوب» في البيت الثالث، وواضح أن المراد بها الخالق سبحانه وتعالى^(١).

وقال ابن الباطوخ^(٢) المتوفي سنة ٥٤٤ هـ:

بَحَقِّكَ إِنِّ عَايَنْتَ مَنْ أَنَا عَبْدُهُ فَقُلْ: قَالَ ذَاكَ الْعَبْدُ: قَدْ مَسَّنِي الضَّرُّ
تَرَفَّقْتُ بِصَبٍّ قَدْ عَزَّ صَبْرُهُ وَصَلَّ دَنْفًا^(٣) قَدْ شَفَّهُ^(٤) الْبُعْدُ وَالْهَجْرُ
أَعْلَلُ قَلْبِي فِي وَصَالِكَ بِالْمَنَى وَأَسْأَلُ عَنْ صَبْرِي، وَقَدْ عُدِمَ الصَّبْرُ
فَكَيْفَ سَلَوَى عَنْ حَبِيبٍ إِذَا بَدَتْ مَحَاسِنُهُ لِي غَابَ عَنْ حُسْنِهَا الْبَدْرُ؟
ذَلَّلْتُ لَهُ، وَالْحُبُّ عَارٌ وَذِلَّةُ وَصَرْتُ لَهُ عَبْدًا، وَفِي يَدِهِ الْأَمْرُ^(٥)

وكما نعجب بالشعر الصوفي لما يتردد فيه من نفحات الحب الالاهي - وهو حب لم يعرفه الشعر العربي لولا المتصوفة - كذلك قد وفق بعض هؤلاء الشعراء - بسبب عقائد الصوفية وعاداتهم - إلى افكار طريفة، تبدو غريبة نوعا ما بالنسبة للأكثرية الساحقة من الناس، كقول قوام الدين أبي الفرج هبة الله بن أحمد . . الاعرابي البغدادي الصوفي المحدث المتوفي سنة ٥٧٦ هـ:

مَنْ كَانَ مُفْرَدًا فِي ذَا الزَّمَانِ، فَقَدْ نَجَا مِنَ الذُّلِّ وَالْأَحْزَانِ وَالْقَلَقِ
تَزَوَّجْنَا كَرُكُوبِ الْبَحْرِ، ثُمَّ إِذَا صِرْنَا إِلَى وَلَدٍ صِرْنَا إِلَى الْغَرَقِ^(٦)

إن فكرة البيت الثاني ليست مما ألفه الناس، بل العكس هو المألوف، فالزواج والانجاب من طبييات هذه الدنيا التي يحرص على التمتع بها الرجال والنساء على السواء، ولكن المتصوفة وحدهم ألقوا الوحدة والعزلة والانصراف إلى العبادة والترهب، ولذلك رأى هذا الصوفي أن الزواج بداية المصائب والكوارث، أما إنجاب الذرية فالدهاية الدهياء والموت الأحمر. أما الضرب الثاني من الشعر الصوفي:

فهو شعر المتصوفة أنفسهم وهو يعكس أفكارهم، ويعبر عن مجموعة المصطلحات

(٢) أنظر هامش ٣ ص ٢٧٨ من هذا الفصل الرابع.

(٤) شَفَّهُ: أَنَحَلَهُ.

(٥) تلخيص معجم الألقاب ق ٤ ج ٤ ص ٨٦٥ - ٦.

(١) الرسالة القشيرية ص ١١، ١٣

(٣) الذنف: العاشق.

(٥) الوافي بالوفيات ١٧١/٨

والألفاظ التي كثر استعمالها بينهم، وصارت لها مدلولات خاصة بهم، ومن هنا بدت لغير المتصوف أشبه بالطلاسم والمعميات، فاكسبت الشعر غموضاً لا سبيل إلى إزالته إلا بالرجوع إلى كتب التصوف وفي مقدمتها الرسالة القشيرية لعبد الكريم^(١) بن هوازن القشيري المتوفي سنة ٤٦٥ هـ. ومن هذا الضرب قول أبي الفتوح البغدادي وهو من أهل التصوف في التصوف، كما يقول العماد الاصفهاني:

تَقْضَى العُمْرُ، لَا وَصْلٌ فَيَرْجَى وَلَا هَجْرٌ مَرِيحٌ بِالْأَيَّاسِ
تَجَلَّى الْأَمْرُ لِلْأَبْصَارِ، لَكِنْ تَغْطِي الْحَقُّ عَنَّا هَالْتَبَاسِ
فَكَمْ مِنْ مُوقِظٍ، وَالذَّهْنُ لَا هِ؟ وَكَمْ مِنْ مُذَكِّرٍ، وَالْقَلْبُ نَاسِي؟^(٢)

إن البيت الأول يدل على عشق وغرام بدليل الوصل والهجر، ولكن البيت الثاني يوضح أي محبوب هذا الذي يتحدث عنه الشاعر. إنه الحق، وهو الله سبحانه في اصطلاحات التصوف^(٣). وفي البيت الثاني اصطلاح صوفي آخر هو التَّجَلَّى، وقد الفوا - على ما يبدو - ان يجمعوا بينه وبين مصطلح الستر، فيقولون: الستر والتجلي^(٤).

وقال أبو الفتوح أيضاً:

يَا قِبْلَةَ الْقَلْبِ، يَا مَنْ حَلَّ فِي فِكْرِي خَلَقْتَنِي مِنْ تُرَابٍ أَنْتَ خَالِقُهُ
أَجْرَيْتَ فِي قَالِبِي رُوحاً مُنَوَّرَةً جَمَعْتَ بَيْنَ صَفَا رُوحٍ مُنَوَّرَةٍ
يَا مَالِكاً مُهْجَتِي، يَا مُتْنَهَى أَمَلِي إِنْ احْتَجَبْتَ، فَمَسْرِي مِنْكَ فِي وَلِيهِ^(٥)
تَبَدُّو فَتَمَحُّو رُسُومِي، ثُمَّ تُثَبِّهَا وَجَلَّ^(٦) عَنْ أَنْ يَحِلَّ الرَّبُّ فِي الْفِكْرِ
حَتَّى إِذَا صِرْتُ تِمَثَالاً مِنَ الصُّورِ تَمُرُّ فِيهِ كَجَرَى الْمَاءِ فِي الشَّجَرِ
وَهَكَذَا صَنَعَةٍ مِنْ مَعْدِنٍ كَدِيرٍ يَا حَاضِراً^(٦) بِي فِي بَدْوِي وَفِي حَضْرِي
وَإِنْ حَضَرْتُ، فَقَلْبِي مِنْكَ فِي خَطَرٍ فَلَمَّا تَغَيَّيْتَ عَنِّي عِشْتُ بِالْأَثَرِ

(١) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن... القشيري، الفقيه الشافعي، كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والاصول والادب والشعر والكتابة وعلم التصوف، توفي بنيسابور سنة ٤٦٥ هـ. تاريخ بغداد ٨٣/١١، وفيات الاعيان ٣٧٥/٢، طبقات السبكي ٢٤٣/٣، وانظر مقدمة الرسالة القشيرية ط. بولاق.

(٣) الرسالة القشيرية ص ٥، ٨

(٢) الحريدة/ نسخة إيران ق ٢ و ١٥

(٤) الرسالة ص ٥١

(٥) جَلَّ: عَظُمَ وتَعَالَى.

(٦) حَاضِرًا: كَذَا بِالْأَصْلِ بِالظَّاءِ. وَالصَّوَابُ «حَاضِرًا».

(٧) الْوَلَةُ: التَّحِيرُ مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ.

يَلُوحُ شَاهِدٌ وَجَدَانٍ، فَيُنْعِشُنِي نَسِيمُ رُوحٍ عَلَى رَوْضٍ مِّنَ السَّحْرِ
... الخ^(١).

إن هذه الأبيات لا سبيل إلى فهمها دون الرجوع إلى رسالة القشيري؛ لكثرة ألفاظ واصطلاحات التصوف بها، مثل: يا حاضراي. . . في البيت الخامس فهو من المحاضرة، وهي اصطلاح شرحه عبد الكريم القشيري^(٢). وفي البيت السادس: إن غبت. . . وإن حضرت، وهما من الغيبة والحضور، كما فهمهما المتصوفة^(٣) وفي السابع اصطلاح السر^(٤)، وفي الثامن اصطلاح المحو والاثبات^(٥)، وفي البيت الأخير اصطلاح الشاهد^(٦).

وهكذا يبدو أن هذا الشعر كتب للمتصوفة وحدهم، فلا سبيل إلى فهمه دون شرح يقوم به شيخ من شيوخهم. وقد وجدت كتب التصوف ذاتها، ومنها الرسالة كما أشرت، تشرح الغامض بالفاظ تزيده غموضاً، حتى يخيل لك أن القوم يتحدثون بلغة أخرى. ولعل هذا الغموض هو الذي حمل أعداء التصوف - ومنهم ابن الجوزي الواعظ المشهور - على القول «بأن جمهور التصانيف الصوفية لا تستند إلى أصل، وإنما هي واقعات تلقفها بعضهم عن بعض ودونها، وقد سموها بالعلم الباطن»^(٧).

(١) الخريدة/ نسخة إيران ق ٢ و ١٤

(٢) الرسالة القشيرية ص ٥٢

(٣) نفسه ص ٤٨

(٤) نفسه ص ٥٩

(٥) نفسه ص ٥١

(٦) نفسه ص ٥٧

(٧) تلييس ابليس ص ١٦٦

الفصل الخامس
الخمرو والغزل بالمدكر والمجون

يمثل هذا الشعر الجانب اللاهني والعآبث من حياة الناس؁ فكما اتجهت طائفة من الناس - بسبب عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية^(١) - إلى الدين والزهد والتصوف والاعراض عن هذه الدنيا؁ اتجه آخرون وجهة أخرى؁ فاقبلوا على الدنيا وتمسكوا بها واداروا ظهورهم للآخرة وامعنوا في نسيانهم؁ فكان هؤلاء عشاق المواخير والحانات؁ وأولئك الذين اتجهوا بعواطفهم نحو الذكور.

ولا بد لمن يشرب أو ينحرف في سلوكه الجنسي ويخرج على تقاليد المجتمع وعرفه؁ لا بد له من الفاظ أو عبارات تدل على الانحراف والشذوذ؁ وتشير إلى عدم المبالاة بالأخلاق وأصحابها؁ وهو ما سمي بالمجون أو السخف.

١ - شعر الخمر:

ورث شعراء القرن السادس؁ مع ما ورثوا من اسلافهم شعراء القرون السابقة؁ شعر الخمر؁ وهذا الهيام ببنت الحان؁ والتغزل بسقاتها من الاناث والذكور والسعي إلى حاناتها آناء الليل وأطراف النهار؁ وتلك الصفات البراقة الاسطورية التي وصفوا بها رائحتها؁ ورقتها؁ وشعاعها؁ وما تفعله في عقول الشاربين وأبدانهم . فليس من المعقول أن يكون التقليد هو الصفة الغالبة على جميع النماذج الشعرية باستثناء الخمريات .

لقد وجد شعراء هذه الحقبة أن وصف الخمر قد صار غرضاً تقليدياً من أغراض الشعر العربي مثل المديح والهجاء والثناء . . ولذلك لا بد أن يقول الشاعر فيه شيئاً؁ كي يثبت شاعريته في ميدان كثر فرسانه . وظاهرة التقليد هذه؁ هي السبب في تلك التفت والمقطوعات الخمرية المنتشرة في تراجم طائفة من شعراء القرن السادس في خريدة العماد الأصفهاني؁ ووفيات الأعيان؁ وفوات الوفيات وغيرها من كتب الأدب والتراجم .

(١) انظر الفصل الرابع من هذه الرسالة .

ولا شك أن قسماً غير قليل من شعر الخمر هذا - ربما زاد على ما وصل إلينا - قد ضاع، أو أهمله المؤرخون عمداً: لأنه خلا من مقومات الشعر باستثناء الوزن والقافية من ناحية، ولأنه يخالف الاتجاه الشعري العام والسمعة الأدبية لأولئك الذين أضيف إليهم من الناحية الأخرى، فمثلاً قال العماد عن ثقة الدولة ابن الدريني أنه: «من أركان دولة المفتي... مجموع الكرم والفضل والورع والدين»^(١). ثم يروي له من الخمرات قوله:

إِذَا مَا حَسَاهَا فِي الدُّجْنَةِ^(٢) شَارِبٌ ظَنَّنَاهُ بِالْبَذْرِ الْمُنِيرِ تَلَثَّمَا
وَكَمْ لَيْلَةٍ، لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَكْبٌ أَقَمْنَا حَبَابَ^(٣) الْكَاسِ فِيهِنَّ أَنْجُمَا^(٤)

وقال عن سديد الدولة محمد بن عبد الكريم الانباري أنه: «منشئ ديوان الخلافة، من بيت السؤدد والكرم والفضل، وهو شيخ الدولة... وما كان يتعاطى الشعر، تغانيا عنه...» ثم يروي له قوله:

الآن، وما رَوْضُ^(٥) الْعُمْرِ نَدِي لَا تُخْلِ مِنْ الْكَؤُوسِ وَالرَّاحِ يَدِي
فِي بَاقِي الْعُمْرِ فُزْ بِعَيْشٍ رَغْدٍ إِنَّ الدُّنْيَا إِذَا مَضَتْ لَمْ تَعُدْ^(٦)

وقال أحد القضاة:

نَبَةُ الْعَوْدُ ضَجَّةَ الْمِزْمَارِ وَبَدَتْ جَهْرَةً كَوُوسُ الْعَقَارِ^(٧)
وَعَدَا الصَّوْمُ هَازِئاً يَنْشُرُ الرُّوْ عَةً، يَتَلَوُهُ عَسْكَرُ الْإِفْطَارِ
وَمَضَى النُّسْكُ وَالتَّرَاوِيحُ^(٨) وَالتَّنَسُّ بَيْحُ طُرّاً، مُهَتِّكَ الْأَسْتَارِ
فَاشْرَبُوا الْخَمْرَ مِنْ يَدَيِّ فَاتِرِ الْمُقَدِّ لَةٍ، عَذْبُ لُمَاهُ^(٩) لِلْمُشْتَارِ^(١٠)

ويبدولي أن كثرة شعر الخمر في القرون التي سبقت القرن السادس، وكذلك البصور التي رسمت لآثرها في الشاربين، والهالات التي أحيطت بها مجالس الشرب والمنادمة، واعتياد الناس على الإعجاب بأسلافهم، والنظر إلى القدماء على أنهم القدوة والسابقون إلى كل حسن وجديد

(١) الخريدة: ١٤٤/١

(٢) الدجنة: الظلمة.

(٤) الخريدة: ١٤٦/١

(٦) الخريدة: ١٤٤/١

(٣) الحباب: الفقايع التي تعلقو الخمر.

(٥) بالاصل: روضه، ولعل الصواب ما أثبت.

(٧) العقار: الخمر.

(٨) التراويح: نوع من الصلوات التي تصلى في ليالي شهر رمضان.

(٩) اللمي: (بتثنية اللام) سواد أو سمرة في باطن الشفة يستحسن. المشتار: الذي يجي العسل.

(١٠) الخريدة: ٦٨٢/٤

مبتكر، لا سيما وقد حاول المتأخرون أن يبالغوا في المكانة التي بلغت الخمرة عند الاسلاف حتى نسب إلى الخلفاء والقادة والقضاة وكبار أصحاب المناصب شعر أو قصص أو حكم ومواعظ تتصل بالخمير وتحض على الخلاعة وإطراح الوقار^(١).

إن جميع هذه العوامل والأسباب، مع عوامل أخرى سبقت الإشارة إليها في هذه الرسالة، أعني سوء الحياة الاقتصادية، وتفكك المجتمع، وتغلب الأجانب والدخلاء من فرس وترك على مقاليد الأمور، كل ذلك ترك أثره على تفكير الناس، ونظرتهم إلى القيم والأخلاق. فصار الشعراء أكثر جرأة في صورهم وأفكارهم وألفاظهم وأخذوا يجهرون ويصرحون بمعان وآراء، كانوا يترددون في التفكير بها من قبل من ناحية، وبالغوا وتطرفوا في تهافهم وهيامهم وغرامهم بالخمير من ناحية ثانية. حتى ليعجب المرء كيف تصل الأمور إلى هذا الحد في بلاد يحرم دينها الخمر، ويشدد فقهاؤها النكير على باعة الخمر وشاربيها؟.

لقد كان للتقليد دور كبير في ولع شعراء القرن السادس ولعا شديداً بالخمير: فالأبلة البغدادية يقول:

لولا كبار كُؤوسِها ما كُنتُ من أهلِ الكَبائرِ^(٢)
وقال:

قم فأجلُ في جُنحِ^(٣) الدُّجى فَجُنَحُهُ قَدْ بَرَدَا
صَفراءُ لو كانتِ سِوى الـ خَمْرِ، لَكَانَتْ عَسْجَداً^(٤) (٥)
ويشارك ابن التعاويذي زميله في غرامه بالخمير، فيقول:

وَأَلَقَ بَرْدَ الشَّتَاءِ مِنْهَا بِنَارٍ وَأَرَمَ جُنَحَ الظَّلَامِ مِنْهَا بِنُورٍ
وَأَسْقَنِي بِالصَّغِيرِ مِنْهَا، فَمَا أَبْ قَى الْهَوَى فِي فَضْلَةٍ^(٦) لِلْكَبِيرِ^(٧)
وقال:

تَفْتَضُّ عَذراءُ بِنْتَ كَرَمٍ أَنْحَلَهَا الْمَكْتُ فِي الدُّنَانِ

(١) الديارات ص ١٦٦، ١٦٨، ٦٣، ٧٢، ٧٦، حلبة الكميت ص ٢١، ٢٤، ٦٣، ٩٩ تطور الخمریات ص ١٤٦-١٤٩

(٣) جُنَحُ الدُّجى: جانب الظلام.

(٢) ديوان الأبلة و ١٧٤

(٥) ديوان الأبلة و ٧٧

(٤) العَسْجَدُ: الذهب.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٣

(٦) فَضْلَةٌ: بقية.

تَضْحَكُ فِي كَأْسِهَا سُوراً إِذَا بَكَتْ أَعْيُنُ الْقَنَانِي
مَا رَقَصَتْ فِي الْكُؤُوسِ إِلَّا نَقَطَهَا الْمَرْجُ بِالْجُمَانِ^(١)
حَتَّى تَرَاهَا مِنَّا عَقَالاً^(٢) لِّلِيدِ وَالرَّجُلِ وَاللِّسَانِ^(٣)

وفي هذه الأبيات الأخيرة، تحولت الخمر إلى فتاة، ضعفت من بقائها في الدنان ثم أكمل الشاعر تجسيم الخمر بالزعم أنها بدأت تضحك، ثم ترقص. وهو تجسيم أخذه الشاعر من أبي نواس، حين راح يحاور الخمر وتحاوره، تشكو إليه فيحاول أن يهون عليها المصاعب:

فَاسْتَوْحَشْتُ وَبَكَتْ فِي الدَّنِّ قَائِلَةً: يَا أُمُّ وَيْحَكَ أَخْشَى النَّارَ وَاللَّهْبَا
فَقُلْتُ: لَا تَحْذَرِيهِ عِنْدَنَا أَبَدًا قَالَتْ: وَلَا الشَّمْسُ، قُلْتُ: الْحَرَقُ ذَهَبَا
قَالَتْ: فَمَنْ خَاطَبِي هَذَا فَقُلْتُ: أَنَا قَالَتْ: فَبُعَلِي؟ قُلْتُ: الْمَاءُ إِنْ عَذَبَا^(٤)

كذلك ظلت الفكرة القديمة بأن الخمر تذهب الهموم شائعة في شعر القرن السادس، قال ابن التعاويذي:

حَمَرَاءُ صِرْفًا لَا يَطْوُ فْ بِرَحْلِهَا لِلْهَمِّ طَائِفٌ^(٥)
وقال:

أَنْتَ عَلَيْهَا فِي الدَّنَانِ الْأَعْوَامُ تَنْفِي الْهُمُومَ وَتُدَاوِي الْأَسْقَامَ^(٦)
وقال الأبله:

وَأَذْرِهَا حَمَرَاءَ تَذْرَأُ^(٧) عَنَّا بُرَحَاءُ^(٨) مَا مِنْ أَذَاهَا بَرَأُ^(٩)
خَنْدَرِيسًا^(١٠) لَهَا مِنَ الْمَرْجِ تَاجٌ وَعَلَيْهَا مِنَ الْحَبَابِ وَشَاخٌ
تَتَلَاشِي الْهُمُومُ مُنْطَوِيَاتٍ حِينَ تُجَلَّى وَتُنْشَرُ الْأَفْرَاحُ^(١١)

(١) الجمَان: ضرب من الجواهر.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٤٣

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٨٢

(٤) تدرأ: تدفع، تبعد.

(٥) البرحاء: الشدة.

(٦) برأ: خلاص.

(٧) الخندريس: من أسماء الخمر، وهي الخمر القديمة.

(٨) ديوان الأبله و ١٤٤١، وانظر أيضا و ٨١

(٩) العقال: الخيل.

(١٠) ديوان أبي نواس (أصاف) ص ٢٤٦ - ٤٧

(١١) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٨٢

وظل الشعراء عيلاً على أبي نواس في بقية معاني وصفات الخمر التي ترد كثيراً في الشعر الخمري، ومنها المبالغة في نعتها بالقدم^(١)، والمبالغة في نعتها بالبريق واللمعان^(٢). ففي المعنى الأول قال أبو نواس:

رَأَتْ نُوحًا، وَقَدْ شَمِطَتْ^(٣) وَشَابَتْ وَقَدْ شَهِدَتْ قُرُونًا قَبْلَ نُوحٍ^(٤)
ومن المعنى الثاني قوله:

تَرَى حَيْثُمَا كَانَتْ مِنَ الْبَيْتِ مَشْرِقًا وَمَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ مِنَ الْبَيْتِ مَغْرِبًا^(٥)
ولقد أعدد شعراء القرن السادس - بلاجدوى - هذين المعنيين في عشرات الأبيات والكثير من القصائد.

ولعل ظاهرة التقليد هذه، لم تتضح في شعر شاعر كوضوحها في شعر الحيص بيص، لقد أشرت في الفصول السابقة من هذه الرسالة^(٦) إلى أن هذا الشاعر عرف بالجد والحشونة والتقوى والصلاح والورع والاعتزاز بالأصل العربي التميمي، وهي صفات جعلته يخرج على العرف السائد في عصره من افتتاح بعض المداخل بوصف الخمر والتغني بصفاتها، والاشادة بمجالسها، فليس في شعره أية قصيدة افتتحت بالخمر، بل أن هذا الشاعر افتتح إحدى مدائحه بغزل غلب عليه الدين، وهو مطلع نادر في الشعر العربي فيما أظن:

عَفَى اللَّهُ عَنْهَا هَلْ يُلْمُ خِيَالُهَا؟ فَيَقْضَى عَلَى رَغَمِ الرَّقِيبِ وَصَالُهَا^(٧)
ومن تدين الحيص بيص أيضاً: قوله - وهو يمدح دُبَيْسَ بْنِ صَدَقَةَ -:

ظَفِرَتْ فَأَوْفِ اللَّهُ شُكْرًا، فَإِنَّهُ يَزِدُّكَ عِلَاءً إِنْ تَزِدُّهُ تَضَرُّعًا
وَصَفْحًا عَنِ الْجَانِي، فَكُلُّ خَلِيقَةٍ تَقِلُّ عَنِ الْغُفْرَانِ وَالْجَلْمِ مَوْضِعًا
وَمَا بَاتَ يُرْضِي رَبُّهُ مِثْلُ قَادِرٍ تَجَاوَزَ عَنْ جُرْمٍ جَلِيلٍ تَوْرَعًا^(٨)

إن تذكير الممدوح بأن يشكر الله على الظفر، مما انفرد به هذا الشاعر في الفترة التي أدرسها

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٣، ٣٨٢، ٤٤٣، ديوان الأبله و ٩٦، الخريدة ٣٧٥/٤

(٢) الخريدة ٣٧٥/٤، ٢٦١، ديوان ابن التعاويذي ص ٤٠٠، ٤٠٨، ديوان الأبله و ٥٩

(٣) شَمِطَتْ: اختلط سواد شعرها ببياضه.

(٤) ديوان أبي نواس ص ٢٦٣

(٥) ديوان أبي نواس ص ٢٤٤

(٦) انظر الفصل الثاني ص ٥٧، والفصل الرابع ص ٢٦١

(٨) نفسه ١٧٢/٨

(٧) الديوان المطبوع ٨٤/١

وقال أيضا بمدحه:

في طاعةِ اللهِ أسبابٌ مُجَبِّنةٌ تَظَلُّ مِنْهَا لِيُوثَ الغَابِ فِي وَهْلِ (١)
وَكَمْ بَخِيلٍ بِتَسْلِيمٍ لِعِزَّتِهِ يُعَفِّرُ (٢) الخَدَّ لِلرَّحْمَنِ فِي وَجَلِ
إِذَا أَتَى الدِّينُ، فَالْإِقْدَامُ مَنْقُصَةٌ وَمَا لَنَا بِقِرَاعِ اللهِ مِنْ قَبْلِ (٣)

. . إن هذا الشاعر هو نفسه الذي يقول:

أَقَامَ بِهَا الشَّرْبُ (٤) الْكَرَامُ عَشِيَّةً وَقَدْ هَجَمَ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ فَأَمْتَعَا
إِذَا أُمْسَكَ الْغَيْثُ الْمُلْتَ (٥) بِأَرْضِهَا سَقَوْهَا مِنَ الْأَيْدِي عُقَارًا (٦) مُشْعَشَعَا
وَإِنْ دَارَتْ الصُّهْبَاءُ فِيهِمْ تَجَاذَبُوا أَحَادِيثَ مَجْدٍ يُجَعِّلُ (٧) النَّكْسَ (٨) أَرْوَعًا (٩)
فَمَا الْهَجْرُ (١٠) مَسْمُوعًا لَهُمْ عِنْدَ سَكْرَةٍ وَمَا الْحِلْمُ فِيهِمْ بِالسُّرُورِ مُضِيْعًا (١١)
ويقول:

وَمَا نَشْوَةٌ مِنْ قَرْقَفٍ (١٢) صَرْخَدِيَّةٍ (١٣) تَدْفِقُ مِنْ صَنْكِ الْجِرَانِ (١٤) مُقَدَّمِ (١٥)
إِذَا سُكِبَتْ فِي الْكَأْسِ خِلَتْ شُعَاعُهَا - عَلَى غَسَقِ الظُّلُمَاءِ - جَذْوَةٌ مُضْرِمِ
لَهَا حَبٌّ يَرْفُضُ عَنْهَا كَأَنَّهُ عُيُونُ جَرَادٍ أَوْ زَوَاهِرُ أَنْجَمِ
أَتِيحَتْ لِمَشْعُوفٍ (١٦) الْفُؤَادِ مُذَلَّةً رَمَتْهُ الْغَوَانِي عَنْ قِسِيٍّ التَّصَرُّمِ
فَعَادَتْ بِأَشْجَانٍ، وَهَاجَتْ صَبَابَةً لَهُ وَتَمَشَّتْ فِي مُشَاشٍ وَأَعْظَمِ (١٧)

إن هذه المقاطع من شعر حيص بيص: تخالف الصبغة العامة لشعره - أولا - ، وتخالف أخبار الشاعر وطابع حياته - ثانيا - ، وهي تختلف - ثالثا - عن المؤلف المشهور من خمریات معاصريه ، وخاصة في النص الأول لأن أحاديث المجد التي تجعل النكس أروع ، ونجالس الخمر

(٢) يُعَفِّرُ: يلمص خده بالتراب.

(٤) الشرب: جماعة الشاربين.

(٦) العقار للشمع: الخمر الممزوجة بالماء.

(٨) النكس: المقصر عن غايته النجدة والكرم.

(١٠) الهجر: الكلام الفاحش.

(١٢) القرقف: الخمر.

(١) الوهل: الفزغ.

(٣) الديوان المطبوع ٢٣٦/١

(٥) الملت: المقيم.

(٧) كذا بالأصل ولعلها: تجعل.

(٩) الاروع: الذي يعجبك بحسن النظر والشجاعة.

(١١) الخريدة ٢٦٨/١

(١٣) صرخدية: منسوبة إلى صرخد، وهي بلد في بلاد الشام.

(١٥) مُقَدَّم: عليه مصفاة.

(١٤) الجران: مقدم العنق.

(١٧) الخريدة ٣١١/١، المُشَاش: رؤوس العظام.

(١٦) مشعوف الفؤاد: عاشق.

التي لا يسمع فيها هجر الكلام، ولا يضيع فيها الحلم، لم ترد في القرن السادس إلا في شعر الحيص بيص، ولعلها نادرة في الشعر العربي عامة، لأن المرء «في الساعة التي يعكف بها على كأسه يتحرر من تقاليد المجتمع». ونراه يأتي أفعالاً ما كان ليأتي بها لو كان صاحياً، ويتخلق باخلاق ويتأدب بآداب ما كان ليتخلق بها لو كان واعياً، فهو في ساعة السكر هذه لا يأبه للمجتمع، ولا يحسب لاعماله ونتائجها^(١) حساباً وكل عاطفة تثور في نفسه تأخذ طريقها إلى الخارج. .»^(٢).

لهذه الأسباب جميعها أرجح أن الشاعر اضطرب إلى الاستعانة بأوصاف الخمر ليرضي ممدوحه، إذ في أيامه صار من البديهي أن الخمر المعتقد لا يفوقها شيء في طيب الرائحة، وإن تشبيه طيب ذكر الممدوح وحسن أخلاقه بالخمر، يمثل الغاية التي لا سبيل إلى تجاوزها. فكيف يراد من شاعر يكسب رزقه من مدائح أن يبخل على هذه المدائح بأبلغ التشابيه وأجود المعاني؟

وإذا كان الحيص بيص معذوراً في تطعيم بعض مدائحه بذكر الخمر، فإن بعض شعراء القرن السادس الآخرين لا عذر لهم في تقليد خمريات أبي نواس في شعرهم الذاتي الذي لا يغبون منه جائزة أحد كالأمير حسام الدولة أبي الغيث محمد بن المغيث بن حفص الحنفي، الذي يقول في خمرية له:

ما شاقني حاتم^(٣) ولا صرد^(٤) ولا شجاني ربّع به وبَدَ
دار عليها السَّرابُ يَطْرُدُ
ولا نويت الوقوف في عرص^(٥) الـ والعيس^(٦) في اليد لا أكلفها
تُعْنِقُ^(٧) بي راكباً ولا تَخْدُ^(٨) لا أمتطي في الفلا الجدِيلَ^(٩) ولا
تَنْقُلُ رَحْلِي عَيْرَانَةَ^(١٠) أَجْدُ^(١١) ولا استباني العلياء^(١٢) والسند
جَمَعَ لَذَاتِ عَيْشِنَا الْبَلْدُ؟
مِنْ خَمْرٍ كَالشُّعَاعِ تَتَقَدُّ
لَهَا - وما فُضَّ خَتْمُهَا - أَبْدُ
قَدْ عِبَقَتْ فِي دِنَانِهَا، وَمَضَى

(٢) تطور الخمريات ص ١٤

(١) بالأصل: ونتائج.

(٣) الحاتم: الغراب. الصرد: طائر أكبر من العصفور.

(٤) عرص: أراد جمع العُرْصَة وهي الفسحة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء.

(٥) العيس: كرام الأبل.

(٦) تعنق: تسرع.

(٧) تخد: تسرع.

(٨) الجدِيل: فحل من الأبل.

(٩) العيرانة: الناقة الصلبة.

(١٠) أَجْدُ: موثقة الخلق.

(١١) كازمة: منخفض من الأرض على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة (معجم البلدان ٢٠٢/٧)

(١٢) العلياء: والسند: موضعان في البادية، ذكرهما النابغة الذبياني في قوله: يا دار مَيَّةَ بالعلياء فالسند.

رَوَى لَنَا الْقَسُّ حِينَ نَاطَرْنَا
 أَنَّ أَبَا جَدِّهِ، وَكَانَ بِهَا
 أَقْضَى إِلَى ابْنِ ابْنِهِ بِأَنَّ لَهَا
 فَحِينَ أَبْدَى لَنَا سَرَائِرَهَا^(٣)
 وَقَامَ يَمْشِي مُحْدَوِّباً، وَعَلَى
 ثُمَّ تَوَخَّى بِمَبْزَلٍ^(٤) مَعَهُ
 فَأَقْبَلْتُ كَالِدَمِ الْمُرَاقِ، فَهَلْ
 وَضَاعَ^(٥) فِي الْبَيْتِ نَشْرُ رَائِحَةٍ
 وَابْتَدَرَ الْقَوْمُ بِالرَّقِيقِ^(٦) وَبِالْـ
 وَقَامَ يَسْعَى بِكَأْسِهَا رَشَاءً
 يُدِيرُ مِنْ طَرَفِهِ، وَمِنْ يَدِهِ
 وَمِنْ رُضَابٍ بِفِيهِ ثَلَاثَةٌ
 ... الخ^(١٠).

فِيهَا، وَثَارَ الْجِدَالُ وَاللَّدْدُ^(١)
 يَضُنُّ عَنْ مِثْلِنَا إِذَا رَقَدُوا
 فِي الدَّنِّ مَذَّكَانَ بِيضَةً لُبْدُ^(٢)
 حُلَّتْ لَنَا مِنْ نَقُودِنَا الْعُقْدُ
 عَصَاهُ بَيْنَ الدَّنَانِ يَعْتَمِدُ
 فَوَادَ دَنِّ لِرُوحِهِ زَبْدُ
 رَأَيْتُ دَنَّا - يَا صَاحِبَ - يَنْقُصِدُ؟
 يَهْرُبُ مِنْهَا الزُّكَّامُ وَالرَّمْدُ
 عَسَجِدٍ لَا يَحْفُلُونَ مَا وَجَدُوا
 مُسَلِّطُ مَا لِعَمِيدِهِ^(٧) قَوْدُ^(٨)
 خَمْرَيْنِ يَنْحَازُ عَنْهُمَا الرِّشْدُ
 تَجْرِي بِشْغَرٍ كَأَنَّهُ بَرْدُ^(٩)

إن القصيدة تقليد لضرب من الشعر الخمري يسمى بـ «القصص الخمري»^(١١) أو قصص
 الخمر، بدأت بذوره عند الأعشى ثم نما واكتمل وبلغ أوجه عند أبي نواس . والشاعر في قصة
 السكر هذه - كما فعل شاعرنا حسام الدولة - يحكي ما فعله في إحدى الحانات، وكيف ثار جدل بين
 الشاعر وأصحابه من جهة وبين القس - أراد به صاحب الحان - من جهة أخرى، حول قدم خمرته
 إذ روى لهم إنها كانت في الدن «مذ كان بيضة لبـد : ثم وصف - على طريقة أبي نواس - الساقى :
 وقام يسعى بكأسها رشا . ثم ختمت القصة - كما في الجزء الذي اسقطته من القصيدة -
 بالمجون، إذ نجبرنا الأمير أنه فعل ما لم يره إلا المهيمن الصمد مع الساقى . وهي طريقة أبي نواس
 التي اعتاد أن يختم بها قصصه الخمري^(١٢)، وزيادة «المهيمن الصمد» التي دلت على أن شاعر

(١) اللدد: الخصومة الشديدة. (٢) لبـد: نسر يضرب به المثل في طول العمر.

(٣) السرائر: واحدتها سريرة وهو السر. (٤) بالمبزل: بمنزل، وهو خطأ صوابه ما أثبتته.

(٥) ضاع: فلاح وانتشر. (٦) الرقيق: الدرهم ونحوه.

(٧) العمد: أراد القتل العمد، أي إن هذا الساقى يقتل الناس متعمدا.

(٨) القود: القصاص. (٩) البرد: هو الخالوب عند أهل العراق.

(١٠) الخريدة ٧١٧/٤ - ٧٢١

(١١) تطور الحمريات ص ٢٣١، اتجاهات الشعر ص ٤٩٦، جحظة البرمكي ص ١٥٠

(١٢) تطور الحمريات ص ٢٣٥، جحظة البرمكي ١٥١

القرن السادس لم يدرس خمريات أبي نواس جيداً، ولذلك لم يحسن تقليدها، إذ أن أشهر المجان في الأدب العربي لم يجزؤ على ذكر المولى سبحانه في هذا الموطن:

إن التقليد في قصيدة حسام الدولة يبدأ من بيتها الأول، لأنه - لفظاً ومعنى - إعادة لمطالع جملة من قصائد أبي نواس المشهورة والتي بدأها بالسخرية من حياة الاعراب وكلفهم بالوقوف على الاطلاع وبكاء الطاعنين كقوله:

عَاجَ الشَّقِيُّ عَلَى رَسْمٍ يُسَائِلُهُ وَعُجْتُ أَسْأَلُ عَنْ خَمَارَةِ الْبَلَدِ^(١)
أو قوله:

قُلْ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمٍ دَرَسَ^(٢) وإِقْفَا، مَا ضَرَّ لَوْ كَانَ جَلَسَ^(٣)؟
وقوله:

دَعِ الرَّبْعَ مَا لِلرَّبْعِ فِيكَ نَصِيبٌ وَمَا إِنْ سَبَّني زَيْنَبُ وَكَعُوبُ^(٤)

ومن المعروف المشهور أن أبانواس نظم ما نظم، وقال ما قال لاسباب كثيرة منها الشعوية وبغض العرب^(٥). ولكن الأمير حسام الدولة كان من أمراء العرب والعربية. فهو من أمراء ربيعة بالبصرة^(٦)، ولذلك ليس من المعقول أن يقف في صف الشعوبين، وإنما أوقعه التقليد في هذا المأزق.

لقد حمل التقليد شاعر القرن السادس على الزعم بأن رجل الدين المسيحي (القس) هو الذي روى للشاعر وجماعته قصة تعتيق الخمر، نقلاً عن أبي جده عن ابن ابنه، وأن القس هو الذي قام بمشي محدودباً. وعلى عصاه بين الدنان يعتمد. وكل ذلك لم يرد مثله حتى في خمريات أبي نواس ذاتها، لأن رجال الدين المسيحي لم يكونوا يديرون حانات الخمر وبيوت الريبة، وإنما عرف بذلك بعض عوام النصارى. والذي أوقع شاعرنا في هذا الوهم أنه وجد طائفة من الشعراء - عند ذكر الخمر - تزعم أنها بنت الشماس أو الاسقف:

فَاسْتَجْلِهَا كَرَجِيَّةً بِنْتَ الشَّمَامِسِ وَالْأَسَاقِفِ^(٧)

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٦٦

(٢) درس: بل، وعفى أثره.

(٣) ديوان أبي نواس ص ٢٩٩

(٤) ديوان أبي نواس ص ٢٤٥

(٥) العمدة ٢٣٢/١

(٦) الخريدة ٧٠٢/٤

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٨٢

أو كما قال أبو نواس:

وَقَهْوَةٌ عُتِقَتْ فِي دَيْرِ شَمَّاسٍ تَقْتَرُ فِي كَاسِهَا عَنْ ضَوْءِ مِقْبَاسٍ^(١)

فسبق إلى ظنه أن رجال الدين ربما قاموا بأنفسهم بإدارة الخانات، فنسج قصته على هذا الوهم.

وفي نسيج القصيدة مأخذ أخرى منها: إن جملة (إذا رقدوا) في البيت العاشر لا موجب لها سوى القافية، ولفظة (الرمد) في البيت السادس عشر، اجتلبت هي الأخرى للقافية، إذ لم يقل أي سكير بوجود علاقة بين الخمر ومرض الرمد. أما البيتان الأخيران من القصيدة فهما من قول أبي نواس:

تَسْقِيكَ مِنْ يَدِهَا خَمْرًا، وَمِنْ فِيهَا خَمْرًا، فَمَا لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدٍّ
لِي نَشْوَتَانِ، وَلِلنُّدْمَانِ وَاحِدَةٌ شَيْءٌ خُصِصْتُ بِهِ مِنْ بَيْنَهُمْ وَحْدِي^(٢)

أما الخمر الثالثة، وهي خمرة العيون، فيجب الاعتراف أنها من مختترعات القرن السادس، ولم ترد في شعر أبي نواس ولا في شعر غيره، بحسب علمي.

هل من جديد في شعر الخمر؟

مربنا أن التقليد واتباع مشاهير شعراء الخمر السابقين هو الطابع الغالب المميز لخمريات القرن السادس، سواء من حيث الأسلوب أو الأفكار أو الصور وهو ما يتفق والخصائص العامة لشعر هذه العصور المتأخرة، التي يخيل للباحث أن القرائح فيها قد أصيبت بالعقم، فلم يعد هم الأدباء سوى الاعادة والتكرار والترديد لتنتاج الاسلاف.

ان غلبة التقليد على الشعر عامة، ومنه شعر الخمر، لا يعني عدم وجود فكرة أو صورة جديدة بين اكوام الافكار والصور المعادة المكررة. ولكن كيف السبيل الى الفصل في هذه المسألة الفنية الدقيقة دون الرجوع الى مشاهير الشعراء السابقين ودراسة شعرهم؟

ان دراستي لشعر جحظة^(٣) البرمكي ومقارنته بشعر ابي نواس في رسالتي للماجستير

(١) ديوان ابي نواس ص ١٨٥ (مط. الحجر)

(٢) نفسه ص ٢٦٦

(٣) هو ابو الحسن احمد بن جعفر: الملقب بجحظة، من أبناء البرامكة، كان شاعرا، مغنيا نديما. توفي سنة ٣٢٤هـ (على قول)، تاريخ بغداد ٦٥/٤، معجم الادباء ٣٩١/١ (ط. ماركليوث الثانية)، وفيات الاعيان ١١٦/١، جحظة البرمكي الاديب الشاعر (رسالة ماجستير).

واطلاعي من خلال ذلك على اشهر قصائد الخمر ومعانيها في القرنين الثاني والرابع للهجرة، ربما ساعدتني على التمييز والترجيح بين المعاني والصور التي كررت في القرن السادس، وتلك التي لم تعرف قبل هذا القرن.

وقبل الخوض في هذا الموضوع لاحظ ان شعر الخمر في القرن السادس قد تقلص وانكمش عما كان عليه في القرون السابقة، سواء من حيث كثرة النصوص ام تنوعها واتساعها، وكذلك الامر في شعراء الخمر الذين اكثر الشابستي من ذكر اخبارهم واشعارهم في دياراته^(١).

ان شعر الديارات^(٢) - على سبيل المثال - يكاد يلفظ انفاسه في الفترة التي ادرسها، لاننا لا نملك منه سوى قول ابن التعاويذي في دير الثعالب^(٣):

وَعَزَالَ عَلِقْتُهُ	يَوْمَ دَيْرِ الثُّعَالِبِ
مِنْ طِبَاءِ الصَّرِيمِ يَخُ	طِرُ فِي زِي رَاهِبِ
كَالْقَضِيبِ الرُّطِيبِ يُو ^(٤)	هِيهِ حَمْلُ الذَّوَابِ
شَدَّ زُنَارَهُ فَحَدَّ	لَ عُقُودَ الْمَذَاهِبِ
مَا رَمَى طَرْفُهُ بَسْهَ	مَ هَوَى غَيْرِ صَائِبِ
بَتْ مِنْ حُبِّهِ عَلَى	مِثْلِ شَوْكِ الْعَقَارِبِ ^(٥)

وابيات مفرقة هنا وهناك، لا نعلم في اي دير نظمت، منها قول الابله في اول قصيدة مدح:

وَحَانَةُ الْعُمَرِ ^(٦) فَمَعْمُوزَةٌ	بِاللَّهْوِ، وَالْدَيْرُ لَنَا دَارُ
وَالْخَمْرُ وَالْخَمَّارُ مَا بَيْنَنَا	لَا عُدِمَا عِطْرُ وَعِطَارُ
وَقَدْ صَفَا إِبْرِيقُنَا، وَاعْتَدَى	يَرُوقُنَا عُودُ وَمِزْمَارُ
فَطُفَّ ^(٧) بِهَا حَمَرَاءُ مَشْمُولَةٌ	كَالنَّارِ عُقْبَى شَرْبِهَا النَّارُ

(١) الديارات ص ٥١، ٦٣، ٦٩، ١٧٢

(٢) انظر دراسات مفصلة عنه في: تطور الحمريات ص ١٩٠، اتجاهات الشعر ص ٤٩٧، جحظة البرمكي ص ١٩

(٣) كان يقع بالجانب الغربي من بغداد بالموضع المعروف بباب الحديد. الديارات ص ٢٤

(٤) يوهيه: ينقله.

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٥٢ - ٥٣

(٦) بالاصل: الغمر بالغين المعجمة، والصواب ما اثبتته، والعمر: البيعة والكنيسة.

(٧) فطف: بالاصل بالقاف: قطف، تصحيف.

ذات نَسِيمٍ أَرَجِ نَشْرُهُ يَغَارُ مِنْ نَفْحَتِهِ الْغَارُ^(١)
لَهَا إِذَا أَظْلَمَ جُنْحُ الدُّجَى فِي الْكَاسِ أَضْوَاءٌ وَأَنْوَارُ
يُكْفَرُ الشَّرْبُ لَهَا مَا بَدَتْ تُجَلَى كَأَنَّ الْقَوْمَ كُفَّارُ
فِي سُحْرَةٍ أَرَشَفَنِي مِثْلَهَا مِنْ رَيْقِهِ أَهْيَفُ سَحَارُ
بَذَرُ دُجَى يُزْدِي بِشَمْسِ الضُّحَى مَطْلَعُهُ جَيْدٌ وَأَزْرَارُ
قَدْ شَدَّ فَوْقَ الْخَصْرِ زُنَارَهُ وَالْخَصْرُ فِي الدَّقَّةِ زُنَارُ

... الخ^(٢).

ان مقطوعة ابن التعاوذي وأبيات الابله ليستا من شعر الديارات القديم الا على سبيل المجاز، لان شعر الدير لا بد فيه من اجتماع ثلاثة عناصر هي : الغزل بالمذكر، والخمر، ووصف الطبيعة المحيطة بالدير^(٣). وليس في نص ابن التعاوذي سوى الغزل بالمذكر، ونص الابله كان التركيز فيه قد انصب على الخمر. اصف الى ذلك ان افتتاح قصائد المدح بوصف الدير والخمر التي فيه، لم يعرف قبل القرن السادس فيما ظن، لان المعروف ان ادب الدير مستقل عن المدح تماما.

وهذا الذي اصاب شعر الديارات امتد الى بقية الفنون الخمرية، حتى ان اكبر شعراء القرن السادس وهو سبط بن التعاوذي، لم تذكر الخمر في ديوانه الا بضع مرات، تعد عدا، مع ان الرجل شَرِيب خمر، وصاحب لهو، وليال حمراء^(٤). وقد ابعدت الخمر تقريبا عن ديوان ابن المعلم الواسطي في اكثر من ثلاث من نسخ الديوان التي اطلعت عليها، سواء في مقدمات المدائح - وهو من شعراء المدح الكبار - ام في قصائد الخمر الذاتية المستقلة عن المدح مع العلم ان الشاعر كان من عشاق بنت الحان واخذانها^(٥). وقد مر قبل صفحات ان ديوان الحيص بيص - بالشكل المتوفر منه حاليا - هو الآخر لا يكاد يذكر الخمر الا في التدرية.

وهكذا يحق لنا أن نتساءل عن أسباب قلة هذا الفن الشعري العريق في القرن السادس؟ وللإجابة عن هذا السؤال لا بد من ملاحظة ما يلي :

١ - ان الاقبال على مجالس الشراب، والحرص على توفير ما تحتاجه من خمر جيدة

(١) الغار: شجر طيب الرائحة، كانوا يصفرون من أوراقه أكاليل للمتصيرين.

(٢) ديوان الابله و ١١، وانظر أيضا الخريدة ٢٤٣/٢

(٣) تطور الحمريات ص ١٩٥

(٤) ديوان ابن التعاوذي ص ٢٥٨، ٢٣٠، ٣٩٩

(٥) ديوان ابن المعلم (نسخة دار الكتب) و ٩١، ٤٦، ٤٥

وآلات لشراب ذات صفات خاصة، وسقاة مدربين على هذا العمل، وندامى من النوع الذي يروق الشاربين. كل ذلك وغيره كصنوف الرياحين والأزهار التي لا بد أن تكثر في مكان الشرب، ووجود المغنين أو المغنيات الذين لا يطيب الشرب إلا على أصواتهم^(١). إن هذه المجالس - وهي التي يصورها الشعراء في قصائدهم عادة - لا بد أن تنهض بها - بسبب تكاليفها الباهظة - الطبقة العليا من المجتمع، فهل كانت الطبقة العليا في الفترة التي ادرستها تملك من المال والوقت والاستعداد النفسي ما يساعدها على إحياء سنة الآباء والأجداد، وخاصة المتوكل وابنه المعتر وحفيده عبد الله^(٢)؟

٢ - هل كانت الزراعة في العراق، ومنها زراعة الكروم بالذات، وكذلك نباتات الزينة الدائمة الخضرة، وزراعة البساتين والحدائق التي لا بد منها لتشجيع قيام الحانات وأماكن اللهو والشرب. أقول هل كانت الخضرة والمزارع هي السائدة في القرن السادس أم أن الأراضي الجرداء القاحلة هي الأوسع والأكثر انتشاراً؟

٣ - من المعروف أن بيع الخمر والارتزاق منها وإدارة حاناتها، من الأعمال التي يمارسها غير المسلمين كالمسيحيين واليهود والمجوس، فهل كان هؤلاء في وضع يشجع على ازدهار تجارة الخمر؟ وهل كان عددهم في ازدياد أم في تناقص؟

٤ - إن خريدة العماد الأصفهاني، والكتب التي نقلت منها وأشهرها وفيات الأعيان، وفوات الوفيات، والوافي بالوفيات، ومعجم الأدباء وكذلك دواوين الشعر التي وصلتنا، هذه المصادر هل أدت دورها تاماً في إيصال تراث القرن السادس إلينا؟ وهل شخصية العماد الكاتب - كما تصورها نماذج الخريدة في النصوص وأسماء الأعلام - من الشخصيات التي يمكن الوثوق بها في موضوع كالخمر؟

فاذا انتقلنا من هذه الملاحظات السريعة، والأسئلة العامة، إلى التفاصيل والحقائق المؤكدة بالأدلة والبراهين، فسوف نجد: بخصوص الملاحظتين الأولى والثانية، إن الدول والممالك كالأفراد لها أعمار، ولها فترات قوة وضعف تشبه مراحل العمر المختلفة عند الإنسان، فليس من المعقول أن تكون الدولة العباسية في أواخر القرن السادس وأوائل السابع، من حيث سعة الرفعة وكثرة الموارد ووفرة الغلات والحاصلات، هي ذات الدولة التي كانت أيام الفتوة والشباب في القرن الثاني أو الثالث، بل وحتى القرن الرابع. لقد بدأت معاول السنين تفعل فعلها وتترك آثارها على جسم الدولة وأعضائها المهمة،

(١) جحظة البرمكي ص ٢٧، ١٣٥ - ١٣٨

(٢) الديارات ص ٧، ١٥٠ - ١٥٦، ١٦٦ - ١٧٠، معجم البلدان: المطبعة.

فتقلصت رقعتها، وانحسرت سيطرتها عن كثير من الممالك والدول التي كانت في يوم ماتابعها لها، ولو بالاسم دون الحقيقة، بل ان ضعف الدولة العباسية بلغ حدا لا يكاد يصدق، ! حتى وجدنا بعض المدن العراقية ذاتها لم تكن تابعة لخليفة بغداد في النصف الثاني من القرن السادس، ومن هذه المدن تكريت وداقوقا^(١).

وقد يقال ان الناصر لدين الله استطاع أن يعيد للدولة العباسية هيبتها وقوتها وهو امر يختلف حوله المؤرخون - كما اشرت في الفصل الاول من هذه الرسالة - ومع افتراض صحة هذا القول، فان اعادة الدولة من عصر الشيخوخة الى عز الشباب او الى قوة الكهولة وتماسكها، يكاد يكون مستحيلا، والدليل على ذلك هو سقوط الدولة العباسية السريع والمفاجيء على يد المغول سنة ٦٥٦ هـ.

ان العراق بلد زراعي يعتمد رخاء سكانه على الزراعة بالدرجة الاولى والزراعة لا بد لازدهارها من شبكة ارواء منظمة تخضع باستمرار للعناية والصيانة ولا بد للفلاحين من استقرار يستطيعون في ظله ادامة الانتاج والاكتثار منه. فاذا علمنا ان الحروب لم تكد تتوقف في الفترة التي ادرسها^(٢)، ادركنا ما اصاب الزراعة وشبكات الري والفلاحين من اضرار فادحة.

ان قرية بنارق - مثلا - الواقعة على طريق خراسان بين النعمانية وبغداد كانت خرابا في اوائل القرن السابع - كما يقول ياقوت - وكان السبب في خرابها مداومة العساكر السلجوقية على المرور عليها ونزولهم فيها^(٣). وجيش السلاجقة هذا خرب (٢٧٠) دولا با في الجانب الغربي من بغداد عند حصاره للمدينة سنة ٥٥٢ هـ^(٤).

وكان من اثر اهمال مشاريع الري، بسبب الانشغال بالحروب، ان انهارسد العظيم حوالي القرن السادس الهجري^(٥)، وتحول مجرى دجلة بين بغداد وسامراء الى مجراه الشرقي الحالي في اواخر القرن الثاني عشر الميلادي، فأدى ذلك الى خراب كثير من الاراضي، ومنها مدينة عكبرا فقد زالت بزيال دجلة^(٦)، وفي معجم البلدان: «ان النهروان وانهارا كثيرة فسدت ولم تتفرغ الملوك لاصلاحها الى الآن...» وكان ذلك في حدود سنة ٥٤٥ هـ^(٧).

وربما يقال هنا بأنه الى جانب هذه المظاهر السلبية، وجدت طائفة من الاصلاحات ومنها القنطرة التي اقامها الخليفة المستنصر على نهر دجيل عند مدينة حرّبي سنة ٦٢٩ هـ^(٨).

(١) انظر الفصل الاول من هذه الرسالة: الحياة السياسية.

(٢) انظر الفصل الاول من هذه الرسالة: الحياة السياسية.

(٣) معجم البلدان: بنارق.

(٤) تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ص ٣٣٩

(٦) دليل خارطة بغداد ص ١٨٣

(٨) دليل خارطة بغداد ص ١٨٣

(٥) نفسه ص ٣٤٥

(٧) معجم البلدان: بنارق.

ولكن هذا التاريخ متأخر عن الفترة التي ادرسها بضع سنوات .

وبسبب وفرة المعلومات عن بغداد في عصرها المتأخر قياسا الى المدن العراقية الاخرى، يمكن ادراك ما اصاب المدن الاخرى قياسا اليها، على الرغم من عناية السلطات في العادة بالعاصمة اكثر من سواها .

ان بغداد في أواخر العصر العباسي تغيرت كثيرا عما كانت عليه في فترة قوة العباسيين وقمة رخائهم وسعة سلطانهم ، لقد صغرت مساحة المدينة أولا، حتى ان ابن جبير حين زارها في اواخر القرن السادس قال : « ان الجانب الشرقي من المدينة هو الجانب العامر، اما الجانب الغربي فقد عمه الخراب، واستولى عليه»^(١) . ولم يمض زمن طويل على انتهاء الدور السلجوقي حتى تهدمت اكثر المحلات الشمالية القديمة في بغداد الشرقية، عدا الربض الخارجي الذي يحيط بمشهد ابي حنيفة، وجامع الرصافة الشهير، وتهدمت اكثر المحلات والعمارات في الجانب الغربي من المدينة بحيث اصبح جامع المنصور في جانب باب البصرة بعد ان كان وسط العمارة، وقد تهدمت ايضا قصور بني بويه والسلاجقة، ثم ازال ما بقي منها الخليفة الناصر لدين الله سنة ٥٨٣ هـ وأمر بتسويته مع سطح الارض^(٢) .

وفي بغداد محلة تعرف باسم «باب المراتب» كان يسكنها الاغنياء وكبار الشخصيات من ذوي المناصب، وقد خربت هذه المحلة في ايام ياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) وكانت بقاياها في طرف من البلد بعيد، وقد حاول اهلها بيع انقاض دورهم بعد هدمها فلم يرغب احد في شرائها^(٣) .

وعلى ضوء ما تقدم اظن ان المرء يستطيع ان يتصور الحالة العامة للدولة العباسية في اواخر الفترة التي ادرسها، وهي صورة لا تدل على غنى او ترف ولا تشجع الا على حياة الكفاف .

اما الموقف من اهل الذمة، وهم الذين يرتزق قسم منهم من الاتجار بالخمور، فان بعض المصادر التاريخية تشير الى ان اهل الذمة كان من بينهم ذوو النفوذ في دار الخلافة ذاتها كالطبيب هبة الله بن صاعد المعروف بابن التلميذ^(٤)، كذلك تدل اخبار اخرى على ان بعض القيود قد رفعت عن اهل الذمة ومنها ازالة الغيار^(٥) عنهم سنة ٤٩٨ هـ^(٦) .

(١) رحلة ابن جبير ص ٢١١ (ط . دار مصر للطباعة).

(٢) دليل خارطة بغداد ص ١٦٧

(٣) معجم البلدان: باب المراتب.

(٤) وفيات الاعيان ١١٩/٥، وانظر الفصل الثاني (شعر العلماء).

(٥) كان علامة لاهل الذمة كالزئار للمجوس .

(٦) المنتظم ١٤٣/٨

ولكن الاخبار الاخرى - وهي الاكثر - تدل على ان اهل الذمة كانوا مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة^(١) - كما يقال بلغة اليوم - . وعلى الرغم من صعوبة الجزم في مسألة مثل هذه ، بسبب شحة المصادر والمعلومات المتوفرة ، فان بوسع المرء ان يتصور الحالة التي كان عليها اهل الذمة في فترة ساد فيها المذهب الحنبلي في العراق^(٢) من ناحية ، وكانت الحروب الصليبية فيها لما نزل مشتعلة تثير العالم الاسلامي كله على المسيحية والمسيحيين من ناحية اخرى .

بقيت الملاحظة الاخيرة المتعلقة بالمصادر وأهمها الخريدة ودواوين شعراء الفترة ، وهي من العوامل المساعدة في شحة شعر الخمر .
اما الخريدة فيمكن اجمال اثرها بما يلي :

١ - ان التقوى والصلاح والاستقامة هي الصفات التي تغلب على رجال الطبقة العليا من المجتمع العباسي ، كما صور العماد حياتهم في خريدته ، ومن هؤلاء الخلفاء والوزراء وابنائهم وكبار الشخصيات في دار الخلافة^(٣) ، ولست اشك في اقوال العماد من هذه الناحية ، لانه قد عرف القوم عن كتب وعاشرهم وجالسهم سنين طوالا ، ولم تنقطع صلته ببعضهم حتى بعد ان ترك العراق الى الشام^(٤) ، ولكن ما يعاتب عليه صاحب الخريدة هو انه اقتصر على تصوير ناحية واحدة عرف بها عليا القوم هؤلاء ، فلم يحاول ان يدس قلمه في الجوانب الالهية المرححة البعيدة عن الانظار من حياة هؤلاء ، فلم يتطرق الى مجالس الشراب والمنادمة ، ولا عرج على اوقات اللهو واطراح الحشمة والوقار ، وهذه جوانب عودنا اسلاف هؤلاء انهم كانوا فيها من السابقين المبرزين^(٥) . وليس في الخريدة ولا في سواها ما يدل على ان الجانب الالهي من حياة الكبار قد تولى وأزيع جانبا ، لان ذلك يخالف المؤلف المعروف من منطق هذه الدنيا .

وقد اعترف العماد نفسه - ربما دون قصد منه - بان اوقاته ببغداد لم تكن كلها جدا ووقارا ، حين قال من قصيدة ارسلها من الشام الى عماد الدين ابن الوزير عضد الدين :

فَلْيَالِي الْعِرَاقِ بَيْضُ مِنَ الْبَيْدِ ضِرْ غَوَانٍ مِنَ الْغَوَانِي غَوَانِمُ
وَرَمَانِي مُسَاعِدُ وَرَفِيقِي فِي الْهَوَى مُسْعِدُ وَدَهْرِي مُسَالِمُ

(١) مرآة الزمان : ٣٧٨/٨ ، وفيات الاعيان ٤/٤٢٤ ، تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ص ١٥١

(٢) تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ص ٤٣٤

(٣) الخريدة ٩٧/١ ، ١٠١ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٦٧

(٤) نفسه ١٦٨/١

(٥) الديارات ص ١٠٩ ، ٣٤ ، ٦٣ ، حلبة الكمي ص ٧٥ ، ٨٣ ، ٩٩

وَمُنَادِي الْمُنَى مُجَابِبُهُ الْإِسْدَ
وَمِنْ الْأَكْرَمِينَ كُلِّ نَدِيمٍ
مَا فَقَدْنَا السُّرُورَ إِلَّا هَدَانَا^(١)
وَمَبِيتِي مَا بَيْنَ كَأْسٍ وَتَغْرِ
وَرْدُ خَدِّ نَدٍ وَغُضْنُ قَوَامٍ
فَأَنَا الْيَوْمَ بِالشَّامِ وَجِيدٌ
عَافٍ وَالسُّؤَالُ لِلنَّجَاحِ مُنَادِمٌ
لَسْتُ مِنْ قُرْبِهِ مَدَى الدَّهْرِ نَادِمٌ
كُلُّ هَادٍ لِمَا بَنَى الْهَمُّ هَادِمٌ
رَاشِفًا مِنْهُمَا مَتَى شِئْتُ لَائِمٌ
ذَا جَنِي غَضٌّ وَذَلِكَ نَاعِمٌ
لِسْنَا الْبَارِقِ الْعِرَاقِي شَائِمٌ
... الخ^(٢).

٢ - وهناك طبقة أخرى من كبار الشخصيات ذوي النفوذ، لم يصفهم العماد بالتقوى والدين - كما فعل مع سابقهم - بل بالعكس لمح الى جوانب من حياتهم لا تدل على التمسك بتعاليم الدين، او على الاقل انهم لا ينظرون الى الدين كما ينظر اليه المتدينون المتمتون، ومن هنا يعاتب صاحب الخريدة ايضا لأنه ترك جوانب من صور الحياة في القرن السادس، مبتورة ناقصة، ومن المرجح انه كان يستطيع ان يضيف الى النصوص التي اوردها اخبارا او نصوصا أخرى، هي اجدى على الادب واهله من تلك الصفحات العديدة التي سودها في اثبات شعر طائفة من الشعراء مدحوه شخصيا من باب التزلف والتملق والرياء^(٣).

ومن تلك النصوص والاخبار التي وددت لو توسع فيها قلم العماد قوله - ما معناه - : ان شاعرا - يسميه ابن الرِّيفِيَّة - كان من رؤساء الراذان^(٤)، قعده الزمان وحاربه الحداث، فقصد الامير ديبس بن صدقة بن منصور، وكان لا يهب الا وقت سكره، فأنشده قصيدة منها :

فَلَمْ يَبْقَ، يَا تَاجَ الْمُلُوكِ، وَسِيلَةٌ
يَمُتُ بِهَا ذُو حَاجَةٍ وَهُوَ مُضْطَرٌّ
سِوَى الْخَمْرِ أَنْ أَضْحَى لَدَيْكَ مَنَارُهَا
فَوَاسَوَاتَا إِنْ قِيلَ: شَافِعُهُ الْخَمْرُ
وَحَاشَا وَكَلًّا أَنْ يُقَالَ: ابْنُ مَزِيدٍ
كَرِيمٌ إِذَا مَا هَزَّ أَعْطَافُهُ السُّكْرُ^(٥)

ان العماد ترجم للامير المزيدي في خريدته^(٦)، ولكنه لم يشر الى موضوع الصلة بين

(١) بالاصل : بكسر الهاء وتنوين الآخر (كما يقول محقق الخريدة)، وهو سهو من الناسخ على الارجح لان الفعل ماض اتصل به ضمير المفعول بدليل وكل هاد... هادم في العجز.

(٢) الخريدة ١ / ١٦٩ - ١٧٠

(٣) الخريدة ٤ / ٧٦٥ - ٧٧٤، ٤٥٧ - ٤٦٥

(٤) منطقة من سواد بغداد، وراذان أيضا قرية بنواحي المدينة (معجم البلدان ٤ / ٢٠٤).

(٥) الخريدة ٤ / ١٧٠

(٦) الخريدة ٤ / ١٠٨

سكره وكرمه . وقد تكون للامراء المزيديين او غيرهم كآل ابي الجبر مثلاً نواح تهم الباحث في ادب هذه الفترة، ولكن العماد طواها عن الباحثين، وهذا الذي حدث في اخبار الامير المزيدي، حدث مثله للشريف ابي هاشم اسماعيل بن المؤمل بن الحسين العباسي الرشيدي الواسطي، وصفه العماد بأنه : «من بيت الخطابة والنقابة بواسط . .» ثم اختار من شعره، وهو اكثر من ستة آلاف بيت - كما يقول العماد - قوله :

مَضَى الْوَدُّ، وَالْأَيَّامُ مَا سَمَحَتْ لَنَا بِشُرْبِ مُدَامٍ أَوْ بِقُرْبِ نَدِيمٍ
وَنَحْنُ عِطَاشٌ، وَالْمَوَارِدُ جَمَّةٌ يُوطِّدُهَا قَوْمٌ لِكُلِّ لَثِيمٍ
عَلَى الرَّاحِ وَالْأَفْدَاحِ مِنِّي تَحِيَّةٌ إِلَى أَنْ أَرَاهَا فِي بَنَانِ كَرِيمٍ^(١)

والايات - وخاصة الاول والثالث كما قال العماد - لا نظير لها، وهي تدل على ان هذا الشريف ذو طبيعة اوقالية مواتية في شعر الخمر، وربما كان في اثبات قطع اخرى له - لا سيما وقد نص العماد انه رأى شعره كله في مجلدة - فائدة للناحية التي اشكوا من قلة النصوص عنها .

اما دواوين الشعراء، فقد اشترت في مكان آخر من هذه الرسالة^(٢) الى ان الضائع المفقود منها يفوق كثيرا المتيسر المعثور عليه، سواء أكان مطبوعا مثل ديوان ابن التعاويذي وقسم من ديوان الحيص بيص، ام مخطوطا مثل ديوان ابن المعلم وديوان الابله البغدادي .

وهذه الدواوين، وخاصة المخطوط منها، لا يمكن الوثوق الى انها تجمع جميع شعر الشعراء من اصحابها، بسبب الاختلاف بين النسخ المتوفرة، ولذلك يفترض ان قسما من شعر الخمر ربما غاب عنا بسبب نسخة او اكثر لا تزال مجهولة وخاصة فيما يتعلق بديوان ابن المعلم وكذلك ديوان الابله . فليس من المعقول ان يدل ديوان ابن المعلم - عن طريق مقدمات القصائد - بان الشاعر كان يشرب الخمر، وفي الوقت نفسه ليس في الديوان من شعر الخمر سوى بيتين، جاء في تقديمهما ما نصه : «وقال ايضا، وهو في مجلس الشراب، وقد اخذ السكر منهم، فكشفوا رؤوسهم :

وَمَعَاشِرٍ رَضَعُوا الْمُدَامَ، فَاصْبَحَتْ تَحْكِي^(٣) خَلَاتِفَهُمْ حَبَابُ مُدَامٍ
كَشَفُوا الرُّؤُوسَ، فَأَقْشَعَتْ مِنْ فَوْقِهَا سُحْبُ الْعَمَائِمِ عَنْ بُدُورِ^(٤) تَمَامٍ
اما الابله، فان نسخة ديوانه التي عندي، وهي من اجود النسخ واكبرها^(٥)، تدل على

(٢) الفصل الثالث ص ١٤٢ - ١٤٣

(٤) ديوان ابن المعلم (نسخة دار الكتب) و ٩١

(١) الخريدة ٤/ ٤٠٥

(٣) كذا بالاصل باهمال نقط الحروف .

(٥) اخبرني بذلك صاحبها المرحوم الاستاذ عبد الكريم الدجيلي .

ان هذا الشاعر من اكثر شعراء الفترة ولعا وشغفا بافتتاح مدائحه بالخمير^(١)، ولكن نسخة الديوان هذه خلت خلواتا من اية قصيدة او مقطوعة خميرية مستقلة عن المدح، وهو امر لا اراه معقولا: فلا بد ان الشاعر كانت له سكرات خاصة مع اصدقائه واخوانه، ولكن الديوان خلا من ذكرها لسبب لا نعرفه. وليس في سيرة الشاعر واخباره ما يحتمل الباحث على الافتراض انه كان مضطرا على افتتاح طائفة من مدائحه بذكر الخمير، لا سيما وقد دلت هذه الخمريات على ان الرجل خمير من الطراز الأول.

وبعد هذا العرض الموجز لظروف العراق في القرن السادس، وخاصة ما يتصل منها بالجانب المترف اللاهي ذي الصلة الوثيقة بشعر الخمير، وكذلك بعد ايضاح دور المصادر المتوفرة في هذا الموضوع، اقول بعد هذا كله يمكن ان تكون الاجابة عن السؤال المتقدم: هل من جديد في شهر الخمير؟ اكثر سهولة لان القارئ اصبح على معرفة بالظروف المحيطة بفن الشعر الخميري في هذه الفترة مقارنة بما كان عليه الامر في عصور الأدب العباسي المتقدمة.

وبناء على ما تقدم لا بد من الحذر والوقوف الطويل الدقيق امام النصوص التي تلوح للباحث من خلال معانيها او صورها او اسلوبها بارقة جدة، وسيماء حداثة غير مطروقة من قبل، لان شعراء القرن السادس - في شعرهم الخميري بالذات - لم يكونوا في وضع يمكنهم من التجديد والابتكار، ومع ذلك بدت لي بعض ابيات لم استطع ارجاعها الى اصول قديمة فهي من مبتكرات هذه الفترة الى ان يثبت العكس، وكذلك تصرف الشعراء في اساليب القصائد التي يذكر فيها الخمير - وخاصة من ناحية مقدمة القصيدة وخاتمها - فبدت بعض القصائد بشكلها الجديد مبتكرة، يمكن ان تضاف الى تراث القرن السادس.

فعلى سبيل المثال، قال الابله متغزلا:

لَاثِمًا مِنْ خَدِّهِ الْوَرْدَ دَ وَمِنْ فِيهِ الْأَقَاخِي
مَازِجًا مِنْهُ رُضَابًا يُسْكِرُ الرَّاحَ بِرَاحٍ^(٢)

ان معنى هذا البيت الثاني، وهو ان رضاب الحبيب كالخمر، ولكنها خمر جديدة غير مألوفة، لانها لا تسكر الانسان بل تسكر الخمرة نفسها. وهو نوع من المبالغة فيه طرافة وفيه تشخيص للخمر، فصارت كالبشر يمكن أن تشرب وأن تسكر. والتشخيص او التجسيم من معاني الخمر معروف مطروق - كما اشرت قبل صفحات - ولكن الراح التي تسكر الراح من المعاني الجديدة.

(٢) ديوان الابله و ١٦١

(١) ديوان الابله و ٤٦، ٥٩، ٦١، ٧٠، ٧٧، ٧٩...

ويبدو ان الابله قد اعجبه هذا المعنى الجديد فكرره في مطلع قصيدة مدح، بعد أن تصرف فيه قليلا، فقال:

بَاكَرَ يَجْلُو مُدَامَةً بِكَرَا مُعِيرُهَا مِنْ لِحَاظِهِ السُّكْرَا^(١)

ان الخمر هنا - كما كانت في البيت السابق - هي الشخص الذي يسكر، ولكن المسكر في هذا البيت هو لحاظ الساقى، التي صارت - لفرط سحرها وشدة اثرها - تعير السكر للخمرة، وهي اصل السكر ومصدره، وقد الم ابن التعاويذي بهذا المعنى حين قال:

وَالكَأْسُ قَدْ أَعْدَاهُ سُكْرٌ مِنْ لَوَاحِظٍ حَامِلِهِ^(٢)

وقد الف شعراء الخمر، وفي طليعتهم ابو نواس، ان يصفوا نداماهم اي الافراد الذين اعتادوا أن يشربوا معهم بكرم الاصل وحسن الخلق^(٣)، ومن المشهور قول طرفة ابن العبد: نَدَامَايَ بِيضٌ كَالنَّجُومِ . .

وفي القرن السادس بالغ الابله البغدادي في صفة هؤلاء الندامى وحسن خلقهم فقال:

نَفَرُ لَوْ أَنَّهُمْ مِنْ لُطْفِهِمْ نَادُمُوا ظَبْيٍ فَلَا مَا نَفَرُ^(٤)

ان المعنى ليس جديدا - كما اسلفت - ولكن طريقة العرض او التصوير المبالغ فيها هي الجديدة.

ومن الطريف ان شعراء القرن السادس، وهم يحاولون العثور على معان غير مطروقة للخمر، لم يتورعوا حتى ان يستفيدوا من الدين في هذا الموضوع، رغم البعد الكبير بل التناقض بين الدين والخمر، وهو تناقض اكسب الصور والتعابير جدة وطرافة، قد يغضب لها رجال الدين، ولكن الشاعر الفنان تهمة اللقطة المبتكرة، وكل ما سواها هين يسير، قال ابن التعاويذي:

وَنَادٍ فِي نَدْمَانِهَا حَيٌّ عَلَى الْفَلَاحِ^(٥)

وكرره فقال:

(١) نفسه و١٤٨

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٦٩

(٤) ديوان الابله و ٤٦

(٣) تطور الخمريات ص ٢٠١ - ٢٠٢

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٨٦

قُمْ يَا نَدِيمُ فَنَادِ فِي النَّدَمَانِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ^(١)

وواضح ان «حي على الفلاح» ليس مكانها بعد الندمان او النديم ابدا، وان الشاعر قد تجاوز حدود الظرف فاستعمل نداء المؤذن للصلاة بالمساجد استعمالا غير لائق ومن الدين ايضا اخذ ابن التعاويذي قوله في خمرة اخرى:

وَدَعْنِي، وَالصَّلَاةَ اِذَا تَدَانَتْ فَلَيْسَ عَلَى خَرَابٍ مِنْ خَرَجٍ^(٢)

فقد شبه الصلاة بالخراج الذي فرضه الاسلام على الاراضي الزراعية، وشبه نفسه بالارض الخراب او البور وهي التي لا خراج عليها، وبين التشبيهين اسقط عن نفسه فرض الصلاة.

ومن الصور التي اختلط فيها الدين بالخمرة، قصيدة للحسين بن شبيب الطيبي نديم الخليفة المستنجد بالله، قال العماد الكاتب انه «يستطرد فيها بمؤذن يعرف بعباس جهير الصوت، كان يصل صوته إلى أقاصي المحال ببغداد وقت الصباح:

وَشَى بِالصُّبْحِ عَبَّاسُ وَثُوبُ اللَّيْلِ أَدْرَاسُ^(٣)

ومنها:

وَقَدْ مَجَّ قُمْ الْإِبْرِي قِ مِمَّا قَهَقَهُ الْكَاسُ

ويقول في آخرها:

فَمَا أَطْيَبَ لَيْلَ الْوَضِّ لَوْ يَخْرُسُ عَبَّاسُ^(٤)

ومن اختلاط الدين بالخمرة قول البارع:

كُفِّي عَنِ الْعَذْلِ كُفِّي خَلَّفْتُ رُشْدِي خَلْفِي

مِنْ بَعْدِ حَجِّي وَنُسْكِي عَاوِذْتُ لَهْوِي وَقُصْفِي

فَحَجَّتِ الْكَاسُ تَغْرِي عَلَى مَطِيَّةٍ كُفِّي

قال في آخرها:

(١) نفسه ص ٨٩

(٢) نفسه ص ٧٧

(٣) ثوب الليل أدراس: أي وقد كاد الليل ينقضي، أدراس واحدها دُرْس: الثوب البالي.

(٤) الخزينة ١/ ١٨٨

هَاتِ اسْقِنِيهَا وَدَعْنِي يَلُومُنِي كُلُّ جِلْفٍ^(١)
 إِنْ كُنْتَ تُبَّتْ، فَإِنِّي مِنْ تَوْبَتِي مُسْتَعْفِي
 لِيَهْنِ إِبْلِيسُ أَنِّي صَبَوْتُ مِنْ بَعْدِ عَزْفٍ^(٢)

وليس من المستبعد ان يعتمد بعض الشعراء اقحام الدين في شعر الخمر للتعبير عن شعورهم بالاثم من ناحية، وتمردهم على تعاليم الدين من ناحية اخرى، وهكذا تعبّر الخمريات عن صراع بين روح الفنان المرفهة التي تساعد الخمر على الوقوف والصمود في هذا العالم القاسي الذي لا يرحم، وفي الوقت نفسه تثير الخمرة حقيقة يحاول الشاعر تجاهلها وهي ان الخمر حرام وانها اكبر من نفعها. تأمل - مثلاً - قول العلاء بن علي السوادى الواسطى:

الصَّبُوحُ الصَّبُوحُ فِي شَعْبَانٍ لَا تَخْلُوا بِهِ مَعَ الْإِمْكَانِ
 طَمَّئِنُوا بِالْمُدَامِ جَاشَ نَفُوسٍ رَوَعَتْ بِالصَّيَامِ فِي رَمَضَانَ
 إِذْهَقُوهَا^(٣) بِالطَّاسِ وَالْكَاسِ حَتَّى لَا يُحَقِّقَ الصَّاحِي مِنَ السُّبْحَانَ

ومنها:

وَاسْقِنِيهَا مِنْ بَعْدِ تَسْعٍ وَعِشْرِينَ نَ صَبَاحاً خَلَوْنَ مِنْ شَعْبَانَ
 وَبَعْدَ السُّحُورِ قَبْلَ الْأَذَانِ وَبَعْدَ السُّحُورِ قَبْلَ الْأَذَانِ
 وَارْصِدِ الْوَقْتَ لَا تُفْرِطْ فِي سَكْرِ رِي حَتَّى يُبَيِّنَ الْخَيْطَانِ
 وَأَقْمِنِي إِلَى الصَّلَاةِ وَلَا تُسْ رِفْ فِي يَقْظَةِ الْفَتَى الْوَسْنَانَ
 أَتَصَدَّى لَهَا، وَاسْعَى إِلَى الْمَسَدِ جِدْ جَهْدِي إِنْ كَانَ لِي رُكْبَتَانِ
 ... الخ^(٤).

ان قصيدة ابن السَّوَادِي هذه تمثل ضرباً فريداً وجديداً من قصائد الخمر لان الشاعر، وقد بدأها بالخمر، يختمها بالدين قائلاً:

يَبْتِي غَيْرُ مَا سَمِعْتَ وَمَا كَانَ لِسَانِي عَنْ يَبْتِي تُرْجُمَانِي
 وَيَحَ نَفْسِي إِنْ لَمْ يَكُنْ لِي وَلَاءُ كَانَ مِنِّي فِي طَاعَةِ الرَّحْمَنِ

(١) جلف: أحمق.

(٢) الحريدة/ نسخة إيران ٢٣٤، عَزْفٌ: توبة وإعراض.

(٣) ادعق: أعجل.

(٤) الحريدة ٤/ ٣٧٦ - ٣٧٧

فَعِمَادِي وَعُدَّتِي فِي مَعَادِي عِنْدَ حَشْرِي إِذَا جَثَا الْخُصْمَانِ
يَوْمَ عَرَضِي مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ وَالبَتُولُ الزَّهْرَاءُ وَالْحَسَنَانِ
... الخ^(١).

ان المشهور في قصائد الخمر نوعان : الاول ان تكون الخمر بداية القصيدة ومنها ينتقل الى المدح . والثاني ان تكون القصيدة كلها من الخمرات . وقد عرف الضربان في خمرات القرن السادس - كما سيأتي - وقصيدة العلاء ليست قصيدة مدح، كما انها ليست مقصورة على الخمر وحده، لانها ختمت بالدين كما رأينا فهل تعتمد الشاعر الجمع بين الضدين؟ ولماذا؟

ولابن التعاويذي قصيدة تشبه هذه من ناحية الخروج على الاسلوب المعروف في قصائد الخمر، سوى ان ابن التعاويذي بدأ قصيدته بالمدح وختمها بالخمر وهو عكس الاسلوب المعروف في افتتاح المدائح بالخمر واختتامها بالمدح، وهو اسلوب اتبعه شاعر القرن السادس لان الممدوح من اصدقائه المقربين، على ما أظن.

كتب ابن التعاويذي لابي علي^(٢) بن الحسن بن الدَّوامي وقد قدم من سفره بعد مدة اطال فيها وكانت بينهما مودة:

لَا أَوْحَشَ اللَّهَ مِمَّنْ	بِهِ يَتِمُّ السُّرُورُ
وَمَنْ مُرَادُ ذَوِي الْفَضْلِ	لِ رَبْعِهِ الْمَغْمُورُ
وَمَنْ تَخَفُ حُلُومُ الرِّجَالِ	وَهُوَ وَقُورُ
وَمَنْ أَنَامِلُ كَفِّهِ	بِ الْعَطَايَا بُحُورُ
وَمَنْ سَجَايَاهُ مِسْكُ	مِنْ طِيْبِهَا وَعَبِيرُ

وبعد نهاية هذا المديح، ينتقل الشاعر الى الخمر فيقول - مخاطبا الممدوح -

فَانْهَضْ لِأَمْرِي، فَإِنِّي	عَلَى النَّدَامَى أَمِيرُ
وَعَاطِنِيهَا كُؤُوساً	عَلَى الْكَرِيمِ تَجُورُ
مِثْلَ النُّجُومِ، وَلَكِنْ	فِي الشَّارِبِينَ تَغُورُ
يَزِيدُهَا خَبَالاً	مِنْ مُقْلَتِيهِ الْمُدِيرُ

(١) الخريدة ٤/ ٣٧٧ - ٣٧٨

(٢) انظر: الفصل الرابع ص ٢٧٢ هامش ٢

مِنْ بِنْتٍ مِعْصَرَةٍ قَدْ أَتَتْ عَلَيْهَا الْعُصُورُ
حَمَرَاءُ فِي الْكَأْسِ مِنْهَا نَارٌ وَفِي الْبَيْتِ نُورٌ
... الخ (١)

ضربا الشعر الخمري:

ان اكثرية شعر الخمر في القرن السادس، يمكن ان تقسم الى قسمين:

١ - شعر الخمر في مقدمات المدائح، وهو اكبر القسمين وأهمهما، ومن البديهي ان كبار شعراء المدح، وخاصة الابله وابن التعاويذي، كانا في طليعة شعراء الخمر بهذا المفهوم.

٢ - خمريات مستقلة عن المدح، ويعد ابن التعاويذي وبعض شعراء البصرة (٢) من فرسان هذه الحلبة. وهذا القسم الثاني صغير لا يعتد به اذا ما قورن بالقسم الاول.

وهناك ضرب ثالث غفل لا يمكن القطع حول انتمائه الى اي من القسمين السابقين، وهو عمل يحمل تبعته الادباء والمؤرخون الذين اولعوا بالمختارات والمقاطع المبتورة من شعر الشعراء، وفي مقدمتهم عماد الدين الاصفهاني، فقد اورد للكامل ابي عبد الله الحسين بن ابي الفوارس (٣) قوله:

صَبَا إِلَى اللَّهِ فِي هُبُوبِ صَبَا (٤) وَقَالَ: قُمْ، فَالْصَّبُوحُ قَدْ وَجَبَا
هَذَا أَنْجُمُ الصُّبْحِ مِنْ مَخَافَتِهَا مِيلٌ إِلَى الْغَرْبِ تَطْلُبُ الْهَرَبَا
وَأَذْهَمُ اللَّيْلِ كَلَّمَا حَاوَلَ الدَّ حُظُوءَ مَنْ أَشْهَبَ الصَّبَاحَ كَبَا (٥)
وَالدَّيْكَ قَدْ قَامَ فِي مُمَرَّجَةٍ (٦) شَمَرَ أَذْيَالَهَا، وَشَدَّ قَبَا (٧)
يَصِيحُ إِمَّا عَلَى الدُّجَى أَسْفَا مِنْهُ، وَإِمَّا عَلَى الضُّحَى طَرَبَا (٨)

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨٦ - ١٨٩

(٢) الخريدة ٤/ ٧١٧، ٧١٣، ٤٠٥

(٣) لم يوضح العماد شخصية هذا الشاعر، ولم يذكر سنة وفاته ولا ما يدل عليها على وجه التقريب.

(٤) صبا: الاولى بمعنى مال، والثانية اسم لرياح باردة تهب على نجد في الصيف.

(٥) كبا: انكب على وجهه.

(٦) الممرجة أو الممرجة واحدة الممرج وهو نسيج فيه حرير بذهب، وكان يصنع ببغداد.

(٧) القبا: مقصور القباء: ثوب يلبس فوق الثياب، أو القميص، ويتمنطق به.

(٨) الخريدة ٢/ ١٨٤

وهي ابيات لا ندري: هل هي جزء من قصيدة مدح، ام هي من الخمریات المستقلة، لان العماد لم يصف اليها ما يزيل الابهام. وعلى الرغم من تنبه العماد الى هذه الناحية، بدليل النصوص الكثيرة التي اوضح فيها ان ما ينقله من شعر المدح^(١)، او من الخمریات^(٢)، فان صاحب الخريدة ربما سها احيانا فترك الباحثين في حيص بيص^(٣).

١ - مقدمات المدائح:

كما اعتاد الشعراء ان يبدأوا قصائدهم بالغزل، كذلك نجد طائفة من المدائح يتقدمها شعر الخمر. ويعد الابله البغدادي اكثر شعراء القرن السادس استعمالا للمقدمات الخمرية في قصائد المديح.

ولا يوجد سبب واضح يحمل الشاعر على تفضيل المقدمة الخمرية على سواها من المقدمات، ولكن قلة المقدمات الخمرية في القرن السادس - قياسا الى مقدمات الغزل مثلا - تحمل الباحث على افتراض وجود عوامل - ومنها الدين على الأرجح - كانت وراء هذه القلة. ولعل مما يقوي هذا الافتراض ان وصف الخمر في مقدمات مدائح الخلفاء لا يكاد يذكر، قياسا الى مدح سواهم من رجال الطبقة الحاكمة العباسية^(٤).

ان المقدمات الخمرية تكون عادة حديثا عاما عن الخمر دون التركيز على ناحية على حساب النواحي الاخرى: فلا يطنب الشاعر مثلا في وصف الساقى أو الساقية ويمر مسرعا بوصف مكان الشرب او زمانه او صفات الخمر ذاتها، وعندى ان مقدمات ابن التعاويذي من احسن الامثلة على ما اقول:

حُتَّ كُؤُوسَ الرَّاحِ	واشرب على الأفاحي
وعاص في النُشُوةِ	كل لائمٍ ولاخ
وناد في نَدْمَانِهَا	حي على الفلاح
واجتَلِهَا قَبْلَ انْجِلَا	ء غُرَّة الصُّباح
مَشْمُولَةٌ ^(٥) تلعب بال	عقول والأرواح

(١) الخريدة ٢/ ٢٤٤، ٢٣٩

(٢) الخريدة ٤/ ٧١٧، ٧١٣

(٣) الخريدة ٢/ ١٦٢، ١٦٣، ١٨٥

(٤) لم اعثر في ٩ قصائد مدح بها الابله خلفاء بني العباس إلا عل بيت واحد في الخمر، انظر ديوانه و.

(٥) مشمولة: من الشمول، وهي من أسماء الخمر.

تَكَادُ مِنْ مِزَاجِهَا تَرْقُصُ فِي الْأَقْدَاحِ
... الخ^(١).

ويمكن ادراك الفرق بين مقدمات ابن التعاويذي ومقدمات سواه من شعراء المديح، باستعراض نماذج من شعر زملائه، ومنهم ابن حَكِينَا، الذي يقول في أول قصيدة مدح بها سيد الدولة ابن الأنباري:

أَذْرَهَا مُدْعَدَّةً^(٢) يَا نَدِيمِي بِمَاءِ الْكُرُومِ وَبَيْنَ الْكُرُومِ
وَكُنْ أَرْقَى النَّاسِ - تَحْتَ الظَّلَا م - بِبَزَلِ^(٣) الدَّنَانِ^(٤) وَفَضِّ الْخُتُومِ
إِلَى أَنْ تُرِيكَ طُلُوعَ الصُّبَا ح فِي حَبِيبٍ كَانَتْ قَضَاضِ النُّجُومِ
وَوَكَّلْ مَصَابِيحَهَا الزَّاهِرَاتِ بِإِحْرَاقِ شَيْطَانِ هَمِّي الرَّجِيمِ
وَحُذِّهَا عَلَى أَنَّهَا لُقْطَةٌ إِذَا اشْتَرَيْتَ بِدُخُولِ الْجَحِيمِ
هِيَ الرُّوحُ أَوْ مِثْلُهَا فِي الْقِيَا س مَخْلُوقَةٌ لِقَوَامِ الْجُسُومِ
... الخ^(٥).

إن الشاعر هنا مغرم بالخمير، ولذلك ظل يدور حولها ويسلط أضواءه على صفاتها فهي رقيقة لا تحتمل الخشونة، ولذلك يوصي النديم أن يكون «أرقى الناس» وهي شديدة التوهج «تريك طلوع الصباح»، أما حبابها فيشبه انقضاض النجوم، وهي رخيصة حتى إذا كان الثمن دخول جهنم. وهذه المبالغة الأخيرة تعيد إلى الأذهان ما سبق أن اشترت إليه من تعمد السكرارى ادخال الافكار والالفاظ الدينية في خمرياتهم، لأنهم يعانون صراعا حادا بين حبهم للخمير وتحريم الدين لها.

أما الأبله فيبدو في مقدمات مدائحه هائما بالطبيعة، مفتونا بجمالها، ولذلك يمر بالخمير مسرعا في بيت أو بيتين أو ثلاثة^(٦)، ولكنه يطيل الوقوف في محراب الطبيعة، كالعابد المتبتل لا يريد مبارحة معبوده، أو كالعاشق رأى من يحب فأفلت من يده زمام اعصابه، واخذته الدهشة من كل جانب.

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٨٦، وانظر أيضا ص ٨٩، ٨٢، ٧١

(٢) مدعدة: من ددع الشيء، ملاء.

(٣) البزل: الشق.

(٤) الدنان: واحدها دَنَنٌ، وهو وعاء ضخم للخمير.

(٥) الخريدة ٢/ ٢٣٩

(٦) ديوان الأبله و ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٣٦، ١١١، ١٢١، ١٥٧

ان اجود مقدمات الابله الخمرية ثلاث^(١)، سأكتفي هنا بعرض واحدة منها فقط .
قال من قصيدة مدح مطلعها:

يا مَنْ تَوَرَّدَ مِنْهُ خَدُّ وَاهْتَزَّ هَزُّ الْغُصْنِ قَدْ

وبعد المقدمة الغزلية قال:

يا طيِّبَ يومٍ مرٌّ لي بنهر عيسى^(٢) لَوْ يُرَدُّ
والزَّهْرُ سَبَطُ الرِّيا ضُ أريضةً والماءُ جَعْدُ^(٣)
والطَّلُّ منثورٌ، وفي جيدُ^(٤) الشَّقائِقِ مِنْهُ عَقْدُ
ومَعَ الْبَنَفْسِجِ مَنْ خُدُو دِ سُقَاتِنَا آسَ وَوَرْدُ
حيثُ النَّسِيمُ مُعْنَبَرٌ وَضَبَابُ ذَاكَ الْأَفْقِ نَدُّ^(٥)
والْغُصْنُ يَرْقُصُ والغَدِيدُ رُ مُصَفَّقُ الْوُورِقِ^(٦) تَشْدُو
والشَّمْسُ تَخْفَى فِي نِقَا بِ الْغَيْمِ أَحْيَانَا وَتَبْدُو
والجَوُّ بَعْضُ مِنْهُ كَا فَوْرٌ وَبَعْضُ لَا زَوْرُدُ
فَالْخُلْدُ مَنْ يُمْسِي أَخَا راحٍ يَرُوحُ لَهَا وَيَغْدُو
... الخ^(٧).

ان هذه الايات كادت ان تكون وصفا للطبيعة، ولا علاقة لها بالخمير لولا لفظ «سقاتنا» في البيت الرابع، وكلمة «راح» في البيت الاخير ومنهما علمنا ان الشاعر يصف مجلس شراب «بنهر عيسى». ولم ينس الشاعر ادق التفاصيل المحيطة بمجلس الشراب، فقد وصف الارض وما فيها من صنوف الزهور ومنها الشقائق والبنفسج، ولون السماء بأن بعضه اسود كالكاפור، وبعضه ازرق كاللازورد، والشمس متنقبة بنقاب من الغيم، حتى رائحة الجوقال انها عنبر، ولفرط غنى الشاربين قال ان الند كالضباب كثرة، وهي مبالغة من شاعر نشوان، أطلقت الخمرة لخياله العنان.

(١) نفسه و ١٦٧، ١٧٣، ١٦٠

(٢) انظر الفصل الاول ص ١٩ هامش ٢

(٣) ماء جعد: أي مجتمع مترابك بعضه فوق بعض.

(٤) الجيد: العنق.

(٥) الند: عود يتبخر به.

(٦) الورق: الحمام.

وهكذا يتضح انه من بين اربعة شعراء كانوا اشهر شعراء المديح في القرن السادس كله^(١)، تبارى ابن التعاويذي والابله في افتتاح طائفة من مديحهما بذكر الخمر. وقد ظهر ان الابله متفوق من ناحية الكم، لان عدد قصائده التي اشير في مقدماتها الى الخمر تفوق كثيرا قصائد ابن التعاويذي في هذا المجال. كذلك نجد الابله يطيل في مقدماته الخمرية ويبدو مجبا مولعا بهذا النوع من الوصف، اكثر من زميله ابن التعاويذي، اذ نجد هذا الاخير قصير النفس، ضجرا، لا يتدفق شاعرية حين يفتتح بعض قصائده، بذكر الخمر، كما عودنا في معظم شعره. ومع ذلك لا بد من القول ان مقدمات ابن التعاويذي- على قصرها وقتتها- بدت الصق وأقرب الى شعر الخمر من مقدمات الابله، لان هذه ظهرت وكأن الشاعر لم يرد ذكر الخمر اصلا وانما نظم قصيدته في وصف الطبيعة والتغني بجماها، ثم استدرك على نفسه فدرس بين الأبيات بيتا أو بيتين في الخمر.

وأكد ألمح من بين ابيات ابن التعاويذي، وخاصة تلك التي افتتح بها بعض مدائح الخلفاء^(٢)، ان الشاعر ذكر الخمر أو وصفها في هذا الموضع ليشكو الى الخليفة من خلالها سوء حاله، وضيق ذات يده، وهو بذلك يخلط الحقيقة بالخيال والشكوى بجو المنادمة والسكر والعريضة. ولعله وجد - وهو شاعر الخلفاء - ان هذه الطريقة مجدية اكثر من سواها في الاستماع الى شكواه، وازالة اسباب تدمره، لان المفروض بالمقدمة الخمرية ان تكون فاتحة المدح وطليلة غرض القصيدة الاصل، ومن هنا لا بد ان يوفر لها الشاعر كل اسباب النجاح ولفت الانظار وشد الاسماع، وفي مقدمة هذا كله الحديث المرح الخفيف، والوصف البارع الجذاب لدنيا خيالية، براقة، ساحرة غير التي يعرفها الناس - اما الشكوى والمبالغة في تصوير الهم والغم ومصائب الدنيا وآلام الكبر ومتاعبه، فلست اشك ان ابن التعاويذي يعرف ان مكانها ليس المقدمات الخمرية.

٢- الخمریات المستقلة :

وهي شعر خمري صرف، لا علاقة له بالمدح، ويفترض ان عشاق الخمر ينظمونه تعبيرا عما يشعرون به حين تدور الكؤوس. ويمكن تمييز الضروب التالية من هذه الخمریات :

أ- وصف جلسة شراب او ساعة لهو يشارك فيها عادة جماعة اعتادوا أن يشربوا معا، فلا يطيب الشرب ولا تحلو الجلسة اذا تخلف أحد منهم، ولذلك قال ابن التعاويذي لأحد اصحابه :

(١) انظر الفصل الثاني من هذه الرسالة.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٣، ١١٣.

أَبَا عَلِيٍّ عَدَاكَ الـ مَخُوفٌ وَالْمَحْذُورُ
 وَلَا تَخْطِئْ مَرَامِي مَرَامُكَ الْمَقْدُورُ
 بَعُدْتَ عَنَّا فَطَرَفُ الـ لَذَاتِ خَاسٍ^(١) حَسِيرُ
 وَأَعَيْنُ اللَّهِ شَوْقًا إِلَى أَيْدِيكَ صُورُ^(٢)
 وَلِلْخَلَاعَةِ مَغْنَى مُعْطَلٌ مَهْجُورُ
 وَجَنَّةُ الْخُلْدِ بَغْدَا دُمْدُمٌ نَائِتٌ سَعِيرُ
 عَادَ النَّسِيمُ سَمُومًا وَالظَّلُّ هُوَ حَرُورُ^(٣)

... الخ^(٤).

ومن شعر الشعراء نعرف ان امثال هذه الجماعات يلتئم شملها في العادة ايام تلبد السماء بالغيوم، وكذلك في الايام الممطرة المكفهرة الجوحيث لا يجد الناس بدا من ملازمة البيوت^(٥)، ولا يخلو المجلس من ساق ذكر أو انثى - وهم يفضلون الذكور - ومن مغنية، لان الشراب والغناء متلازمان لا يطيب احدهما اذا فقد الآخر، حتى لقد نسبوا الى هارون الرشيد انه قال: «النَّكْسُ الَّذِي يَشْرَبُ عَلَى غَيْرِ سَمَاعٍ»^(٦).

وفي مجالس الشراب هذه، يحدث ان يعربد احد السكارى على زميله، وربما وقعت فيها جراحات، كذلك قد تسمع فيها الفاظ وعبارات تدل على فساد العقيدة واطراح القيود الاجتماعية، ولكن جماعة الشاربين - وخاصة الشعراء منهم - يتعمدون ابراز الجوانب الحسنة من مجالس الشراب، ويخفون الجوانب السيئة^(٧).

ويلاحظ ان الشعراء، وهم يصورون ويصفون مجالس الشراب الخاصة هذه يحلقون بعيدا على اجنحة الخيال، فيرسومون صورا للمجالس لم توجد على هذه الأرض منذ عرف الناس الخمر، انها اوهام، واحلام لا يعرفها الا السكارى. تأمل - على سبيل المثال - قول ابن التعاويذي:

يَا عَلِيَّ يَوْمُنَا أَوْ وَلَ يَوْمٍ مِنْ شُبَاطِ
 فَاغْكِفِ الْيَوْمَ عَلَى الرَّأ حِ تُعَاطِي وَتُعَاطِي

(١) طرف خاس: كليل، عبي.

(٢) أعين صور: متطلعات، مائلات.

(٣) الحرور: نقض الظل.

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨٨

(٥) نفسه ص ٢٣٠ - ٢٣١

(٦) محاضرات الادباء ٧١٩/٢

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٥٨، الخريدة ٧٣٥/٤

لا تَرُعْنَا بِتَوَانٍ فِيهِ عَنَّا وَتَبَاطٍ
 اَنَا فِي مَجْلَسٍ لَهَوٍ وَسُرُورٍ وَأَنْبِسَاطٍ
 نَازِلٌ مِنْ نَهْرٍ عَيْسَى بَيْنَ دُولَابٍ وَرَاطٍ^(١)
 قُبَّتِي الْغَيْمُ وَأَزْهَا رُ الرِّيَاحِينَ بِسَاطِي
 حَلَيْتُ أَوْرَاقُهَا بِيَدٍ مِنْ جِعَادٍ^(٢) وَسِبَاطٍ^(٣)
 بِشَنُوفٍ^(٤) نَظَمَ الطَّاءُ لُ عَلَيْهَا وَقِرَاطٍ
 وَقُدُودِ السَّرُورِ فِي خُضٍّ^(٥) رِ مَلَاءٍ^(٦) وَرِبَاطٍ^(٧)
 وَنَدِيمٍ مِنْ شَيْخٍ أَلِ كَرَّخٍ مَحْلُولٍ^(٨) الرِّبَاطِ
 حَنَكْتُهُ^(٩) أُمُّهُ بَالٍ خَمِرٍ طِفْلاً فِي الْقِمَاطِ
 وَغُلَامٍ مِنْ بَنِي الْأَصَدِّ غَرَ كَالثُّوبِ الْقُبَاطِي^(١٠)
 رَدَفُهُ عَالٍ، وَلَكِنْ خَصْرُهُ النَّاحِلُ لَاطِي^(١١)
 وَضَجِيجٍ كَهَدِيرِ الْ طَيْرِ حَوْلِي وَاخْتِلَاطِ
 وَرَذَاذٍ نَحْنُ مِنْهُ فِي نِثَارٍ وَلِقَاطِ
 ... الخ^(١٢)

وليس من شك ان الشاعر نجح نجاحا باهرا في تصوير مجلس الشراب تصويرا
 اسطوريا عن طريق مجموعة من الاستعارات والمجازات التي احسن الشاعر بثها في انحاء
 القصيدة، فلعبت دورا كبيرا في اضاء صبغة سحرية على كل ركن من اركان القصيدة.
 والصورة معا، حتى يخيل للمرء ان المكان الذي يتحدث عنه الشاعر لن يتكرر وجوده على

(١) الرَاط: لم أقف على معناها.

(٢) جِعَاد: واحدها جعد وهو من الشعر خلاف المسترسل.

(٣) سِبَاط: واحد سبط وهو ضد الجعد.

(٤) الشَنُوف: واحدها شَنُف: ما علق في الاذن أو علاها من الخلي.

(٥) خَصْر: بالاصل بالصاد: خصر.

(٦) مَلَاء: الواحدة مَلَاءة وهي ثوب يلبس على الفخذين.

(٧) الرِّبَاط: الواحدة رِبْطَة وهي الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ونسجا واحدا.

(٨) محلل الرباط: أي غير مبال بشيء كالحیوان.

(٩) حنكته: هذبته.

(١٠) القُبَاطِي: ثياب من كتان منسوبة للقط.

(١١) لَاطِي: لاصق.

(١٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٥٨ - ٥٩، وانظر قصيدة أخرى للشاعر مثل هذه ص ٢٣٠

هذه الأرض ، بسبب استحالة اجتماع هذه العناصر - بالشكل الذي صورته الشاعر - مرة ثانية . فابتداء من البيت الاول : يا علي يومنا . . . اوحى الشاعر للقارئ عن طريق ايصال الضمير «نا» بكلمة يوم ، بأن لهذا اليوم فضلاً وميزة على سواه من الايام ولذلك لا بد من الاحتفال به احتفالاً يليق بمقامه ، ثم اندفع الشاعر ليصف لصديقه المكان الذي وقع عليه الاختيار لقضاء ذلك اليوم الكبير ، فاذا هو قرب نهر عيسى ، ويبدو ان هذا مكان مشهور في القرن السادس بالنسبة لاهل بغداد ، اذ سبق ان مر بنا قول الابله :

يا طيبَ يومٍ مرَّ لي بنهرِ عيسى لو يُردُّ

وبعد هذا التحديد للزمان والمكان ، جاء دور الاستعارات لتجسم وتشخص وتكبر عناصر الصورة وتظهرها بالشكل الذي تمناه الشاعر وحلم به ، لا بالشكل الموجود فعلاً ، ولذلك توهم ان السماء ليست غائمة ، وانما هي قبة ضربت ليشرب فيها الشاعر ، وان الأرض لم تكن مزدانة بالزهور ، وانما هو بساط من الرياحين خاص بالشاعر ، ولذلك قال : بساطي ، وتتوالى الاستعارات التي تشهد للشاعر بالبراعة وخصوصية الخيال ، فاذا الاوراق فتيات قد لبست شنوفاً واقراطاً ، واشجار السرو قد ارتدت ملاءات ورياطاً خضراً . . امانديمه فهو شيخ «محلل الرباط» وكفى بذلك فخراً .

ب - والضرب الثاني من هذا الشعر الخمري يتكون من مقطوعات او تنف توصف فيها الخمر وحدها دون اشارة الى مجلس شراب او جماعة متنادمين وهكذا اخلت هذه المقطوعات - تبعاً لذلك - من وصف للطبيعة او مكان الشرب . ويمكن تشبيه هذه المقطوعات الخمرية بمقطوعات الغزل القصار التي اولع بها المغنون^(١) ، سوى ان المتغزل به هنا هو الخمر ، ومن هذا الغزل الخمري قول ابن التعاويذي :

أدِرْ كَأْسَ المُدَامِ عَلَيَّ صِرْفاً ولا تُفْسِدْ كُؤُوسَكَ بِالْمِزَاجِ
فَقَدْ حَانَ الصَّبُوحُ وَحَنَ قَلْبِي الى عَذْرَاءَ تَرْقُصُ فِي الرُّجَاجِ
وَدُونَكَ فَاقْتَبَسْ بِالرُّطْلِ^(٢) مِنْهَا سَنَى يُغْنِيكَ عَنْ ضَوْءِ السَّرَاجِ
فَهَذَا الدَّيْكَ مِنْ طَرَبٍ يُنَادِي وَيَخْطُرُ بَيْنَ إِكْلِيلِ وَتَاجِ
وَدَعْنِي وَالصَّلَاةَ إِذَا تَدَانَتْ فَلَيْسَ عَلَى خَرَابٍ مِنْ خَرَجٍ^(٣)

(١) انظر دراسة الغزل في الفصل الثاني .

(٢) الرطل : أراد به الكأس .

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٧٦ - ٧٧

وقول ابن شُعَيْبَانَ^(١) البغدادي :

مَرْحَباً بِالتِّي بِهَا قُتِلَ الْهَـ
وهي في رَقَّةِ الصَّبَابَةِ وَالشُّوْ
لَسْتُ أَذْرِي : أَمِنْ خُدُودِ الْغَوَانِي
مُ، وَعَاشَتْ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ
ق، وَفِي قَسْوَةِ النَّوَى وَالْفِرَاقِ
سَلْبُوها، أَمْ أَدْمَعُ الْعُشَاقِ^(٢)؟

ج- والضرب الثالث من شعر الخمر هذا قريب من الغلاميات، ويمكن القول انه حائر بين وصف الغلمان ونعت الخمر، ولا يخلو من شيء من المدح في بعض نماذجه، كقول ابن الطوايقي^(٣) :

مولاي، قد زارني غُلامٌ
يميس كالغُصْنِ جاذِبَتُهُ
مَرْقٌ بِالْهَجْرِ ثَوْبَ عُمْرِي
وهو جليسي في صَحْنِ دَارِ
وقَدْ تَحَيَّلْتُ فِي طَعَامِ
وَالْغَيْرُ فِي دَارِهِ قُدُورُ
قَدْ أَحْكَمْتُ طَبْخَهَا طُهَاءً
فَنَعَمُ بِهَا قَهْوَةٌ حَرَاماً
يَنْظُرُ مِنْ مُقْلَتِي غَزَالِ
فِي دَوْحِهِ نَسْمَةُ الشَّمَالِ
وَعَادَ يَرْفُوهُ بِالْوِصَالِ
مِنْ كُلِّ مَا يَشْتَهِيهِ خَالِ
يُغْنِي أَكَيْلاً عَنِ الْخِلَالِ^(٤)
فَوْقَ الْأَثَافِي^(٥) بَيْنَ الْمَقَالِي
وَصُفَّقَ^(٦) الْخَمْرُ بِالزَّلَالِ
لِزَاهِدِ الدِّينِ فِي الْحَلَالِ^(٧)

وقول ابن التعاويذي :

يا صَدِيقِي مَسْعُودُ حَقّاً وَمَا كُ
قَدْ أَحَاطْتُ بِبَيِّ الْهُمُومِ، وَمَا أَحَدُ
وَشِفَائِي فِي نَشْوَةِ تَذَرُّ^(٩) الْأَحَدِ
لُ صَدِيقٍ دَعْوَتُهُ بِصَدِيقِ
سَبُّ أَنِّي مِنْ دَائِهَا^(٨) بِمُفِيقِ
زَانَ عَنِّي مِنْ سَلْسِيلِ رَحِيقِ

(١) هو أبو طاهر محمد بن حيدر بن عبد الله بن شعيبان البغدادي، قال العماد عنه : وكان شاعراً بليغاً مجيداً، حسن الشعر، رقيقه، يسكن الثلاثاء، اعور. اختلف حول سنة وفاته، والمرجح أنها سنة ٥١٧ هـ. الخريدة ٢/ ٢١٩، فوات الوفيات ٢/ ٣٩٨.
(٢) الخريدة ٢/ ٢٢٦، ونص العماد على أنها تنسب له، وفي وفيات الوفيات ٢/ ٣٩٨ نص أنها له، وانظر هامش محقق الخريدة.
وهناك أمثلة أخرى على هذا النوع من الخمريات في الخريدة ٢/ ٢٢٠، ٢/ ٣٧٥، ٤/ ١٨٠.

(٣) هو القاسم بن الحسين أبو شجاع، البغدادي، الشاعر توفي سنة ٥٧٦ هـ. الخريدة ٢/ ٣١٨، وانظر فوات الوفيات ٢/ ٢٥٨.
(٤) الخلال: الواحدة خَلَّةٌ وهي الحاجة والفقير.

(٥) الاثافي: واحدتها أَثْفِيَّةٌ: حجارة يوضع عليها القدر.

(٦) صفق: مزج.

(٧) الخريدة ٢/ ٣١٩ - ٣٢٠.

(٨) بالاصل دأبها، وهو خطأ، والصواب ما أثبتته.

أَمْ لَهُوَ كَأَنَّ يَأْقُوتَةَ فِي الدِّ
كَأْسٍ مِنْهَا عَلَّتْ ^(١) بِمِسْكِ فَتَيْقٍ ^(٢)
غَنِيَتْ مِنْ صَفَاءِ جَوْهَرِهَا الذَّا
تِي عَنْ أَنْ تُرَاقَ فِي رَاوُوقٍ ^(٣)
مِنْ عَنَادِ الرُّهْبَانِ لَمْ يَخُلْ عُمَدُ
رَ الدَّهْرِ مِنْهَا قِلَافَةٌ ^(٤) الْجَانَلِيْقِ
مَذْهَبُ الْقَسِّ مَذْهَبِي فِي صَبُوحِ
أَنَا فِيهَا مُغْرَى بِهِ وَعَبُوقِ
فَارِحْنِي مِنْ شَاغِلِ الْهَمِّ وَاعْتَقِ
مَنْهُ رَقِي بِدَنْ خَمْرِ عَتِيقِ
لَا أَلَمْتُ بِكَ الْهُمُومُ وَلَا زَلْ
تَ سَمِيرًا لِلْكَأْسِ وَالْإِبْرِيقِ ^(٥)

وابيات ابن التعاويذي هذه من الاخوانيات، وكذلك النماذج الاخرى الموجودة في ديوانه، والتي اشترت اليها في الهامش. وبذلك تجمع هذه الخمريات بين الغزل بالمذكر ونعت الخمر والاخوانيات.

٢ - الغزل بالمذكر:

عرف هذا الغزل في الشعر العربي لأول مرة عند شعراء بني العباس، وقد كان من اسباب ظهوره الاتصال بالفرس وتأثر المجتمع العربي العباسي بعاداتهم وافكارهم ومنها هذا الغزل الشاذ، حتى روي ان ابا مسلم الخراساني - حين سئل عن الذل العيش - قال: «طعام احبر ومدام اصفر و غلام احور»، ولما سئل عن تقديم الغلام على الجارية قال: «لانه في الطريق رفيق، وفي الاخوان نديم، وفي الخلوة اهل» ^(٦).

وكان الى جانب السبب الرئيسي المتقدم، اسباب ثانوية ساعدت على تفشي هذه الآفة الاجتماعية، ومن تلك الاسباب: هو ان مركز المرأة بسبب كثرة الجوازي، وايغال الطبقة العليا العباسية في الحضارة والترف مما دفعهم الى البحث عن متع جديدة مبتكرة ^(٧).

ولست ادري لم يتجاهل الباحثون في هذا الموضوع عاملين كبيرين لعبادورا كبيرا في شيوع الشذوذ الجنسي وهما بعد الطبقة المترفة العباسية عن الخلق العربي الاصيل، وضعف الوازع الديني الذي يحول بينهم وبين الانحراف. فلم يعرف العرب اللواط الا بعد ان تخلوا عن اخلاقهم وقلدوا الاجانب، كذلك يستحيل على المسلم ان ينحرف في سلوكه وهو يعلم ان القرآن الكريم نص على أن هذا الشذوذ فاحشة من الفواحش ^(٨).

(١) علت: من الغل وهو الشرب الثاني.
(٢) فتيق: شديد الرائحة.
(٣) الراووق: مصفاة الخمر.
(٤) القلاية: مسكن الاسقف (يونانية)
(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٠٨، وانظر نماذج أخرى فيه ص ٣٩٩ ق ٢٥٨، ق ٢٥٩
(٦) اتجاهات الغزل ص ١٩٧، الادب في ظل بني بويه ص ٢٦٦ وما بعدها.
(٧) اتجاهات الشعر ص ٥١٧ - ٥٢٠، اتجاهات الغزل ص ٢٠٩ - ٢١٣
(٨) سورة العنكبوت، الآية ٢٨ - ٢٩. سورة الاعراف، الآية ٨٠ - ٨١

ومن اشهر شعراء بني العباس لجاجة في الغزل بالمذكر ابونواس الحسن بن هاني والحسين بن الضحّاك المشهور بالخليع ، ووالبة بن الحُباب الكوفي ، استاذ ابي نواس ، وفيه يقول الدكتور شوقي ضيف : « انه هو الذي يتحمل وزر افساد ابي نواس ، بل هو في رأينا الذي يتحمل وزر العصر كله وما شاع فيه من هذا الغزل المقيت الذي يخفق كرامة الشباب والرجال خنقا »^(١).

وفي القرن الرابع ، ايام بني بُوَيْه ، شاعت عادة اللواط بحيث اصبح حب الغلمان والتولع بهم شأن العامة والخاصة فكانا سببا في حدوث قصص غرامية شائقة . . واكثر الادباء من القول في هذا الباب حتى ليندران نجد بينهم من لم يقل شعرا في غلام بل لقد ذهب بعضهم الى ابعاد من ذلك فقصر تشبيهه على الغلمان دون النساء كأبي الحسن السّلامي^(٢) ونَصْر^(٣) بن أحمد الخُبْزَارِزِي^(٤).

أما في الفترة السابقة للفترة التي ادرسها ، فقد اشار الدكتور علي جواد الطاهر الى كثرة التغزل بالغلمان فيها ، ثم قال : « ولا شك في ان بين هذه الاشعار ما قيل نظرفا . . ولكن هذا يعني ان المجتمع ، وحتى مجتمع المتزمتين والمؤدبين والفقهاء ، يقبل هذا النوع من التطرف ويستسيغه ويستحسنه ، وربما يتطلبه ، حتى ليشك المرء في مدلول التطرف هذا . . وقد يخرج العصر عن قواعد الذوق في استساغة هذا اللون من الشعر »^(٥).

وحكاية التطرف هذه ، والتي شك فيها الدكتور الطاهر ، وهو منصف في شكه ذاك ، استمرت في الفترة التي ادرسها واتسعت ، جريا على عادة الشعراء في تقليد اسلافهم وتلقف ما عرف عند هؤلاء الاسلاف من فنون شعرية ، وهكذا يمكن ان يكون من هذا الغزل قول الحيص بيص في العذار :

شَكُّوا أَشْمَسُ أَنْتَ أَمْ هَمْرُ؟ وَلَفَرَطٍ حُسْنِكَ أَشْكَلَ الْأَمْرُ
فَانْجَابَ لَيْلُ الشَّكِّ حِينَ قَضَى لَيْلُ الْعِذَارِ بِأَنْكَ الْبَدْرِ^(٦)

(١) العصر العباسي الاول ص ٧٣ ، وانظر ايضا حياة الشعر في الكوفة ص ٦١٥

(٢) محمد بن عبد الله بن محمد . . المخزومي ، السّلامي ، الشاعر المشهور ، نشأ ببغداد ونسب إليها وكانت ولادته بالكرخ ، وتوفي سنة ٣٩٣ هـ . قال الثعالبي : « هو من اشعر أهل العراق قولا بالاطلاق » . يتيمة الدهر ١٥٧/٢ - ١٨٨ ، (مط . الصاوي) . وفيات الاعيان ٣٥/٤

(٣) أبو القاسم نصر بن أحمد ، البصري ، الشاعر المشهور . كان أميا ، وكان ينشد أشعاره المقصورة على الغزل بعربد البصرة . توفي سنة ٣١٧ (على قول) . يتيمة الدهر ٣٣٧/٢ (المط . الحفنية) . وفيات الاعيان ١٢/٥

(٤) الادب في ظل بني بويه ص ٢٦٧ - ٢٦٨ (٥) الشعر العربي ١٣١/٢ (٦) الخريدة ٢٥٩/١

وقول علاء الدين أبي الفتوح نصر بن منصور التيمي المؤدب ويعرف بالحكم المتوفى

سنة ٥٨٨ هـ:

ولَمَّا رَأَى وَرْدًا بِخَدَّيْهِ يُجَنِّي وَيُقَطِّفُ أحياناً بغيرِ اختيارِهِ
أَقَامَ عَلَيْهِ حارساً مِنْ جُفُونِهِ وَسَلَّ عَلَيْهِ مُرْهَفاً مِنْ عِذارِهِ^(١)

وقول محمد بن احمد بن فتح الدين البغدادي الحنفي المتوفى سنة ٥٨١ هـ، في مליح

عليه قباء، كحه مطررز:

ضَمَمْتُ مُعَذِّبِي لَمَّا أَتَانِي وَرَقُمُ طِرَازِهِ قَدْ رَاقَ عَيْنِي
فِيَا طَرْزِيهِ هَلْ يُذْنِي زَمَانِي لِيَالِي وَصَلْنَا بِالرُّقَمَتَيْنِ^(٢)

ولعل من الصواب ان يلاحظ بان صفة التغزل بالمذكر نظرفا، تكون الصق بالنصوص الشعرية كلما قل عدد أبياتها، فلم تتجاوز البيتين او الثلاثة، وكذلك لا بد ان تكون خالية من عاطفة طاغية تدل على ميل فطري الى الغلمان، وبذلك تكون غزلا تقليديا نظم للتسلية او قضاء الوقت ومجاملة الاخوان في جلساتهم ومسامراتهم، اما اذا طال هذا الغزل، كما في قول ابن الاديب^(٣):

قَامَ بِالْعُذْرِ فِي هَوَاكَ الْعِذارُ فَسُلُوِيْ عَنْ حُسْنِ وَجْهِكَ عَارُ
أَدْلَالُ هَذَا التَّعَبُ أَمْ أَدْ لَمْ يُغَيِّرْ تِلْكَ النَّمُوْدَةَ بُعْدُ
وَمُعِينِي عَلَى فِرَاقِكَ عَيْنُ كَلِّ يَوْمٍ لَنَا عِتَابُ جَدِيدُ
وَانْتِظَارُ لِلْيَوْمِ وَالْعَدِ يَأْتِي إِنَّ أَبْتَ سَاهِرَ الْجَفُونِ وَدَمْعُ الـ
فَبِمَا بَتُّ رَاقِداً وَعَلَى جِسْمِ^(٤) نَسَاقِي كَاساً مِنْ الْعَتَبِ صِرْفاً
فَسُلُوِيْ عَنْ حُسْنِ وَجْهِكَ عَارُ سَ كَمَا قِيلَ خَائِنُ غَدَارُ؟
إِنَّ تَنَاءَتَ دَارُ وَشَطُّ مَزَارُ أَفَنَتِ الدَّمْعَ وَاضْطِبَّارُ مُعَارُ
فِي نَوَاحِيهِ يَخْلُقُ^(٥) الْإِعْتِذارُ أَوْ كُلُّ الزَّمَانِ فِيكَ انْتِظَارُ؟
عَيْنٌ فِي الْخَدِّ وَاكِفُ^(٦) مِذْرَارُ مِي يَمِينُ مَعْطُوفَةٌ وَيَسَارُ
وَلِخَمْرِ الْعِتَابِ أَيْضاً خُمَارُ^(٧)

(١) تلخيص معجم الالفاظ ق ٤ ج ٢ ص ١١٠٨

(٢) النجوم الزاهرة ١٠٠٨/٦، وانظر نماذج أخرى في الخريدة/نسخة ايران ٢٠١، عيون الأنباء ٢٦٤/٢، وفيات الأعيان ١٧٦/٥

(٣) انظر: الفصل الرابع ص ٢٩١ هامش ٥

(٤) يَخْلُقُ بيل (٥) وَاكِفُ: سائل قليلا قليلا.

(٦) جَسْمِي: بالأصل جسدي، ولا يستقيم بها الوزن.

(٧) الخمار: صداع الخمر.

... الخ^(١).

فلست ادري هل هذا من النظر؟ وكيف يكون الهيام والغرام اذن؟
كذلك ليس نظرفا شعر كبار رجال الدولة الذي تفوح منه رائحة الشهوة مثل قول الحسين
ابن شبيب الطيّبي، نديم الخليفة المستنجد المتوفى سنة ٥٨٠ هـ:

وأغيدُ لم تَسْمَحْ لَنَا بِرِصَالِهِ يَدُ الدَّهْرِ حَتَّى دَبَّ فِي عَاجِهِ النَّمْلُ
تَمَنَيْتُ - لَمَّا اخْتُطَّ - فَقَدَانِ نَاطِرِي وَلَمْ أَرِ إِنْسَانًا تَمْنَى الْعَمَى قَبْلُ
لِيَبْقَى عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ خَيَالُهُ حَيَالِي، وَفِي عَيْنِي لِمَنْظَرِهِ شَكْلُ^(٢)
وكذلك قول ابي عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الوهاب السَّيِّي^(٣) ناظر قُوسَانَ^(٤)
المتوفى سنة ٥٦٥ هـ:

يَا نَاجِيَا مِنْ عَذَابِ قَلْبِي وَسَلَامًا مِنْ رَسَيْسِ^(٥) وَجْدِي
لَا تَقْرُبْ إِلَى ثِيَابِي فَإِنَّ دَاءَ الْغَرَامِ يُعْدِي
تَزْعُمُ أَنَّ الْفُؤَادَ عِنْدِي لَوْ كُنْتُ عِنْدِي لَكَانَ عِنْدِي
قَدْ غَيَّرَ الدَّهْرُ كُلَّ شَيْءٍ غَيْرَ جَفَاكُمُ وَحُسْنَ عَهْدِي^(٦)

وهي ابيات برغم ان الخطاب فيها للمذكر، يا ناجيا ولا تتقرب . . فقد يقال انها في
مؤنث . ولكن الطبقة العليا العباسية - ومنها صاحب الأبيات - كانت هي الرائدة في الغزل
بالمذكر - كما تقدم - ولذلك لا يستبعد ان يبدو بعض غزلها في المذكر وكأنه قيل في مؤنث .
ان شعراء القرن السادس، وخاصة ابن التعاويذي والابله البغدادي، يميلون ميلا
شديدا الى التذكير من ناحيتي الخطاب واستعمال الضمائر في مقدمات المدائح على وجه
التخصيص، على الرغم من احتمال دلالة المعنى على انثى .

ان الحديث - في امثال هذه القصائد - يدور بخطاب المذكر، وكذلك الضمائر كلها
للمذكر، ومع ذلك يترك الشاعر القاريء في حيرة لا يدري هل المتغزل به انثى أم ذكر، لان

(١) الخريدة/ نسخة ايران ١٤٣

(٢) المختصر المحتاج إليه ٧/٢، فوات الوفيات ٢٧٦/١

(٣) السبيي: نسبة إلى السَّيْب، وهي اسم لاكثر من موضع - كما في معجم البلدان ١٩٠/٥ - فالسَّيْب كورة من سواد الكوفة، وهما
سببان الاعل والاسفل . . والسَّيْب نهر بالبصرة فيه قرية كبيرة . والسَّيْب ايضا بخوارزم . ولست ادري إلى أيها نسب صاحب الأبيات .

(٤) قُوسَان: كورة كبيرة ونهر عليه مدن وقرى بين النعمانية وواسط (معجم البلدان ١٨٢/٧) .

(٥) الرسيس: الثابت . (٦) تلخيص معجم الاقلاق في ٤ ج ١ ص ١٣٧

الشاعر يعتمد عدم الإشارة الى الجنس فلا يذكر مثلاً الشارب أو العذار، كما يفعل في قصائد أخرى تغزل فيها بالمذكر صراحة، ومن الامثلة على ما أقول، ابيات الابله:

وَرُبَّ مُرٍّ الْهَجْرُ حُلُو الْعِتَابِ مُعْتَدِلٌ يَثْنِيهِ سَكْرُ الشَّبَابِ
عَاطِيَتُهُ صَهْبَاءٌ مَمْرُوجَةٌ بَدْمَعَةُ الصَّبِّ وَدَمْعُ السَّحَابِ
فَانْتَقَبَتْ وَجَنَّتُهُ حُمْرَةٌ يَا حُسْنَهَا مِنْ وَرْدَةٍ فِي نِقَابِ
وَسُمَّتُهُ فِي سُكْرِهِ قُبْلَةٌ وَدُونَهَا فِي الصُّحُورِ شَيْبٌ^(١) الْغُرَابِ
... الخ^(٢).

وتستمر المقدمة على هذا المنوال حتى نهايتها، دون اية إشارة الى جنس المتغزل به، اللهم الا هذه الضمائر المذكورة: عاطيته، وجنته، وسمته... وتأمل قول ابن التعاويذي:

بَاتَ يَجْلُوهَا عَلَى نَدٍّ مَانِهَا وَاللَّيْلُ دَاجِي
رَشَاءٌ^(٣) حَرَكَ أَشْجَا نِي بِطَرْفٍ مِنْهُ سَاجِي^(٤)
وَبِشْغَرٍ طَيِّبِ النَّفِّ حَةٍ^(٥)، مَعْسُولِ الْمُجَاجِ^(٦)
قَامَ مَعْصُوبًا بِأَكْلِيهِ لِي مِنَ الْوَرْدِ وَتَاجِ
بَيْنَ غُصْنٍ ذِي اهْتِزَازٍ وَقُضِيبٍ ذِي ارْتِجَاجِ
قَبْلَ أَصْوَاتِ النُّوَاقِيعِ سِ وَتَغْرِيدِ الدَّجَاجِ
... الخ^(٧).

وهي لا تختلف عن مقدمة الابله السابقة، فالضمائر للمذكر ولكن الشاعر لم يشر صراحة الى ان المتغزل به ذكر.

وكما حدث في الغزل بالمذكر تطرفا، حدث ايضا في هذه الظاهرة التي اشرت اليها، فقد اكثر شعراء القرن السادس - قياسا الى سابقهم - من اللجوء الى ضمير المذكر في غزلهم، فطالت المقدمات التي فيها هذا الغزل^(٨)، بعد ان كانت قصيرة، قليلة الابيات وربما لم تزد على ستة^(٩).

(١) شيب الغراب: مثل يضرب للامر الذي لن يحدث أبدا.

(٢) ديوان الابله و ٣٣، وانظر أيضا و ٧٨، ٩٨، ١٧٩، ١٦٧، ١٦٤.

(٤) الطرقت الساجي: الساكن الفاتر.

(٦) المجاج: الرقيق ترمي به من فمك.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٧١ وانظر أيضا ص ٣٦٢، ٣٦٣، ٢٥٤.

(٨) نفسه.

(٩) الخريدة ١٢٥/١.

ولعل مما يدل على قلة هذا اللون من الغزل في الفترة المتقدمة على الفترة التي ادرسها، ان نجد الدكتور الطاهر - وهو يدرس تلك المرحلة - يعجب من مدح الخليفة المستظهر بالله بأبيات كان فيها الضمير للمذكر، وقد عد الباحث الفاضل هذا الغزل من خروج العصر على قواعد الذوق^(١)، فليت الاستاذ الكريم قرأ قول الابله في مدح اقضى القضاة^(٢):

أوجوه غيد أم رياض ربيع
والماء قد صقل النسيم متونه
والطلّ يجعلوه الشقيق كلؤلؤ
أو ما ترى برد النسيم وقد ونى^(٥)
فاربغ أشاطرك السرور، وخلي
واقطع أقاويل الوشاة، فإنها
واشرب بكف أغن، مقبل الصبا
ساجي اللحظ تريك صنعة عينه
ما تم مسك عذاره في خده
... الخ^(٩)

وكؤوس خمر أم نجوم هزيع^(٣)
أم في جداوله متون دروع؟
أم وجنة مطلولة^(٤) بدموع؟
سحراً وبرد الليل في توشيع^(٦)
من ذكر أطلال عفت^(٧) وربوع
سبب لوصلة جيلنا المقطوع
خنت الشمائل والدلال بديع
فتكات مسنون الغرار^(٨) خليع
إلا ليظهر عذر كل خليع

ان الابيات التي انغضبت الدكتور الطاهر، يحتمل ان تكون في مؤنث، وغزلها خفيف لا يكاد يحس. اما مقدمة الابله هذه فان المتغزل به مذكرون شك، وحديث الشاعر او وصفه لهذا الذكر، فيه وقاحة وجراءة على الاخلاق الكريمة لا سيما وهو يفتتح قصيدته في مدح «اقضى القضاة». ولعل من حسن حظ الابله ان غزله في غير مقدمات المدح لم يصل الينا. ضربان من الغزل بالمذكر:

- ان معظم الغزل بالمذكر في الفترة التي ادرسها، يمكن أن يحصر في لونين من الشعر:
- (١) مقدمات قصائد المدح.
 - (٢) الغزل المستقل عن المدح.

(١) الشعر العربي ١٣٧٢

(٢) أقضى القضاة: هي رتبة دون رتبة قاضي القضاة. تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ١٩٢

(٣) هزيع: بالاصل بالراء هربع. والهزيع: الطائفة من الليل أو نحو ثلثه أو ربه.

(٤) مطلولة: من الطل وهو المطر الخفيف.

(٥) ونى: فتر وضعف.

(٦) التوشيع: التفرق والانقسام.

(٧) عفت: درست.

(٨) الغرار: حد السيف.

(٩) ديوان الابله و ٢٢

هذا اذا اغفلنا ضرباً ثالثاً سبقت الإشارة اليه وهو الذي اسميته «الغزل الغامض» وهو الذي تعمد الشعراء فيه عدم الابانة عن جنس المتغزل به . ويدولي ان وجود هذا الضرب في مدائح ابن التعاويذي للخلفاء العباسيين^(١)، يدل على ان نظرة القوم الى هذا اللون من الغزل، تختلف عن نظرتهم الى الغزل الصريح بالمذكر، لان هذا الاخير لم اجده في مدائح الخلفاء . وعلى ضوء هاتين الحقيقتين يمكن أن يكون الغزل الغامض قد اوجد دفعا لآراء وانتقادات رجال الدين والمحافظين عامة، الذين وقفوا في وجه تيار الغزل بالمذكر، وفي الوقت نفسه كان هذا الغزل الغامض، يرضي بعض الادواق التي ملت الغزل بالمؤنث، وبدأت تضيق به .

مقدمات المدائح:

ان التقديم لقصائد المديح بالغزل بالمذكر، من الظواهر التي تلفت النظر وتستوقف الباحث، بسبب شيوعها وانتشارها من ناحية، وبسبب دلالة هذا النوع من المقدمات على اخلاق الناس، وخاصة الطبقة العليا، من ناحية اخرى .

وعلى الرغم من وجود هذا اللون من المقدمات في الفترات السابقة للفترة التي ادرسها^(٢)، فان احدا لم يشر الى وجود «ظاهرة» تستوقف الباحث، وهو مما يوحى بان النماذج قليلة جدا، لا توجب القلق ولا تثير الذعر، على عكس الحال في الفترة التي ادرسها . لقد احصيت في ديواني ابن التعاويذي والابله وحدهما تسع عشرة قصيدة مصدرة بهذا الغزل الشاذ، وكان من بين الممدوحين في هذه القصائد ابن هُبَيْرَة الوزير الحنبلي الكبير^(٣)، ونائب الوزير ابن البخاري^(٤)، واقضى القضاة^(٥)، وبعض امراء الاشراف^(٦)، والقاضي الفاضل^(٧).

ان الشاعر في امثال هذه المقدمات، يصف الذكر ويتغزل به وكأنه انثى لا فرق بين الاثنين سوى ان الشاعر هنا يشير صراحة الى ان المتغزل به ذكر بذكره العذار^(٨)، او الشارب^(٩)، او العارض^(١٠)، او الكفل^(١١)، وكأنه يخشى ان يجهل محبوبه المقصود، فيظن انه انثى، ولذلك يقطع الشك باليقين .

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٣٦ ، ٢٨١

(٢) اتجاهات الغزل ص ٩٤ ، الشعر العربي ١٣١/٢

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ١٧٩

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨٢

(٥) ديوان الابله و ١١٧ ، ١١٨ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٦٠

(٦) العارض: صفحة الخد . ديوان ابن التعاويذي ص ١٢٤ ، ١٥١

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٣٤

(٨) ديوان الابله و ٦٢

(٩) ديوان الابله و ٢٢ ، ٢٣

(١٠) نفسه ص ٣٣٣

(١١) نفسه و ٦٢

وفي بعض هذه المقدمات عند ابن التعاويذي، يأبى هذا الشاعر الا أن يضيف الى صفات محبوبة صفة اخرى، فيها دلالة اكبر من الصفات السابقة على الرجولة والقوة، التي لم تدر ابدا ببال النساء، كقوله في قصيدة مطلعها:

جَدُّ بِقَلْبِي وَمَزَحَ طَبِيٍّ مِنَ التُّرْكِ سَنَحَ
قال فيها عن حبيبه:

فَازَرَنِي، وَالسُّكْرُ^(١) قَدْ جَارَ عَلَيْهِ وَطَفَعَ^(٢)
يَهْزُ عِظْفِيهِ الشُّبَا بٌ بِالْذَّلَالِ وَالْمَرْحُ
جَاءَ، وَفِي يُسْرَاهُ قَوْ سَ، وَبِئْمَنَاهُ قَدْخُ
كَأَنَّهُ الشَّمْسُ بَدَا مِنْ حَوْلِهَا قَوْسُ قَرْخُ
يَا لَائِمِي فِي حُبِّهِ مَا كُلُّ مَنْ لَامَ نَصَحُ
.. الخ^(٣).

ان ذكر القوس ها هنا قد يشير الى معنى خاص اراده الشاعر، وفيه دليل على ان هذا الغلام فارس من الفرسان.

ان وقوف شاعر ما في محفل حاشد يضم وجوه المجتمع واعيان الناس ليبدأ قصيدة مدح، واصفا محاسن غلام او شاكيا من صده ودله، وما يعانیه في حبه من ويلات . . اقول ان ظاهرة كهذه لا بد ان تثير فينا الاشمئزاز وتدلنا على الهاوية التي انحدر اليها اولئك القوم، حتى صارت الفواحش والرذائل تتلى على رؤوس الناس فيهتزون لها، وربما طلبوا الاعداء والمزيد.

لقد كانت المقدمات الغزلية وسيلة يلجأ اليها الشاعر من اجل لفت الانظار وشد الاسماع. ولذلك اعتاد الشعراء ان يختاروا لمقدمات شعرهم ارق الالفاظ واجمل الاخيلة والمعاني واعف الصور الدالة على الهيام والوجد والم الفراق والبعاد . . مما يناسب مقام الممدوح ويحرك كرمه وأريحيته . . ولكن الدنيا في آخر العصر العباسي تبدلت، وأذنت شمس الحضارة العربية بالأفول، فصارت العادات الغربية الشاذة يفتن في عرضها وتتصدر مدائح الكبار ويبتغي من ورائها الجوائز والصلوات. وقد صدق من قال: «ان هذا النوع من الشذوذ ينشأ في العصور التي تبلغ فيها الحضارة ذروتها، ولكنه لا يمثل قمة التحضر، وانما يمثل قمة الفساد المادي في هذه الحضارة وبداية السقوط والانحدار»^(٤).

(٢) طفع السكران: ملاء المشراب.
(٤) اتجاعات الشعر ص ٥١٩

(١) والسكر: بالاصل بالشين: والشكر، تصحيف.
(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٩٩ - ١٠٠

ومهما يكن فقد تبارى الشاعران ابن التعاويذي والابله البغدادي في هذا النوع من المقدمات لقصائد المديح، وكان لكل منهما أسلوبه الخاص وطريقته المتميزة في كيفية تناول الموضوع والتدرج فيه ثم التخلص منه الى غرض القصيدة الاصيلي.

ويلاحظ ان الشاعرين أدركا العلاقة الوثيقة بين الخمر والغزل بالمذكر، ولذلك اتفقا على ان هذه المقدمات لا يصح ان تخلو من افتنان في وصف الخمر واشادة بدورها في تضيق شقة الخلاف بين الشاعر ومن يحب، وكذلك اتفقا على ان وصف المساقى او التغزل به والاعجاب بشمائله من لوازم تكلم المقدمات.

اما في الجوانب الاخرى من مقدمات هذين الشاعرين، فكان الابله البغدادي اكثر ولعا وتعلقا بهذه المقدمات من زميله لانها بلغت في ديوانه ثلاث عشرة مقدمة، وقد يكون سبب هذا الولع ما عرف عن الشاعر من ميل للغلمان وتعلق بهم^(١). ولا يستبعد ان يكون ابن التعاويذي - وقد اشرف على جمع ديوانه ورتبه بنفسه^(٢) - قد تناول هذا الديوان بالتهذيب، فاسقط بعض الابيات او غير في طائفة من القصائد. ولم يشر احد - بحسب علمي - الى ان الابله قد اشرف على جمع شعره.

وتتميز مقدمات ابن التعاويذي بصورة عامة بالطول، والغالب على الشاعر فيها حديثه عن حبيبته، والمبالغة في ذكر محاسنه، والشكوى مما يعاني ويقاسي من دلاله وصده. اما مقدمات الابله فاقل طولاً من ناحية، ويغلب عليها وصف الطبيعة والهيام بها اكثر من الغزل وذكر صفات وشمائل من يحب، وهي صفة سبق ان اشرت اليها عند دراسة خمريات هذا الشاعر.

ومن امثلة مقدمات ابن التعاويذي، هذه المقدمة:

نَارُ جَوَى فِي الضُّلُوعِ تَتَّقِدُ	وَمُهْجَةٌ قَدْ أَذَابَهَا الْكَمَدُ
فِي حُبِّ لَذَنِ الْقَوَامِ تَمْلِكُهُ	يَدِي، وَمَالِي بِالْهَجْرِ مِنْهُ يَدُ
مُنْفَرِدٌ بِالْجَمَالِ عَاشِقُهُ	فِي حُبِّهِ بِالْغَرَامِ مُنْفَرِدُ
عَرَّضَنِي لِلْسَّقَامِ عَارِضُهُ ^(٣)	وَمُدُّ وَهَى خَصْرُهُ وَهَى الْجَلْدُ
كَيْفَ اضْطَبَّارِي عَنْهُ وَقَدْ فَنَيْتُ	ذَخَائِرَ الصَّبْرِ فِيهِ وَالْعُدْدُ؟
أَمْ كَيْفَ يَخْبُو لِلشُّوقِ فِي كِبْدِي	نَارُ لَهَا نَارُ خَدِّهِ مَدْدُ؟

(١) الواقي بالوفيات ٢/ ٢٤٥ - ٢٤٦

(٢) انظر مقدمة الديوان المطبوع.

(٣) المعارض: صفحة الحد.

وهلّ على مثلٍ ما أكابدهُ في الحبِّ يَبْقَى لعاشقٍ كَبِدُ؟
 أنجزَ وعدي بِزُورَةٍ طالما كانَ غَريمُ الهوى بها يَعدُ
 فباتَ يَجْلُو حَمراءَ تحسبُها مِنْ وجنتيه في الكأسِ تَتَقَدُّ
 وسَدَّتْهُ ساعدي ووسَدني نَحْدًا لَهُ سَيْفٌ لَحْظُهُ رَصْدُ
 ... الخ ^(١).

وهي مقدمة تعكس الصفات الغالبة على هذا النوع من مقدمات الشاعر وتدور غالبيتها على وصف ما يعانیه الشاعر ويقاسيه من حب هذا الغلام: ففي البيت الاول «نار في الضلوع... ومهجة ذابت»، وفي البيت الثاني يتحدث الشاعر عن «هجر هذا الغلام»، وفي الرابع يوازن الشاعر بين «جلده الواهي» وخصر الغلام الواهي ايضاً، وفي الخامس حديث عن نفاد صبر الشاعر، وفي السادس يحدثنا عن «نار الشوق» التي يزيد بها اشتعالاً خد الغلام الذي يحاكي النار في الحمرة والانتقاد..

اما مقدمات الابله فمنها قوله:

نَبْهَنِي، وَالنَّجْمُ قَدْ غَارَا ^(٢) وَالصُّبْحُ مَا اسْفَرَ ^(٣) إِسْفَارًا
 مُهْمَفٌ ^(٤) شَعْشَعَ مِنْ خَدِّهِ نَوْرًا وَمِنْ حُمَرَتِهِ نَارًا
 قَدْ حَلَّ زَرُّ النَّوْمِ عَنْ جَفْنِهِ وَشَدَّ فَوْقَ الْخَصْرِ زُنَارًا
 وَقَامَ مِنْ رَقَدَتِهِ سُحْرَةٌ ^(٥) بَطْرَفِهِ السَّاحِرِ سَحَارًا
 يُبْذِي عَلَى غُصْنٍ لُجَيْنٍ نَدًى وَجَهًا لَهُ يُحَسِّبُ ذِينَارًا
 لَهُ عِذَارٌ مَذْ بَدَا نَبْتُهُ أَقَامَ لِي فِي الْحُبِّ أَعْذَارًا
 يُصْبِحُنِي ^(٦) عَائِيَّةٌ ^(٧) أَنْفَدَتْ دِنَانُهَا فِي الْعُمُرِ ^(٨) أَعْمَارًا
 فِي رَوْضَةٍ أَضْحَكَ مِنْهَا الْحَيَا بِذَمْعِهِ الْهَاطِلِ أَزْهَارًا
 قَدْ عَانَقَ الْمُخْضَرُّ مِنْ نَبْتِهَا جَدَاوِلًا زُرْقًا وَأَنْهَارًا
 وَانْحَلَّ خَيْطُ الْطَلِّ ^(٩) فِيهَا ضَحَى يَبْلُ لِلزَّهْرَةِ نُورًا
 ... الخ ^(١٠).

(١) ديوان التعاويذي ص ١٥١ - ١٥٢

(٢) غار النجم: غاب.

(٣) سفر الصبح: أضاء وأشرق.

(٤) مهمف: ضامر البطن، دقيق الخصر.

(٥) السحرة: السحر الأعلى، وهو ما قبل انصداع الفجر.

(٦) يصبحني: يسقيني الصبح، وهو شرب الصباح.

(٧) عائنة: بالاصل غانية (بالغين)، وعائنة منسوبة إلى مدينة عائنة العراقية وقد يقال عانات ايضاً.

(٨) العُمر: البيعة والكنيسة. (٩) الطل: المطر الخفيف. (١٠) ديوان الابله و ١٥٤

في كل عصر لا بد أن يوجد منحرفون ، خارجون على قيم المجتمع وتقاليده ، وهؤلاء لا يكونون الا اقلية ضئيلة نبذها الناس وخافوا من شرها ، ولذلك اختار لهم المؤرخون نعوتاً تدل عليهم وتشير الى شذوذهم ، فقالوا انهم خلعاء حيناً ، أو أنهم ماجنون حيناً آخر .

ولكن لا بد من الاحتياط والاحتراز في هذا المجال ، فليس كل من وصف بالخلاعة او المجنون ، عرف عنه الميل الى الغلمان ، اورويت له اشعار في هذا الموضوع . فمثلاً جاء في وصف ابن السَّوَادِي الواسطي انه كان : شاعراً فاضلاً ظريفاً خليعاً^(١) . . ، ولكنني لم اقف لهذا الشاعر على غزل بالغلمان في اوسع ترجمة له وصلت اليها^(٢) .

ومن ناحية اخرى وصلت اليها اشعار في الغلمان لشعراء لم يقل احد انهم منحرفو السلوك ، ولا يمكن عد هذا الشعر من غزل الظرفاء ، الذي مر ذكره ، بسبب خلاعة معناه^(٣) .

ولعل الغريب حقاً أن تتباين الاحكام تبانياً كبيراً حول اشهر من تغزل بالغلمان في القرن السادس ، وهو ابو المعالي سعد بن علي . . الوارق الحَظِيرِي - المعروف بدلال الكتب المتوفى سنة ٥٦٨ هـ : ففي مرآة الزمان ، قال سبط ابن الجوزي ما معناه ان الاشعار التي اوردها العماد في خريدته ، تدل على انه كان خليعاً^(٤) . . اما ابن الديبني فقد قال عنه : « . . . واشتهر بين الناس بالدين والثقة والعلم وكان دكانه مجمع العلماء^(٥) . . » .

ان نص الخريدة المطبوع^(٦) ، يؤيد ما ذهب اليه صاحب مرآة الزمان ، وفي الوقت نفسه لا يمكن الطعن في رواية مؤرخ ثقة كابن الديبني .

ان اكثر الذين رويت لهم اشعار في التغزل بالغلمان هم من علماء الفترة التي ادرسها ، ومن هؤلاء سعد بن علي الحَظِيرِي ، السالف الذكر وهبة الله بن الحسين بن احمد البغدادي ، المعروف بالبديع الاصطريابي المتوفى سنة ٥٣٤ هـ^(٧) ، ومحمد بن سعد بن عبد الله . . ابو عبد الله البغدادي ، توفي بحلب سنة ٥٦٠ هـ^(٨) ، وهبة الله بن صاعد بن هبة الله . . موفق الملك امين الدولة المعروف بابن التلميذ البغدادي المتوفى سنة ٥٦٠ هـ^(٩) ، والحكيم

(٢) الخريدة ٣٦٩/٤ وما بعدها .

(١) وفيات الاعيان ١٥٠/٣

(٤) مرآة الزمان : ٢٩٧/٨

(٣) الخريدة ٤٨٨/٤

(٦) انظر الخريدة ٣٣/٤ وما بعدها .

(٥) المختصر المحتاج اليه ٨١/٢

(٧) معجم الادباء ٢٤١/٧ ط . مار كليوت الأولى ، وفيات الاعيان ١٠١/٥

(٨) المحمدون ص ٣٦١ - ٣٦٢

(٩) معجم الادباء ٢٤٣/٧ - ٢٤٧ ط . ماركليوت الأولى ، وفيات الاعيان ١١٩/٥ - ١٢٦

ابو العلاء محفوظ بن المسيحي بن عيسى النصراني النيلي^(١) الطبيب المتوفى سنة ٥٦٩ هـ^(٢).

واشتهار العلماء بالميل الى الغلمان والتغزل بهم، ظاهرة ليست من ابتكار القرن السادس، بل هي معروفة قبل هذا القرن، واستمرت بعده، وستأتي الاشارة الى اسباب ذلك قريبا.

ففي القرون التي سبقت القرن السادس، عرف ابو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى في اوائل القرن الثالث بالميل الى الغلمان، وكان لا يقبل شهادته احد من الحكام بسبب ذلك^(٣). وفي القرن الثالث ايضا اشتهر الفقيه محمد بن داود الاصبهاني المعروف بالطاهري^(٤) المتوفى سنة ٥٩٧ هـ، صاحب كتاب الزهرة، بالميل الى الغلمان^(٥).

وفي القرن الرابع عرف المفتح^(٦) البصري، صاحب ابن دريد ونائبه في البصرة وله قصيدة اوردها صاحب اليتيمة^(٧)، يصف فيها هذا العالم كيف كان يخدع الغلمان تحت ستار تدريسهم الدين والشعر في جامع البصرة

اما بعد الفترة التي ادرسها فقد اشتهر قاضي القضاة شمس الدين احمد بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ بالميل الى بعض اولاد الملوك، وله فيه اشعار رائعة، ويقال انه اول يوم زاره بسط له الطرحة^(٨)، وقال له: ما عندي اعز من هذه، طأ عليها...^(٩).

وهكذا يتضح ان آفة الميل والتغزل بالغلمان، ليست مقصورة على علماء القرن السادس وانما هو داء قديم معروف

أسباب تورط بعض العلماء في الغزل بالذكر:

(١) ان بعض العلماء يشتغلون في المهن التعليمية، او كمؤدبين لآبناء الاغنياء او ذوي النفوذ، ومن هنا يكثر اتصالهم بصغار الشبان، في البيوت الخاصة، او في المدارس

(١) النيلي: نسبة إلى بليدة النيل وكانت قريبة من حلة بني مزيد (معجم البلدان ٨/ ٣٦٠)

(٢) الخريدة ٤/ ٤٩٨ - ٥٠٥

(٣) وفيات الاعيان ٤/ ٣٢٩

(٤) الظاهري نسبة إلى مذهب الظاهريّة المجافي للتأويل والرأي والقياس، وهو مذهب انشاء والد محمد هذا المتوفى سنة ٢٧٠ هـ.

(٥) الوافي بالوفيات ٣/ ٥٩

(٦) المفتح البصري: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبيد الله، له مصنفات كثيرة، وشعره قليل كثير الحلاوة، يكاد يقطر منه ماء الطوف. سنة ٣٢٠ هـ. يتيمة الدهر ٢/ ٣٣٤، (مط. الصاوي)، الاعلام ٦/ ١٩٨

(٧) يتيمة الدهر ٢/ ٣٣٥ (مط. الصاوي). (٨) الطرحة: لباس القضاة.

(٩) فوات الوفيات ١/ ١٠٠ - ١٠١

والجوامع، فإذا كان العالم منحرف السلوك، رقيق الدين نشأت بينه وبين تلميذه هذه الفاحشة^(١).

(٢) قد يكون بعض العلماء من الأغنياء ذوي اليسار، وفي العادة يكثر في بيوت هؤلاء اوقصورهم اصناف من الغلمان يعملون في خدمة اهل البيت^(٢)، وفي العادة ايضا يكون هؤلاء من الروم او الفرس، ممن دربو للقيام باعمال معينة، ويشترط فيهم الجمال والوسامة، ولذلك قد تنشأ بسببهم علاقات شاذة.

(٣) ان مكانة العالم الخاصة عند الخليفة، كأن يكون طبيبه مثلاً^(٣)، تمكنه من دخول قصور الطبقة العليا من اوسع ابوابها، وهذه القصور تضح في العادة بصنوف من الغلمان من اجناس شتى، وكلهم من المشهود لهم بالجمال البارع والظرف الارستقراطي، فتنشأ بينهم وبين بعض العلماء علاقات قد تبدأ بريئة خالية من الدنس والشذوذ، ولكنها ربما تطورت بعد ذلك حين يضعف العالم، فلا يستطيع تحمل الاغراء لمدة طويلة.

واذا كان تورط بعض العلماء في الغزل الشاذ، ربما اساء الى سمعة اكثرية علماء هذه المرحلة ممن لم تعرف عنهم هذه الرذيلة، اقول اذا كان هذا صحيحا فان اشتراك بعض العلماء في هذا النوع من الغزل - وهو قليل عموماً - قد يكون هو السبب في غلبة الوصف المعنوي عليه وابتعاده - بصورة عامة - عن الخلاعة وذكر المغامرات الجنسية او الدبيب على الغلمان. ان غزل العلماء هذا يكاد يكون - في بعض الاحيان - فلسفة وليس غزلاً، وخاصة عند الحظيرى، وهو اكثر هؤلاء العلماء غزلاً. تأمل مثلاً قوله:

يَا آمِرِي بِالصَّبْرِ عَنْ رَشَاٍ قَلْبِي يَجُنُّ اِلَى مَنَارِيهِ
دَعْنِي، فَصَادُ الصَّبْرِ قَدْ قُسِمَتْ مَا بَيْنَ حَاجِبِهِ وَشَارِبِهِ^(٤)

وقوله في غلام اشقر الشعر:

مَا اشْقَرُ شَعْرُ حَبِيبِي، اِنْ وَجَّتَهُ سَقَّتَهُ مِنْ خَمْرٍهَا صُبْعًا، وَلَا خَجَلًا
وَإِنَّمَا لَفَحَتْ خَدَيْهِ مِنْ كِبْدِي نَارٌ، وَدَبَّتْ اِلَى صُدْغَيْهِ فَاشْتَعَلَا^(٥)
وقوله:

بِنَفْسِي مَنْ عَدَا يَعْجُزُ زُعِنَ ادْرَاكِهِ الْفَهْمُ

(١) المحمودون ص ٣٦١، اتجاهات الغزل ص ٢٠٦ (٢) اتجاهات الغزل ص ٢٠٩

(٣) تنظر ترجمة ابن التلميز في وفيات الاعيان ١٢٠/٥، ١٢٤

(٤) الخريدة ٣٥/٤ (٥) نفسه ٣٦/٤

غزالٌ كَادَ لِلرَّقْدِ أَنْ يَجْرَحَهُ الْوَهْمُ^(١)

ان البحث عن غزل او عاطفة في هذه الابيات، جهد ضائع، لان قائلها ليس شاعرا ولا عاشقا، وانما هو مفكر او فيلسوف، اعجبته فكرة فحاول ان ينقلها شعرا.

ومن هذا الغزل الفلسفي، قول ابن التلميذ:

أَبْصَرُهُ عَاذِلِي عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَا رَأَى
فَقَالَ لِي: لَوْ عَشِقْتَ هَذَا مَا لَمْ يَكُنِ النَّاسُ فِي هَوَا
قُلْ لِي: إِلَى مَنْ عَذَلْتَ عَنْهُ وَلَيْسَ أَهْلُ الْهَوَى سِوَاهُ
فَطَلَّ مِنْ حَيْثُ لَيْسَ يَذْهَبُ يَأْمُرُ بِالْعِشْقِ مَنْ نَهَا^(٢)

ان الفرق الشاسع بين غزل العلماء هذا وغزل الشعراء، قد يزداد وضوحا حين نقرأ ابيات ابن افلح وهو يتغزل بمذكر:

أَخِي، لَمْ تَزَلْ فِي كُلِّ لَأْوَاءٍ^(٣) مُنْعِشِي^(٤)
فَإِنْ جَحَدْتَ أَجْفَانُهُ سَفَكَهَا دَمِي
وَمَا لَ بَعْظِي الْغَرَامُ، وَقَدْ بَدَا
بِرَيَّانٍ^(٥) مَا يَحْوِيهِ عَقْدُ إِزَارِهِ
وَلَمَّا تَلَاقَيْنَا بَقَلْبِي وَطَرَفِهِ
ضَعُفْتُ، وَأَعْطَاهُ الْهَوَى فَضْلَ^(٦) قُوَّةِ
وَمَنْ يَتَحَرَّشُ، بِالرَّدَى، وَهُوَ وَادِعٌ
فُخِذَ لِي بِثَارِي مِنْ لِحَاطِ بَرَنْقَشٍ
فَلِي شَاهِدٌ مِنْ خَدِّهِ غَيْرُ مَرْقَشٍ^(٧)
لِعَيْنِي، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنِّي مُنْتَشِي^(٨)
وَعَرْتَانِ^(٩) مِفْلَاقِ الْوِشَاحِ مُعْطَشٍ^(١٠)
عَلَى حَذَرٍ مِمَّنْ يَنْمُ وَمَنْ يَشِي
فَاوْتَقْنِي أَسْرًا، وَمَنْ يَقْوَى يَبْطِشُ
قَرِيرُ الرِّزَايَا، يَلْقَى غَبَّ التَّحَرُّشِ^(١١)

وعندي ان ميل العلماء الى الاوصاف المجردة في غزلهم وابتعادهم عن الفحش والخلاعة، يتفق وسمعة العالم ومكانته كرجل وقور مهيب من ناحية، وكذلك يمثل هذا النوع من الغزل الحياة الجنسية الباقية لدى هؤلاء الشيوخ، لانهم غير قادرين في هذا المجال الا على اطلاق العنان لألستهم وعقولهم من ناحية ثانية.

(٢) معجم الأدباء ٢٤٦/٧ ط. ماركليوث الأولى.

(٤) منعش: معيني ومنجدي.

(٧) الريان: الممتلئ.

(٩) معطش: ظمآن، وأراد به هنا ضامر الخصر.

(١١) الخريدة: ٦٤/٢

(١) نفسه ٤٠/٤

(٣) اللأواء: ضيق المعيشة، وشدة المرض.

(٥) مرقش: من رقص كلامه: زوره وزخرفته، ولا يوجد أرقش.

(٦) منتشي: من الانشاء وهو يده السكر.

(٨) الغرثان: الجائع، وأراد به هنا الضامر.

(١٠) الفضل: الزيادة.

هذا لون من الغزل شاع ذكره في مجالس الشراب ، فهو يتردد في مقدمات المدائح ، كما يذكر في القصائد والمقطوعات المستقلة عن المدح ، وإذا جاز لنا ان نستعير الفاظ اصحاب الرياضيات والحساب لقلنا : ان التغزل بالسقاة هو القاسم المشترك بين جميع ضروب الشعر الخمري والغزل بالمذكر .

ولعل هذه المنزلة الخاصة التي يحتلها الساقى هي التي حملت بعض شعراء المدح الكبار في القرن السادس على ان يفتتحوا بذكره قصائد مدحهم في كبار شخصيات العصر واقطابه ، مثل سينية ابن التعاويذي في مدح الخليفة الناصر لدين الله :

طَافَ يَسْعَى بِهَا عَلَى الْجُلَاسِ كَقَضِيبِ الْأَرَاكِةِ الْمَيَّاسِ^(١)
وجيميته في مدح مجد الدين بن الصاحب :

بَاتَ يَجْلُوهَا عَلَى نَدٍّ مَانِهَا وَاللَّيْلُ دَاجِي
رَشَأَ حَرَّكَ أَشْجَا نِي بِطَرْفٍ مِنْهُ سَاجِي^(٢)
ومن مدائح الابله :

أَدِرِ الْمُدَامَةَ بَيْنَنَا يَا سَاقِي حَتَّى تَكِلَ يَدِي وَيَضْعُفَ^(٣) سَاقِي
وقوله :

بَاكَرَ يَجْلُو مُدَامَةً بِكِرَا مُعِيرُهَا مِنْ لِحَاطِظِهِ السُّكْرَا
أَحْوَرُ سَاجِي الْجُفُونِ مُقْلَتُهُ تُخْلِقُ صَبْرِي وَتُخْلِقُ السُّحْرَا^(٤)

وللساقى - كما يذكر صاحب حلبة^(٥) الكميت - شروط وآداب يجب مراعاتها ، وفي مقدمة الجميع : « ان يكون بديع الجمال ، زائدا في الظرف والدلال ، يفوق بديع محاسنه الاتراب ، ويدهش بلطف شمائله عقول اولي الالباب . . » ومن نص النواجي هذا ، يدوان جمال الجسم وحده لا يكفي ليدخل الساقى البهجة والحبور الى قلوب السكاكزي ، بل لابد من جمال الروح ايضا او « الظرف والدلال » كما قال .

وعلى الرغم من اجماع شعراء القرن السادس على جمال الساقى وبهاء طلعتة ولذلك

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٣٦

(٢) نفسه ص ٧١

(٤) نفسه و ١٤٨

(٣) ديوان الابله و ٧٠

(٥) حلبة الكميت ص ١٤٥ وما بعدها .

افتنوا في تصويره واختاروا له اروع الصفات واجمل التشبيهات، فقالوا: انه بدر^(١) حيناً، او انه ظبي حيناً آخر^(٢)، وقال ابن حَكِينَا:

يَدُورُ بِهَا مُسْتَدِيرُ الْعِذَا رِ اسْلَبَ مِنْهَا لِعَقْلِ النَّدِيمِ
يُضِلُّ الْبَصِيرَ بِوَجْهِ مُنِيرٍ وَيُبْرِي السَّقِيمَ بِطَرَفِ سَقِيمِ^(٣)

ولكن بالرغم من هذا الميل الى وصف جمال الساقى عامة، فان اشعار القوم تدل على ان عيني الساقى هما اكثر اعضائه فتنة للشعراء، ولذلك قل أن يذكر الساقى دون اشارة الى سحر عينيه وسهامهما التي تشق القلوب قبل الجلود. قال الابله:

طَافَ عَلَيْنَا بِكَاسِ رَاحِ كَحِيلُ عَيْنِ خَضِيبُ رَاحِ
أَحُورُ تَلْقَاهُ مَا تَشْنَى لِلدَّلِّ نَشْوَانُ وَهُوَ صَاحِي^(٤)
وقال:

سَاجِي اللَّحَاطِ تُرِيكَ صَنَعَةَ عَيْنِهِ فَتَكَاتُ مَسْنُونِ الْغِرَارِ^(٥) رَضِيعِ^(٦)
وللامير حسام الدولة:

يُدِيرُ مِنْ طَرَفِهِ وَمِنْ يَدِهِ خَمْرِينَ يَنْحَازُ عَنْهُمَا الرَّشْدُ^(٧)
وقال العلاء الواسطي:

فَشَرِبْتُهَا مِنْ كَاسِهِ، وَشَرِبْتُهَا مِنْ لَحْظِهِ رَشْفًا بَغِيرِ إِنَاءِ^(٨)

اما جمال الروح في السقاة، وهو الشرط الثاني اللازم لنجاح هذا النوع من الغلمان، فقد اشار اليه ابن التعاويذي:

حُبُّهُ قَدْ نِيطَ^(٩) مِنْ حَبَّةِ قَلْبِي بِالنَّيَاطِ^(١٠)
قَابِلُ حُكْمِي عَلَى كَثِّ رَةِ سَوْمِي وَاشْتِطَاطِي
فَهُوَ مَخْلُوقٌ عَلَى وَفِّ قِ اقْتِرَاحِي وَاشْتِراطِي^(١١)
وقال الابله:

جَاءَ بِهِ الْحُسْنُ بَدْرَ تَمِّ حُلُو الْفُكَاهَاتِ وَالْمُزَاحِ^(١٢)

(٢) نفسه ١٨٥/٢
(٤) ديوان الابله و ٠٣
(٦) ديوان الابله و ٢٢
(٨) نفسه ٣٧٩/٤
(١٠) النياط: الفؤاد.
(١٢) ديوان الابله و ١٠٣

(١) الخريدة ٢٥٨/٢
(٣) نفسه ٢٤٠/٢
(٥) الغرار: حد السيف.
(٧) الخريدة: ٧٢٠/٤
(٩) نيط: ربط وعلق.
(١١) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٥٩

ومن استعراض النصوص الشعرية المختلفة، يلوح لي ان جمال الوجه واعتدال القوام يأتي بالمرتبة الاولى عند شعراء القرن السادس، وان جمال الحديث وحلاوة الروح، تكاد تكون من الكماليات.

٢ - التغزل بالعذار:

ان الذين تغزلوا بالمذكر- مثل العشاق في الغزل بالمؤنث- يكثر من ذكر الجوانب او الاعضاء التي فتنتهم في هذا الذكر، وكأنهم بذلك يلتمسون لانفسهم الاعذار، ويحاولون اقناع الناس بأن ليس في وسعهم الا الخضوع والطاعة لسلطان الجمال وتمثال الفتنة والاغراء.

لقد كان من بين صفات الذكور التي فتنت الشعراء: طول القامة ونحولها ولذلك شبهوا امثال هذا الغلام بالغصن حيناً^(١)، وبقضب الاراقة المياس حيناً آخر^(٢)، وربما قالوا: ان امثال هذا الغلام قد اقام قيامة الشاعر^(٣)، تعبيراً عن فرط الاعجاب وشدة الوله.

وكان للعيون نصيبها من هذا الغزل، فقالوا: انها كحيلة وحوراء^(٤)، أو أنها تشبه عين الطي:

يَحْكِي الْغَزَالَةَ جَيْدًا وَمُقْلَةً وَنِفَارًا^(٥)

ومن الجديد في فتنة العيون هذه، غرام ابن التعاويذي بعيون الجند الاتراك وهو غرام لم يعرفه الشعر العربي قبل هذا الشاعر، اذ لم يسبق ان تغزل شاعر بجندي، لان هذا الاخير رمز القوة والخشونة، وخوض المعارك ومصالوة الفرسان، ولكن يبدو ان كثرة الجند التركي في الجيش العباسي، وما عرف به هؤلاء من جمال هو الذي فتن اهل بغداد، فتطوع شاعرهم للتعبير عن هذه الفتنة بمثل قوله:

مِنْ كُلِّ رَامٍ عَنْ قَوْسٍ حَاجِبِهِ بِمُصْمِيَاتٍ^(٦) نِصَالُهَا الْحَوْرُ
مُوْتَتِ الزِّيِّ فِي لَوَاحِظِهِ مِنْ غُنْجٍ عَيْنِيهِ صَارِمٌ ذَكْرُ^(٧)

وقوله:

وَبِغِلْمَةٍ مِثْلِ الشُّمُوسِ عَوَاسٍ خَلَطُوا الْبَسَالَ بِالْجَمَالِ الْبَاهِرِ
فَلَهُمْ إِذَا اعْتَقَلُوا أَنْيَابَ الْقَنَا نَظَرُ الضَّرَاغِمِ مِنْ عُيُونِ جَادِرِ

(١) نفسه و ١٨١، ١٠٣، ١٦٠

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٣٦

(٣) ديوان الابله و ١٠٣

(٦) بمصميات: من أصمى: أصاب مقتلاً.

(٣) الخريدة ٤/ ٢٠٥

(٥) نفسه و ١٥١

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ١١٥٩

اصمى الكُماة بمَقْصِدٍ مِنْ كَفِّهِ وَرَمَى الْقُلُوبَ مِنَ اللَّحَاطِ بِعَائِرٍ^(١)
وقوله:

مِنْ كُلِّ مَنْ لَوْ كَانَ يُنْصِفُ لَا كَتَفَى بلحاظه من ذابل وحسام
يصمى الرِّمَّةَ رَاشِقاً مِنْ كَفِّهِ طوراً، ومن أجفانه بسهام
غُلِبَ، وَلَكِنْ فِي الْمَغَافِرِ^(٢) مِنْهُمْ حَدَقُ^(٣) الْمَهَاوِسَّ الْآرَامِ^(٤)
هَذَا يَكُرُّ بِذَابِلٍ مِنْ قَدِّهِ لَذِنْ، وَهَذَا بِاللَّوَاظِ رَامِ^(٥)

ولعل أول ما نبئت من لحية الغلام أو ما سمي بـ «العدار» هوفتة العصر الكبرى التي تبارى الشعراء في ذكرها، حتى تعدى الأمر مقدمات المدائح والمقطوعات المستقلة عن المدح إلى نظم أبيات أو مقطوعات خاصة في العذار ومعانيه كما فعل الحظيري في الأبيات العذاريات^(٦).

ومن المرجح أن موجة العذار هذه، قد شملت الخاص والعام، والجاد والهازل هي التي أوحى لابن قزمي^(٨) أن يختم بذكره إحدى مقطوعاته الغنائية، وهي التي أولها:

مَدَامِعُهُ تُفَرِّقُ وَأَنْفَاسُهُ تُحْرِقُ

قال في آخرها:

وَكَاتِبُ خَطِّ الْعِدَا رٍ فِي خَدِّهِ يَمْشُقُ^(٩)

ويعد سبط ابن التعاويذي والابله البغدادي وأبو المعالي الحظيري، أشهر من لهج بذكر العذار ونعته بين شعراء القرن السادس قاطبة.

أما الشاعران الأول والثاني، فقد رددا ذكر العذار والتغزل به في مقدمات قصائد المديح، وقد يكون لهذا الذكر علاقة برغبات بعض الممدوحين، وأثر ذلك في جائزة الشاعر. وقد اتفق الشاعران في هذه المقدمات على القول بأن عذار الغلام المتغزل به، هو سبب الفتنة وطليلة المصيبة.

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٩، العائر: السهم الذي لا يدري رامي.

(٢) المغافر: واحدها مَغْفَر وهو زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة.

(٣) المها: واحدها مَهَاء وهي البقرة الوحشية.

(٤) السوالف: مفردها سَالِفَة: صفحة العنق.

(٥) الآرام: مفردها رُثَم: الظبي الأبيض.

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٨٠

(٧) الخريدة ٣٣/٤

(٨) أنظر: الفصل الثالث (الغزل المغني).

(٩) الخريدة ٣٣٦/٢

قال ابن التعاويذي :

يَغْضَبُ إِنْ شَبَّهْتُهُ بِالْبَدْرِ عِذَارُهُ إِلَى الْعَذُولِ عُذْرِي^(١)
وقال :

أَقُولُ لِمَنْ لَامَنِي فِي هَوَاهُ رُويِدًا، فلي في عِذارِيهِ عُدْرُ^(٢)
وقال الأبله :

وَحَطَّ فَوْقَ الْوَرْدِ مِنْ خَدِّهِ آسَى عِذَارٍ أَوْضَحَ الْعُذْرَا^(٣)
وقال ايضا :

لَهُ عِذَارٌ مُذْ بَدَا نَبْتُهُ أَقَامَ لِي فِي الْحُبِّ أَعْذَارَا^(٤)
ومن المبرج ان الجمع بين العذار في امثال هذه الابيات ، يحقق هدف الشاعر في الوصول الى الجناس ، وهو من محسنات البديع التي راجت وشاعت في هذه الفترة^(٥) .
وفي مجال الموازنة بين ابن التعاويذي والابله في هذا الموضوع ، يبدو الابله مندفعاً جريئاً اكثر من زميله ، وربما غير مبال باصحاب الاخلاق ، لانه يقول :

حَاشَ لِي لَا أُرِي خَلِيعَ عِذَارٍ فِي هَوَى مَنْ لَهُ عِذَارٌ جَدِيدُ^(٦)
ويقول :

لَهُ جَدِيدُ عِذَارٍ خَلَعْتُ فِيهِ الْعِذَارَا^(٧)

ومن الطبيعي بعد ان وجدنا ابن التعاويذي والابله يتفقان حيناً في موضوع العذار ، اقول من الطبيعي ان نجد ههما يختلفان حيناً آخر حول جوانب جديدة من الموضوع ذاته . اما الابله فقد انفرد عن زميله بالحاحه على تشبيه العذار بحرف اللام ، وهو ما لم اعثر عليه في ديوان ابن التعاويذي .

قال الأبله :

وَعِذَارُكَ اللَّامُ الَّذِي مُذْ لَاحَ لَاحَ وَقَامَ عُدْرِي^(٨)

وقال :

فِي مِثْلِ خَطِّ عِذَارِهِ ذَاكَ الَّذِي كَاللَّامِ حُسْنًا تَعْدِرُ اللَّوَامُ^(٩)

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٧٩

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨٢ ، وانظر ايضا ص ٣٣٣ ، ٩٩

(٣) ديوان الابله و ١٥٠

(٤) نفسه و ١٥٤ ، وانظر ايضا و ٢٢ ، ١٦٠ ، ١٧٣ (٥) انظر الدراسة الفنية في آخر هذه الرسالة .

(٦) ديوان الابله و ٢٣ (٧) نفسه و ١٥١

(٨) نفسه و ١١٧ (٩) نفسه و ١١٨

وقال ايضا:

على لامي عذاريه غدا اللائم لي عاذر^(١)

اما ابن التعاويذي فقد اختلف عن زميله بافتتانه - كما سبق ان اشرت - بجمال الجند الاتراك، ولذلك راح يوجد للعذار عند هؤلاء الجند «تشبيهات عسكرية» اذا صح التعبير، كأن يقول: ان زرد الدروع عند هؤلاء الجنود تحته زرد آخر هو زرد العذار:

أغيد^(٢) مصقولة ترائبه^(٣) أين الكمي الكرار والغيد؟
يحيد تيهأ الى فريسته واليئ ما في صفاته حيد
من زرد محكم براقهه وتحتها من عذاره زرد^(٥)

وقال:

من ليوث الشرى^(٦) اذا دارت الحر ب، وفي السلم من طباء الخدور
فالعذار الطير^(٧) في خده أف تك من حد سيفه المظور^(٨)

وقال:

كالطبي مصقول العذار له اذا اع ترك الفوارس وثبة الصرغام^(٩)

ويبدو لي ان ابن التعاويذي - لفرط حرصه على الاشادة بجمال الجنود - لم يعد يأبه للكلمات العربية ودلالاتها، فقد صار همه ان يقول شيئا جميلا أو جديدا عن ظاهرة ملكت عليه حواسه، ولا يهمه بعد ذلك غضب اهل اللغة وصراخهم، اقول هذا لانني لا اعرف كيف يكون للعذار زرد؟ وكذلك لا احسب رجال اللغة يوافقون على وصف ابن التعاويذي للعذار بأنه «مصقول».

اما الحظيري فقد عبر عن سبعة معان للعذار لم ترد في شعر زميله ابن التعاويذي والابله، وخصص بيتين أو ثلاثة للتعبير عن كل معنى، وبذلك اصبح مجموع ابياته العذاريات سبعة عشر بيتا.

ومن المألوف ان الغزل بالمذكر - مثل شعر الخمر - شديد العلاقة بالمجون والخروج

(٣) الترائب: واحدها تريبة: أعلى الصدر.

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ١٥٤

(٧) الطير: المحدد كالسنان.

(٩) نفسه ص ٢٨٠

(١) نفسه و ١٨١

(٢) أغيد: من الغيد: النعومة.

(٤) يحيد: يميل.

(٦) الشرى: مأسدة.

(٨) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٥

على القيم والاعراف الاجتماعية، بل ان الغزل بالمذكر يكاد يكون هو المجون بعينه، ولذلك جاء معنيان من معاني العذار السبعة عند الحظيري ماجنين خليعين، وهما اللذان شبه فيهما العذار بالدجى مرة وب اللجام في المرة الثانية^(١).

اما ابتعاد ابن التعاويذي والابله عن المجون في غزلهما بالمذكر، فسببه أن غزلهما كان في مقدمات قصائد المديح، وهو غرض شعري له تقاليد واعراف لا تسمح للشاعر بالانحراف. والحظيري لم يكن يمدح احدا حين نظم معانيه، ولذلك ارسل نفسه على سجيته.

اما بقية معاني الحظيري - غير المعنيين الماجنين - فقد شبه فيها العذار بجسر من الشعر، وبالظلمات، وبالنمل، وبنقش فصوص الخواتم، وبنقطة من عثرة القلم^(٢).

قال مشبها العذار بالنمل:

قالوا: التحى فاصبُ الى غيره قلتُ لهم: لَسْتُ إِذْنُ أَسْلُو
لو لم يكن مِنْ عَسَلٍ ريقُهُ، ما دَبَّ في عارضِهِ النَّمْلُ

وقال في التشبيه بـ نقش فصوص الخواتم:

ومُهْفَهْفٍ^(٣) شَبَّهَتْهُ شَمْسُ الضُّحَى في حُسْنِ بَهْجَتِهَا وَبُعْدِ مَكَانِهَا
قد زَادَهُ نَقْشُ الْعِذَارِ مَحَبَّةً نَقْشُ الْفُصُوصِ يَزِيدُ في أَثْمَانِهَا

المجون والسخف:

اذا زاد الشاعر في هجائه وغزله وفي شعر الخمر على الحدود المسموح بها خلقيا سمي هذا النوع من الشعر مجونا او فحشا او إحماضا أو هزلا.

ولكن ملازمة المجون للهجاء والغزل بالمذكر والخمريات، لا تعني ان هذا الضرب من الشعر لا يوجد في سواها. فقد يعبر الشاعر عن معان ينفر منها الذوق السليم وتأباها الاخلاق الكريمة، فيكون شعر الشاعر - بسبب رداءة الموضوع مجونا، كقول ابن التعاويذي:

لم يَبْقَ لي في هَوَى الْعَوَانِي مُنْذُ تَقَضَّى الصِّبَا طَمَاعَهُ
أَعْرَضَنْ عَنِّي، فَكُنْتُ قِدْمًا فِيهِنَّ ذَا إِمْرَةٍ مُطَاعَهُ

(١) الخريدة ٣٣/٤ - ٣٤

(٢) الخريدة ٣٣/٤ - ٣٥

(٣) المهفف: الضامر البطن الدقيق الخصر.

خَلَعْتُ نَفْسِي مِنَ التَّصَابِي ما لِأَخِي الشَّيْبِ وَالْخَلَاعَةِ؟
 أَنْكَرَنَ مِنِّي شَيْباً وَعُدْماً ولا بِضَاعٍ ولا بِضَاعَةً^(١)
 وقوله:

قَوَادَةٌ فَارِهَةٌ لَطِيفَةُ التَّوَصُّلِ
 تَهْوِي^(٢) إِلَى أَغْرَاضِهَا مِثْلَ هَوِيٍّ الْأَجْدَلِ^(٣)
 لَوْ شَهِدْتُ صِفِينَ أَوْ وَقَعَةَ يَوْمِ الْجَمَلِ
 تَوَصَّلْتُ فِي الصُّلْحِ مَا بَيْنَ ابْنِ هِنْدٍ^(٤) وَعَلِي
 وَأَصْبَحْتُ عَائِشَةً عَنْ حَرْبِهِ بِمَعْزِلٍ^(٥)

وأكد أجزم أن موضوع هذه المقطوعة الأخيرة، لم يجزء شاعر في العصر العباسي على طريقته، على الرغم من أن شعراء هذا العصر هم السابقون إلى ضروب من شعر السخف لم تخطر ببال سواهم^(٦)، وأكد أجزم أيضاً أن شاعر القرن السادس تبع عمر بن أبي ربيعة في قوله:

وَأَنْتَهَا طَبَّةٌ مُحْتَالَةٌ تَمْرُجُ الْجَدُّ مِرَاراً بِاللَّعْبِ
 تَرْفَعُ الصَّوْتَ إِذَا لَأَنْتَ لَهَا، وَتُرَاجِي عِنْدَ سَوَارِثِ الْغَضَبِ
 وَهِيَ، إِذْ ذَاكَ، عَلَيْهَا مِثْزُرٌ وَلَهَا بَيْتُ جَوَارٍ مِنْ لُعْبِ
 لَمْ تَزَلْ تَصْرِفُهَا عَنْ رَأْيِهَا، وَتَأْتَاهَا^(٧) بِرَفْقٍ وَأَدَبٍ^(٨)

ان التعرض لموضوع كالمجون في القرن السادس، لا بد أن يحمل الباحث على الشك فيما أوردته مصادر الفترة الرئيسية ومنها خريدة القصر للعماد الاصبهاني ووفيات الاعيان لابن خلكان وذيل تاريخ بغداد لابن الدبيشي، لان نعت شاعر ما بأنه ماجن أو خليع أو انه عرف بشعر الهزل - كما فعلت تلك المصادر - يوحي للباحث بمجموعة من الافكار تغاير

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٦٩

(٢) تهوي: تَنَقَّضَ.

(٣) الاجدل: الصقر.

(٤) ابن هند: معاوية بن أبي سفيان.

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٦٠، وانظر أيضا الخريدة ٦٩/٢

(٦) انظر: يتيمة الدهر عن ابن سكرة وابن خجّاج وغيرهما من شعراء القرن الرابع.

(٧) تأتاهها: أي تأتيها مترفقة.

(٨) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٢٩

تماما ما يوحيه تجريد الشاعر من هذه الصفات والنعوت، لا سيما ونحن لا نملك مجموعات كاملة او حتى شبه كاملة لشعر أولئك الشعراء - باستثناء ابن التعاويذي والابله - ولذلك لا مفر من الاعتماد على ما يقوله المؤرخون.

١ - ان شاعرا كبيرا كابن التعاويذي، لم يشر احد اطلاقا الى انه خليع او ان له شعرا يضعه في مصاف الخلعاء وربما في طليعتهم، ولكن ديوان الشاعر - وهو مطبوع متداول - يوحى بان الرجل يختلف تماما عما صورته مؤرخونا سامحهم الله، ولا يتفق ابدا مع مكانته الجليلة في كتبهم.

ان التنقيب في زوايا ديوان الشاعر وتببع تلك الاهداجي التي ضمها بين دفتيه^(١)، لا بد أن يقنع الباحث باستحالة كون ابن التعاويذي صاحب الديوان هو نفسه الذي بالغ المؤرخون في الثناء عليه، وقال عنه ابن خلكان: ان شاعرا لم يظهر مثله منذ مئتي سنة^(٢). ولعل المستشرق مارجليوث، ناشر ديوان الشاعر وجامعه، قد تجاوز على اصول النشر والتحقيق حين اسقط «بعض ابیات» من مقطوعة^(٣) له في هجاء ابن المعلم زميله، سبق ان نص صاحب وفيات الاعيان على بذاءتها^(٤).

ولست اشك ان بعض المعاني والالفاظ التي اوردها ابن التعاويذي في اهاديه لا يرددها الا السوقه من عامة اهل بغداد حين يشتم بعضهم بعضا.

ولعل السؤال المهم هنا هو: اذا كانت اهادي الشاعر بهذا الشكل، وقد اشرف على جمع ديوانه بنفسه^(٥)؟ فكيف كان هجاؤه قبل ان يعيد الشاعر النظر في ديوانه؟ وكم عدد المقطوعات والأبيات التي اسقطها أو غيرها؟

٢ - والشاعر الثاني الكبير الذي لم يلحح القدماء الى اتجاهاه وجهة سخيقة في طائفة من شعره، هو الابله البغدادي. قال عنه صاحب الخريدة - بعد ان اثنى على جودة شعره -: وله مذهب في الهجوم مطبوع، ومنهج في القلب مسلوک متبوع^(٦). وهي عبارة توحى بان الابله قد ابتكر طريقة في الهجاء طريفة، لا يملك المرء الا أن يعجب بها. وبالرجوع الى ديوان الشاعر، وجدت له (٢٠) مقطوعة، ليست من الهجاء، او بعبارة اخرى: ان معظمها من الكلام الفاحش البذيء، المشحون بذكر العورات والقذارات التي تزكم الانوف^(٧)، فهل

(١) انظر الديوان ص ١٥، ٦٢، ٧٥، ٧٧، ٩٧، ١٤٢، ٢١٨، ٢٤٧، ٤٨٠

(٢) وفيات الاعيان ٩٠/٤

(٣) الديوان ص ٧٥

(٤) وفيات الاعيان ٩٨/٤

(٥) انظر مقدمة الديوان المطبوع ص ١١

(٦) الخريدة/ نسخة ايران ١٦٠

(٧) ديوان الابله و ١٨٩، ١٩٠، ١٨٨، ٦٦، ٦٣، ٤٤، ٥٥، ٥٠، ٤٥

هذا المجون هو مذهب الابله «المطبوع» في الهجاء؟
وقد يقال ان صاحب الخريدة ربما اراد تلك المقطوعات الخالية من الاقذاع
والفحش. والجواب ان امثال هذه المقطوعات، قليلة جدا، لا تكون مذهبا، من ناحية،
وحظها من الشاعرية والفن قليل، من الناحية الثانية. ومن امثلتها
قول الابله:

أَفْسَمْتُ لَوْ مَاتَ مَحْمُودٌ، وَلَمْ يَغْسِلُهُ إِلَّا بِمَاءِ الْوَرْدِ غَاسِلُهُ
وَمُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ سَائِلَانِ لَهُ عَمَّا جَنَى، وَهُوَ قَبْلَ الْمَوْتِ فَاعِلُهُ
وَأَقْعَدَاهُ وَفَاحَتْ رِيحُ نَكْهَتِهِ وَكَيْفَ يَبْقَى، وَذَاكَ الدَّاءُ قَاتِلُهُ؟
عَادَى إِلَى اللَّهِ بَلْ عَادَى وَقَوْلُهُمَا: إِبْعَثْ إِلَيْهِ سِوَانَا مَنْ يُسَائِلُهُ^(١)
وقوله يهجو شريف الرَّحْبَةَ^(٢):

لَهُ يَدٌ يَابِسَةٌ فِي النَّدى وَمُقْلَةٌ - لَا نَظَرَتْ - رَطْبَةً
لَا يَأْكُلُ اللَّقْمَةَ مَعَ عَرْسِهِ فِي الدَّارِ حَتَّى تَدْخُلَ الْقُبَّةُ
يَقُولُ: إِنِّي هَاشِمِيٌّ، وَهَلْ يَصْدُقُ مَنْ لَيْسَتْ لَهُ نِسْبَةٌ؟
وَمَالُهُ - إِنْ رُمْتُ تَعْرِيفُهُ - أَبٌ وَلَا أُمٌّ سِوَى الرَّحْبَةِ
عَلِمْتُ فِي هَجْوِي لَهُ أَنَّهُ إِلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى قُرْبَهُ^(٣)

وبعد: فلعل الذين اهتموا بأدب القرن السادس لوقالوا: ان سبط ابن التعاويذي والابله
البغدادى ليسا بعيدين كثيرا عن ابن الرومي في الهجاء، اقول لو ان مؤرخينا أضافوا هذه
العبرة الى ما كتبوه، لا يقتن انهم منصفون، وانهم مطلعون فعلا على ديواني الشاعرين.

ان تيار السخف في الشعر العربي، وقد بلغ الغاية ايام بني بويه في القرن الرابع على يد
ابن سَكْرَةَ وابن الْحَجَّاج^(٤)، هذا التيار استمر في القرن الخامس حتى قال الدكتور علي جواد
الطاهر: ان لديه من النصوص في هذا الموضوع ما يكفي لكتابة فصل^(٥). وكان شيخ
السخفاء في القرن الخامس ابن الهُبَّارِيَّة، وقد سار على نهج ابن الحجاج «وسبك في قلبه،
وسلك اسلوبه وفاقه في الخلاعة والمجون»^(٦).

(١) ديوان الابله و ٦٤

(٢) الرحبة: في معجم البلدان ٢٣٤/٤ انها اسم لاكثر من مكان، فهناك رحبة بحداء القادسية ورحبة قرية من صنعاء اليمن،
ورحبة خالد بدمشق. ولست أدري أية رحبة أراد الشاعر.

(٣) ديوان الابله و ١٨٧

(٤) الشعر العربي ١٢٨/٢

(٥) ينظر «الأدب في ظل بني بويه».

(٦) الخريدة ٧٠/٢ - ٧١

اما في القرن السادس فقد اشتهر بالسخف كل من : ابي المعالي الحَظيري الوراق^(١) والحسن بن احمد بن حَكِينَا^(٢)، وعلى بن أَفْلَح الكاتب^(٣)، وابو الفرج العلاء بن علي الواسطي المعروف بابن السَّوَادِي^(٤)، وابو الحسن علي بن الحسن المعروف بِشُمَيْمِ الحَلِي المتوفي سنة ٦٠١ هـ^(٥)، وانوشروان الضرير الشاعر المعروف بشيطان العراق^(٦)، وابو القاسم هبة الله بن الحسين البديع الاسطرلابي^(٧) .

ولكن هذه الوفرة في عدد الشعراء ، تقابلها شحّة في كمية النصوص التي وصلت الينا ، وهكذا ليس بوسع الباحث الا ان يكتفي بسرد الاسماء .

اما اسباب هذه الظاهرة فقد ذكرتها في مكان آخر من هذه الدراسة^(٨) .

(١) نفسه ٤/ ٣٧ ، ٥١

(٢) المختصر المحتاج إليه ١/ ٢٧٥ - ٢٧٦

(٣) الخريدة ٢/ ٥٣

(٤) وفيات الاعيان ٣/ ١٥٠

(٥) نفسه ٣/ ٢٦

(٦) نكت الهميان ص ١٢٢

(٧) وفيات الاعيان ٥/ ١٠١

(٨) انظر: الفصل الثالث: الهجاء.

الفصل السادس الدراسة الفنية

١ - اللفظ والمعنى :

مرت بنا فصول طوال ونماذج كثيرة من شعر العراق في القرن السادس شملت أغراضا مختلفة من مدح وهجاء وغزل ورناء ، وعلى ضوء ما تقدم يمكن القول بأن الصفة الغالبة على الفاظ الشعر ومعانيه هي الوضوح الشديد والبعد عن التعقيد بنوعيه اللفظي والمعنوي^(١) ، فلا يحتاج القارئ المتوسط الثقافة الى اجتهاد فكر أو مراجعة معجم او كتاب من كتب اللغة ، ليدرك ما يعبر عنه الشعراء .

لقد هجر الشعراء الالفاظ الغريبة التي لا يعرفها الا خاصة العلماء ومالوا الى التعبير عن معانيهم باقرب الالفاظ واسهلها ، كذلك ليس بين شعراء العصر الكبار من اولع بالفلسفة والمنطق او ما سمي بعلوم الاوائل ، بل ان دراسة هذه العلوم والميل الى مصنفاتها واخبار رجالها ، كان من المحرمات في الفترة التي ادرسها^(٢) ، ولذلك لا نعجب اذا رأينا معظم الشعراء ينظمون اشعارا خالية من المعاني والافكار التي لا يمكن التوصل اليها الا بعد جهد جهيد .

ومع طول الفترة ، وكثرة الشعراء ، وتبيان اساليبهم ، لا بد من استثناءات :

أ- ان اساليب الشعراء - وخاصة الكبار منهم - تتباين تباينا شديدا بين غرض وآخر . انهم يبدون اهتماما ملحوظا ، فيجودون اشعارهم ويختارون لها الالفاظ والمعاني والاساليب التي تليق بكبار الشخصيات الذين يمدحونهم طمعا في الحصول على اكبر الجوائز وأسخاها ، ولكن هؤلاء الشعراء انفسهم يخفقون اخفاقا شديدا ويعجزون حتى عن النظم المتناسك لا الجيد حين يطرقون غرضا آخر . لا ينتظر منه جائزة ، ولا يراد منه الحصول على اعجاب احد ، كالغزل على سبيل المثال

(١) لفظ السائر ص ١١٤ وما بعدها (الط . البهية) . (٢) انظر : الفصل الاول من هذه الرسالة ص ٣١ .

ان ابن' التعاويذي - مثلاً - يتغزل في مقدمات المدائح، فيحسن ويجيد، ويشد اليه الاسماع والقلوب شداً، حتى اذا جئنا الى مقطوعاته في الغزل المستقل عن المدح، كدنا ننكره، فليست هناك من صلة بين هذا الغزل المتكلف الهزيل، وبين مقدمات المدائح، وما فيها من شاعرية تلفت النظر، وتأخذ بمجامع الافئدة. تأمل هذه المقطوعة من غزله:

لَوْلَا نَ قَلْبُكَ فِي الْهَوَىٰ ^(١) لَرَنَيْتَ لِي مِنْ لَوَعَةِ الْحُبِّ
لَكِنْ قَسَوْتُ فَمَا رَنَيْتَ لِي فِي كَمَدٍ وَلَا تَحْنُو عَلَى صَبٍّ
يَا مَنْ أَوَصِلُهُ عَلَى مَلَلٍ فِيهِ، وَيَهْجُرُنِي بِلَا ذَنْبٍ
يُذَكِّي ضِرَامَ الشُّوقِ فِي كَيْدِي وَيَذَوْدُنِي عَنْ رَيْقِهِ الْعَذْبِ
كُنْ كَيْفَ شِئْتَ، فَمَا أَمِيلُ إِلَى عَذْلٍ، وَلَا أَصْغِي إِلَى عُتْبٍ
هَيْهَاتَ أَطْمَعُ فِي السُّلُوِّ وَقَدْ أَخَذَ الْهَوَى بِمَجَامِعِ الْقَلْبِ
أَوْ أَنْ أُنَالَ عَلَى الْبِعَادِ رَضَى مَنْ كَانَ يَسْخَطُ بِي عَلَى الْقُرْبِ ^(٢)

قارن هذا الغزل بأية مقدمة من مقدمات مدائحه، فستجد البون شاسعاً والشعر متبايناً من جميع النواحي: اللغة، والخيال، والعاطفة، والفكرة، حتى يحار المرء، ويتساءل: لم اثبت الشاعر امثال هذه المقطوعة في ديوانه، ما دام قد اشرف على جمعه بنفسه ^(٣)؟

ب - ان ميل الشعراء عموماً الى الالفاظ الواضحة السهلة، يجب أن يستثنى منه المدرسة البدوية، او مدرسة الحيص بيص، فقد كان هؤلاء خارجين على طابع العصر العام، وصفاته الاسلوبية البارزة، كما سبق ان اوضحت ^(٤).

ج - يمكن القول ان الشعراء كانوا يقسمون مدائحهم بحسب اقدار الممدوحين ومكانتهم الاجتماعية، فلا يصح ان يكون الاسلوب المتبع في مدح الخليفة هو نفسه الذي يصطنعه عند مدح السلطان السلجوقي او احد الوزراء ممن لا يكاد يعرف العربية.

كذلك يلاحظ ان مدائح الخلفاء تميل - بصورة عامة - الى الاسلوب البدوي القديم، فيكثر الشاعر من وصف حياة الاعراب، ويلجأ الى الالفاظ الجزلة، والمعاني البدوية، والخيال المشحون بروح الصحراء ورمالها وجمالها، وفي امثال هذه القصائد نفتقد الالفاظ

(١) ليس في هذا الشطر سوى تفعيلتين من تفعيلات الكامل الثلاث، ولعل الكلمة الساقطة هي (شغفا). ولم يشر محقق الديوان الى

هذا النقص.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٥٢.

(٣) انظر: مقدمة الديوان المطبوع.

(٤) انظر: الفصل الثاني، شيوخ المحافظين ص ٥٢ وما بعدها.

السهولة اللينة، والمعاني الواضحة القريبة المأخذ، لان الشاعر يحسب الف حساب لعلماء اللغة والنحو، وكبار المثقفين المحيطين بالخليفة عادة، ولذلك لا بد من التمييز، من ناحية الالفاظ والمعاني، بين مدائح الخلفاء، ومدائح سواهم من كبار الشخصيات.

قال ابن التعاويذي يمدح المستضيء بأمر الله:

زَفَرَاتُ وَجِدٍ مَا يَبُوحُ ^(١) ضِرَامُهَا	وَمَدَامُ مُنَاصِرُ ^(٢) تَسْجَامُهَا
وَهَوَى يُمَاطِلُ بِالْقَضَاءِ غَرِيمُهُ	وَصَبَابَةُ مَا يَسْتَفِيقُ غَرَامُهَا
لَيْتَ الْبَحِيلَةَ يَهْتَدِي لِي طَيْفُهَا	إِنْ كَانَ لَا يَهْدِي إِلَيَّ سَلَامُهَا
بِيضَاءُ مَا عَرَفَ الْحِفَافَ وَدَادُهَا	يَوْمًا، وَلَا صَحَبَ الْوَفَاءَ ذِمَامُهَا
يَنْصُيْ عَنْ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ ^(٣) رِدَاؤُهَا	وَيُمَاطُ عَنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ لِثَامُهَا
تَثْنِي ^(٤) تَثْنِيهَا عَزَائِمَ سَلَوْتِي	وَيُقِيمُ عُذْرِي فِي الْغَرَامِ قَوَامُهَا

.. الى ان يقول:

أَتَعُودُ أَيَّامِي بِرَامَةٍ بَعْدَمَا	سَكَنْتُ بِجَرْعَاءِ ^(٥) الْحِمَى آرَامُهَا
وَأَحْلَهَا الْبَيْنَ الْمُشْتُ مَحَلَّةً	بَعِدْتُ مَرَامِيهَا وَعَزَّ مَرَامُهَا
سَارَقَتُهَا نَظَرَ الْوَدَاعِ فَمَا ارْتَوَتْ	نَفْسُ يَزِيدُ عَلَى الْوُرُودِ هَيَامُهَا ^(٦)

... الخ^(٧).

ان اللغة والاسلوب في هذه القصيدة، يختلفان اختلافا كبيرا عما يتخذه الشاعر عن لغة واسلوب عند مدح غير الخليفة، كقوله في مجد الدين ابن الصاحب:

جَدَّ بِقَلْبِي وَمَزَحَ	ظَيُّ مِنَ التُّرْكِ سَنَحَ
مُعَذَّرٌ قَدْ بَانَ عُذُّ	رِي فِي هَوَاهُ وَأَتَضَحَ
مُسْلَطٌ عَلَى الْقُلُوبِ	بَ مَا يُبَالِي مَا اجْتَرَحَ

(١) يبوخ: يبرد.

(٢) مناصر: ينصر بعضه بعضا، يريد أن الدامع لا تكاد تنقطع.

(٣) الليل البهيم: الذي لا ضوء فيه إلى الصباح.

(٤) كذا بالأصل، والصواب يثنى مطابقة للفاعل (تثنيها).

(٥) الجرعاء: زملة مستوية لا تثبت شيئا.

(٦) الهيام: أشد العطش.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٠٧ - ٤٠٨

يُمْسِي مُطَلًّا^(١) مَا أَرَا قَ وَجُبَارًا^(٢) مَا جَرَحَ
كَأَيَّ عَهْدٍ وَدَمٍ عَلَى يَدَيْهِ لَمْ يُطَحْ
ضَنَّ فَمَا يَسْمَحُ بِالْ وَصَلٍ وَلَوْ شَاءَ سَمَحَ

.. الخ^(٣).

ان القارئ لا يحتاج الى ذكاء شديد ليدرك الفرق الشاسع بين المقطوعتين من ناحية اللغة، وكذلك من ناحية الاسلوب.

لقد اجاد الشاعر في تخير اللغة والاسلوب المناسب لكل ممدوح، فالخليفة تعمد ان يختار له الالفاظ الجزلة الفخمة ذات الجرس القوي: ببوخ، ضرام، تسجام، رامة، جرعاء الحمى.. كذلك تعمد الشاعر ان يختار وزنا موسيقيا فيه وقار وهيبة، وهو الكامل لقصيدة الخليفة، على حين اختار بحرا مرحا خفيفا هو الرجز للقصيدة الثانية، مع التأكيد على القافية التي تناسب كل حالة يريد الشاعر ان يعبر عنها: فالميم المضمومة تليها الهاء والالف هي التي تناسب مقام الخليفة ومنزلته، لان الشاعر او القارئ مضطر على تفخيم النطق وذل لفهم بصوت الميم المضمومة، على حين جاءت الحاء الساكنة من القصيدة الثانية خير تعبير يوحى بالجو المرح المتحضر المترف الذي تعبر عنه القصيدة.

وقال ابن التعاويذي يمدح الناصر لدين الله.

يَا عَلُوْاْ اَغْرَيْتِ الشُّهَادَ بِنَاطِرِي وَرَقَدَتِ عَنْ لَيْلِ الْمُحِبِّ السَّاهِرِ
مَاذَا يَضُرُّكَ لَوْ سَمَحْتَ عَلَى النَّوَى بِمُرُورِ طَيْفٍ مِنْ خَيَالِكَ زَائِرٍ؟
كَمْ قَدْ رَكِبْتُ إِلَيْكَ أخطَارَ الهَوَى أَفَمَا يَمُرُّ لَكَ الْوِصَالُ بِخَاطِرٍ؟
هَلْ أَنْتِ يَا لَمِيَاءَ ذَاكِرَةٌ عَلَى شَحَطِ النَّوَى عَهْدَ الْوَفَى. الذَّاكِرُ؟
أَضَلَلْتُ بَعْدَكُمْ الرُّقَادَ، فَمَا لِأَشْ جَانِي وَلَيْلِي بَعْدَكُمْ مِنْ آخِرِ
وَاطَلْتُمْ سَهْرِي، وَكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ مَرَّتْ بَوَصْلِكُمْ كِظْلًا^(٤) - الطَّائِرِ
حِجْرًا^(٥) عَلَى الْأَجْفَانِ أَنْ تَرَدَّ الْكَرَى مِنْ بَعْدِ أَيَّامِ الْعَقِيقِ وَحَاجِرِ

... الخ^(٦).

(١) مُطَلٌّ: مهدر، لم يثار له أحد.

(٢) جبار: هدر، لم يؤخذ بثأره.

(٤) كِظْل الطائر: مبالغة في قصر الليلة.

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٩٩
(٥) حجر على الأجفان: أي حرام عليها.

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٦ - ١٦٧، وانظر أيضا ص ٢٨٤

وهي قصيدة لا تكاد تختلف عن سابقتها ، فالبحر هو الكامل نفسه ، والاسماء البدوية التي يتعمدها الشاعر لتساعد على خلق الجو الصحراوي ، لا زالت هي هي ، فقد كانت في القصيدة السابقة «رامة» ، فاستبدلها الشاعر في هذه القصيدة بـ «العقيق وحاجر» ، مع المحافظة على الاسلوب الجزل المتين ، واللغة البعيدة عن اللبونة والسهولة ، باختيار الفاظ ذات حروف جرسها الموسيقي شديد صاخب : كالجيم : حجر ، الاجفان ، حاجز ، والطاء : شحط ، أطلتم ، الطائر ، اخطار ، خاطر . . .

وهكذا يدولي ان مذائح الخلفاء كانت تكتب بلغة واسلوب يختلف عن سواها ، بسبب مكانة الخليفة وثقافته المحافظة من جهة ، وكذلك بسبب حاشية الخليفة من علماء ونقاد كانوا يميلون الى القديم في العادة .

د - قال ابن رشيق في عمدته : «طبقات الشعراء اربع : جاهلي قديم ، ومخضرم وهو الذي ادرك الجاهلية والاسلام ، واسلامي ، ومحدث ، ثم صار المحدثون طبقات : اولى وثانية على التدريج ، وهكذا في الهبوط الى وقتنا هذا . فليعلم المتأخر مقدار ما بقي له من الشعر فيتصفح مقدار من قبله . . فاذا رأى انه ساقية الساقية ، تحفظ على نفسه ، وعلم من اين يؤتى ، ولم تغرره حلاوة لفظه ولا رشاقة معناه^(١) . . »

ان قول ابن رشيق هذا ، كان الدستور الذي تصرف على اساسه شعراء العربية حتى اواخر العصر العباسي ، بل وحتى عصر النهضة . لقد آمن الشعراء بان الاسلاف هم السابقون الى كل حسنة ، ولن تستطيع الاجيال التالية ان تكسر احتكار القدماء للشعر الجيد .

وشعراء القرن السادس آمنوا بتلك الحقيقة ووعوها ، ولذلك حاولوا ان يطوروا صناعتهم عن طريق العناية الشديدة باللفظ ، والمبالغة في دور الالفاظ في العمل الفني ، لان القدماء لم يحابوا الالفاظ على حساب المعاني ، بل نظروا الى الشعر على انه معنى بالدرجة الاولى . ولعل مقامات الحريري وما نالته من شهرة كانت السبب في كثير من الالعب اللفظية التي حملت على الشعر في هذه الفترة^(٢) .

ان القارئ منا يدهش حين يجد العماد الاصفهاني يكيل الثناء كيلا لقطعة أدبية ، لمجرد انها خالية من النقط ، فيقول عنها : سلمت من التكلف وخلصت من التعسف ، لا يتفق لاحد مثلها في فنها وسلامتها وحسنها ، وهي :

(١) العمدة ١/ ١١٣

(٢) الابيوردى ص ١١٤

صارم^(١) مَلُولًا كَدِيرًا وُدُّه
وأعطِ أموالَكَ سُؤالَها
وحَصِّلَ الحمدَ أَلَا كُلُّ ما
السُّودَّدُ المَالُ وَلَوْلَاهُ ما
أولادُ حَوَاءَ وهاد^(٢) ولو
ما أمدَحُ المَرءِ، ولم أدِرِ ما
ما مَسَّ حَرَّ الأصلِ عازٌّ ولو
كما صارمٍ مَحْمَلُهُ^(٣) دارِسُ^(٤)
كم وِرْعٍ، حَسَرَ أَكمامَهُ
ودَّمٌ لأهلِ الوُدِّ ما دَامُوا
ولو لَحَى الحُسَّادُ أو لَامُوا
حُصِّلَ - أَلَا الحمدَ - إعدامُ^(٥)
رامٌ أولو الأحوالِ ما رامُوا
سادُوا، وأهلُ العلمِ أعلامُ^(٦)
أسرارُهُ، والله عَلامٌ
عَلاه أَسْمالُ وأهدامُ^(٧)
وهو حُسامُ الحدِّ صَمْصَامٌ
للمكْرِ، وهو الصَّادُ^(٨) واللامُ^(٩)

ولست ادري كيف يوصف شعر كهذا بأنه «سلم من التكلف، وخلص من التعسف»، ولكن القوم لهم احكامهم واذواقهم، وقد الفوا وآمنوا - على ما يبدو - بأن الشعر صار ضربا من الرياضة الذهنية، وامتحانا لقدرة الشاعر على رص الالفاظ ليس غير.

وليست الابيات الخالية من النقط، هي الرياضة الذهنية الوحيدة التي مارسها بعض المتشاعرين، وانما هناك نموذج ثان قال العماد ان ابياته فى غاية اللطف والرقّة:

يا صاحِبِي اسعِداني على اللَّيْلِ الطَّوِيلِ
وعَلَّلاني مِنَ النَّسِيمِ العُلَّيلِ
ويا حُدَاةَ المَطَايا^(١٠) رَفِيقاً عَلَيَّ قُلَيْلِ
في هذه الدَّارِ قَلْبِي رَهْنٌ بِحُبِّ غَزِيلِ
أَسالَ دَمْعِي وألوى عَنِّي بِخَدِّ أُسَيْلِ

... الخ^(١١)

(١) صارم؛ ابتعد عن.

(٢) اعدام؛ أي لا خير فيه.

(٣) الاعلام؛ الجبال، واحدها عَلَم.

(٤) محمله؛ ظاهره.

(٥) الصاد واللام؛ أي جبل، وهو جنس من الحيات خبيث جدا.

(٦) الخريدة ٢٩٩/٤، وانظر ٢٦٤/٢ - ٢٥

(٧) المطايا؛ الدواب التي تركب.

(٨) الخريدة ٩/٤ - ١٠

وفي الخريدة نموذج ثالث، وهو قطعة نثرية لاحد القضاة، اذا عكست صارت شعرا^(١).

ومهما يكن فان اشهر الذين اولعوا بنظم قصائد أو اشعار الحروف هذه اثنان هما ابو المعالي سعد بن علي الحَظِيرِي، وابو السمع سعيد بن سَمرة الكاتب.

وقد نص العماد الكاتب على ان الثاني منهما «يحدو حدو الحريري في ترسله. وينسج على منواله. . . وانه نظم رسائل على حروف المعجم كل كلمة منها فيها الحرف الذي بنى الرسالة عليه، كرسالتي الحريري الشينية^(٢) والسينية^(٣). . .»^(٤)

وعلى الرغم من عدم اشارة احد الى ان الحظيري قد تأثر بالحريري واقتدى به، فقد لمح الصلاح الصفدي الى ذلك حين علق على ابيات اوردها للحظيري قائلا: واحسن منها قول الحريري في المقامة السادسة والاربعين:

أَعِدُّ لِحُسَادِكَ حَدَّ السَّلَاحِ وَأُورِدِ الْأَمِلَ وَرَدَ السَّمَاحِ^(٥)

وقد بذل الحَظِيرِي جهودا في اختراع العباب لفظية لم ترد في مقامات الحريري مثل الابيات التي وصفها الصفدي بأنها: تخرج الضمير من حروف المعجم وذلك ان كل بيت له عدد يخصه: فللاول واحد، وللثاني اثنان، وللثالث اربعة، وللرابع ثمانية، وللخامس ستة عشر. . . والابيات المذكورة هي قوله:

قُلْ لِهَذَا الْغَزَالِ إِنْ ظَلَّ يَجْنِي	أَنَا أَضْنَى إِنْ خُتِنِي لِشَقَائِي
خَابَ صَبٌّ أَغْرَاهُ عَتَبُكَ فِي الْحُبِّ	ب، وَلَوْ ضَرَّةٌ بِزُورٍ ^(٦) بُكَاءٍ
صَلَّ خَلِيلِي حُثَّ السُّلَافِ ^(٧) إِلَى	كُلَّ شَقِيقِي قَضَى لِحَيْفِ ^(٨) الْجَفَاءِ
وَأَدِمَ دَمَ مَنْ يَضُدُّ وَمَنْ يُضُدُّ	مِرُّ زُهْدًا مِنْ سَايِرِ الْأَشْيَاءِ
وَأَمِطَ عَنْكَ ظِلْمَ كُلِّ غَنِيٍّ	عَنْكَ فِيهِ قِلَى ^(٩) لِأَهْلِ الْعَلَاءِ ^(١٠)

ومن مخترعات الحَظِيرِي ايضا: ابيات وصفت بأنها لا تنطبق فيها الشفتان:

(١) نفسه ٥٨٦/٤ - ٥٨٧

(٢) الرسالة الشينية كتبها إلى الشاعر طلحة النعماني، لما قصد البصرة، الخريدة ٦١٩/٤

(٣) الرسالة السينية كتبها على لسان بعض أصدقائه، يعاتب صديقاً له، أخل به في دعوة، دعا غيره إليها. . الخريدة ٦١٦/٤

(٤) الخريدة ٢٦٣/٢

(٥) الواقي بالوفيات ١٢٥/٨ «مصور».

(٦) الزور: الكذب.

(٨) لحيف: كذا بالأصل، ولم أعرف المراد منها.

(٧) السلاف: الخمر.

(٩) القلى: البغضاء.

(١٠) الواقي بالوفيات ١٢٥/٨ «مصور».

ها أنا ذا عاري الجِلْدُ أسهرني الذي رَقَدُ
 آهِ لَعِينٍ نَظَرْتُ الى غزالٍ ذي غَيْدٍ^(١)
 أَرَيْتَنِي يَا نَاطِرِي صَيْدَ الْغَرَالِ لِلْأَسَدِ
 إِنَّ الطَّبِيَّ لِهَجْرِهِ يا عاذِلِي هَدًى^(٢) الْجَسَدِ
 حَشَا حَشَايَ إِذْ نَأَى نَارَ الْغَضَا حِينَ شَرَدُ

... الخ^(٣).

ومن اختراعه أيضاً أبيات تقرأ على اربعة اقسام، وتقرأ عرضاً وطولاً وهي:

إِنَّ سُؤْلِي، بَدْرُ تَمْ، إِنَّ تَبَدُّا، وهو حَسْبِي
 يَا عَذُولِي، حِينَ وَلَى، وَتَجَنَّى، لا لِدَنْبِ
 مَارَرْتِي إِذْ، رَامَ هَجْرِي، وَجَفَّانِي، بَعْدَ حُبِّ

... الخ^(٤).

وقد يكون الحظيري من الذين حدثتهم انفسهم بالتفوق على نابغة البصرة^(٥)، ولذلك صنع طائفة من المقطوعات. وقد مرت نماذج منها. ليس لها مشابهاة في مقامات الحريري، ولكن عمل الحظيري هذا، على خلاف ما اراد، ينم على تأثره بالحريري، لان هذا الاخير هو صاحب الشهرة في هذا المجال، اصف الى ذلك ان بعض نماذج الحظيري في مقامات الحريري لها اشباه، كآبياته التي فيها حرف معجم وحرف غير معجم، وكذلك تلك التي في كل كلمة منها همزة:

بأبي أغَيْدُ أَدَابَ فُؤَادِي إِذْ تَنَاسَى وَأَظْهَرَ الْإِغْرَاضَا
 رَشَا يَأْلَفُ الْجَفَاءَ فَإِنْ أَقْدَ بَلْ أَبْدَى لِأَمْلِيهِ انْقِبَاضَا^(٦)

واما ابو السمع سعيد بن سمره الكاتب، فقد وصفه العماد بأنه: «سمع الخاطر، جواد القريحة، مجيب الروية، مصيب المعاني الرائقة، مجيد لنظم الكلم الفائقة^(٧)». وبعد هذه

(٢) هد: انحل وأنتك.

(٤) الوافي بالوفيات ١٢٤/٨ «مصور».

(٥) حاول القاضي الفاضل أيضاً مصالحة الحريري، ولكنه أخفق. الغيث المسجم ٣٤٥/١

(٧) الخريدة ٢٦٤/٢

(١) الغيد: النعومة.

(٣) الوافي بالوفيات ١٢٤/٨

(٦) الوافي بالوفيات ١٢٥/٨

النعوت التي يتوقع الباحث ان يكون صاحبها عند حسن الظن، اذا بالعماد يورد لابي السمع، فيما اورد له، قوله:

واِدَدْ دُوَادَا، وِرَاعِ ذَا وَرَعٍ وَدَارِ دَارَا إِنَّ زَاغَ أَوْ زَارَا
وَزُرَّ وَدُودَا، وَأَذِنَ ذَا أَدَبٍ وَدَزَّ ذَارَاهُ إِنَّ زَارَ أَوْ زَارَا

وقد نظمهما الشاعر لان بعض الصدور^(١) ساهم ان يعمل شيئاً على نحو هذا البيت:

زَارَ دَاوُدُ دَارَ أَرْوَى وَأَرْوَى ذَاتُ دَلٍّ إِذَا رَأَتْ دَاوُودَا^(٢)

وبعد: فان النماذج المتقدمة انما تدل على الدرك الذي هبط اليه بعض الناظمين في القرن السادس، حتى صار شعرهم اشبه برقى العقارب، كما قال ابن الاثير^(٣)، اصف الى ذلك ان المرء لم يعد يدري اجاد صاحب الخريدة ام هازل في تلك الصفات والنعوت التي خلعها - بلا حساب - على امثال ابي المعالي الحظيري وابي السمع الكاتب؟

٢ - الفارسية:

ان قرب العراق ومجاورته لايран جعل العلاقات بين الفرس والعراقيين تختلف اختلافًا كبيراً عن العلاقات بين ايران وای قطر عربي آخر، اصف الى ذلك ان الفرس شيعة منذ عهد بعيد^(٤)، و مرافد أئمة الشيعة تملأ المدن والقصبات العراقية، فصار الشيعة في العراق يشعرون بان الفرس اخوانهم في المذهب والعقيدة، ومن هنا صار كثير من العراقيين، ولا سيما سكان المناطق التي فيها مرافد الائمة، يجيدون اللغة الفارسية.

وفي القرن الرابع كان العراق اقليماً تابعاً للدولة البويهية التي كان مركزها في ايران، وقد طبع ملوك هذه الدولة على مسكوكاتهم كلمة «شاهنشاه» وهو لقب ملوك ايران قبل الاسلام^(٥).

ولا بد ان الشعور القومي لدى الفرس ظل ضعيفاً اذا ما قورن بالشعور الديني الاسلامي الذي يجمعهم مع العرب، ولا سيما في فترات قوة السلطة العربية في بغداد قبل القرن السادس، على الرغم من اشارات بعض المؤرخين الى ان «الهباء القومية منذ القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) وجهت الى اللغة العربية وادبها نقداً مريراً جائراً في اكثر الاحيان، وكان ذلك حرباً تشنها الشعوب الاسلامية غير العربية لاستعادة التقدير الذاتي

(١) الصدور: يريد بهم الأعيان أو الوجهاء.

(٢) المثل السائر ص ١١٦ (المط. البهية).

(٣) نفسه ص ١٠٥

(٤) الخريدة ٢/٢٦٦

(٥) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٩٨

لنفسها عن طريق القيم الأدبية التي اخذت تنتجها او تنكرها^(١).

ومن مظاهر الشعور القومي لدى الفرس، الفردوسي صاحب الشاهنامه ومساعدية لإعادة القومية الفارسية الى ما كانت عليه قبل الاسلام^(٢).

وقد اشار ابو الطيب المتنبي الى تعاظم نفوذ اللغة الفارسية في ايران حين قال من قصيدة:

ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللِّسانِ^(٣)

بل ان المستشرق بارتولد يشير الى ازدهار الأدب الفارسي في القرن الرابع واولئ القرن الخامس في القسم الشرقي من ايران خاصة^(٤).

ويبدولي ان الامور تطورت الى ما هو ابعد مما تقدم في القرن السادس، حين سيطر الاعاجم على الكثير من مرافق الحياة في عاصمة الخلافة بغداد، بحيث قل دور العنصر العربي في الادب والثقافة بصفة عامة^(٥).

وليس من المستبعد أن يكون العرب، أو بعض المثقفين منهم، قد شعر بهذا السيل الأعجمي واحس بان الامور تسير من سيء الى اسوأ، فدعا الى ضرورة الوقوف بحزم في وجه هذا التيار الخطر عن طريق بذل جهود مضاعفة للعناية باللغة العربية، واحياء تراثها، وبيان فضائلها ومزاياها، وتحبيبها الى الجيل الجديد.

وقد يكون تأليف كتب مثل «أسرار العربية» لكمال الدين عبد الرحمن بن الانباري المتوفى سنة ٥٧٧ هـ^(٦)، و«المُعَرَّب» لابي منصور موهوب بن احمد الجواليقي توفي سنة ٥٣٩ هـ^(٧)، الذي قال عنه ابن خلكان: «ولم يعمل في جنسه اكثر منه» اقول ربما كان صدور هذه الكتب من علماء العربية، يمثل مظهرًا من مظاهر الاتجاه الذي اشير اليه.

وفي الشعر، وخاصة في مدح الخلفاء، نجد اشارات قد تدل على التعصب للغة العربية، وهي ابيات يزعم فيها اصحابها - وهم يمدحون الخلفاء - ان شعرهم بدوي اعرابي، على الرغم من حياتهم في الحضر، كقول ابن التعاويذي:

عُرْباً أَنَسَابُهَا تَعْرِفُهَا مِنْ قَوَافِيهَا وَمِنْ أَوْزَانِهَا

(١) دراسات في الأدب العربي ص ٤٦ - ٤٧

(٢) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٠٣، حول الادب في العصر السلجوقي ص ١١٤

(٣) ديوان المتنبي/ شرح العكبري ٢٥١/٤

(٤) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٠٨ - ١٠٩

(٥) الادب في العصر الايوبي ص ٥٢

(٦) وفيات الاعيان ٢/ ٣٢٠

(٧) نفسه ٤/ ٤٢٦

بَدَوَاتٍ إِذَا حَاصَرَتْهَا فَاحَ عَرَفَ الشَّيْخُ^(١) مِنْ أَرْدَانِهَا^(٢)
وقوله:

بَدَوِيَّةٌ حَضْرِيَّةٌ، كَرُمْتُ مِنْهَا سِبْهَا - إِذَا انْتَسَبْتُ - عَنِ الْإِقْرَافِ^(٣)
وقوله:

بَدَوِيَّةٌ، حَضْرِيَّةٌ، فَاحُكُمْ لَهَا بِفَصَاحَةِ الْبَادِي وَلُطْفِ الْحَاضِرِ^(٤)
وقال الأبله البغدادي:

شَعْرٌ يَفُوحُ الشَّيْخُ مِنْ أَثْنَائِهِ عَبَقًا، وَمَا جَاوَزَتْهُ بَغْدَادُ^(٥)
وقال:

كُلُّ غَنَاءٍ الْقَوَافِي تَجْتَلَى فِي رِءَاءٍ مِنْ أَوْزَانِهَا
تَحْسَبُ الزُّورَاءُ^(٦) نَجْدًا كُلَّمَا فَاحَ عَرَفَ الشَّيْخُ مِنْ أَرْدَانِهَا^(٧)

ويغلب على الظن ان مدرسة الحيص بيص الشعرية، بكل ما عرفت به من ولع بالاساليب القديمة في الشعر، وشغفها بالمفردات التي لم يعد يعرفها الا خاصة العلماء في القرن السادس^(٨)، وكذلك لجاجة الحيص بيص نفسه في الفخر بانتسابه الى تميم في قسم كبير من ديوانه، مثل قوله:

فَلَا تَضْطَلُّوْهَا إِنَّهَا دَارِمِيَّةٌ مَوَاقِدُهَا هَامُ الْمُلُوكِ الْأَغَالِبِ
سَاضِرْمُهَا حَمْرَاءُ، يَنْزُو^(٩) شَرَارُهَا عَلَى جَنَابِ الْقَاعِ نَزَوُ الْجَنَادِ
بِكُلِّ تَمِيمِي كَأَنَّ قَمِيصَهُ يُلَاثُ^(١٠) بَغْضَنِ الْبَائَةِ الْمُتَعَاقِبِ^(١١)
وقوله:

وَفَتَيَانِ صِدْقٍ مِنْ تَمِيمٍ تَنَاقَلُوا^(١٢) دُرُوعُهُمُ وَاللَّيْلُ ضَافِي الْوَشَائِعِ^(١٣).

(١) الشيخ: نبات طيب الرائحة ترعاه الدواب.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٤٨

(٣) نفسه ص ٢٨٧، والاقراف: أن يكون الأب غير عربي، في النسب، وهو عيب.

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ١٧١، وانظر ص ٣٣٠ البيهقي ٩

(٥) ديوان الأبله و ٣٢

(٦) الزوراء: بغداد.

(٧) ديوان الأبله و ١٥٤

(٨) انظر الفصل الثاني: شيوخ المحافظين ص ٦٩

(٩) ينزو: يشب.

(١٠) يُلَاثُ: يلف ويعصب.

(١١) بَغْضَنِ الْبَائَةِ الْمُتَعَاقِبِ: (١٢) تناقلوا: القوا دروعهم عنهم، لفرط شجاعتهم.

(١٢) الديوان ١/٧٢ - ٧٣، المتعاقب: المتمايل.

(١٣) الوشائع: لفائف الفطن أو الغزل وقد استعملت هنا مجازاً.

وَكُنْتُ إِذَا مَا سَاوَرْتَنِي كَرِيهَةً بَرَزْتُ لَهَا فِي جَحْفَلٍ مِنْ مُجَاشِعٍ^(١)
وقوله:

عَلِقَتْهُ وَالصَّبَا عَضُّ الْأَدِيمِ مُهَمِّلَ الْوَفْرَةِ^(٢) مِنْ آلِ تَيْمٍ
يَحْسُنُ التَّاجَ عَلَى مَفْرِقِهِ نَاشِراً فِي يَوْمِ بُوْسٍ وَنَعِيمٍ
يُنْهَلُ^(٣) وَالصُّعْدَةَ^(٤) مِنْ أَقْرَانِهِ وَيُلْبِي طَارِقَ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ^(٥)

إن الفخر بالانتساب إلى العرب، ونظم الشعر بلغة واسلوب لا يمت إلى القرن السادس بصله، هاتان الصفتان تبدوان غريبتين في عصر اكتسحت فيه العجمة والاعاجم كل شيء في الحياة العربية العباسية، ولذلك فمن المحتمل أن تكون مدرسة الحيص بيص - وافرادها لا يزيدون على أربعة كما سبق أن اشترت^(٦) - قد نشأت كرد فعل عربي للتيار الاعجمي الوافد.

وبعد هذا الذي قدمته، يبدو منطقياً أن تقل الالفاظ الفارسية في الشعر العربي العراقي، وقد مرت قصيدة ابن القطان وما فيها من الفاظ فارسية، مع الإشارة إلى اسباب ذلك^(٧).

ومن الالفاظ الفارسية ايضا «بَسِي»^(٨) اي حسبي، في قول ابي الفتح^(٩) بن قران:

بَسِي مِنَ الزُّهْدِ بَسِي قَامَتْ^(١٠) مِنَ الزُّهْدِ نَفْسِي^(١١)
ومنها كلمة «الدَّرْد»^(١٢) أي الغم، في قول العلاء بن علي الواسطي، من ابيات:

وَأَقْتَرَحُوا النَّارَ وَالْخُلُودَ بِهَا عَلَى النُّعِيمِ الْبَاقِي، مِنَ الدَّرْدِ^(١٣)
وكلمة «بَرْطِيل»^(١٤) اي رشوة في قول خال مهذب^(١٥) الدولة:

(١) ديوان الحيص بيص ٧٥/٨

(٢) الوفرة: الشعر المجتمع على الرأس، أو ما سال على الاذنين منه

(٣) ينهل: من النهل وهو الشرب الأول.

(٤) الصعدة: القناة المستوية.

(٥) ديوان الحيص بيص ٨٨/١، وانظر ٨٥/١، ٩٢، ٩٥، ٩٩، ١٠٢، ١٠٨، ١٣٥، ١٣٧

(٦) أنظر: الفصل الثاني - شيوخ المحافظين ص ٥٢

(٧) أنظر: الفصل الثالث: انهاء ص ١٦٠، ١٦٢ - ١٦٣

(٨) شفاء الغليل ص ٤٥، الالفاظ الفارسية المعربة ص ٢٣

(٩) قال عنه العماد: «كان في أيام المفتي شيخاً مطبوعاً، مربوعاً بخضب...» الخريدة ٣٤٢/٢

(١٠) لعلها قامت، كما قال محقق الخريدة (١١) الخريدة ٣٤٣/٢

(١٢) الالفاظ الفارسية ص ٦١ (١٣) الخريدة: ٣٨٤/٤

(١٤) شفاء الغليل ص ٥٠، الالفاظ الفارسية ص ٢٠

(١٥) أنظر: الفصل الأول ص ٥ هامش ٢

إِنَّ الَّذِي يَكْسِبُهُ زَوْجُهَا تُعْطِيهِ لِلنَّكَاةِ بِزُطَيْلَا^(١)

وكلمة «نكريش»^(٢) اي لحية جيدة في قول البديع الاسطرلابي :

قَالَ قَوْمٌ عَشِقَتْهُ أَمْرَدُ الْخَدِّ دِ، وَقَدْ قِيلَ، إِنَّهُ نَكْرِشُ

قَلْتُ: فَرَحُ الطَاوُوسِ أَحْسَنُ مَاكَا نَ إِذَا مَا عَلَا عَلَيْهِ الرَّيْشُ^(٣)

وكذلك من الالفاظ الفارسية كلمة «الْبَحْت»^(٤) اي الحظ في قول ابن التعاويذي :

فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرَى رُفْعَهَا بَحْتُ الْقِيَابِ^(٥)

٣ - اللغة :

ان الضعف الذي اصاب الدولة العربية العباسية في أواخر العصر العباسي ، حين تقلصت مساحتها وانكمش نفوذها وسيطر الاعاجم والاجانب على كثير من جوانب الحياة فيها، حتى صار العنصر العربي كالغريب في دولة يفترض ان العرب هم المتغلبون فيها . ان تلك العوامل لا بد ان تترك اثرها على اللغة العربية ، فلم يعد الاهتمام بها وحرص الناس على تعلمها ودراسة علومها المختلفة كما كان ايام قوة العباسيين ، كذلك لم يعد التشبه بالاعراب مطمح المثقفين ، ولا الخوف من اللحن والخطأ الاعرابي يؤرق احدا ، وليس بين شعراء الفترة من يقارن بالمتنبي او البحتري او ابي تمام او سواهم ممن عرفوا بمثانة اللغة وسعة الاطلاع على اجود الاساليب وامتها ، لقد تبدل المجتمع وتبدل اولئك الذين كانوا يعدون الخطأ اللغوي مساويا للكفر والاشراك بالله تعالى .

ان اللغة كائن حي ، تخضع لما يخضع له الكائن الحي في نشأته ونموه وتطوره وهي تتطور بتطور هذا المجتمع ، فترقى برقيه ، وتنحط بانحطاطه^(٦) .

وحين لم يستطع الحريري صبرا في اواخر القرن الخامس فألف «درة الغواص في اوهام الخواص» مشيرا ومحذرا من الاخطاء اللغوية والانحرافات التي شاعت في لغة الطبقة الرفيعة ، ! بعد ان كثرت المؤلفات التي تعنى بالاختفاء اللغوية الجارية على السن الجماهير^(٧) ، اقول ان هذا العالم ، بسبب كتابه القيم السالف الذكر ، تعرض لحملة شعواء من علماء القرن السادس ، الذين «لم يعودوا يستطيعون ادراك الفروق الاساسية بين العربية

(١) الخريدة ٤/ ٥٤٤

(٢) شفاء الغليل ص ٢٢٤ ، الالفاظ الفارسية ص ١٥٤ (٣) وفيات الأعيان ٥/ ١٠١

(٤) شفاء الغليل ص ٤٢ ، الالفاظ الفارسية ص ١٧ (٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٨٢

(٦) لحن العامة ص ٣٠ ، وانظر أيضا: اللغة والمجتمع ص ٨ ، ٦

(٧) لحن العامة ص ٩٧ - ١٠٠

الفصيحة والعربية المولدة، فاتجهوا الى الاعتراف بالفاظ وقوالب وتعبيرات مولدة، بل شعبية
دارجة احيانا، على انها صحيحة في العربية الفصيحة، مادام قد ثبت ورودها في كتابه القرون
الثلاثة الاسلامية الاولى^(١).

أ - ركة التعابير:

ان ولع الشعراء بتبسيط لغتهم وجعلها في متناول ادراك اوساط الناس، الذين ضعفت
لغتهم ومداركهم اللغوية الى حد بعيد، ارتفعهم في مزالق اسلوبية ولغوية، جعلت طائفة من
شعرهم تبدو بلا طعم ولا لون ولا رائحة.

وغني عن البيان ان ركة التعبير هذه تبدو اكثر وضوحا عند الشعراء الذين وصلتنا
دواوينهم كابن التعاويذي والابله، اما الشعراء الذين اورد العماد الاصفهاني مختارات من
شعرهم في خريدته، فان الركيك من تلك القصائد اسقطه العماد في كثير من الاحيان^(٢).

ومن حق الحيص بيص ان يفخر لاني لم استطع ان اقف على شعر له يمكن ان يوصف
بالركة، بالرغم من طول قصائده، وكثرة اشعاره التي وصلتنا.

ولعل تمكن الشاعر من لغة الضاد، وطول باعه في معرفة الاساليب المتينة القديمة،
وكذلك ترفعه وعزة نفسه فلم يسف مثل معاصريه فيمدح كل من هب ودب،^(٣) اقول لعل هذه
العوامل كانت من اسباب هذا التماسك الواضح في اشعار الحيص بيص.

فمن ركة التعابير قول ابن التعاويذي:

لَمْ يَزَلْ يُنْذِرُ بِالْخِصْبِ بَ رُبَا الْحَزْنِ^(٤) الظَّمَاءِ^(٥)

وكان الصواب ان يقول «يُشِيرُ» بدل «يُنْذِرُ»، لان الانذار لا بد فيه من شر، والخصب كله
خير.

وقال:

وَأَثْقَالَ أَهْدُ بِهِنَّ ظَهْرِي لَقَدْ عَرَّضْتُ نَفْسِي لِلْبَلَاءِ^(٦)

ان عجز البيت ليس من الشعر في شيء، بل من الكلام المعتاد الذي يردده الناس كل

(٢) الخريدة ٢/ ٢٣، ٢/ ٢٩٧، ٢/ ٣٢٢

(١) العربية ص ٢١٢، ٢٢٢

(٣) أنظر: الفصل الثاني: شيخ المحافظين ص ٥٨ - ٥٩، ص ٦٩

(٤) الحزن: ما غلظ من الارض، وقليما يكون إلا مرتفعاً،

(٦) نفسه ص ١٤

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٩

يوم حين تنزل بهم الكوارث، او حين يخشون ان تنزل بهم.

ومثل البيت المتقدم قوله يهجو:

وَجْهٌ يَحْيَى ابْنِ بَخْتِيَارٍ اِذَا فَكَّرَ كَثُرَتْ فِيهِ مِنْ سَائِرِ الْأَنْحَاءِ^(١)

ان قوله: «اذا فكرت فيه من سائر الانحاء» يشبه «لقد عرضت نفسي للبلاء» ما كنت احسب ان شاعرا كبيرا كابن التعاويذي، يقول مثلهما.

وقال:

وَجَدْتُ يَخْفِضُ الْحُسَادَ عَالٍ وَنَصِرُ يَفْهَرُ الْأَعْدَاءَ غَالِبٌ^(٢)

قوله «يخفض الحساد» من التعابير القلقة، لان يخفض في هذا المعنى تكاد تكون ذات دلالة نحوية، من الخفض اي الجر عند الكوفيين، وكان على الشاعر ان يستعمل بدلها «يغيظ». ولعل ابن التعاويذي اراد المطابقة بين «يخفض» و«عال» فعخانه التعبير وخذلته الشاعرية.

وقال:

يَا مَلِكاً ذَلَّلَ الْمُلُوكَ بِتَرٍّ غَيْبٍ يَدٍ تَارَةً وَتَرْهَيْبٍ^(٣)

وواضح ان «يد» زائدة على البيت، اجتلبت للوزن.

وقال الابله البغدادي:

شَأَى فِي رَأْيِهِ قَيْساً وَأَزْرَى بِمَنْطِقِهِ عَلَى قُسِّ الْأَيْدِي^(٤)

قوله «قس الايادي» الشائع المشهور «قس اياد» وتعبير الابله ثقیل.

وقال:

مُذْ قَدَحَ الْخُدَّ مِنْهُ فَلِلْغَرَامِ انْقِدَاحُ^(٥)

فما معنى «انقداح الغرام»؟ ان سعي الشاعر وراء الجناس بين قدح وانقداح هو الذي اساء الى لغته.

ومن شعر ابن التعاويذي:

(١) نفسه ص ١٤

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ١٧

(٣) ديوان الابله و ١٨٣

(٤) نفسه ص ٢١

(٥) نفسه و ١٨٥

وَعَدَوْتُمْ ذَا قُدْرَةٍ فَفَتَكْتُمُ، وَاللَّهُ أَقْدَرُ^(١)

والصواب: ذوي قدرة، ولكن الوزن لم يسعف الشاعر.

وقال طلحة النعماني:

وَسَعَدُ الْقَوَافِي مِنْ عِلَاكَ قَبُولُهَا وَقَدْ رُبَّمَا يَأْتِي عَلَى الْعَمَلِ الْحَبْطُ^(٢)

قوله: «وقد ربما» من التعابير الركيكة جدا، لان حرف تقليل واحد يكفي.

وقال ايضا:

بِالْجُودِ طِينَةُ رَاحَتِهِ كِلَيْهِمَا وَالتَّاجُ مِنْهُ جَبِينُهُ وَالْمَفْرِقُ^(٣)

والصواب: كليهما.

وقال ابو نزار^(٤) عبد الله بن محمد الزبيدي:

نَشَدْتُكَ يَا جَارَةَ الْجَامِعِ أَهْلٌ مِنْ قَرِيٍّ لِفَتْحِ الْقَانِعِ^(٥)؟

جمع بين الهمزة وهل من ادوات الاستفهام.

وقال الحسن^(٦) بن عبد الواحد الشهرباني:

قَبَّحَ اللَّهُ بِاخْلَا، لَيْسَ فِيهِ طَمَعٌ وَاقِعٌ لِمَنْ يَرْتَجِيهِ

سِفْلَةً، إِنْ قَصَدْتَهُ يَتَلَقَّا كَ - عَلَى فَرَسَخٍ - بِكِبْرِيَّتِهِ

أَحْمَقُ، رَأْسُهُ إِذَا فَتَّشُوهُ وَجَدُوهُ بِضِدِّ اسْمِ أَبِيهِ^(٨)

أ - قوله: سفلة: خطأ، لانه لا يطلق الا على الجمع^(٩).

ب - قطع الشاعر همزة «اسم»، وهي همزة وصل.

(١) ديوان ابن المتاويدي ص ٢٣٢

(٢) الخريدة ٢/ ٢٤، وانظر هامش المحقق رقم ١٥، والحبط: ذهب العمل سدى.

(٣) الخريدة ٢/ ٣٩، وانظر هامش المحقق رقم ٩

(٤) قال العماد عنه: «الشريف الجليل الكامل أبو نزار، عبدالله بن محمد، بن يحيى، بن عمر، الحسيني الكوفي...» الخريدة ٤/

(٥) الخريدة ٤/ ٢٦٥، وانظر الهامش.

(٦) كل الذكر الذي ذكره العماد في التعريف به هو قوله عنه: «المعروف بابن عجاجة المعلم» الخريدة ٢/ ٣٢٥

(٧) نسبة إلى «شهرابان»، قال ياقوت إنها: «قرية كبيرة عظيمة، ذات نخل وبساتين، من نواحي الخالصة، في شرقي بغداد...»

(معجم البلدان... شهرابان).

(٩) انظر اللسان والصاح (سفل).

(٨) الخريدة ٢/ ٣٢٥، وانظر الهامش.

ولا شك ان الجانب الصرفي او الاشتقاقي من اللغة، له دور بارز في اظهار براعة الشاعر، اذا احسن الاستفادة من الصيغ المناسبة في المكان المناسب، كذلك قد يدل سوء اختيار بعض الصيغ على ان الشاعر قد خانه التوفيق فلم يحسن الاستفادة من كثرة المفردات التي تمده، بها لغة الضاد، وهكذا تبدوطائفة من المفردات قلقه نابية، عليها سيماء التكلف، فتطيح بشطر لا يستهان به من رونق الشعر وجماله.

فمثلا قال ابن التعاويذي:

فإِليكِ رائيةَ المَعاني جَزَلَةً الـ الفَاظِ تُسهِّلُ في عُلَاكِ وتُجِبِلُ^(١)

ان اشتقاق آخر كلمة في البيت من الجبل، وهو جامد، اشتقاق غير معروف في اللغة العربية، ويسميه رجال اللغة «القياس الخاطيء»^(٢)، لان الشاعر قاس «يجبل» على «يسهل»، واشتقاق الفعل الثاني معروف متداول، بعكس يجبل.

وقال:

رَبُّ المَذَاكِي^(٣) الجِيَادِ مُقَرَّبَةً^(٤) والنَّصْلُ عُرِيَانُ غَيْرُ مَقْرُوبٍ^(٥)

لقد صاغ الشاعر اسم مفعول من القرب أي غمد السيف، فقال: مقروب وكان من حق اللغة على الشاعر في هذا الموضع ان يقول: والنصل عريان غير مغمد، ولكن الوزن والقافية، وكذلك الجناس بين مقربة ومقروب، هي العوامل التي دفعت الشاعر وشجعتة على ان يلجأ الى اسم مفعول كاد ينسى رغم وجوده في كتب اللغة. وقال:

وَهَلْ مَقَلْتُ قَبْلَهُ مُقَلَّتَاكَ أَدْنَى وَأَسْقَطَ مِنْ هِمَّتِهِ^(٦)

مقلت . . مقلتك، اي نظرت او ابصرت عينك، والمقلة: شحمة العين ولم يشع في العربية المألوفة الاستعمال مقل، بمعنى ابصر او نظر، على الرغم من وجود هذا الفعل في القواميس، لان المفعول عليه في الادب ليس الجائز من الناحية اللغوية، بل الحسن المختار^(٧)، وكان الشاعر يستطيع ان يقول: وهل نظرت قبله مقلتك . . ولكن الشاعر - على الارجح - اراد الجناس: مقلت مقلتك فسقط.

وقال:

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٣٠

(٢) المذاكي: الخيول.

(٣) المذاكي: ص ٤٢

(٤) مقربة: هي الخيول التي تقرب مرابطها ومعالفها لكرامتها.

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٠

(٦) المثل السائر ص ١١٢ (المط. البهية).

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٦٢

أَوْدَى بِجَدَّتِهِ الْمَشِيبُ، فَأَخْلَقَتْ أَثْوَابُهُ وَاسْتَرْجَعَتْ عَارَاتُهُ^(١)

ان «عارات» التي ختم بها الشاعر بيته، جمع عارة، وهي بمعنى العارية^(٢)، وجمع عارة على عارات غير مشهور، وانما المشهور عَوَارٍ وعَوَارِي، وكان يجب على الشاعر ان يختار من جموع الكلمة اقربها الى الشاعرية وأشهرها في التداول والاستعمال^(٣)، اذ ليس كل ما في كتب اللغة وقواميسها صالحا لنظم الشعر وحوك القصيد.

وفي شعر ابن التعاويذي نماذج اخرى من الاشتقاق غير المألوف او الصياغة التي كان على هذا الشاعر الكبير ان يتجنبها، وسأكتفي هنا بالاشارة اليها:

قال:

رَبُّ النَّدى وَكَاشِفُ الدِّغَمِ. اذا الهمُّ تَرَخَ^(٤)

وقال:

له المَورِدُ العِدُّ الغَزِيرُ، وماؤُهُ على كَثَرَةِ الوَرَادِ لا يَتَضَخَّضُ^(٥)

وقال:

ذو شِيمٍ قد فَخَرَ الذِّهْنُ بِهِنَّ وَبَجَحَ^(٦)

وقال:

شِعْرٌ وَلَكِنْ اذا أَحَقَّقْتَهُ حِكْمٌ نَظْمٌ وَلَكِنْ اذا أَقْوَمْتَهُ دُرْرٌ^(٧)

فاذا كان ابن التعاويذي، وهو شيخ شعراء القرن السادس، تصادفنا في ديوانه امثال الهفوات والسقطات التي سبقت الاشارة اليها، فكيف حال دواوين الشعراء الآخرين، ممن لم يخطر ببال أحدهم ابدا أن يذكر في يوم من الايام مع ابن التعاويذي؟ ان ضياع بعض الدواوين، قد ساعد دون شك على اطلاق اسم الشاعر على قوم لا يستحقونه.

ب - العامة:

ان غزو العامة وتسلبها الى اللغة العربية الفصحى يرجع الى زمن بعيد جدا عن القرن

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٦٣

(٢) انظر «عور» في كتب اللغة.

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ١٠٠

(٤) نفسه ص ١٠٠

(٥) ال السائر ص ١١٢ - ١١٣ (المط. البهية).

(٦) نفسه ص ٨٠

(٧) نفسه ص ٢٠١

السادس، اذ نجد اول كتاب يؤلف في لحن العامة من تأليف العالم اللغوي المشهور علي بن حمزة الكسائي المتوفى سنة ١٨٩ هـ^(١).

وفي القرن الثالث، وبسبب سيطرة عوام الاثراك على مقاليد الامور في قصر الخليفة، «وصل الامر اخير الى ان صار الوزير نفسه يتكلم اللغة الدارجة»^(٢)، بل «ان النحويين انفسهم في ختام هذا القرن، لم يكونوا يستعملون اللغة الفصحى في مسامراتهم ومحاوراتهم»^(٣).

وفي القرن الرابع كان من المظاهر البارزة، انتشار العامية الى جانب الفصحى، حتى اصبح اكثر الناس يتكلمون العامية «واقلمهم الفصحى»، وصار لكل بلد عاميته^(٤)، اما في القرن الخامس، فقد اشار الدكتور علي جواد الطاهر الى ان من شعراء هذا القرن، «من ابتعد عن المألوف الموروث في الشعر العربي، فلا يتقيد باختيار اللفظة، ولا يتقيد بفصاحتها، انما يعتمد - بقصد - الى المبتذل والعامي وحتى الدخيل... واكثر ما ترد هذه المفردات في شعر السخف حيث يستعملها الشاعر قاصدا عامدا، وكأنه يضيف الى اثره قوة جديدة، ويوفر عليه شرطا من شروطه التي اذاعها ابن الحجاج ووطد اركانها»^(٥).

ويغلب على الظن ان العامية في القرن السادس، قد سيطرت على معظم النتاج الشعري، وخاصة في غرضي السخف والهجاء لهذه الفترة، وان يد الضياع لولم تمتد الى معظم ما انتجه الشعراء في هذين الغرضين^(٦)، لكان موقفنا قد تغير من شعر هذا القرن عامة، ولا طلعنا على الفاظ عامية، بغدادية، او عراقية، تفوق كثيرا ما وصل الينا فعلا.

وعندي ان مما يرجح الافتراض المتقدم، هو ان نجد العامية قد تسللت الى مدائح كبار شخصيات العصر، ومنهم الخلفاء وصلاح الدين الايوبي والقاضي الفاضل وهي مدائح يفترض ان الشاعر كان حريصا على ان يتجنب فيها كل ما يثير حاشية الممدوح من علماء ونقاد، اعتادوا على مهاجمة الشعراء بسهام النقد.

اما مدائح الخلفاء، فمنها ان ابن التعاويذي قال في مقدمة قصيدة مدح بها الناصر لدين الله:

لِيَالِي لِي عِنْدَ الْغَوَانِي مَكَانَةٌ فَالْحَاطُهَا تَرْنُو إِلَيَّ وَتَنْطَمَحُ^(٧)

(١) لحن العامة ص ١٠١

(٢) العربية ص ١٣٧

(٣) نفسه ص ١٤١

(٤) الشعر العربي ١٦٩/٢

(٥) انظر دراسة الهجاء ص ١٤٣، ودراسة السخف ص ٣٩٢

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٧٩

ان لفظة «مكانة» من العامي الذي لا يزال شائعا حتى اليوم في العراق، وتعني: منزلة رفيعة سامية.

وقال من قصيدة اخرى مدح بها الناصر ايضا:

وَمُخْطَفٍ لُونِي اِذَا رَايْتُهُ يَنْخَطِفُ^(٢)

فلفظه «ينخطف» اي يصفر ويمتقع، من العامي الذي يتردد حتى اليوم على السنة العوام. واللفظ مستعمل في اغنية عراقية غرامية (ليش منشوف اهواي ينخطف لوني). ومعناها: لماذا حين اشاهد حبيبي يصفر وجهي؟

وقال من قصيدة في مدح صلاح الدين:

فَكَمْ جَمِيلٍ لَهُمْ وَصُنْعٍ يَدٍ عَلَى جِبَاهِ الْأَنَامِ مَكْتُوبٍ^(٤)

ان عجز البيت من تعابير العامة الشائعة حتى اليوم في العراق ومصر.

ومن التعابير العامة التي لج بها ابن التعاويذي، تعبير «كسّر الحاجات في الصدر» ومعناه: رجع خائبا لم يحصل على ما تمناه. ومن اغنية عراقية شائعة اليوم: وانا الحسرات كلها مكسرة بصدري:

قال يمدح القاضي الفاضل:

فَلَيْتَ شِعْرِي يَا زَمَانِي مَتَى أَخْرُجُ مِنْ دَائِرَةِ الشُّعْرِ؟
كُنْتُ تُدَايِنِي، فَمَا لِي أَرَى صَرْفَكَ قَدْ صَبَّرَحَ بِالشُّرِّ؟
فَرَدُّ آمَالِي مَقْبُوضَةٌ وَكَسَّرَ الْحَاجَاتِ فِي صَدْرِي^(٥)
وقال في قصيدة ثانية:

تُكْسِّرُ الْأَيَّامَ حَاجَاتِي فِي صَدْرٍ بِأَدْوَاءِ الْخُطُوبِ وَاغِرٍ^(٦)
وقال في الثالثة:

وَأَنَّهُ كَذَبَ آمَالُهُ وَكَسَّرَ الْحَاجَاتِ فِي صَدْرِهِ^(٧)

(١) مخطف: ضامر، خفيف لحم الجنب.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٧٨

(٣) أنظر مادة «خ ط ف» في اللسان والتاج.

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٠

(٥) نفسه ص ١٩١

(٦) نفسه ص ٢٠٧، وصدر واغر: مُتَقَدِّم من الغيظ.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٨٠

وفي ديوان ابن التعاويذي بيتان لا يمكن القطع حول معناهما: هل اخذه الشاعر من العامة، ام ان العوام هم الذين اخذوه من شعرا بن التعاويذي؟ فقد شاع ان شعراء العامة كثيرا ما يأخذون معانيهم من الاشعار الفصيحة، كما أن العكس هو الآخر معروف. واشهر الامثلة على ما اقول بيت ابي العلاء المعري:

خَفَّفِ السَّوْطَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الدَّ
الأَرْضِ أَلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ^(١)

اخذه المرحوم الشاعر الشعبي عبد الكريم العلاف، فقال:
والارض كلها ارواح خَفَّفَ مَشِيَّتَكَ حَتَّى عَلَى الْمَيِّتِينَ عَمَّتْ أَذِيَّتَكَ

وبيتا ابن التعاويذي هما قوله من قصيدة:

عَجَبًا لَهُ يَشْتَاقُهُ قَلْبِي وَمَسْكَنُهُ الصَّمِيمُ^(٢)

وقال من قصيدة اخرى:

تَشْتَاقُ عَيْنِي أَنْ تَرَا لَكَ، وَأَنْتَ فِي سَوْدَائِهَا^(٣)

والبيتان قريبان جدا من قول شاعر العامة الذائع:

بِكَلْبِي وَكَوْلِ ابْعِيدْ، جَاوِزْ اضمك؟

والمعنى ان حبيبي في قلبي، وهو - مع ذلك - بعيد عني، فأين اخفيه ليكون اكثر

قربا؟.

اما الغرضان اللذان تكاد العامة لا تفارقهما، وهما المجون والهجاء، فاحسب ان الشاعر في هذه الحالة يفقد شطرا كبيرا من قوة التأثير وبلاغة القول، اذا استعمل اللفظ القصيح، لان لكل مقام مقالا، وليس من المعقول ان يصيب الشاعر غرضه في المجون، بذكر العورات والسوءات، وهو يستعمل الالفاظ الفصيحة، كذلك لا يعقل ان يشتم الشاعر خصمه بالفصحى، لانه في هذه الحالة سيثير ضحك المهجو وتندرته. فالمعاني السخيفة، والصور الخليعة البذيئة، والافكار التي تأباه الاخلاق الكريمة، لا بد لها من لغة تناسبها، والفاظ تليق بمستواها، واسلوب يجسم غرض الشاعر، ويبرز ما يرمي اليه بوضوح ودقة.

فمن اهاجي ابن التعاويذي، قوله في بخيل:

(١) شرح التنوير على سقط الزند ص ٢٠٩

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٨٦

(٣) نفسه ص ٤٧٢

مُسْتَقْلُ الرُّوحِ لَهُ رَاحَةٌ إِلَى طَبِيخِ الزَّيْتِ مُحْتَاجُهُ
يَنْسَمِرُ الدِّينَارُ فِيهَا كَمَا يَنْسَمِرُ الْمِسْمَارُ فِي السَّاجَةِ^(١)
ان لفظة «ينسمر» اي يلتصق التصاقا شديدا، من العامي المستعمل حتى اليوم.
وقال يهجو ايضا:

مَا فِيهِ خَيْرٌ وَلَا حَيَاءٌ فَلَا يُغْدِي وَلَا يُعْشِي^(٢)
عجز البيت: لا زال حتى اليوم يستعمله العامة، حين ينعنون فردا بعدم الفائدة وقلة
المنفعة.

وقال خال مُهَذَّبِ الدَّوْلَةِ:

لِي وَلَدٌ - وَلَا وَلَدَتْ أُمُّهُ - أَعْذَلُهُ الدَّهْرَ فَمَا يَرْعَوِي
اللَّهُ قَدْ صَيَّرَهُ أَعْوَجَا يَا ذَنْبَ الْكَلْبِ أَمَا تَسْتَوِي^(٣)؟

ذنب الكلب، من تعابير العامة الشائعة حتى اليوم، للدلالة على الشيء الذي لا
سبيل الى ازالة اعوجاجه.

وقال الابله:

أَنْتَ مَا فَرَّجْتَ كَرْبًا قَطُّ، يَا ثَوْرَ الْكَرَابِ^(٤)

ثور الكراب: اي ثور حرّاة الارض، ولا زال الفلاحون حتى اليوم يضربون به
المثل في الغباء والبلادة.

وقال ايضا:

ثُمَّ دَعَا إِنْ وَسَطَتْكَ الْحَرَامِيَّةُ يَهْ طَرِقِ وَاسِطِ مَا أَحْتِيَائِي^(٥)؟

الحرامية: واحدها حرامي، اي اللص، من الفاظ العامة الشائعة جدا. وتوجد
نماذج اخرى من الفاظ العامة في غير الاغراض الشعرية المتقدمة.

ومن ذلك الفخر، في قول ابن القَطَّان:

شِعْرِي قَدْ بَطَّ جُيُوبَ الْوَرَى فَلَوْ أَرَدْتَ الْمَنْعَ لَمْ تَقْدِرْ^(٦)

(١) نفسه ص ٧٧

(٢) الخريدة ٥٣٨/٤

(٣) نفسه و ١٨٨

(٤) نفسه ص ٢٤٦

(٥) ديوان الابله و ١٨٨

(٦) الخريدة ٢٧١/٢

١ - بط: اي شق وفتح، من العامي الشائع اليوم في جنوب العراق، وخاصة في العمارة والبصرة.

٢ - جيب: واحد الجيوب، لم تعرفها العرب بهذا المعنى، لان الجيب عندهم هو فتحة الثوب التي يدخل منها الرأس^(١).

ومن الغزل قول احد الشعراء:

أَذَاقَنِي حُمْرَةَ الْمَنَايَا لَمَّا اكْتَسَى خُضْرَةَ الْعِذَارِ
وَقَدْ تَبَدَّى السَّوَادُ فِيهِ وَكَارَتِي بَعْدُ فِي الْعِيَارِ^(٢)

قال ابن خلكان: «وكارتي»^(٣) بعد في العيار، من اصطلاح البغاددة، ومعناها انه ناشب معه لم يتخلص منه».

ومن الغزل ايضا، قول ابن التعاويذي:

فَتَرْتُ إِذْ فَتَرْتُ أَلْ حَاطْهَا سَوْقُ الْمِلَاحِ^(٤)

جانس الشاعر بين فتور الالفاظ وفتور السوق، وهذا المعنى الثاني من العامي الشائع حتى اليوم بين الباعة والتجار في الاسواق، اذ يقولون: ان السوق فاترة يريدون ان البيع والشراء قليل، وهو ما يعبر عنه احيانا بالكساد الاقتصادي، وقد كرر الشاعر استعمال «فتر» فقال:

كَالْظُّبِيِّ مَصْقُولِ التَّرَائِبِ فَاتِرِ الـ لَحَظَاتِ، مَا وَجَدِي عَلَيْهِ بِفَاتِرِ^(٥)
ومن العتاب قول ابن التعاويذي:

أَنْتَ وَلَيْتَنِيهِ مِنْكَ ابْتِدَاءٌ غَيْرَ مُسْتَكْرَةٍ وَلَا مَجْبُورِ^(٦)

كلمة مجبور، اي مضطر، عامية، كثيرة الدوران على اللسان بين العامة في الوقت الحاضر.

ومن شعر احد عقلاء المجانين ببغداد، كما يقول العماد:

(١) انظر هامش الخريدة في الصفحة المشار إليها.
(٢) وفيات الأعيان ١٠١/٥
(٣) الكارة: الحزمة الكبيرة.
(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٨٣
(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٧، والنص: مصفود الترائب...
(٦) نفسه ص ٢١٤

لا يَغُرَّنكَ الْلبَاسُ ليسَ في الأَثوابِ ناسُ
هُم - وإنْ نالوا الثَّرِيًّا - بُحَلَاءُ وَخِساسُ
كم فتى يُدعى رئيساً وهو في الخِسةِ رأسُ
ويدُ تَصْلُحُ لَلْقَطْ ع، تُغَدِّي وَتُبَاسُ^(١)

ان اسقاط الهمزة من كلمة «رأس» في البيت الثالث، من مظاهر العامية المعروفة^(٢)، ومثلها اسقاط همزة «انشأ» في بيت ابن المُعلم:

مِنْ جَوْهَرِ الْعَلْيَاءِ أَنشَاكَ الَّذِي خَلَقَ الْبَرِيَّةَ كُلَّهَا مِنْ طِينِ^(٣)
ومثلهما قول الابله:

وَمَنْحُوسٍ يُقَالُ لَهُ سَعِيدٌ لَهُ رَأْسٌ يَلِينُ لَهُ الْحَدِيدُ^(٤)
وقوله:

بَغَا الْقَفَا وَالْعِرْسَ وَالْكُوَّةَ رَحْوُ، بَلَى فِي رَاسِهِ قُوَّةُ^(٥)
وفي ابيات الخريدة - السالفة الذكر - كلمة «باس» بمعنى قَبْلَ، وهي من العامي الذي اشار اليه صاحب شفاء الغليل^(٦).

والبيت الاخير من ابيات ذلك العاقل - المجنون، اخذه الشاعر العراقي المعاصر الدكتور احمد الوائلي، فقال من عينية معروفة:

وَيَدُ تُكَبِّلُ، وَهِيَ مِمَّا يُغْتَدَى وَيَدُ تُقَبِّلُ، وَهِيَ مِمَّا يُقْطَعُ
٤ - وجوه البلاغة العربية:

ان دراسة اشهر النماذج من شعر القرن السادس، سواء تلك التي وصلتنا عن طريق دواوين الشعراء، ام التي اوردها صاحب الخريدة في كتابه، لا بد أن تقنع الباحث بحقيقتين تكمل احدهما الاخرى:

١ - ان مفهوم الشعر البليغ في اواخر الفترة العباسية، يختلف اختلافاً بينا عما كانت عليه الحال في القرن الرابع والقرون التي سبقتة، فلم يعد المثل السائر والاستعارة

(٢) لحن العامة ص ٤٥، العربية ص ١٨٤

(٤) ديوان الابله و ١٨٨

(١) الخريدة ٣٢٤/٢، وأنظر هامش المحقق.

(٣) ديوان ابن المعلم و ٥٩ (نسخة دار الكتب).

(٥) نفسه.

(٦) ص ٤٦

الرائعة والتشبيه الواقع^(١)، هي اهم ما يجب ان يشتمل عليه هذا اللون من الفن .

ان النماذج المتوفرة وآراء النقاد، واشهرهم العماد الاصفهاني، توحى بان أبلغ الشعر واجوده، في القرن السادس، هو الشعر الذي حرص صاحبه ان يجمع فيه اكبر قدر مستطاع من المحسنات اللفظية والمعنوية كالجناس والطباق والترصيع، وكلما ازداد نصيب القصيدة او البيت من تلك المحسنات، ازداد اعجاب الناس بها، وهتاف النقاد وتصفيقهم لقائلها.

ويلاحظ في هذا الموضوع ان الجري وراء المحسنات البديعية، يكاد يكون الشغل الشاغل لجميع شعراء العصر، مع فارق واحد هو ان المحافظين من شعراء العصر وأشهرهم النحيص بيص، عرفوا كيف يخفون بديعهم، ويوارون تلك الالفاظ التي تعبوا في اصطيادها وجمعها، حتى بدت قصائدهم وكأنها خالية من بدعة العصر.

أما رواد التجديد وعشاق التطور، ومواكبة احداث الصيحات في عالم الشعر، واشهرهم الابله البغدادي، فقد تكدست المحسنات في شعرهم، فغطت على الشعر نفسه، حتى بدا وكأن الشاعر يطلب البديع لذاته، او انه نظم شعره ليعرض على السامعين احداث ما توصل اليه في هذا الباب.

وسلك ابن التعاويذي مذهبا وسطا، فكان اذا مدح الخلفاء، مال الى الاسلوب القديم، وتجنب البديع الا ما جاء عفوا، ولكن شاعرنا اذا مدح رجلاً عرف بغرامه بالبديع كالفاضي الفاضل^(٢)، خيل لك انه من كبار البديعيين، كما يتضح - على سبيل المثال - في قصيدته الرائية^(٣)، وكذلك قصيدته اللامية^(٤).

ومن الادلة على ان البديع صار مقياس جودة الشعر عامة، قول ابن التعاويذي يصف شعره:

شعرٌ يُعْلَمُ نَظْمَ الشَّعْرِ سَامِعُهُ فِيهِ طِبَاقٌ وَتَجْنِيسٌ وَتَرْصِيعٌ^(٥)
وقال يصف احدي قصائده:

جَاءَتْكَ حَالِيَةً تَرَائِبُهَا مِنْ التَّجْنِيسِ وَالتَّطْبِيقِ وَالتَّرْصِيعِ^(٦)

(١) العملة ١/ ١٢٢

(٢) دراسات في الشعر في ظل الايوبيين ص ٢٢١، ٢٠٢

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ١٩٠

(٥) نفسه ص ٣٣٣

(٦) نفسه ص ٢٧٦

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٧٠

وواضح من هذين البيتين، ان الشاعر ينعت بالصفات التي اجمع معاصروه على انها مما يدل على بلاغة الشعر، وتمكن الشاعر من فنه.

وقال العماد الاصفهاني، يثني على ابيات فيها جناس: «انا استحلي هذا النوع من التجنيس واستعذ به، ويحسبه زلال الماء قلبي في الرقة والصفاء، فيشر به ويشربه^(١)»، وقال عن قصيدة استولى الجناس على جميع الفاظها تقريبا: «هذه القصيدة من حقها أن تكتب بسويداء القلوب على بياض الاحداق، وقد احدثت بها حداث من التجنيس والتطبيق والترصيع^(٢)»، وقال في الثناء على شاعر مغرم بالجناس مثل صاحب الخريدة: «كل شعر مجنس لا كشعر غيره بالركة والعجمة مدنس..»^(٣) ومن هذا النص الاخير يبدو واضحا ان العماد يجعل تجنيس جميع ابيات القصيدة مما يبعدها عن الركة والعجمة.

ولعل مما يدل على اتساع موجة البديع هذه، ان الوعاظ وكبار العلماء اضطروا على مجازاة الذوق العام، فحشروا نماذج منها في وعظهم وشعرهم، والف بعضهم كتبوا ليس فيها الا الشعر المجنس.

فأبو الفرج بن الجوزي، من علماء الحنابلة المشهورين بصناعة الوعظ، وكان مولعا بالتجنيس في لفظه والتأيسس وقد طرب اهل المجلس -: «فَهْمُتُمْ، فَهْمُتُمْ»^(٤)، وقال في قصة الذين عبدوا العجل: «لو أن الله خار لهم، ما خار لهم»^(٥). ولا يعقل ان يلجأ ابن الجوزي الى الجناس، لو لم يعلم ان الجمهور مفتون به.

وحين تأمر عُمارة^(٦) اليميني على صلاح الدين الايوبي، وكاتب المتآمرون اعداء الدين من الصليبيين في فلسطين، والنورمنديين في صقلية لغزو مصر، صلب عمارة بسبب ذلك، فلم يجد العالم المشهور، تاج الدين الكندي، المتوفى سنة ٦١٣ هـ، الا الجناس التام لقافية ابياته في عمارة:

(١) الخريدة ١/ ١٢٦

(٢) نفسه ٤/ ٢٣٣

(٣) الخريدة/ نسخة ايران ١٢٨

(٤) نفسه ٤/ ٢٢٨

(٥) ذيل الروضتين ص ٢٢، فهمت: الأولى من الفهم، والثانية من الهيام.

(٦) ذيل الروضتين ص ٢٢، خار لهم: الأولى من الاختيار، والثانية من الخوار، وهو صوت العجل.

(٧) هو عمارة بن علي.. أبو محمد، نجم الدين: مؤرخ ثقة، وشاعر فقيه أديب، من أهل اليمن، ولد في تهامة وقدم مصر برسالة من أمير مكة إلى الفاتح الفاطمي سنة ٥٥٠ هـ، فأحسن الفاطميون إليه وبالفواقي إكرامه، فأقام عندهم. صلب سنة ٥٦٩ هـ. وفيات الأعيان ١٠٧/٣، صبح الأعشى ٣/ ٥٢٦، السلوك ١/ ٥٣، «عمارة اليميني المصري» للدكتور ذو النون المصري.

وامسى شريك الشُّرك في بُغضِ احمدٍ فأصبحَ في حُبِّ الصَّليبِ صليبا
وكانَ خبيثَ المُلتقى إنْ عَجَمْتَهُ تَجَدَّ منه عوداً في النِّفاقِ صليبا
سَيَلَقَى غداً ما كانَ يَسْعَى لأجلِهِ ويُسقى صديداً في لظى وصليبا^(١)

وقد ألف أبو الحسن علي بن عنتر المعروف بشميم الحلبي المتوفى سنة ٦٠١ هـ كتابه «انيس الجليس في التجنيس في مدح صلاح الدين»^(٢)، كذلك ألف سعد بن علي الحظيري كتابا في التجنيس سماه «لمح الملح»، اثنى عليه العماد الاصفهاني، ونعته بـ «الكتاب النفيس»^(٣).

٢ - كان من نتائج الاتجاه الى البديع، وحسابه قمة ما يطمح اليه الشاعر البليغ ان صار الشعر صناعة وتكلفا، ولم يعد وجدانا وعاطفة. ان الشاعر لم يعد يعبر عن مشاعر وأحاسيس وعواطف ملكت عليه نفسه ففاضت على قلمه شعرا لا تملك ازاءه الا الطرب والاهتزاز.

لقد صار الشعر في القرن السادس صناعة يحكمها العقل، ولا صلة لها - الا في النادر - بالعاطفة والاحساس. حيس الشعراء انفسهم داخل قوالب وقبود سموها البديع، ثم راحوا يصبون افكارهم في تلك القوالب الجاهزة، ولذلك يشعر القارئ ان شعرهم غدا عبدا للبديع وانواعه، فهزلت الافكار وضلحت ومطت القصائد وطالت، ففقدت اللغة التركيز وغزارة المعنى، وجاءت الاخيلة كسيحة باهتة، والصور مكررة بالية لا تحرك شعورا ولا تدل على شعور.

فاذا استطاع الشاعر ان يثور على البديع ويخرج على سلطانه - وهي حالات قليلة - قدر لنا حينئذ ان نستمع الى شعر جيد، ومنه بعض اهاجي ابن التعاويذي كقوله:

ألا مُنِصِّفُ لي مِنْ ظالِمٍ تَمَلِّكَنِي جَوْرُهُ واسْتَرْقُ؟
واصْبَحْتُ مُرْتَزِقاً راحَتِيهِ وبَشَ المَعِيشَةُ والمُرْتَزَقُ
قليلُ الصُّوابِ اذا ما اُرتأى بذِيءِ اللِّسانِ اذا ما نَطَقُ
كَثِيرُ التَّحْيِيفِ في ظُلْمِهِ اذا اخَذَ اللَّحْمَ يوماً عَرَقُ
يَضُنُّ على النَّاسِ مِنْ بُخْلِهِ بِرُوحِ نَسِيمِ الصِّبا المُتَشَقِّ

(١) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ١٧، الصليب الأولي، النصارى، والثانية: بمعنى مصلوب. والثالثة من الصلاة.

والرابعة ودك العظام، وقيل هو الصديد.

(٢) معجم الأدباء ١٣١/٥ ط. ماركليوث الثانية.

(٣) الخريدة ٤/ ٣٠

ولو كَانَ يَقْدِرُ مِنْ لَوْمِهِ حَمَى الطَّيْرَ أَنْ يَسْتَظِلَّ الْوَرَقُ
يُظَاهِرُ لِلنَّاسِ يَوْمَ السَّلَامِ لباساً جديداً وَعِرضاً خَلَقَ
وَيَنْعَرُ فِي دَسْتِهِ مُجْلِباً فَتُقَسِّمُ أَنْ حِمَاراً نَهَقُ
... الخ^(١).

التشبيه:

سبق ان اشرت عند دراسة اغراض الشعر - ومنها المدح والهجاء والغزل الى ان معظم المعاني والافكار التي طرقها شعراء القرن السادس، كانت مطروقة من قبل، فلم يزد هؤلاء الشعراء على اعادة افكار سابقهم ولكن بالفاظ جديدة، ولذلك فمن البديهي ان تجد معظم التشبيهات التي ترد مكررة معادة لا جديد فيها، كتشبيه الكريم بالبحر في الجود، وتشبيه الفارس الشجاع بالاسد، ونعت الملك العظيم المكانة بالنجم في العلو والارتفاع، او بالشمس:

مُلُوكُ الْبَرَايَا انْجَمٌ، اِنْتَ شَمْسُهَا اِذَا الشَّمْسُ ذَرَّتْ غَابَتِ الْاِنْجَمُ الزَّهْرُ^(٢)
وهو قول النابغة الذبياني المشهور:

فَاِنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ اِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوَكْبُ
وظل الشعراء مثل اسلافهم يشبهون الوجه الجميل بالبدر:

وَأَزْهَرَ مِثْلَ الْبَدْرِ، قَدْ طَافَ مَوْهِنًا^(٣) عَلَيَّ بِمِثْلِ الشَّمْسِ مِنْ قَرَقَفِ الْخَمْرِ^(٤)
كذلك بقيت العيون تشبه بالسيف، فاذا كان المتغزل به ذكرا قيل: انه شاهر سيفين، اي سيفه وعينه:

شَاهِرَ سَيْفَيْنِ، مُشْتَبِهٌ مِنْهُمَا، سَاجٍ وَمَضْقُولُ
فَمَلُوءٌ، يُنْبِ أَيْهُمَا دَمُهُ فِي الْحَيِّ مَطْلُولُ^(٥)
لِحِظْهُ؟ أَمْ مَا تَقْلَدُهُ؟ فَكِلَا الْعُضْبَيْنِ مَسْلُولُ^(٦)

وقال الحظيري:

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٠٢ - ٣٠٣

(٣) الخزينة ١٤٦/٢

(٢) ذرت الشمس: بزغت وأشرق.

(٥) الخزينة ١٦٢/٢

(٤) مَوْهِنًا: من الزَّهْنِ، وهو نحو منتصف الليل.

(٦) دم مطلول: ذهب هدرا.

بَدَتْ قَمَرًا، وَرَنْتَ جُودْرًا وَمَالَتْ قَضِيًّا، وَوَلَّتْ كَثِيًّا^(١)

وهو قول المتنبي :

بَدَتْ قَمَرًا، وَمَالَتْ خُوطَ بَانٍ وَفَاحَتْ عَنبرًا، وَرَنْتَ غَزَالًا^(٢)

ومن الطبيعي ان يكون المومغلون في المحافظة، المفتونون بالقديم، وهم الجماعة التي يتزعمها الحيص بيص، هؤلاء من اكثر الشعراء اعادة وتكرار التشابيه والصور القديمة، كقول الحيص بيص :

على حين ماذذت الصبا عن صباية ذياذ المطايا عن عذاب المشارب^(٣)
وقوله :

فسطاك موت للأعادي، قاتلُ وَنداك للعافين غيثُ صيب^(٤)

ومن التشابيه القديمة التي لج بها الحيص بيص تشبيه الكريم بالسكران من فرط نشوة الكرم والاريجية، فقال :

نشوان من ذكر العلاء كأنما في كل منقبة مدامة شارب^(٥)
وقال ثانية :

نشوان من رجع المديح كأنما في كل قافية حميًا راح^(٦)
وقال في قصيدة ثالثة :

ويهتر عطفاه لأحدوته^(٧) العلى كما مال للكأس الزيف^(٨) المرئح^(٩)

ويلاحظ ان شعراء القرن السادس، وهم يكررون ويعيدون تشابيه اسلافهم من الشعراء المتقدمين، يختلفون في كيفية التصرف في تلك الصور المعادة كل بحسب شاعريته وقدرته، فمنهم من استطاع ان يعبر عن التشبيه القديم بلفظ فيه طرافة وحلاوة، فبدت الصورة القديمة بثوبها الجديد الانيق وكأنها بنت القرن السادس، ممثلة شبابا وفتوة وجمالا، وهناك بعض التشابيه القديمة زادت قدما وتضاعفت سنوات عمرها، بسبب اخفاق شعراء القرن السادس في اختيار الالفاظ او الثياب التي تلائمها.

(١) الخريدة ٤٠/٤

(٢) شرح ديوان المتنبي للعكبري ٢٢٤/٣

(٤) الخريدة ٢١٦/١

(٦) نفسه ٢٢٣/١

(٨) الزيف: التمايل من فرط السكر.

(٣) الخريدة ٢١٠/١

(٥) الخريدة ٢١٧/١

(٧) الأحدوة: الحديث.

(٩) الخريدة ٢٢٤/١

فعلى سبيل التمثيل، يقول ابن التعاويذي مادحا:

وَمَزَايَا مَآثِرِ كَالْحَصَا يَنْدُ فَدُ مِنْ دُونِ عَدِّهَا الْإِحْصَاءُ^(١)
وهو من بيت الفرزدق:

لَنَا الْعِزَّةُ الْقَعْسَاءُ^(٢) وَالْعَدْدُ الَّذِي عَلَيْهِ إِذَا عُدَّ الْحَصَا يُتَحَلَّفُ^(٣)

وواضح ان كلمة «مزايَا» في اول بيت ابن التعاويذي، زائدة لا موجب لها سوى اقامة الوزن، والمبالغة في بيت الفرزدق طريفة مقبولة «يتحلف الحصى اذا عدبنا»، اي يعقد الحصى حلفا مع غيره ليستطيع مواجهة عدونا. اما مبالغة ابن التعاويذي: «ينفذ الاحصاء من دون مآثر الممدوح»، فليس فيها فن ولا طرافة.
وقال الحيص بيص:

حُمَّ الْقَضَاءُ فَكَالَّذِنِي مُمَجَّدُ عِنْدَ الْمَمَاتِ، وَكَالْجِبَانِ مُصَمَّمُ^(٤)
وهو من بيت ابي الطيب المتنبي:

وَصَلْتُ إِلَيْكَ يَدُ سَوَاءٍ عِنْدَهَا الْبَارُ الْأَشْهُبُ وَالْغَرَابُ الْأَبْقَعُ^(٥)

ان صياغة المتنبي لا تدانيها لغة الحيص بيص، فان لفظة «دنيء» يجب ان توضع بازائها لفظة شريف مثلا، ولكن شاعر القرن السادس تكلف واشتط، فجاء بكلمة «ممجد». وكذلك في عجز البيت، فان الشجاع هو الذي يقابل الجبان، اما كلمة «مصمم» فهي لا تعوض عن الشجاع الا عند علماء اللغة من أمثال الحيص بيص.
اضف الى ذلك ان الاستعارة في بيت المتنبي «وصلت اليك يد» منحت البيت سحرا، عرف به شعر ابي الطيب.

ومن التشابيه الجيدة، قول الحيص بيص يمدح:

خَزَائِنُهُمْ أَيْدِي الْعُفَاةِ لِأَنَّهُمْ رَأَوْهَا عَلَى مَرِّ الزُّمَانِ الْبَوَاقِيَا^(٦)
وهو قريب من معنى بيت ثان له، هو قوله:

فَكُنْ حَيْثُ الظُّنُونُ، فَكُلَّ كَسْبٍ سِوَى الذِّكْرِ الْجَمِيلِ إِلَى نَفَادٍ^(٧)

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٣

(٢) العزة القعساء: الثابتة.

(٣) شرح ديوان الفرزدق ص ٥٦٦

(٤) الخريدة ١/ ٣٤٧

(٥) شرح ديوان المتنبي للمكبري ٢/ ٢٧٤

(٦) الخريدة ١/ ٣٣٤

(٧) نفسه ١/ ٢٤١

ان المعنى قديم مشهور، ولكن تعبير الحيص بيص، هو الجديد الطريف «خزائهم ايدي العفاة»، اذ يقول الشاعر: ان هذا الرجل الجواد، لا يبدد امواله بتفريقها على المحتاجين، ولكنه يحفظها ويخزنها، وهو تعبير يحسد عليه الحيص بيص.

وتأمل قول الحيص بيص نفسه في الفخر:

فَاتَّقُوا وَثْبَةً لَيْثٍ خَادِرٍ أَكَلَهُ الْمَوْتُ، اِذَا يُدْعَى نَزَالٌ^(١)
فالتشبيه البليغ اكله الموت، ليس بليغا، لان لفظة «أكل» لا تناسب الموت، وقد اراد الشاعر المبالغة في وصف شجاعته واقدامه.

ومن التشابيه المضحكة السخيفة، قول ابن التعاويذي:

يَمِيلُونَ مِنْ طَوْلِ السُّرَى فَكَأَنَّمَا عَلَى كُلِّ كُورٍ بَانَةٌ تَتَرَنُّعُ^(٢)
ان تشبيه المسافرين المتعبين، وهم يترنحون على ظهور الجمال، بشجر البان المتمايل، من التشابيه التي يدهش المرء ان تصدر عن امثال ابن التعاويذي ان مجرد تصور بانه تترنح على ظهر بعير، يثير الضحك حقا، لان البان اعتاد الشعراء ان يشبهوا به قدود النساء في اللين والاستواء. اما المسافرون المتعبون على ظهور الجمال، فقد شبههم ابو تمام بالاشباح:

وَرَكِبَ يُسَاقُونَ الرُّكَّابَ رُجَاجَةً مِنَ السَّيْرِ لَمْ تَقْصِدْ لَهَا كَفٌّ قَاطِبٌ^(٣)
فَقَدْ أَكَلُوا مِنْهَا الْغَوَارِبُ^(٤) بِالسُّرَى فَصَارَتْ لَهَا أَشْبَاحُهُمْ كَالْغَوَارِبِ^(٥)

اما الحيص بيص فقد شبه المسافرين هؤلاء بالنشأوى السكارى:

أَقُولُ لِرَكِبٍ مُدْلِجِينَ^(٦) تَذَارَعُوا
نَشَاوَى مِنَ التَّهْوِيمِ^(٧)، حَتَّى كَأَنَّمَا
أِذَا سَاوَرَ الْإِعْيَاءَ مِنْهُمْ غَرِيمُهُ
وَقَدْ لَفَظُوا عَنْ عَيْسِهِمْ كُلُّ مُثْقَلٍ
بُرُودٌ^(٨) الْفَيَافِي^(٩) بِالرَّسِيمِ^(١٠) الْمُرْدُّ
سَقَاهُمْ سُهَادَ اللَّيْلِ خَمْرَةً صَرَّخَدٍ^(١١)
نَفَاهُ مَقَالٌ مِنْ فَصِيحٍ مُغَرَّدٍ
مِنَ الرَّحْلِ حَتَّى بُلَّغَةَ الْمُتَزَوِّدِ

(١) نفسه ٢٩٤/١

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٨١

(٣) الغوارب: أراد بها هنا اسنمة الجمال.

(٤) مدلجين: من الادلاج، وهو السير ليلا.

(٥) الفياقي: انصماری.

(٦) التهويم: النوم القليل.

(٧) القاطب: الذي يمزج الشراب.

(٨) شرح الخطيب التبريزي لديوان أبي تمام ٢٠٩/١

(٩) البرود: واحدها؟ برود؟ ثوب مخطط.

(١٠) الرسيم: ضرب من السير.

(١١) صرخد: بلد بالشام ينسب إليها الخمر.

خُذُوا بِرِقَابِ الْعِيسِ إِنَّ رِمْتُمُ الْغَنَى إِلَى ذِي الْأَيْدِي طُغْرُلِ بْنِ مُحَمَّدٍ^(١)

ان كلا من ابي تمام والحيص بيص، اجود تشبيها من ابن التعاويذي دون شك، لان الاصل في التشبيه وجود صفة أو أكثر تجمع بين المشبه والمشبّه به وتجعل عملية التشبيه ممكنة مقبولة، لانها تعقد بين شيئين متقاربين في الصفات^(٢)، وهو امر غير ملاحظ وغير معتاد بين المسافر المتعب الذي يكاد يسقط من فوق ظهر الجمل، والبانة المستقيمة العود اللينة المترنحة في بيت ابن التعاويذي.

وعلى عكس التشبيه المتقدم، وردت بعض التشابيه الرائعة من حيث دقتها وتعبيرها، كقول ابن افلح يهجو:

أَبْوَابُهُ مُغْلَقَةٌ دَائِبًا^(٣) مِنْ دُونِ وَفَادٍ وَضِيفَانٍ
قَدْ أَيْسَ الطَّارِقُ مِنْ فَتْحِهَا كَأَنَّهَا أَجْفَانُ عُمَيَّانٍ^(٤)
وقول ابن المعلم:

شَامَةُ الْبَيْدَاءِ رَكْبٌ سَائِرٌ حَبَدَا الْغَادُونَ إِنَّ أَمَوَ الشَّامَا^(٥)

ويبدو ان هبوط المستوى الثقافي في القرن السادس، وميل الجمهور الى الشعر الواضح الذي لا تعقيد في الفاظه ومعانيه، اقول ان تلك الاسباب كانت وراء شيوع التشابيه التي لا تحتاج الى تفكير ولا اجتهاد فكر لادراك العلاقة بين المشبه والمشبّه به.

ان الشائع الملاحظ في هذه الفترة، هو عقد المقارنات او اجراء عملية التشبيه بين الاطراف المادية المشاهدة التي لا يمكن ان يختلف حولها اثنان، أما التعبير عن افكار دقيقة او اختيار تشبيهات يكون المشبه فيها خافيا غامضا ويجيء المشبه به مشهور الصفة معروفها فيزيل بذلك غموض المشبه ويحدد صفته، فان هذا الضرب من التشبيهات قليل بصورة عامة، كما سيأتي.

فمن نماذج التشبيهات الشديدة الوضوح، قول سعد بن عجلي الحظيري يهجو:

قَالَ: أَلَمْ تَعْلَمْ بِلُؤْمِي؟ فَلِمَ كَسَوْتَ عِرْضِي حُلَّ الْمَدْحِ؟
قُلْتُ: أُرِيكَ لَسِيفَ الْهَجَا كَمَا يُرَى الْكَبْشُ لِلذَّبْحِ^(٦)

(١) الخريدة ٢٣٢/١

(٢) كذا بالاصل، ولعل الصواب «دائبا».

(٣) ديوان ابن المعلم/ نسخة النجف و ٩٠

(٤) الخريدة ٢٨٦/١

(٥) الخريدة ٦٧/٢ - ٦٨

(٦) الخريدة ٤٩/٤

وقال في الهجاء ايضا:

هَجَوْتُكَ إِذْ قَطَعْتَ الْبِرَّ عَنِّي وَكُنْتُ أَحْوَكُ فَيْكَ الْمَدَحَ حَوْكَا
كَذَاكَ الْأَرْضُ: تَزْرَعُهَا فَتَزْكُو وَتَقْطَعُ زَرْعَهَا فَتَجِيءُ شَوْكَا^(١)

ان تربية الكباش وتسمينها حين يراد ذبحها من البديهيات التي يعرفها حتى الاطفال وكذلك الامر في ترك الاراضي واهمالها فان الاشواك لا بد ان تحتلها.

ومن المألوف الشائع حتى اليوم قول الناس عن الذي لا يرحم ولا يرق بأن قلبه من صخر أو من حجر صَوَان، ولذلك فان تشبيه ابن التعاويذي الاتي لا يحتاج الى شرح:

قَابَسٍ كَأَنَّ قَلْبَهُ مِنْ صَخْرٍ فِي خَدِّهِ مَاءُ الشَّبَابِ يَجْرِي^(٢)

وقال يصف قصيدة:

تُشْرِقُ فِي سَالِفَةٍ وَتَنْحَرِ يُضْحِي بِهَا عِرْضُ الْكَرِيمِ الْحُرِّ
ذَا أَرَجٍ مِنْ طَيْبِهَا وَتُشْرِ كَأَنَّهُ مُضْمَحٌ بِعِطْرِ^(٣)

ومن هذا الضرب قول الابله:

وَعَاوَدَنِي الْغَرَامُ، فَبِتْ صَبًّا كَأَنَّ بِمُضْجِعِي شَوْكَ الْقَتَادِ^(٤)

وهناك بعض التشبيهات التي تعتمد في وضوحها على العرف الاجتماعي كقول ابن التعاويذي يهجو:

وَأَنْتَ مِثْلُ الْيَهُودِ خُبْنًا خُلِقْتَ مِنْ رِيْبَةٍ وَفُحْشٍ^(٥)

وقال يرثي طفلا:

كَأَنَّهُ الْوَرْدُ أَتَى زَائِرًا ثُمَّ انْقَضَتْ أَيَّامُهُ عَنْ كَثْبٍ^(٦)

ففي هذا البيت الثاني ما فتىء الناس يقولون للقصير العمر انه مات في عمر الزهور، وقد اخذ الشاعر تشبيهه من تلك الحقيقة التي يرددها الناس جميعا.

وقال ابن المعلم:

(١) الخريدة ٤/ ٥٠

(٣) نفسه ص ٨١

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ١٧٩

(٤) ديوان الابله و ١٨٣، القناد: شجر صلب له شوك كالابر.

(٦) نفسه ص ٥٨

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٤٦

ما بال مالي مُستباح كأنني أَحَدُ الخَوَارِجِ مِنْ بني حَطَّانٍ^(١)

اما التشبيهات التي تحتاج الى شرح، فانها قليلة، من ناحية، وقد انفرد باكثرها شعر الحيص بيص من ناحية ثانية، وهي دون شك جزء من شاعرية هذا الرجل الذي اولى بالاساليب اللغوية الغربية عن القرن السادس، ولعل شرح العماد الاصفهاني لطائفة من ابیات الحيص بيص في خريدته، مما يدل على ان صاحب الخريدة على علم بان هذا الضرب من الكلام لا يفهمه كل الناس.

ومن تلك التشابيه قول الحيص بيص:

سَحَبْنِ فُضُولَ^(٢) الرِيطِ^(٣) صَوْنًا كَأَنَّمَا خِفَافُ الْمَطَايَا مِنْ شُعُورِ الْمَغَارِقِ^(٤)
قال العماد معلقا وشارحا: «يعني اصفين الملابس حتى سوين - من الصون - بين اخفاف ابلهن وبين شعور مغارقهن»:

وقال:

كَأَنَّ نَعَامًا صِيحَ فِي أُخْرِيَاتِهِ حَوَافُلُهَا^(٥) لَمَّا مَرَرْنَ هَوَافِيَا^(٦)
قال العماد: «المراد بالصياح ها هنا الطرد والغارة، فإنه لما كان من ابين الطرد عبر عنه بالصياح».

وقال:

وَأَثِيرُ النَّقْعِ^(٧) مِنْ أُنْدِيَةِ يَعْبُقُ الْمَنْدَلُ^(٨) فِيهَا بِالنَّسِيمِ^(٩)

قال العماد: «من فرط طيبها، لنعم اهلها، يستفيد العود منها طيبا. ووجه آخر، وهوان النسيم يعبق بالمندل، فذكر المعنى مقلوبا، وهي عادة عربية».

ولعل من اطرف ما صنعه شعراء القرن السادس، انهم استفادوا من آيات القرآن الكريم حيناً، او من المعاني الدينية عامة حيناً آخر، في ايجاد مجموعة نادرة من التشبيهات، لا يشك احد انها لولا الدين لما قدر لها ان تبدو بالشكل الذي بدت فيه، وهذا الصنيع يدل على ان هؤلاء الشعراء ادركوا ما في القرآن الكريم من كنوز وذخائر لم يحاول الاسلاف الاستفادة منها كما يجب.

(١) ديوان ابن المعلم/ نسخة دار الكتب و ٦٧

(٢) فضول: الواحد فضل، وهو الزيادة.

(٣) الريط: الواحدة رَيْطَة، وهي الملاءة إذا كانت قطعة واحدة.

(٤) الخريدة ٢٨٠ / ٨ (٥) الجوافل: الابل الشوارد.

(٦) الخريدة ٣٣٠ / ٨، الهوافي: الابل الضالة، الواحدة هافية.

(٧) النقع: الغبار المتصاعد.

(٨) المندل: الغبار المتصاعد.

(٩) الخريدة ٣٠٧ / ٨

كذلك لا يستبعد ان شعراء هذا القرن ربما استفادوا في هذه الناحية من الدراسات المتطورة لأساليب القرآن الكريم، والتي نهض بها معتقوا المذاهب الاسلامية المختلفة كالمعتزلة ومنهم جار الله الزمخشري في كتابه المشهور «الكشاف» في التفسير، وقبله عرف الباقلاني ابو بكر محمد بن الطيب توفي سنة ٤٠٣ هـ، في كتابه «إعجاز القرآن».

ومهما يكن فان الاثر الديني، وخاصة اثر القرآن الكريم، واضح جدا في الناحية البلاغية من شعر القرن السادس، ومن الطبيعي ان يكون التشبيه له المقام الاول في هذا الموضوع. ان دراسة التشبيهات المختلفة من الناحية الدينية، تثبت وجود نوعين من الاثر الديني فيها، وهما:

١- ان الشاعر قد يستفيد من النص القرآني بتمامه في صوغ او ايجاد التشبيه المطلوب. وهذا النوع يشبه الاقتباس من القرآن الكريم والذي فشا في العصور المتأخرة، ولكنه قليل في تشبيهات القرن السادس بصورة عامة.

ومن الامثلة على هذا النوع من التشبيهات قول ابن التعاويذي يصف كتابة القاضي الفاضل، من قصيدة:

يَسِيرُ فِي الْأَفَاقِ أَنْبَاؤُهَا كَأَنَّهَا اللَّيْلُ إِذَا يَسْرِي^(١)
فقد استفاد من قوله تعالى: «وَاللَّيْلُ إِذَا يَسْرِي»، في مكان المشبه به.
وقال ايضا:

لَوْ مَكَ لِلصَّبِّ فِي مُعَذِّبِهِ سَوَطُ عَذَابٍ عَلَيْهِ مَصْبُوب^(٢)
والمشبه به «سوط عذاب» من قوله تعالى^(٤): «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوَطَ عَذَابٍ». وقال الابله البغدادي، يهجو:

خُشْبٌ مُسْنَدٌ، وَإِنْ رَاقَتْ لَهُمْ يَوْمَ السَّلَامِ مَسَانِدُ وَمَطَارِحُ^(٥)
واول البيت من قوله تعالى^(٦): «وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدٌ». وقال ايضا:

(٢) الآية الرابعة من سورة الفجر .

(٤) الآية ١٣ من سورة الفجر .

(٦) الآية الرابعة من سورة المنافقين .

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٩٤

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨ .

(٥) ديوان الابله و ٩٨

وَفُضِّلَ مُحْكَمَةُ الْقَتِيرِ^(١) كَأَنَّهَا صَرَحَ عَلَى مَتْنِ الْكَمِيِّ مُمَرَّدُ^(٢)

قوله: صرح ممرّد (وهو المشبه به)، من قوله تعالى^(٣): «أَنَّهُ صَرَحَ مُمَرَّدٌ».

٢- ان الشاعر قد يستفيد من المعنى او الفكرة الدينية او القرآنية في صياغة التشبيه الذي يريد، دون ان يتقيد بالنص القرآني. وهذا الضرب من التشبيهات هو الذي يلفت النظر لكثرتة، وخاصة عند ابن التعاويذي والابله وابن المعلم.

قال ابن التعاويذي:

كَأَنِّي يَعْقُوبُ فِي الْحُزْنِ بَلْ أَيْوُبُ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرِّ^(٤)

وهو من قصص القرآن الكريم عن حزن يعقوب على ابنه يوسف، وكذلك عن صبر النبي ايوب، حتى ضرب به المثل.

وقد تكررت الاشارة الى قصة يوسف ويعقوب في قول ابن المعلم:

فَابْنُ يَعْقُوبَ كَابْنِ يَعْقُوبَ فِي الْعَذِّ لِي، وَمَا مَوْصِلُ الشَّامِ كَمَضَرٍ
ذَاكَ أَوْفَى كَيْلًا لِمَنْ مَسَّهُ الضَّرُّ رُ، وَهَذَا مَا زَالَ كَاشِفَ ضُرِّ^(٥)

وقال ابن التعاويذي:

وَحَلَلْتُ زُورَاءَ^(٦) الْعِرَاقِ كَمَا حَلَّ الْغَمَامُ بِمَا جَلَّ الْقَفَرِ
فَكَأَنَّ طَلَعَتِكَ الْهِلَالَ تَرَا عَتُهُ النَّوَاطِرُ لَيْلَةَ الْفِطْرِ^(٧)

فهذا البيت الثاني، اخذه الشاعر من تطلع الصائمين وشوقهم الى رؤية هلال شوال الذي يدل على انتهاء شهر رمضان. وقد سبق ابونواس الى ما يقارب بيت ابن التعاويذي، حين قال يهجو قوما بالبخل:

فَإِذَا هُمْ رَأَوْا الرِّغِيفَ تَطَرَّبُوا طَرَبَ الصَّيَامِ إِلَى أَذَانِ الْمُغَرَّبِ^(٨)

وقال ابن التعاويذي من الشكوى:

كَأَنِّي أَنْقَلُ مَا بَيْنَهُمْ مِنْ مَلِكِ الْمَوْتِ إِلَى مُنْكَرٍ^(٩)

(١) القتير: الدرع، أو رؤوس المسامير فيها.

(٢) الديوان و ١١٤، ممرّد: أمّلس.

(٣) الآية ٤٤ من سورة النمل.

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ١٩٢

(٥) ديوان ابن المعلم/ نسخة دار الكتب و ٦٢

(٦) زوراء العراق: بغداد.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨٦

(٨) ديوان أبي نواس (أصاف) ص ١٩٠

(٩) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٣٤

وقال يرثي ام الخليفة الناصر:

فَيَا لَكَ مِنْ قَبْرِ بَرُدَتْ مَصَاجِعُ وَقَلَبَتْ أَبْنَاءَ الْقُلُوبِ عَلَى الْجَمْرِ
نَمُرُّ عَلَيْهِ خَاشِعِينَ كَأَنَّا مَرَزْنَا عَلَى الرُّكْنِ الْمُقْبِلِ وَالْحِجْرِ^(١)

اما الابله البغدادي فقد صاغ بعض تشبيهاته من افكار ومعان دينية غير تلك التي مرت عند ابن التعاويذي. ويلاحظ ان بعض الافكار الدينية ربما تكررت في اكثر من بيت عند هذا الشاعر، مما يدل على اعجابه بها واعتداده لها من النفائس التي لا بد من تكرارها، مع بعض الاضافات هنا وهناك. وظاهرة التكرار هذه لم اجدها عند ابن التعاويذي.

قال الابله مادحا:

يَا ابْنَ أَبِي نَصْرِ، وَمَنْ قَوْمُهُ لَدِينِنَا أَوْسُ وَأَنْصَارُ^(٢)
وقد كرر «الاولس والانصار» فقال:

مَا أَرْتَجِي أَوْسًا سِوَاكَ عَلَى دَهْرِي، وَلَا لِي خَزْرَجٌ أُخَرُ^(٣)
وقال متغزلا:

فَخَصَرَهُ مِثْلُ دِينِي وَرَدُّهُ أَوْزَارِي^(٤)
اي ان دين الشاعر دقيق مثل خصر حبيبه، اما اوزاره وذنوبه فهي كبيرة لا تطاق مثل ردف الحبيب. والابله في بيته هذا يقلد بيت ابي نواس في نعت خمرته:

عُتِّقْتُ فِي الدَّنِّ حَتَّى هِيَ فِي رِقَّةٍ دِينِي^(٥)

فَفَدَاءُ الْوَزِيرِ كُلِّ بَخِيلٍ كَاذِبُ الْوَعْدِ رَبُّهُ دِينَارُهُ^(٦)
وقد كرره فقال:

هَذَا وَرُبَّ قَصَائِدٍ اعْتَقَتْهَا عَنْ قَصْدٍ مُثْرِ رَبُّهُ الدِّينَارُ^(٧)

(١) نفسه ص ٢٢٤

(٢) ديوان الابله و ١٠

(٣) ديوان الابله و ٤٢

(٤) ديوان الابله و ٣٤

(٥) نفسه و ٥٠

(٦) ديوان أبي نواس (أصاف) ص ٣٣٩

(٧) نفسه و ١٣

وقريب من هذا المعنى قوله:

مَنْ يُرَى مِنْ حُبِّ دِرْهِمٍ عَاكِفًا مِنْهُ عَلَى وَثْنٍ^(١)

ومن المعاني الاسلامية ان جنة الخلد هي المكان الذي يطمح المسلمون في سكنائه، ولا يوجد ما يشبه الجنة او يقاربها في الطيب والحسن عند المسلمين، اما جهنم فهي اخوف ما يخافونه، وليس في ذهن المسلم ما هو اشد حرارة من نار جهنم، ولذلك قال الأبله: جَنَّةٌ لِلْعَفَاةِ، وهو على الأعـ داءِ يَوْمَ الْهِيَاجِ نَارُ سَعِيرٍ^(٢)

وكرره فقال:

هي في حُسْنِهَا كَجَنَّةِ خُلْدٍ لَكَ فِيهَا الْبَقَاءُ وَالتَّخْلِيدُ^(٣)
وقال ابن المعلم:

لِيَمْنَعَنِي وَصَلَ الْحِمَى، وهو جَنَّةٌ وَيَأْمُرَنِي بِالصَّدِّ، وهو جَهَنَّمُ^(٤)
وكرره فقال يمدح:

كَانَ الْعِرَاقُ مِثْلَ هَجَرَتْ جَوْهَ لَظَى، وَقَدْ صَارَ جِنَانُ الْخُلْدِ^(٥)
الاستعارة:

وهي ضرب من التشبيه عند صاحب المثل السائر، كما يفهم من قوله: «والتشبيه ضربان، تشبيه تام، وتشبيه محذوف، فالتشبيه التام ان يذكر المشبه والمشبّه به، والتشبيه المحذوف ان يذكر المشبه دون المشبه به ويسمى استعارة وهذا الاسم وضع للفرق بينه وبين التشبيه التام، والا فكلاهما يجوز ان يطلق عليه اسم التشبيه، ويجوز ان يطلق عليه اسم الاستعارة لا اشتراكهما في المعنى»^(٦). وبسبب هذه العلاقة الوثيقة بين التشبيه والاستعارة، فان جميع ما ذكرته عن التشبيه في الصفحات السابقة يصدق على الاستعارة ايضا، مع ملاحظة ان الاستعارة اصعب من التشبيه عموما وأدل على الشاعرية ورسوخ القدم في دنيا الفن والشعر، وخاصة النوع الجيد النادر من الاستعارات، ولذلك يقل هذا الضرب من القول حتى عند كبار الشعراء.

ان الشعر الجيد ضرب من التصوير، اي بعبارة اخرى ان الشعر الجيد يكاد يلزم

(١) نفسه و ١٣٧

(٣) نفسه و ٢٣

(٥) نفسه و ٣٧

(٢) نفسه و ١٦٠

(٤) ديوان ابن المعلم/ نسخة دار الكتب و ١٤

(٦) المثل السائر ص ٢١٤ (بولاق).

الاستعارات الجيدة، فهي دليل الشاعرية الذي لا يخطئ.

ومن هنا قلت الاستعارات وندرت في شعر القرن السادس، ولم نعد نعثر على الجيد منها الا في طائفة من شعر ابن التعاويذي، ونادرا ما يجيدها الحيص بيص، وهذان هما اكبر شعراء الفترة.

ومن الطبيعي ان كمية الشعر الهائلة التي خلفها لنا شعراء القرن السادس فيها كثير من الاستعارات، ولكنها استعارات لا تحرك مشاعر ولا توقظ احساس ولا تدل على شاعرية، على الرغم من الالقاب والنوع التي اسبغها العماد الكاتب على اصحابها، وتلك الجناسات والسجعات التي رصها لهم رصا.

ان استعراض نماذج من استعارات الابله البغدادي، وهو شاعر من المشهورين بشهادة صاحب وفيات الاعيان^(١)، يكفي لاعطاء فكرة او صورة من استعارات سواء من شعراء الفترة.

فمن استعارات الابله قوله متغزلا:

رَاحَ يَهْتَزُّ كَغُصْنٍ رَزَحَتْ عِظْفِيهِ رِيحٌ
تَجْرَحُ الأَلْحَاطُ خَدَيْهِ فَلَئِمَ قَلْبِي الْجَرِيحُ؟
مُسْتَبِيحًا قَتَلَ مَنْ يَهْ وَأُهُ، عَاشَ الْمُسْتَبِيحُ^(٢)

ففي البيتين الثاني والثالث استعارتان، فقد استعار الشاعر «الجرح» للتعبير عن الاثر الذي تركه العيون في خد الحبيب في البيت الثاني، واستعار «القتل» للتعبير عن آلام الهوى والحب عند العشاق. ومن شروط الاستعارة ان يكون بين المشبه والمشيبه به، او المستعار والمستعار له مناسبة «لان الاصل في الاستعارة المجازية مأخوذ من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة، وهي ان يستعير بعض الناس من بعض شيئا من الاشياء، ولا يقع ذلك الا من شخصين بينها سبب معرفة بوجه من الوجوه...»^(٣)

واستنادا الى قول ابن الاثير هذا: هل نجح الابله في استعارتيه المتقدمتين؟ ان مقياس النجاح هو مقدار الاهتزاز والاعجاب الذي يثيره الشعر فينا، وما اظن احدا يعجب بتشبيه احمرار الحدود بالجراح، لان منظر الخد الاحمر المتورد يختلف تماما عن منظر الجرح، والاحساس النفسي في الحالتين متباين.

(١) وفيات الاعيان ٨٧/٤

(٢) ديوان الابله و ١٨٦

(٣) المثل السائر ص ٢١٨ (بولاق).

وكذلك الامر في الاستعارة الثانية، لان صدود الحبيب ودلاله غير قريين ابدا من القتل او الموت وما يتصل بهما من معان، ليس بينها وبين الحب والعواطف اية صلة. وقال الابله يمدح:

وَفِي بَحَارِ مَسَاعِيْ كَ، تَغْرُقُ السُّبَّاحُ^(١)

١ - شبه مساعي الممدوح بالبحار في الكبر والسعة، لان تقدير الكلام في البيت: وفي مساميك التي تشبه البحار تغرق السباح.

٢ - السباح: جمع سباح، والمشهور في جمع هذه الكلمة «سابحون»، ولعل الابله هو الشاعر الوحيد في اللغة العربية الذي يجمع سباح على سباح.

٣ - السباح هؤلاء استعارهم الشاعر للتعبير عن الذين يحاولون اللحاق بالممدوح أو يتشبهون به في علو المنزلة ورفعة المقام.

والاستعارة ليست سوى ترديد لمعنى عامي لا يزال على السنة العامة حتى اليوم، اذا ارادوا الاستخفاف والسخرية ممن يحاول القيام بعمل كبير وهو ذو امكانية متواضعة اذ يقولون له: لا تغرق.

ومن استعارات الابله قوله متغزلا:

وعَاوَدَنِي الْغَرَامُ، فَبِتُّ صَبًّا كَأَنَّ بَمْضَجِي شَوْكَ الْقَتَادِ^(٢)

ان «عاود» هذه تطلق عادة على نوبات الحمى او المرض، وفي استعارتها للغرام بعد واضح. وهذه الاستعارة تذكرني بأخت لها في شعر طلحة بن محمد النعماني، وهي قوله:

وَتَرَى غُرَابَ الْجُودِ فِي أَمْوَالِهِ بِسَمَاحِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَنْعَقُ^(٣)

فالمشهور ان صوت الغراب اقترن بالخراب والموت، اما اضافته الى الجود «غراب الجود» فهو اشنع استعارة سمعت، كما قال محقق الخريدة منصفا.

وعندي ان شاعر القرن السادس حاول تقليد شاعر متقدم في بيته:

مَالُ كَأَنَّ غُرَابَ الْجُودِ يَرْصُدُهُ فَكَلَّمَا قِيلَ هَذَا مُجْتَدٍ نَعْبَا

(١) ديوان الابله و ١٨٦

(٢) نفسه و ١٨٣

(٣) الخريدة ٣٩/٢

وهذا البيت فيه طرافة سببها «كأن» على ما اظن ، اما بيت النعماني فثقل الدم بسبب «ينعق» قاتلها الله .

ولست ارى فائدة في الاستمرار على عرض الاستعارات الرديئة لأنها بيئة جدا في اكثرية قصائد الابله ، وهي جميعا تدل على ان بعض شعراء القرن السادس «المعروفين» لم يعد يهمهم الا ان ينظموا شيئا . . أي شيء .

وبعد هذه الأمثلة «من الاستعارات الرديئة» ، اظن ان من حق شعراء القرن السادس ، او بعضهم على الاقل ، ان نورد امثلة من استعاراتهم التي تدل على شاعرية فذة .
لقد كان لابن التعاويذي في هذا الميدان صولات وجولات ، وكذلك الحيص بيص ، ولكنه لا يقارن بابن التعاويذي في هذا المجال .

وقد وجدت ان نصيب الحيص بيص من الاستعارات الرديئة اقل بكثير من نصيب زميله ابن التعاويذي^(١) ، وهي ظاهرة اكتفي بالاشارة اليها ، ولا اعرف لها سببا مقبولا .
ومهما يكن فان شاعرية ابن التعاويذي تبلغ الذروة حين يغضب فيهجو او يشكو ، فتسمع منه حينئذ شعرا يذكرنا بفحول شعراء العربية كالمثنبي ، وفي شعره هذا تتثال الاستعارات والصور انثيالاً ، فمثلا قصيدته التي مطلعها :

١ - أَرْضَوْنَ يَا أَهْلَ بَغْدَادَ لِي وَعَنْكُمْ حَدِيثُ النَّدى يُسْنَدُ^(١)
ومن قوله فيها :

٢ - أرى البحرَ مُعَرَّضاً دُونَكُمْ وَمَالِي عَلَى سَيْفِهِ^(٢) مَوْرَدُ
٣ - وَيَبْعُدُ خَيْرُكُمْ إِنْ دَنَوْتُ عَنِّي، وَالشَّرُّ لَا يَبْعُدُ
٤ - وَأَشْهَدُ فِي الرَّوْعِ^(٣) يَوْمَ الْلقَاءِ وَإِنْ قُسِمَ الْفِيءُ^(٤) لَا أَشْهَدُ
٥ - وَأَغْرُسُ مَدْجِي، فَلَا أَجْتَنِي وَأَزْرُعُ سُكْرِي، وَلَا أَحْصُدُ
٦ - أَبِيعُ ثَنَائِي وَكُتْبِي، وَلَا يَمْدُ إِلَيَّ بِرَفْدٍ يَدُ
٧ - وَيُوسِعُنِي الدَّهْرُ ظُلْماً وَلَا أَعَانُ عَلَيْهِ وَلَا أَنْجِدُ
الى ان يقول :

(١) انظر ديوان ابن التعاويذي ص ٢٠ : أوجه يسجد الجمال لها ، ص ٧١ : تغريد الدجاج . .

(٢) سيف البحر . ساحله .

(٤) الفيء جالغنيمة .

(٣) الروع : الفرع ، الحرب .

- ٨ - لَحَى اللَّهُ بَغْدَادَ مِنْ مَوْطِنٍ بِهِ كُلُّ مَكْرُمَةٍ تَفْقَدُ
 ٩- هِيَ الدَّارُ لَا ظِلَّ غَيْشِي بِهَا ظَلِيلٌ وَلَا زَمَنِي أَغِيدُ
 ١٠- نَسِيمُ الْهَوِيِّ بِهَا بَارِدٌ وَسَوْقُ الْقَرِيضِ بِهَا أَبْرَدُ
 ١١- وَأَخْلَاقُ سُكَّانِهَا كَالزَّلَالِ وَلَكِنَّ أَيْدِيَهُمْ جَمَلْدُ
 ١٢- فَكَفُّ الْعَوَارِفِ^(١) مَقْبُوضَةٌ إِلَيْنَا وَوَجْهُ النَّدَى أَرْبَدُ
 ١٣- وَسُحْبُ الْمَكَارِمِ لَا تَسْتَهْلُ^(٢) وَنَارُ الْمَظَالِمِ لَا تَحْمَدُ
 ... الخ^(٣).

ومن الواضح ان الابیات لا يكاد يخلو بيت منها من استعارة تروع وتدهش، وصورة قد بلغت حد الكمال من حيث دقة التعبير وبلاغته.

ففي البيت الثاني استعار البحر للتعبير عن كثرة الخيرات ببغداد، وهي استعارة معبرة تماما عما يريده الشاعر من الكثرة الزائدة عن الحاجة، لان كلمة «بحر» في العربية توحى بذلك وتدل عليه. فلما اراد الشاعر ان يعبر عما يصيبه او يصل اليه - وهو نزر ضئيل - من هذا البحر، استعار «المورد» على شاطئ البحر مسبوقا بقوله «مالي» اي حتى هذا المورد لا يحصل عليه، وهي صورة تدل على ان الشاعر مظلوم، فليس من الانصاف ان يبخل اهل بغداد - وعندهم البحر - على شاعرهم بـ «مورد» على ضفافه.

وفي البيتين الثالث والرابع يقول الشاعر انه لم يحصل من اهل بغداد الا على الكوارث والشرو، اما نصيبه من الربح والخيرات فلا يصل اليه، فكأنه من اهل بغداد حين يحل بهم أذى فحسب، أما في اوقات الخير والسعادة او كما قال «الفيء» فهو ليس ببغاديا. وقد استعار «الروع» للتعبير عن ايام الشدائد، والفيء اي الغنائم للتعبير عن ايام السرور والفرح، وهما استعارتان ناجحتان دون شك، وقد اخذ الشاعر بيته هذا من بيت الشاعر القديم:

وَإِذَا تَكُونُ شَدِيدَةً، أَدْعَى لَهَا وَإِذَا يُحَاسُ^(٤) الْحَيْسُ يُدْعَى جُنْدُبُ^(٥)
 وعلى هذا المنوال يستمر الشاعر الغاضب يعاتب اهل بغداد على اعراضهم وصدهم

(١) العوارف: الواحدة عارفة، وهي الاحسان.

(٢) تستهل: تمطر.

(٣) ديوان ابن النعائذي ص ١٤٠

(٤) يحاس الحيس: يعمل ويعد، والحيس: طعام مركب من تمر وسمن وسويق.

(٥) بخلاء الجاحظ ص ٢٥٤

عنه، وتتوالى استعاراته المعبرة المصيبة، فهو «يغرس» مدحه و«يزرع» شكره، ولكن لا يحصل على ما ينتظره الفلاح حين يشقى ويكدح من «حصاد» في آخر الموسم، بل ان الشاعر يضطر على بيع كتبه ليعيش، وهي نكبة ما بعدها من نكبة.

وفي البيت العاشر يلاحظ قول ابن التعاويذي: وسوق القريض بها ابرد استعار السوق للتعبير عن عدم تقدير البغداديين لاهل الادب والشعر.

ويبدو ان ابن التعاويذي مفتون بالبيع والشراء وما يدور في الاسواق، ولذلك يكثر من ترديد لفظة سوق في شعره، ففي القصيدة التي ادرسها ذكر الشاعر السوق مرتين، في البيت العاشر، كما مر، وفي بيت آخر هو قوله:

وَإِنْ كَسَدْتُ سَوْقَ مَدْحِي لَكُمْ فَسَوْقُ الدَّفَاتِرِ لَا تَكْسُدُ
وقال يمدح من قصيدة:

بِكَ قَامَتْ سَوْقُ الْمَدِيحِ وَلَوْلَا لَكَ غَدَتْ وَهِيَ أَكْسَدُ الْأَسْوَاقِ^(١)
وقال متغزلاً:

فَتَرْتُ - إِذْ فَتَرْتُ أَلْ حَاطْهَا - سَوْقَ الْمِلَاحِ^(٢)
وقال:

وَيُنْصِفُ جَائِرُ دَهْرٍ يُبَا عُ فِي سَوْقِهِ الدُّرُّ بِالْمُخْشَلَبِ^(٣)

اما الحيص بيص فان صوره الشعرية او استعاراته موزعة مبعثرة بين قصائده المختلفة، ولم اجد له مقطوعة او قصيدة تزدحم او تضج بالاستعارات كما في ديوان ابن التعاويذي واذا كانت صور هذا الاخير تكثر وتغزير حين يهجو او يشكو - في معظم الاحيان - فان شاعرية الحيص بيص تندفق وتبدو على اشدها وفي ذروة عنفوانها حين يفتخر ويذكر مآثر قومه ومفاخرهم، ولذلك ما ان يبدأ الشاعر قصيدته - وهو يبدؤُها بالفخر في كثير من الاحيان - حتى تبدأ شاعريته بالظهور، وتطل علينا استعاراته من خلال ذكره لتمييم قبيلته.

فمن استعارات الحيص بيص قوله مفتخراً:

فَكَيْفَ التَّسْلَى بَعْدَ عَشْرِ وَأَرْبَعٍ؟ أَيْ لِي وَفَاءٌ لَا تُدَبُّ جَحَافِلُهُ^(٤)

(٢) نفسه ص ٨٣

(٤) الخريدة ١/ ٢٩٦

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٨٨

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٧

والاستعارة في عجز البيت «لا تذب جحافل الوفاء»، فقد استعار «الجحافل» للتعبير عن وفائه الشديد الذي لا سبيل الى نسيانه او نكرانه، وهي استعارة جيدة وتصوير بارع لهذا الوفاء.

وقال:

فَعَلِمَى الدُّرُوعَ غَلَائِلُ مِنْ عَثِيرٍ^(١) وَعَلَى مَجَنٍّ^(٢) الشَّمْسِ فَضْلُ نِقَابٍ^(٣)
لقد استعار «الغلائل» للتعبير عن الغبار المتراكم على الدروع، كذلك قال «فضل نقاب»، واراد ما يغطي ضوء الشمس من غبار المعارك المتصاعد.
فَإِنَّ الْقُرَى وَالْمُدُنَ حِيزَتْ لِأَعْبِدٍ وَمَا سَلِمَتْ أَفْحُوصَةٌ^(٤) لِفَتَى حُرٍّ^(٥)
لقد استعار الشاعر «افحوصة» للدلالة على ضيق وصغر ما خلفه العبيد للاحرار في القرن السادس، وهي استعارة رائعة وتعبير مبتكر حقا.

وقال يصف موقعة:

أَعْمَى الْقَتَامُ^(٦) بِهِ الْكُمَاءَ فَخِيلُهُ لَوْلَا بَرِيقُ حَدِيدِهِ لَمْ تَنْظُرِ^(٧)
وهي صورة تدل على خبرة الشاعر في سوح القتال، فالابطال يهتدون - لفرط الغبار المتصاعد - ببريق الحديد حتى كأنهم عميان.
ومن استعاراته في الرثاء قوله يرثي دُبَيْسًا:

صُرِعَتْ لِمَصْرَعِهِ الْمَقَاصِدُ وَالْمُنَى فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ بِغَيْرِ رَجَاءٍ^(٨)
وقال يصف الموتى:

رَقَدُوا - عَلَى غَيْرِ الْكَرَى - وَتَوَسَّدُوا بَعْدَ الرُّحَالِ نَمَارِقَ^(٩) الدُّهْنَاءِ^(١٠)
ألوان من البديع:

اشرت قبل صفحات الى ان القرن السادس فتن بالبديع، حتى صار مقياسا يعول عليه

(١) العثير: الغبار.

(٣) الخريدة ٢١٧/١

(٢) المَجَنُّ: التُّرْس.

(٤) الافحوصة: الموضع الذي تفحص القطة التراب عنه لتبيض فيه.

(٦) القتام: غبار الحرب.

(٥) الخريدة ٢٤٦/١

(٨) الخريدة ٣٣٧/١

(٧) الخريدة ٢٥٠/١

(١٠) الخريدة ٣٣٨/١، الدهناء: الصحراء.

(٩) النمارق: الواحدة نمرقة، وهي الوسادة.

في تحديد بلاغة الكتاب والشعراء .

ويعد الجنس أكبر الوان البديع حظوة عند شعراء الفترة ، وخاصة الابله البغدادي ، فقد اكثر منه اكارا جعل طائفة من شعره تبدو وكأنها معارض لصنوف من الجنس يغلب عليها التكلف ومجرد الجمع دون ان يستطيع الشاعر التحكم فيها ، فبدت فجة ليس بينها وبين البلاغة والفصاحة اية صلة .

ان القسم الأكبر من جناس الابله هو جناس ناقص مثل قوله :

تَبْدَى يَمْلَأُ النَّاطِرُ	بِمِثْلِ الغُصْنِ النَّاصِرُ
بشعر فاحم اللون	أثيت يفحم الشاعر
يَضُوعُ العَنْبَرُ الوَرْدُ	إذا مر بنا عابر
بنفسي قمرأ راح	للبّي في الهوى قامر
ومذ أحر عني الوض	ل لي ليل بلا آخر
على لامي عذاريه	غدا اللائم لي عاذر
ألا يا طرفه الساحر	ناصف طرفي الساهر

... الخ^(١) .

ان الابيات المتقدمة ملئت جميعها بالجناس الناقص ، دون مراعاة لأية اعتبارات معنوية او بلاغية ، ودون ان يقنعنا الشاعر بفائدة هذا الحشد من الجنس : الناظر والناصر . شعر وشاعر . فاحم ويفحم . العنبر وعابر . قمر وقامر . آخر وآخر . عذار وعاذر . الساحر والساهر .

وقال في قصيدة ثانية يمدح :

ذو النَّائِلِ الْمُعَا	دِ الْعِدِّ وَالرَّفْدِ الْمُكَرَّرِ
دَمْتُ الْخِلَالِ ، وَمَا انْتَشَى	عَطَّرَ الْجَمَالَ ، وَمَا تَعَطَّرَ
يَا مَنْ رَأَيْنَا أَمْرَةً	أَمْضَى مِنَ الْقَدْرِ الْمَقْدَّرِ
يَا فَاعِلَ الْفِعْلِ الْجَمِيِّ	لِ وَقَائِلِ الْقَوْلِ الْمُحَرَّرِ
يَا مَنْ نَصِيبُ عُفَاتِهِ	مِنْ وَفَرِهِ أَبَدًا مُؤَفَّرِ

(١) ديوان الابله و ١٨١

يا مَنْ اذا اسْتَوَلَى نَدا هُ على أَخِي عُدْمٍ وَأَمْطَرَ
صَاحَ الْغَرِيقُ وَلَوْ عَدا في أَلْفِ لُبَادٍ وَمِمْطَرَ^(١)
لا زِلْتَ تُلْفَى ظَافِراً أبداً، وَتَغْفُو حِينَ تَظْفَرُ^(٢)

فأية شاعرية في هذه الالفاظ المرصوطة: عطر وتعطر. القدر المقدر. فاعل الفعل.
قائل القول. وفر وموفر. ظافر وتظفر. ؟

ومن البديهي ان الجناس الناقص عند اكثرية شعراء القرن السادس يختلف اختلافاً بينا
عن جناس الابله البغدادي.

فمثلاً يقول الطبيب امين الدولة ابن التلميذ يشكو ابنه:
أشكو الى الله صاحباً شَكِيساً تُسَعِفُهُ النَّفْسُ، وهو يَعْسِفُهَا
فَنَحْنُ كَالشَّمْسِ وَالْهَلَالِ مَعاً تُكْسِبُهُ النَّورَ، وهو يَكْسِفُهَا^(٣)
ففي قوله: تسعفه ويعسفها وتكسبه ويكسفها، جناسان ناقصان، وهما غير متكلفين،
او على الاقل للمعنى اثر في هذا الجناس، حتى بدا وكأنه غير متكلف.

ومن شعر ابن شُعَيْبان^(٤):
وَعَلَيَّ أَيْمَانٌ مُعَدٌّ لَظَّةُ أَجْلُكَ أَنْ تَمِينَا^(٥)
أَنْ لَا أَعُدَّ سِوَى مَعِي نِ^(٦) الدَّمْعِ بَعْدَكَ لِي مُعِينَا^(٧)
ففي البيت الثاني جناس ناقص بين مَعِين (بفتح الميم)، ومُعِين (بضم الميم) وهو
جناس استدعاه المعنى، فبدا وكأنه غير مجتلب.

ومن شعر ابن التعاوذي:
وليلةً باتَ سَمِيرِي بها بَيْضَاءُ تُحْمَى بِالْقَنَا السُّمْرِ
واهاً لها مِنْ خَصَرٍ^(٨) ريقُها واهية الميثاق والخضر
مالَ بها سُكَّرُ الْهَوَى وَالصَّبَا^(٩) مِيلَ الصَّبَا^(١٠) بِالْغُصْنِ النَّضْرِ

(١) المطر: الواقعي من المطر.

(٣) عيون الأنباء ٢/ ٢٧٤

(٥) تمين: تكذب.

(٧) الخريدة ٢/ ٢٢٥

(٩) الصبا: الصغر.

(٢) ديوان الابله و ١٨٣

(٤) أنظر: الفصل الخامس ص ٣٥٤ هامش ٣

(٦) المعين (بفتح الميم): الماء الجاري.

(٨) ريق خضر: بارد.

(١٠) الصبا: ريح باردة تهب من الشرق.

بَاتَتْ تُعَاطِينِي جَنَارِيْقَةٍ رَقَّتْ فَأَغْنَتْني عَنِ الْخَمْرِ
... الخ^(١)

ففي كل بيت من هذه الابيات جناس ناقص، حرص الشاعر على الاتيان به لان القصيدة في مدح القاضي الفاضل، وهو صاحب مدرسة في الكتابة تقوم على البديع وضروبه، ولذلك لا بد ان يراعي الشاعر هذه الناحية فيقدم الى ممدوحه ما يحب^(٢).

اما الجناس التام فان احتفال الشعراء به قليل، ونماذجه الجيدة نادرة في شعر الفترة، منها قول ابن شُعيَّان متغزلاً:

مِنْ كُلِّ ذَاتٍ رَوَادِفٍ كَالرَّمْلِ رَجْرَجَةٌ وَلِينَا
مَنْطَقَنَ بِالنَّحْفِ الْخُصُوفِ رَوْضُنَ بِالتَّرْفِ الْبُطُونَا
وَأَقْمَنَ مِنْ تِلْكَ الْعُيُوفِ نِ عَلَى خَوَاطِرِنَا عُيُونَا^(٣)

ففي البيت الاخير جناس تام بين العيون التي يبصر بها، والعيون جمع عين بمعنى الرقيب او الجاسوس.

قَدْ كُنْتُ فِي أَرْغَدٍ مَا عِشَةٍ بِمَعْزَلٍ عَنْ كُلِّ بَلْبَالٍ
تَيَّمَنِي خَالٌ عَلَى خَدِّهِ الْوَيْلُ لِلْخَالِي مِنَ الْخَالِ^(٤)

في البيت الثاني جناس تام بين الخالي، اي الذي لا يشغله شغل، والخال وهي الشامة:

ومن ابيات لابن المعلم الواسطي:

سَقَاهُ الْحَيَا قَبْلِي وَجِئْتُ مَتَمًّا فُلُو مَالِكُ فِيهِ. دُعِيْتُ مَتَمًّا^(٥)

جانس جناساً تاماً بين متمم اي الذي يلي السابق، ومتمم شقيق مالك بن نويرة الشاعر الاسلامي المعروف.

ومن الجناس التام غير الجيد قول محمود بن محمد الشروطي البغدادي:

أَعْنِ الْعَقِيْقِي سَأَلْتُ بَرْقاً أَوْ مَضَا؟ أَقَامَ حَادٍ بِالرَّكَائِبِ أَوْ مَضَى؟
إِنْ جَاوَزَ الْعَلَمَيْنِ مِنْ سِقْطِ اللَّوَى بِالْعَيْسِ لَا أَفْضَى إِلَى ذَاكَ الْفَضَا^(٦)

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٣١٦

(٤) الحريدة ٢/٢٤٤

(٦) الحريدة ٢/٢٩٧

(١) ديوان ابن التعاودني ص ١٩٠

(٣) نفسه ٢/٢٣١، وأنظر أيضاً ٢/٢٣٩، ٢٤٦

(٥) وفيات الأعيان ٥/٧٣

ومثلهما ابيات محمد^(١) بن سعد الله ابن الدجاجي :

تَقُولُ عَيْسَى حِينَ أَدْمَيْتُهَا بِالسَّيْرِ: رِفْقاً بِي يَا هَاشِمِي
إِنْ شِئْتَ أَنْ تَلْقَى الْغِنَى وَالْمُنَى عُجْ بِإِمَامٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ
فَقُلْتُ - إِذْ لَاحَ سَنَى قَصْرِهِ - : يَا نَوْقُ هَذَا نُورُهُ، هَاشِمِي^(٢) .

وهكذا يبدو واضحاً من النصوص المتقدمة ، ان شغف بعض الشعراء الشديد بالجناس وحرصهم على الاتيان به وتكديسه ، على حساب المعنى وجودة النص ، لم يمنع الشعراء الآخرين من السير في الطريق المضاد ، فكان الجناس عندهم تابعا للمعنى وخداما له . وفي احيان اخرى كان الشاعر يقدم للممدوح ما يجب من شعر مجنس او غير مجنس ، فقد صار الشعر بضاعة ، لا بد فيها من مراعاة ذوق من تقدم اليه .

ويأتي الطباق أو المطابقة في المرتبة الثانية بعد الجناس .

ان هذا الفن يكاد يلزم الجناس ، اذ ينذر ان يستطيع الشاعر التفريق بينهما . فالقصائد التي يكثر فيها الجناس ، لا بد أن تضم مقدارا كبيرا من الطباق كذلك ، وهذه الظاهرة شديدة الوضوح في قصائد الابله البغدادي وابن التعاويذي بصورة خاصة .

يقول الابله :

مُنْذَ قَدَحَ الْخَدْ مِنْهُ	فَلِلْغَرَامِ	انْقِدَاحُ
نَأَى فَلِلْوَجْدِ قُرْبُ	وَلِلْسَلْوِ	انْتِزَاحُ
وَبِاللَّوَى مِنْ رُمَاحٍ	ظَبْيُ حَمَتِهِ الرَّمَا حُ	
مِنْ دُونَ صَفْحَةِ خَدَيْ	هُ مُرْهَفَاتُ صِفَا حُ	
وَإِ تَشْوَقُ فُوَادِي	تِلَاعُهُ .	وَالْبِطَاحُ
يَبْرُوقُنِي مِنْهُ خُلُقُ	سَبْطُ ^(٣) وَخَلْقُ رَدَا حُ ^(٤)	
الْفَرْعُ مِنْهُ مَسَاءُ	وَالْوَجْهُ مِنْهُ صَبَا حُ	

... الخ^(٥) .

(١) تقدم ذكر والده في الفصل الأول ص ١٧ هامش ٧ . وقد توفي محمد سنة ٦٠١ هـ . تاريخ ابن الديلمي (المطبوع) ٢٨٥/١

(٢) ابن الديلمي (المطبوع) ٢٨٧/١ ، هاشمي : الأولى بمعنى عظمى ، والثالثة ها للاشارة وشمى بمعنى أنظري .

(٣) خلق سبط : معتدل القوام ، حسن القد .

(٤) جارية رداح : ضخمة العجيزة .

(٥) ديوان الابله و ١٨٥

ففي هذه الابيات كثر الجناس والطباق معا حتى غدت المقطوعة وقفا عليهما:
 قَدْحَ وانقداح. رُمَاح ورماح. صفحة خديه ومرهفات صفاح. خُلِقَ وخُلِقَ: هذه كلها من
 الجناس. أما الطباق فبين: وَجَدَ وسلَو. قرب وانتزاح. التلاع والبطاح سبط ورداح.
 مساء وصباح.

اما في شعر ابن التعاويذي فان ظاهرة اختلاط الجناس بالطباق يمكن ملاحظتها في
 قصائد الشاعر التي مدح بها القاضي الفاضل^(١).

وعلى الرغم من عدم ظهور البديع - ومنه الطباق - كظاهرة بارزة في شعر الحيص
 بيص^(٢)، فان دراسة شعره وقراءة ما بين ابياته تثبت ان البديع قد تسلسل الى ابياته. وربما قام
 الشاعر بجهد شخصي في هذا المجال، ولكنه عرف كيف يتصرف بحذر وحكمة في هذا
 السبيل، حتى بدت مظاهر البديع في شعره وكأنها طبيعية غير متكلفة اقتضتها المعاني.

فمن طباق الحيص بيص قوله:

وإن ضاق قلبٌ بالصَّغِيرَةِ لامرئٍ فقلب عَلَيَّ بِالْكَبِيرَةِ أَسْمَحُ^(٣)
 طابق بين الصغيرة والكبيرة، وهو طباق لا يشك احدانه غير متكلف، وقد وقع في محله
 تماما.

وقال مفتخرا:

مَا لِفَضْلِي يُذَالُ بَيْنَ أَنَاسٍ جُودُهُمْ مَوْعِدٌ وَشِعْرِي نَقْدُ^(٤)؟
 الطباق بين موعِد ونقد، وهو مثل الاول في الجودة وعدم الاجتلاب.

وقال يمدح:

لَهُ دُونَ الْمَعَابِ وَقُوفٌ وَإِنْ فِي طَلَبِ الْعُلَى عَنَقُ^(٥) حَثِيثُ^(٦)
 الطباق بين وقوف وعَنَق، وكذلك بين وإنٍ وحثيث، وبين المعاب والعلی، ولذلك
 يكون البيت من المقابلة، لوجود اكثر من طباق^(٧).
 وفي الخريدة طباقات اخرى أكتفي بالاشارة الى مواضعها^(٨).

(١) أنظر الفصل الرابع ص ٢٠٠ - ٢٢٢

(٢) أنظر الفصل الثاني: شيوخ المحافظين ص ٦٩ - ٧٠

(٣) الخريدة ٢٢٤/١

(٤) نفسه ٢٣٤/١

(٦) الخريدة ٢٢١/١

(٥) العَنَق: ضرب من السير سريع.

(٨) الخريدة ٢٣٥/١، ٢٤٣، ٢١٣، ٢١٩

(٧) العمدة ١٥/٢

ومن الوان البديع الاخرى: الترصيع .
قال ابن الاثير: «وهو مأخوذ من ترصيع العقد وذلك ان يكون في احد جانبي العقد من اللآلى مثل ما في الجانب الآخر^(١)» .

فمن الترصيع قول الحيص بيص:
عقائل عَزَمَ لا تُباح لِضارِعٍ وأسرار حَزَمَ لا تُداعٍ لِلأَعِبِ^(٢)
والترصيع بين: عزم وحزم، لا تباح ولا تداع، لضارع، للاعب، لان كل كلمتين على وزن واحد.

وقال:

سَلِيمٌ مِنَ الْأَشْوَاقِ شَيْبٌ بِكَاذِبٍ وَأَمْنٌ مِنَ الْإِلْهَامِ رِيحٌ بِهَاجِرٍ^(٣)
الترصيع بين: شيب وريح، كاذب وهاجر.

وقال:

بِمَيَّامِينَ صَبَاحٍ كَشْمُوسٍ وَخَنَاذِيدَ^(٤) جِيَادٍ كَنْجُومٍ^(٥)

والترصيع بين: ميامين وخناذيد، وكذلك بين صباح وجياد.

ومن شعر ابن التعاويذي:

فَظَنُّوا خُشُوعِي لَهُمْ ذِلَّةً	وَتَحْتَ سُكُوتِي صِلٌ يَثْبُ
.. هو الغيث، إن عمَّ جَدْبٌ أَثَابَ	وَاللَّيْثُ، إِنَّ عَنْ خَطْبٍ وَثْبُ
.. إذا قال ابدع فيما يقولُ	وإن جادَ أجزلَ فيما يهبُ
.. فيا نَجْمَ سَعْدِي الذي لا يَغِبُ	ويا غَيْثَ أَرْضِي الذي لا يَغْبُ
.. فأضحتْ بهنَّ صُدُورُ الرُّوَاةِ	مملوءةً، وبُطُونُ الكُتُبِ ^(٦)

ومن ضروب البديع التضمين.

وهو قليل جدا في شعر الفترة، على الرغم من كثرته في القرن الخامس اذ ينص الدكتور علي جواد الطاهر على ان في ديوان الطغرائي وحده كثيرا من التضمين «حتى ليخشى على صاحبه ان يتهم بالسرقة - بقصد او بغير قصد - من المتنبي او من غيره»^(٧).

(١) المثل السائر ص ١٦١ (بولاق).

(٣) نفسه ٢٤٣/١

(٥) الخريدة ٣٠٨/١

(٧) الشعر العربي ١٨٥/٢ - ١٨٧

(٢) الخريدة ٢١٠/١

(٤) خناذيد: الواحد خَنَازِيد وهو الطويل الصلب.

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٧ - ٣٠

وكثرة التضمنين معروفة ايضا في القرون التي تلت القرن السادس، حتى قال احد الشعراء:

أَضْمَنْ كُلَّ بَيْتٍ فِيهِ مَعْنَى فَشِعْرِي نِصْفُهُ مِنْ شَعْرِ غَيْرِي

ومن تضمنين القرن السادس قول الحظيري:

قِيلَ لِي: قَدْ صَارَ مُبْتَذَلًا مِنْ حَمَاهُ الصُّونُ فِي صِغَرِهِ
كُفَّ عَنْهُ النَّاسُ. قُلْتُ لَهُمْ قَوْلَ مَنْ يَجْرِي عَلَى أَثَرِهِ
(لا أذودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ قَدْ بَلَوْتُ الْمُرَّ مِنْ ثَمَرِهِ)^(١)

وهذا البيت الاخير المضمن لأبي نواس^(٢).

وقال طلحة بن محمد النعماني:

لَوْلَاكَ لَمْ أُزَجِ الرِّكَابَ عَلَى الْوَجَى^(٣) (وَالرَّكْبُ يَطْفُو فِي السَّرَابِ وَيَغْرَقُ)^(٥)

وعجز البيت للشريف الرضي، من مطلع قصيدة له مشهورة^(٦).

وقد اشرت في مكان آخر من هذه الرسالة^(٧) الى هجاء الحيص بيص في تضمنين اعجب به ابن خلكان.

ومن ضروب البديع التورية.

ومنها قول مُؤيد الدين التكريتي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ من أبيات سبق^(٨) ايرادها:

وعَمَّا قَلِيلٍ أَنْتَ لَا شَكَّ صَائِرٌ إِلَى «مَالِكٍ» فَافْهَمْ لِمَا أَنَا قَائِلٌ^(٩)
التورية في قوله «مالك»، لان الكلمة تحتل معنيين: احدهما الامام مالك، وهو غير مراد، والآخر مالك خازن النار، وهو المراد.

ومن التورية ايضا قول ابن حَكِينَا، يخاطب ابن التلميذ الطبيب، واراد ان يصلحه بعد خصومة، من ابيات:

وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تُصَالِحَ بَشًا رَ بِن بُرْدٍ، فَاطْرَحْ عَلَيْهِ أَبَاهُ^(١٠)

(٢) ديوان أبي نواس (أصاف) ص ٦٦

(٤) الوجي: رُقَّة القدم.

(٦) ديوان الشريف الرضي ٥٤١/٢

(٨) ابن الديبني (المطبوع) ١٣٧/١، الوافي بالوفيات

١١٥/٢

(١) الخريدة ٤٢/٤

(٣) أزجي: أسوق.

(٥) الخريدة ٤١/٢

(٧) انظر: الفصل الثالث، الهجاء ص ١٥٩

(٩) انظر: الفصل الأول ص ٤٠

(١٠) الخريدة ٢٣٥/٢، وفیات الأعيان ١٢٢/٥

والتورية في عجز البيت «فاطرح عليه اياه»، لان عادة اهل بغداد اذا اراد الانسان ان يصلح خصمه، والخصم ممتنع، ان يقال له: اطرح عليه فلانا، اي ادخل عليه به، فكلمة «ايه» لها معنيان، الاول والد الشاعر المعروف، وهو غير مراد، والثاني «البُرد» الذي اراده الشاعر. قال صاحب الخريدة: «فما الطف طلبه منه بردا بهذا البيت المطبوع».

ومن البديع حسن التعليل.

كقول ابي منصور المبارك^(١) بن سلامة:

بأناملٍ أَصَمَّتْ^(٢) مَقَاتِلَنَا فرؤوسُها بِدمائِنَا حُمُرُ^(٣)

لقد زعم الشاعر ان اطراف انامل النباء ليست مخضوبة بالحناء، وانما تلك الحمرة سببها دماء الرجال الذين فتكت بهم حواء.

ومن حسن التعليل ايضا قول الحظيري:

يَقُولُ لِي حِينَ وَافَى قَدْ نِلْتُ مَا تَرْتَجِيهِ
فَمَا لِقَلْبِكَ أَضْحَى بِخَفَقَةٍ تَغْتَرِيهِ؟
فَقُلْتُ: وَصَلُّكَ عُرْسٌ وَالْقَلْبُ يَرْقُصُ فِيهِ^(٤)

ومن البديع حسن التخلص.

قال ابن الاثير: «وهو ان يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فيبينما هو فيه اذ اخذ في معنى آخر غيره، وجعل الاول سببا اليه، فيكون بعضه آخذا براقب بعض من غير ان يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما افرغ افرغا، وذلك ما يدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه من اجل ان نطاق الكلام يضيق عليه ويكون متبعا للوزن والقافية فلا تواتيه الالفاظ على حسب ارادته^(٥)».

ومن المعروفين بحسن التخلص في القرن السادس: الابله البغدادي، قال ابن خلكان: «ومخالصه من الغزل الى المدح في نهاية الحسن وقل من يلحقه فيها: فمن ذلك قوله من قصيدة اولها:

(١) قال العماد عنه: «علم الفضل أبو منصور المبارك بن سلامة المُخَلِّطِي البغدادي، من أهل الجانب الغربي، من مادحي الوزير

جلال الدين بن صدقة». الخريدة ٢/ ٢٨٩

(٢) اصمت: أصابت مقتلا.

(٣) الخريدة ٢/ ٢٩١.

(٤) الخريدة ٤/ ٤١، الغيث المسجم ١/ ٣٧٦، نصره الثائر ص ٢٢٠

(٥) المثل السائر ص ٤١٨ (ط. بولاق).

جَنَيْتُ جَنِيَّ الْوَرْدِ مِنْ ذَلِكَ الْخَدِّ
فلما انتهى الى مخلصها قال:

لَنْتَنَ وَقَرْتُ يَوْمًا بِسَمْعِي مَلَامَةً
وَلَا وَجَدْتُ عَيْنِي السَّبِيلَ إِلَى الْبُكْيِ
وَبُحْتُ بِمَا أَلْقَى وَرُحْتُ مُقَابِلًا
وقوله من قصيدة اخرى:

فَلَا وَجَدْتُ سِوَى وَجْدِي بِلَيْلَى
وقوله في قصيدة اخرى:

فَأُقْسِمُ أَنِّي فِي الصَّبَابَةِ وَاحِدٌ

وَعَانَقْتُ عُصْنَ الْبَابِ مِنْ ذَلِكَ الْقَدِّ

لِهَنْدٍ، فَلَا عِفْتُ الْمَلَامَةِ فِي هَنْدٍ
وَلَا بَتْ فِي أَسْرِ الصَّبَابَةِ وَالْوَجْدِ
سَمَاحَةً مَجْدِ الدِّينِ بِالْكَفْرِ وَالْجَحْدِ

وَلَا مَجْدُ كَمَجْدِ ابْنِ الدَّوَامِي

وَأَنَّ كَمَالَ الدِّينِ فِي الْجُودِ وَاحِدٌ^(١)

(١) وفيات الأعيان ٨٨/٤ - ٨٩

الخاتمة

يمثل القرن السادس الهجري مرحلة وسطا بين عصور ازدهار الشعر العربي وعصور الانحطاط والضعف ، ولعل اكثرية شعر العصر اميل الى الضعف منها الى القوة والتماسك ، ولكن بعض القصائد التي تصادف الباحث بين هذا الركام الشعري الهائل ، وخاصة عند ابن التعاويذي والحيص بيص ، تشير الى ان الشعر المتين لما تزل منه بقايا تتردد في القرن السادس .

لقد حاولت في فصول رسالتي هذه ، وبالقدر الذي تسمح به المصادر التي اطلعت عليها ، ان اجمع واحقق وادرس كمية كبيرة من شعر القرن السادس لاول مرة ، كذلك بذلت جهودا من اجل كشف وايضاح ودراسة فترة من تاريخنا الادبي يعز على المخلصين ان تظل مجهولة مدة طويلة .

ان اهم النتائج التي كشفت عنها فصول الرسالة يمكن ان تكون :

١ - القاء الاضواء على حياة الشعر في العراق خلال القرن السادس عن طريق دراسة اهم الاتجاهات الشعرية والاشارة الى مجموعة كبيرة من الشعراء مع ذكر جوانب من حياتهم ونماذج من اشعارهم .

٢ - اثبات تحيز مستشرق كبير هو ماكليوث والتدليل على ان بعض اعماله لم يقم بها لوجه العلم ، كذلك برهنت على ان جمعه وتحقيقه لديوان ابن التعاويذي ليس دقيقا وعليه مآخذ كثيرة ارجو ان تتاح لي الفرصة لدراستها ونشرها بالتفصيل .

٣ - اظهرت الرسالة - الفصل الرابع - ان عقائد الفاطميين التي حاربهم من اجلها العباسيون قد تسربت الى شعر ابن التعاويذي شاعر البلاط العباسي ، وهو جديد لم يقله احد قبل هذه الدراسة .

٤ - كشفت فصول الرسالة عمق واتساع الاثر الديني في شعر القرن السادس وهوشيء جديد

يساعد على ازالة الغموض الذي يحيط بنشأة المدائح النبوية وكثرتها في القرن السابع وما بعده .

٥ - يوضح الفصل الخامس من هذه الدراسة ان فنا شعريا عريقا ، وهو شعر الخمر ، قد ضعف وانكمش على الرغم مما يشاع بأن فترات الحروب والأزمات تدفع الناس إلى المواخير دفعا .

٦ - ان التغزل بالعداروغرام ابن التعاويذي بوصف جمال الجند الاتراك الذي اشرت اليه في الفصل الخامس يساعد على معرفة الاصول التي استقى منها شعراء العصور التالية كعصر المماليك حين تغزلوا بالجنود وفتنوا بضيق عيون النسوة خلافا للذوق العربي في هذا الموضوع .

٧ - نبهت الرسالة الى خطورة الاعتماد المطلق على ما يقوله المؤرخون القدامى عن معاصريهم او سابقيهم من الشعراء ، لان البعض من هؤلاء المؤرخين ليس محايدا في آرائه واحكامه ، كما ان البعض الآخر ينقل المعلومات او يتلقفها عن سبقه دون نقد أو تمحيص .

وبعد : فقد بذلت ما استطعت ولم ادخر وسعا في التدقيق والبحث والتنقيب ومع ذلك فانا واثق انه قد فاتني الكثير ، ومعترف بأنه فوق كل ذي علم عليم ، وما أنا الا طالب علم ، أسأل المولى القدير أن يأخذ بيدي انه نعم المولى ونعم النصير .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أ - المصادر المخطوطة :

- الابله البغدادي : محمد بن بختيار (المتوفى ٥٧٩)
١ - ديوان الابله البغدادي
مصورة الاستاذ عبد الكريم الدجيلي عن الاصل المخطوط في مكتبة ناصر شاه
بإيران .
- ابن جماعة : عز الدين عبد العزيز بن محمد
٢ - تعليقة الشعراء والادباء
مصورة الاستاذ عبد الكريم توفيق عن الاصل المخطوط في المكتبة الوطنية بباريس .
- الحظيري : سعد بن علي (المتوفى ٥٦٨)
٣ - الاعجاز في الالغاز
مخطوطة الدكتور حسين علي محفوظ .
- الحيص بيص : سعد بن محمد (المتوفى ٥٧٤)
٤ - جزء من ديوانه
مصورة معهد المخطوطات العربية برقم ٣٠٤٦ ، ومنها نسخة في خزانة المجمع
العلمي العراقي ببغداد .
- ابن الدبيثي : محمد بن سعيد (المتوفى ٦٣٧) .
٥ - ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد
مصورة مكتبة الدراسات العليا بكلية آداب بغداد رقم ٥٧٤ م عن الاصل المخطوط في
المكتبة الوطنية بباريس رقم ٥٩٢١ عربي ، ونسخة ثانية رقمها ١٢٤٠ في مكتبة الدراسات
العليا ببغداد ايضا .
- الدمياطي : احمد بن أبيك الحسامي (المتوفى ٧٤٩)

٦ - المستفاد من ذيل تاريخ بغداد
مصورة المكتبة المركزية لجامعة بغداد رقم ٢٥ م عن نسخة دار الكتب المصرية رقم

٢٩٦.

الصفدي: صلاح الدين خليل بن أليك (المتوفى ٧٦٤)

٧ - اجزاء من كتابه «الوافي بالوفيات»
مصورة المكتبة المركزية لجامعة بغداد.

ابن عذبية: احمد بن محمد المقدسي (المتوفى ٨٥٦)

٨ - انسان العيون في مشاهير سادس القرون

النسخة المصورة في مكتبة المتحف العراقي ببغداد رقم ٢٩٥

العماد الاصفهاني: محمد بن محمد (المتوفى ٥٩٧)

٩ - خريدة القصر وجريدة العصر - القسم العراقي

نسخة ايران المصورة في خزانة المجمع العلمي العراقي ببغداد رقم ٩٣ / م

١٠ - نصرة الفترة وعصرة القطرة

مصورة الدكتور علي جواد الطاهر عن الاصل المخطوط في المكتبة الوطنية بباريس رقم

٢١٤٦

ابن المعلم الواسطي: محمد بن علي (المتوفى ٥٩٢)

١١ - ديوان ابن المعلم

نسختان: نسخة النجف (مكتبة الامام الحكيم)، ومنها نسخة في المكتبة المركزية لجامعة

بغداد. ونسخة دار الكتب المصرية رقم ٩٦٠٣ أدب، ومنها نسخة في معهد المخطوطات العربية
رقم ٢٦٥ أدب.

ب - المصادر المطبوعة:

ابن الاثير: ضياء الدين نصر الله بن محمد (المتوفى ٦٣٧)

١٢ - المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر

عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة.

ابن الاثير: عز الدين علي بن محمد (المتوفى ٦٣٠)

١٣ - الكامل في التاريخ

طبعة بولاق سنة ١٢٩٠ هـ اعتمدت في الفصول: الاول والثاني والثالث، وطبعة

الاستقامة في الفصل الرابع.

الامام احمد بن حنبل (المتوفى ٢٤١)

١٤ - مسند احمد بن حنبل

ط . دار المعارف ١٩٤٧

ابن ابي الحديد: عبد الحميد بن هبة الله . . المدائني (المتوفى ٦٥٥)

١٥ - شرح نهج البلاغة

ط . البابي الحلبي .

اخوان الصفاء وخلان الوفاء: جمعية سرية

١٦ - رسائل اخوان الصفاء

ط . دار صادر - دار بيروت ١٩٥٧

ابن ابي اصيبعة: احمد بن القاسم الخزرجي (المتوفى ٦٦٨)

١٧ - عيون الانباء في طبقات الاطباء

ط . دار الفكر، بيروت .

ابن الانباري: عبد الرحمن بن محمد (المتوفى ٥٧٧)

١٨ - نزهة الالباء في طبقات الادباء

ط . دار نهضة مصر .

الايوبي: محمد بن تقي الدين . . صاحب حماء (المتوفى ٦١٧)

١٩ - مضممار الحقائق وسر الخلائق

تحقيق الدكتور حسن حبشي، ط . عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٨ .

ابن تغري بردي: جمال الدين ابو المحاسن يوسف (المتوفى ٨٧٤)

٢٠ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٥٦ .

تميم بن المعز: ابو علي بن المعز . . العبيدي (المتوفى ٣٧٤)

٢١ - ديوانه

تحقيق محمد حسن الاعظمي، ط . دار الثقافة، بيروت ١٩٧٠

الثعالبي: ابو منصور عبد الملك بن محمد (المتوفى ٤٢٩)

٢٢ - يتيمة الدهر

عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة .

- الجاحظ: ابو عثمان عمرو بن بحر (المتوفى ٢٥٥)
- ٢٣ - البخلاء
- باعتناء فان فلوتن، ط . ليدن سنة ١٩٠٠
- ابن جبير: ابو الحسين محمد بن احمد (المتوفى ٦١٤)
- ٢٤ - الرحلة
- عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة.
- الجرجاني: القاضي علي بن عبد العزيز (المتوفى ٣٦٦)
- ٢٥ - الوساطة بين المتنبى وخصومه
- ط . الباي الحلبي الرابعة ١٩٦٦
- ابن الجزري: شمس الدين ابو الخير محمد بن محمد (المتوفى ٨٣٣)
- ٢٦ - غاية النهاية في طبقات القراء
- نشر ج . برجستراسر ١٩٣٢ - ١٩٣٥ .
- ابو الجوزي: ابو الفرج عبد الرحمن بن علي (المتوفى ٥٩٧)
- ٢٧ - المنتظم في تاريخ الملوك والامم
- ط . حيدر آباد ١٣٥٧ - ١٣٥٩ هـ .
- ٢٨ - تلبيس ابليس
- مطبعة النهضة، مصر ١٩٢٨
- الجوهري: اسماعيل بن حماد (المتوفى ٣٩٣)
- ٢٩ - تاج اللغة وصحاح العربية
- تحقيق احمد عبد الغفور، القاهرة ١٩٥٦ .
- ابن حجر: احمد بن علي العسقلاني (المتوفى ٨٥٢)
- ٣٠ - الاصابة في تمييز الصحابة
- المطبعة الشرقية ١٩٠٧
- ٣١ - الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة
- ط . حيدر آباد سنة ١٣٥٠ هـ .
- الحريري: ابو محمد القاسم بن علي البصري (المتوفى ٥١٥)
- ٣٢ - مقامات الحريري

- ط . دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة ١٣٦٢ هـ .
- الحسيني: صدر الدين ابو الحسن علي بن ناصر (القرن السابع الهجري)
 ٣٣ - اخبار الدولة السلجوقية
 نشر محمد اقبال، لاهور ١٩٣٣ .
- الحيص بيص: سعد بن محمد (المتوفى ٥٧٤)
 ٣٤ - ديوان حيص بيص
 جزءان (صدراحتي الان) سلسلة كتب التراث سنة ١٩٧٤، بتحقيق مكّي السيد جاسم
 وشاكر هادي شكر، من مطبوعات وزارة الاعلام العراقية .
- الخطيب البغدادي: ابو بكر احمد بن علي (المتوفى ٤٦٣)
 ٣٥ - تاريخ بغداد
 مطبعة السعادة، مصر ١٩٣١
- الخطيب التبريزي: ابو زكريا يحيى بن علي (المتوفى ٥٠٢)
 ٣٦ - شرح ديوان ابي تمام
 تحقيق محمد عبده عزام، ط . دار المعارف .
- ٣٧ - شرح القصائد العشر
 مطبعة المدني، القاهرة ١٩٦٢
- الخفاجي: شهاب الدين احمد بن محمد (المتوفى ١٠٦٩)
 ٣٨ - شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل
 المطبعة الوهيبية ١٢٨٢ هـ .
- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (المتوفى ٨٠٨)
 ٣٩ - تاريخ ابن خلدون
 ط . دار الكتاب اللبناني، بيروت .
- ابن خلكان: ابو العباس احمد بن محمد (المتوفى ٦٨١)
 ٤٠ - وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان
 مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٤٨ - ١٩٤٩ م .
- داعي الدعاة: هبة الله بن موسى: الشيرازي (المتوفى ٤٧٠)
 ٤١ - ديوان داعي الدعاة
 تحقيق الدكتور محمد كامل حسين، ط . دار الكاتب العربي ١٩٤٩ .

ابن الديبشي: ابو عبد الله محمد بن سعيد (المتوفى ٦٣٧)
٤٢ - ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد
الجزء الاول، تحقيق بشار عواد معروف، منشورات وزارة الاعلام العراقية، سلسلة
كتب التراث (٣٦) سنة ١٩٧٤.

الذهبي: ابو عبد الله محمد بن احمد (المتوفى ٧٤٨)
٤٣ - تاريخ الاسلام وطبقات مشاهير الاعلام
مطبعة السعادة، مصر ١٣٦٨ هـ.

٤٤ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال
• ط . السعادة الاولى ١٣٢٥ هـ.

٤٥ - المختصر المحتاج اليه
جزءان، تحقيق الدكتور مصطفى جواد، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٥١.

ابن رجب: ابو الفرج عبد الرحمن بن شهاب (المتوفى ٧٩٥)
٤٦ - الذيل على طبقات الحنابلة
مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٥٢ - ١٩٥٣ م.

ابن رشيقي: ابو علي الحسن بن رشيقي القيرواني (المتوفى ٤٥٦)
٤٧ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده
ط . السعادة الثالثة، مصر ١٩٦٤

الزبيدي: السيد محمد مرتضى (المتوفى ١٢٠٥)
٤٨ - تاج العروس من شرح جواهر القاموس
الطبعة الاولى، مصر ١٣٠٦ هـ.

الزحخشري: جبار الله محمود بن عمر (المتوفى ٥٣٨)
٤٩ - الكشف
ط . بولاق ١٣٨١ هـ.

ابن الساعي: تاج الدين ابو طالب علي بن انجب (المتوفى ٦٧٤)
٥٠ - الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير
تحقيق الدكتور مصطفى جواد، المطبعة السريانية، بغداد ١٩٣٤.
٥١ - نساء الخلفاء (المسمى بجهات الائمة الخلفاء من الخرائر والاماء)

- تحقيق الدكتور مصطفى جواد، ط . دار المعارف بمصر .
- سبط ابن التعاويذي : ابو الفتح محمد بن عبيد الله (المتوفى ٥٨٣)
- ٥٢ - ديوانه
- تحقيق د . س . ماركليوث، مطبعة المقتطف، القاهرة ١٩٠٣ .
- سبط ابن الجوزي : شمس الدين ابو المظفر يوسف (المتوفى ٦٥٤)
- ٥٣ - مرآة الزمان في تاريخ الاعيان
- مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٩٥١ - ١٩٥٢ .
- السبكي : تاج الدين عبد الوهاب بن علي (المتوفى ٧٧١)
- ٥٤ - طبقات الشافعية الكبرى
- المطبعة الحسينية، القاهرة
- ابن سعد : محمد كاتب الواقدي (المتوفى ٢٣٠)
- ٥٥ - الطبقات الكبير
- ط . دار صادر - دار بيروت ١٩٥٨
- السمرقندي : النظامي العروضي (كان حيا سنة ٥٥٢)
- ٥٦ - جهاز مقالة
- نقله الى العربية الدكتور عبد الوهاب عزام والدكتور يحيى الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩ .
- السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (المتوفى ٩١١)
- ٥٧ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة
- ط . السعادة الاولى .
- ٥٨ - نزهة الجلساء في اشعار النساء
- تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، ط . دار المكشوف، بيروت ١٩٥٨ .
- الشابشتي : ابو الحسن علي بن محمد (المتوفى ٣٨٨)
- ٥٩ - الديارات
- تحقيق كوركيس عواد، الطبعة الثانية . مطبعة المعارف . بغداد ١٩٦٦ م .
- ابن شاکر : محمد بن شاکر بن احمد (المتوفى ٧٦٤)
- ٦٠ - فوات الوفيات
- تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط . السعادة، مصر ١٩٥١ م .

ابو شامة: عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (المتوفى ٦٦٥)

٦١ - الروضتين في اخبار الدولتين

مطبعة وادي النيل، القاهرة ١٢٨٨ هـ.

٦٢ - ذيل الروضتين

نشر عزة العطار ١٩٤٧ م.

الشريف الرضي: ابو الحسين محمد (المتوفى ٤٠٦)

٦٢ - ديوان الشريف الرضي

المطبعة الادبية، بيروت ١٣٠٧ هـ.

ابن شهر اشوب: محمد بن علي (المتوفى ٥٨٨)

٦٤ - مناقب آل أبي طالب

المطبعة الحيدرية، النجف ١٩٥٦.

ابو الصابوني: جمال الدين ابو حامد بن علي -المحمودي (المتوفى ٦٨٠)

٦٥ - تكملة اكمال الاكمال في الانساب والاسماء والالقب

تحقيق الدكتور مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٥٧.

الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (المتوفى ٧٦٤)

٦٦ - الوافي بالوفيات

صدرت منه ثمانية أجزاء طبعت في فيسبادن واستانبول ودمشق بتحقيق جماعة من الفضلاء.

٦٧ - نكت المهيمان في نكت العميان

تحقيق احمد زكي، المطبعة الجمالية، مصر ١٩١١ م.

٦٨ - الغيث المسجم في شرح لامية العجم

المطبعة الوطنية، الاسكندرية ١٢٩٠ هـ.

٦٠ - نصرة الثائر على المثل السائر

ط . المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٧٢، تحقيق محمد علي سلطاني.

٧٠ - تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون

مطبعة المدني، القاهرة ١٩٦٩.

ابن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا (المتوفى ٧٠٩)

٧١- الفخري في الاداب السلطانية والدولة الاسلامية عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة.

ابن عساكر: ابو القاسم علي بن الحسن (المتوفى ٥٧١)
٧٢ - تاريخ دمشق

تهذيب وترتيب عبد القادر بن احمد بن بدران
مطبعة روضة الشام ١٣٣٢ هـ.

العكبري: ابو البقاء عبد الله بن الحسين (المتوفى ٦١٦)
٧٣ - شرح ديوان المتنبي (ينسب له)
ط . البابي الحلبي الثانية ١٩٥٦ .

ابن العماد: ابو الفلاح عبد الحي الحنبلي (المتوفى ١٠٨٩)
٧٤ - شذرات الذهب في اخبار من ذهب
ط . مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٠ هـ.

العماد الاصفهاني: ابو عبد الله محمد بن محمد (المتوفى ٥٩٧)
٧٥ - خريدة القصر وجريدة العصر - القسم العراقي
الجزء الاول والثاني، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٥ - ١٩٦٤، الجزء
الرابع (في مجلدين) مطبوعات وزارة الاعلام العراقية، بغداد ١٩٧٣، تحقيق
محمد بهجة الاثري.

٧٦ - خريدة القصر وجريدة العصر - قسم بلاد الشام.
تحقيق الدكتور شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٥٩ .

عمر بن ابي ربيعة (المتوفى ٩٣)
٧٧ - ديوانه

ط . دار صادر - دار بيروت ١٩٦١

ابو الفرج الاصفهاني: علي بن الحسين (المتوفى ٣٥٦)
٧٨ - الاغاني

عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة.

الفرزدق: همام بن غالب (المتوفى ١١٠)
٧٩ - شرح ديوانه

مطبعة الصاوي ١٩٣٦ .

- ابن الفوطي: كمال الدين عبد الرزاق بن احمد (المتوفى ٧٢٣)
- ٨٠ - تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقب
الجزء الرابع: ق ١، ٢، ٣، ٤ تحقيق الدكتور مصطفى جواد، المطبعة الهاشمية.
دمشق ١٩٦٢ - ١٩٦٧.
- الجزء الخامس ط. لاهور ١٩٤٠ باعتناء الحافظ محمد عبد القدوس القاسمي
- ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم الدينوري (المتوفى ٢٧٦)
- ٨١ - الشعر والشعراء
عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة.
- القرشي: محيى الدين ابو محمد عبد القادر (المتوفى ٧٧٥)
- ٨٢ - الجواهر المضية في طبقات الحنفية
مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٣٧٢ هـ.
- القشيري: ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن (المتوفى ٤٦٥)
- ٨٣ - الرسالة القشيرية
ط. بولاق ١٢٨٤ هـ.
- القفطي: جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف (المتوفى ٦٤٦)
- ٨٤ - انباه الرواة على أنباء النحاة
ط. دار الكتب المصرية ١٩٥٠
- ٨٥ - المحمدون من الشعراء واشعارهم
منشورات دار اليمامة، الرياض ١٩٧٠.
- ٨٦ - تاريخ الحكماء
ط. السعادة، القاهرة ١٣٢٦ هـ.
- القلقشندي: ابو العباس احمد (المتوفى ٨٢١)
- ٨٧ - صبح الاعشى في صناعة الانشا
ط. دار الكتب المصرية.
- ابن كثير: عماد الدين ابو الفداء اسماعيل (المتوفى ٧٧٤)
- ٨٨ - البداية والنهاية
مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٥٨ هـ.
- المرزباني: ابو عبيد الله محمد (المتوفى ٣٨٤)

٨٩ - الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء
المطبعة السلفية، مصر ١٣٤٣ هـ.

المرزوقي: ابو علي احمد بن محمد (المتوفى ٤٢١)
٩٠ - شرح ديوان الحماسة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥١.

السعودي: ابو الحسن علي (المتوفى ٣٤٦)
٩١ - مروج الذهب

تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط . السعادة الثانية ١٩٤٨.

ابن المعتز: ابو العباس عبد الله (المتوفى ٢٩٦)

٩٢ - طبقات الشعراء المحدثين

ط . دار المعارف ١٩٥٦.

ابن معد يكرب: عمرو الزبيدي (المتوفى ٢٢١)
٩٣ - ديوانه

تحقيق هاشم الطعان، مطبوعات وزارة الاعلام العراقية، سلسلة كتب التراث
(١٤).

المعري: ابو العلاء احمد بن عبد الله (المتوفى ٤٤٩)

٩٤ - شرح التنوير على سقط الزند

ط . بولاق، ١٢٨٦ هـ.

المقريزي: تقي الدين احمد بن علي (المتوفى ٨٤٥)

٩٥ - السلوك لمعرفة دول الملوك

ط . دار الكتب ١٩٣٤.

ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم (المتوفى ٧١١)

٩٦ - لسان العرب

ط . دار صادر - دار بيروت ١٩٥٥.

مهيار: ابو الحسن مهيار بن مرزويه (المتوفى ٤٢٨)

٩٧ - ديوانه

ط . دار الكتب ١٩٣٠.

الميداني: احمد بن محمد (المتوفى ٥١٨)

٩٨ - مجمع الامثال

المطبعة الخيرية ١٣١٥ هـ.

ابن النبيه: كمال الدين علي بن محمد (المتوفى ٦١٩)

٩٩ - ديوانه

المطبعة العلمية، القاهرة ١٣١٣ هـ.

ابن النديم: محمد بن اسحاق (المتوفى ٣٨٥)

١٠٠ - الفهرست

عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة.

النواجي: شمس الدين محمد (المتوفى ٨٥٩)

١٠١ - حلبة الكميت

ط . المكتبة الاعلامية ١٩٣٨.

ابو نواس: الحسن بن هاني (المتوفى ١٩٩)

١٠٢ - ديوانه

الطبعة المعتمدة هي طبعة اسكندر آصاف الامة واحدة في الفصل الخامس،

وقد اشترت الى الطبعة الاخرى في الهامش.

النويري: شهاب الدين احمد (المتوفى ٧٣٣)

١٠٣ - نهاية الارب في فنون الادب

ط . دار الكتب المصرية.

ابن هاني: محمد بن هاني الاندلسي (المتوفى ٣٦٢)

١٠٤ - شرح ديوانه

تحقيق الدكتور زاهد علي، مطبعة المعارف، مصر ١٣٥٢ هـ.

ياقوت الحموي: ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله (المتوفى ٦٢٦)

١٠٥ - معجم الادباء

عدة طبعات اشير اليها في الهوامش.

١٠٦ - معجم البلدان .

ط . السعادة، القاهرة ١٩٠٦.

ج - المراجع الحديثة:

ابراهيم انيس:

١٠٧ - دلالة الالفاظ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٣.

ادي شير:

١٠٨ - الالفاظ الفارسية المعربة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٠٨.

الآلوسي: السيد محمود شكري

١٠٩ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط . بولاق ١٣٠١ هـ.

امين: الدكتور حسين

١١٠ - تاريخ العراق في العصر السلجوقي، مطبعة الارشاد، بغداد

١٩٦٥

باشا: الدكتور عمر موسى

١١١ - الادب في بلاد الشام

الطبعة الثانية، دمشق ١٩٧٢.

بدري محمد فهد: الدكتور

١١٢ - العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٦٧.

١١٣ - تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٧٣.

بكار: يوسف حسين

١١٤ - اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، ط . دار المعارف، مصر ١٩٧١.

التونجي: الدكتور محمد

١١٥ - حول الادب في العصر السلجوقي، ط . مكتبة قورينا، بنغازي ١٩٧٤.

جب: سير هاملتون

١١٧ - المدخل في الادب العربي، ترجمة كاظم سعد الدين، مطبعة دار الجاحظ، بغداد

١٩٦٩.

جميل سعيد: الدكتور

١١٧ - تطور الخمریات في الشعر العربي، مطبعة الاعتماد، مصر ١٩٤٥.

جواد: الدكتور مصطفى بالاشتراك مع الدكتور احمد سوسة

١١٨ - دليل خارطة بغداد المفضل، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٥٨.

حسين: الدكتور محمد كامل

١١٩ - دراسات في الشعر في عصر الايوبيين، ط . دار الفكر العربي، مصر.

١٢٠ - في ادب مصر الفاطمية، سلسلة الالف كتاب ١٩٦٣.

حققي : الدكتور ممدوح

١٢١ - الابوردي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية، سلسلة عيون التراث العربي (٢).

حمزة: الدكتور عبد اللطيف

١٢٢ - ادب الحروب الصليبية، مطبعة الاعتماد، مصر ١٩٤٨.

خلوصي: الدكتور صفاء

١٢٣ - فن التقطيع الشعري والقافية، الثالثة، بيروت ١٩٦٦

خليفة: الدكتور يوسف

١٢٤ - حياة الشعر في الكوفة، ط . دار الكاتب العربي، ١٩٦٨.

الزركلي: خير الدين

١٢٥ - الاعلام الطبعة الثانية.

الزهيري: الدكتور محمود غناوي

١٢٦ - الادب في ظل بني بويه، مطبعة الامانة، القاهرة ١٩٤٩.

سرور: الدكتور محمد جمال الدين

١٢٧ - النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي ١٩٦٤

سلام: الدكتور محمد زغلول

١٢٨ - الادب في العصر الايوبي، ط . دار المعارف ١٩٦٨.

السمره: الدكتور محمود

١٢٩ - القاضي الجرجاني، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٦٦.

السوداني: مزهر عبد

١٣٠ - لحظة البرمكي الاديب الشاعر، رسالة ماجستير مقدمة الى جامعة بغداد، مكتوبة على الآلة الكاتبة ١٩٦٨.

شلش: محمد جميل

١٣١ - الحماسة في شعر الشريف الرضي، منشورات وزارة الاعلام العراقية، سلسلة الكتب الحديثة ١٩٧٤.

الشيبي: الدكتور كامل

- ١٣٢ - درّان الدوبيت في الشعر العربي، ط . دار الثقافة، بيروت ١٩٧٢ .
- ١٣٣ - الفكر الشيعي والنزعات الصوفية، منشورات مكتبة النهضة، بغداد ١٩٦٦ .
- صلاح الدين محمد الهادي : الدكتور
- ١٣٤ - اثر الصراع المذهبي بين العباسيين والفاطميين على الادب، رسالة دكتوراه مقدمة الى كلية دار العلوم، مكتوبة على الآلة الكاتبة، مكتبة جامعة القاهرة رقم ٩٧٦ رسائل جامعية .
- ضيف : الدكتور شوقي
- ١٣٥ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، الطبعة السابعة ١٩٦٩ .
- ١٣٦ - العصر العباسي الاول، ط . دار المعارف .
- الطاهر : الدكتور علي جواد
- ١٣٧ - الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي، جزءان : الجزء الاول، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٥٨ . الجزء الثاني : مطبعة العاني، بغداد ١٩٦١ .
- طه ابراهيم :
- ١٣٨ - تاريخ النقد الادبي عند العرب، منشورات دار الحكمة، بيروت .
- العامي : السيد محسن الامين
- ١٣٩ - اعيان الشيعة، ج ٣٤، مطبعة الانصاف، بيروت ١٩٥٠ .
- عبد الباقي : محمد فؤاد
- ١٤٠ - المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم، مطابع الشعب، القاهرة ١٩٥٨ .
- عبد التواب : الدكتور رمضان
- ١٤١ - لحن العامة، الطبعة الاولى ١٩٦٧ .
- العقاد : عباس محمود
- ١٤٢ - ابن الرومي حياته من شعره، الطبعة الخامسة ١٩٦٣ .
- ١٤٣ - غرونبوم : دراسات في الادب العربي، ترجمة احسان عباس وآخرين .
- بيروت ١٩٥٩، منشورات دار مكتبة الحياة .
- غويستان فون غياض : الدكتور محسن
- ١٤٤ - التشيع واثره في شعر العصر العباسي الاول، مطبعة النعمان، النجف ١٩٧٣ .

فارمر: هنري جورج

١٤٥ - تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة الدكتور حسين نصار، سلسلة الالف كتاب (٧).

ف بارتولد:

١٤٦ - تاريخ الحضارة الاسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ط . دار المعارف ١٩٦٦، الطبعة الرابعة.

فك : يوهان

١٤٧ - العربية، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، مصر ١٩٥١.

كحالة: عمر رضا

١٤٨ - معجم قبائل العرب، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٤٩.

١٤٩ - معجم المؤلفين، مطبعة الترقى، دمشق ١٩٥٧.

مبارك: الدكتور زكي

١٥٠ - المدائح النبوية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧.

مجمع اللغة العربية

١٥١ - معجم الفاظ القرآن الكريم، الطبعة الثانية، ١٩٧٠.

المصري: الدكتور ذو النون

١٥٢ - عمارة اليميني المصري، ط . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦.

معروف: الدكتور ناجي

١٥٣ - نشأة المدارس المستقلة في الاسلام، مطبعة الازهر، بغداد ١٩٦٦.

١٥٤ - مدارس واسط، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٦٦.

النشار: الدكتور علي سامي

١٥٥ - نشأة التشيع وتطوره، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٩٦٩.

وافى : الدكتور علي عبد الواحد

١٥٦ - اللغة والمجتمع، ط . عيسى البابي الحلبي ١٩٤٥.

هدارة: الدكتور محمد مصطفى

١٥٧ - اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري

ط . دار المعارف ١٩٦٣.

د - المجلات :

سومر (تصدرها مديرية الآثار العامة ببغداد)، العدد ٩٠ سنة ١٩٥٤، مقال للدكتور مصطفى جواد عن الربط البغدادية .
العربي (كانت تصدر في النجف)، السنة السابعة، مقالات الدكتور مصطفى جواد عن أدب القرن الخامس - السادس .
مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد ٤٣، مقالات الاستاذ عبد الله كنون عن ادب الفقهاء .

(الفهرست)

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الفصل الاول- دراسة الحياة السياسية والاجتماعية	
والثقافية في العراق في القرن السادس	٩
الحياة السياسية	١١
الحياة الاجتماعية	١٨
١- اثر السلاجقة	١٨
٢- العيارون	٢٠
٣- القبائل العراقية	٢٢
أ- المزيدون	٢٢
ب- المنتفق	٢٤
ج- خفاجة	٢٥
٤- فساد الجهاز الاداري	٢٧
الحياة الثقافية	٢٩
حركة التأليف	٣١
المدارس	٣٥
المساجد والجوامع	٣٧
الربط	٣٩
الفصل الثاني- شعراء محافظون	٣٩
الاتجاه المحافظ	٤٥
شعراء محافظون	٤٦
أ- شيوخ المحافظين	٤٧
ج- شعر الطبقة الحاكمة	٧٤

٥٩	ب- محافظون مجددون
٧٦	١- الفراغ
٧٧	٢- السجن والاعتقال
٧٨	٣- التغرب والحنين الى الوطن
٧٩	د- شعر العلماء
٨٢	١- نقد الحكام وتعريتهم
٨٣	٢- كثرة التعليل
٨٣	٣- استعمال الالفاظ والاصطلاحات العلمية
٨٤	٤- الغربة والحنين الى الوطن
٨٥	٥- الاحاجي والغاز والمعارضات
٨٧	الفصل الثالث- الشعر المحافظ . اشهر اغراضه
٨٩	١- المدح
٩٠	عوامل أثرت في المدح
٩٥	المدح بين التطور والجمود
١٠٣	عيوب المدح
١٠٩	الهجاء
١١١	ضروب المهجوين
١١١	١- كبار موظفي الدولة
١١٥	٢- هجاء اصحاب الحرف
١١٦	٣ - هجاء المدن
١١٨	الهجاء بين اللفظ والمعنى
١٢٤	٣- الغزل والنسيب
١٢٧	١- الغزل المغنى
١٢٩	٢- امشاج من الغزل
١٣١	خصائص الغزل
١٣١	١- غلبة التقليد عليه
١٣٧	٢- قلة التجديد
١٤٥	٤- الرثاء
١٤٧	ضربا الرثاء
١٤٧	١- رثاء الاهل والاقارب

١٤٨	٢- رثاء الاباعد
١٥٧	الفصل الرابع : الاتجاه الديني
١٦٠	١- الدين والسياسة
١٦١	أ- بين المسلمين والصليبيين
١٦٩	ب- بين العباسيين والفاطميين
١٧٧	مدح العباسيين بعقائد الفاطميين
١٨٨	ج- بين العباسيين والسلاجقة
١٩٣	٢- بين الفكر والدين
٢٠٢	شعر العقائد
٢٠٧	٣- الدين الصرف
٢١٢	مدح الرسول ﷺ
٢١٦	التصوف
٢٢٣	الفصل الخامس : الخمر والغزل بالمذكر والمجون
٢٢٥	١ - شعر الخمر
٢٣٤	هل من جديد في شعر الخمر؟
٢٤٨	ضربا الشعر الخمري
٢٤٩	١ - مقدمات المدائح
٢٥٢	٢ - الخمريات المستقلة
٢٥٧	٢ - الغزل بالمذكر
٢٦٢	ضربان من الغزل بالمذكر
٢٦٣	مقدمات المدائح
٢٦٧	غزل مستقل
٢٦٨	اسباب تورط بعض العلماء في الغزل بالمذكر
٢٧١	اتجاهان في الغزل بالمذكر
٢٧١	١ - التغزل بالسقاة
٢٧٣	٢ - التغزل بالعذار
٢٧٧	المجون والسخف
٢٨٣	الفصل السادس : الدراسة الفنية
٢٨٥	١- اللفظ والمعنى
٢٩٣	٢- الفارسية

٢٩٧	٣- اللغة
٢٩٨	أ- ركة التعابير
٣٠٢	ب- العامية
٣٠٨	٤- وجوه البلاغة العربية
٣١٢	التشبيه
٣٢٢	الاستعارة
٣٣٠	- الوان من البديع :
٣٣١	الجناس
٣٣٢	الطباق
٣٣٤	الترصيع
٣٣٤	التضمين
٣٣٥	التورية
٣٣٦	حسن التعليل
٣٣٦	حسن التخلص
٣٣٩	الخاتمة
٣٤٣	المراجع والمصادر

رقم الايداع في المكتبة الوطنية - بغداد
« ١١٤٦ لسنة ١٩٨٠ »

تصميم الغلاف : سلسييل ناجي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت